FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

رواية

عباس معروفي

سيمفونية الموتى

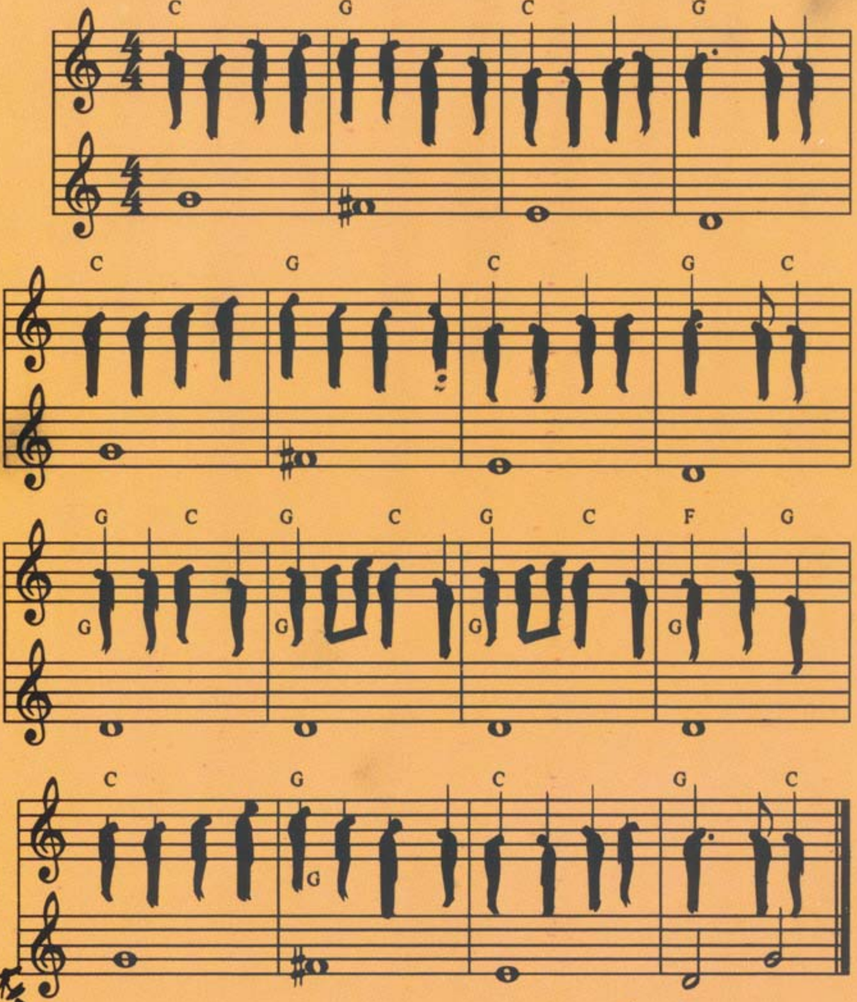

ترجمها عن الفارسية: أحمد موسى

المتوسط

عباس معروفي

سيمفونية الموتى

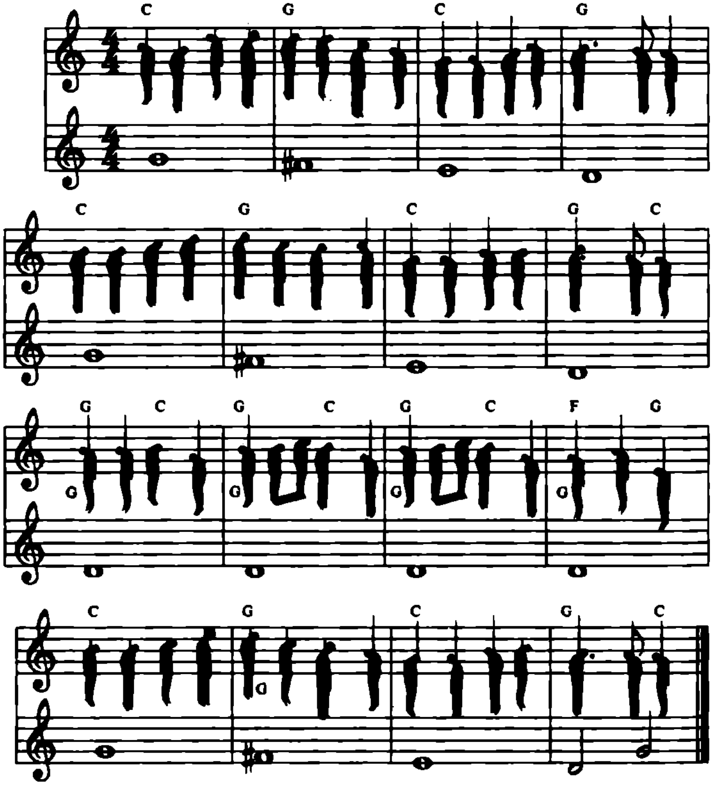

المتوسط

ترجمها عن الفارسية: أحمد موسى

حقوق نسخ الترجمة © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

سمفونی مردگان لـ "عبّاس معروفي"

Arabic translation copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: عبّاس معروفي / المترجم: أحمد موسى / عنوان الكتاب: سيمفونية الموتى

الطبعة الأولى: ٢٠١٨.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-37-6

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

صدرت هذه الرواية عن دور نشر مختلفة في إيران.

والطبعة المُعتمَدَة في هذه الترجمة صدرت عن دار قِقنوس للنشر بطهران، الطبعة الحادية عشرة، ٢٠٠٧.

[وَاتْـلُ عَلَيْهِـمْ نَبَـأَ ابْنَـيْ آدَمَ بِالْحَـقِّ إِذْ قَرَّبَـا قُرْبَانـاً
فَتُقُبِّـلَ مِـن أَحَدِهِمَـا وَلَـمْ يُتَقَبَّلْ مِـنَ الآخَـرِ قَـالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَـالَ إِنَّمَـا يَتَقَبَّـلُ اللّـهُ مِـنَ الْمُتَّقِـينَ (٢٧) لَـئِن بَسَـطتَ
إِلَيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِـي مَـا أَنَـاْ بِبَاسِـطٍ يَـدِيَ إِلَيْـكَ لَأَقْتُلَـكَ
إِنِّـي أَخَـافُ اللّـهَ رَبَّ الْعَالَمِـينَ (٢٨) إِنِّـي أُرِيـدُ أَن تَبُـوءَ
بِإِثْمِـي وَإِثْمِـكَ فَتَكُـونَ مِـنْ أَصْحَـابِ النَّـارِ وَذَلِـكَ جَزَاء
الظَّالِمِـينَ (٢٩) فَطَوَّعَـتْ لَـهُ نَفْسُـهُ قَتْـلَ أَخِيـهِ فَقَتَلَـهُ
فَأَصْبَـحَ مِـنَ الْخَاسِرِيـنَ (٣٠) فَبَعَـثَ اللّـهُ غُرَابًـا يَبْحَـثُ
فِي الأَرْضِ لِيُرِيَـهُ كَيْـفَ يُـوَارِي سَـوْءَةَ أَخِيـهِ قَـالَ يَـا وَيْلَتَا
أَعَجَـزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْلَ هَــذَا الْغُـرَابِ فَأُوَارِيَ سَـوْءَةَ أَخِي
فَأَصْبَـحَ مِـنَ النَّادِمِـينَ]

سورة المائدة، الآيات: ٢٧-٣١

الحركة الأولى

-١-

كان ثمّة دخان لطيف يتدافع من تحت الأسقف المقُبّبة لأروقة خان تجّار المكسّرات، وينبعث خارجاً من فوهته الأمامية. أسفل الخان، انشغل بضعة حمّالين بإحراق الخشب داخل برميل. وكانوا، أحياناً، لمّا يجرؤون على إخراج أيديهم من تحت البطّانية، يكسرون حبّات البزر. خلفهم، في مكان يشبه متاهة، انهمك ثلاثة أشخاص في قلي البزر في صفائح نحاسية كبيرة. كان الدخان يختلط بالبخار، فيتساقط الثلج بكثافة.

كانت الفوانيس جميعها متّقدة، بما في ذلك القناديل النفطية، وكان الخان يبدو من بعيد أشبه ما يكون بقرية غارقة في الضباب. في الناحية اليمنى من الدهليز في دكّان "معتبر" للمكسّرات، جلس إلى الطاولة رجلان يستأنسان بدفء القنديل النفطي الموضوع عليها: "أورهان أورخاني"، وإلى جانبه "إياز الضابط".

كان إياز الضابط يقصد الدكّان، كل خميس، ويجلس على أريكة كبيرة، يضع رجلَيْه على كرسي صغير، ويُجفّف عَرَقَ جبينه باستمرار، صيفاً وشتاءً، وحين لا يعثر على كرسي كبير في المتناول، يجلس على كيس البزر، ويقول: "كيف لي أن أجلس على كرسي صغير بهذا الهيكل الضخم، آآ؟!".

كان بمقدوره، لو أراد، أن يرفع الأب، بكل أبّهته وعَظَمَته، بأصبعَيْن اثنَيْن، ويُعلّقه في كلاليب السقف. كان ذا وجهٍ مكتنز وضخم ورأسٍ صغير،

وعلى خدّه الأيسر نَدبة، انكمشت الآن كسائر وجهه. كان يشتري مقداراً من الفستق، ورغم إلحاحهم عليه بألا يدفع ثمنه، ما كان ينقاد. يستخرج نوى الفستق، ويصفّفها فوق الطاولة جنباً إلى جنب، ثمّ يُفرغها، دفعة واحدة، داخل بلعومه. آنئذٍ كان يتوجّب على أورهان أن يُحضر له كوبَ ماء بارداً.

كان الوالد يحبّه كثيراً، لأنه كان ضابط الأمن الأقدم في المدينة، ولأنه، أيضاً، كان يعلم أشياء كثيرة. واسع الاطّلاع وشرقُ العالم وغربه في قبضة يده. كان الوالد يقول: "إنه ليس إنساناً عادياً". وفي ليلة العيد، يرسل إلى بيته عشرة أو اثنَي عشر كيلو من المكسّرات. كان يصرف له راتبه كل أسبوع. ورغم مضي سنوات على وفاة الوالد إلا أن أورهان يحترم، إلى اليوم، هذا الموعد الأسبوعي.

في الجهة الأخرى، خلف مبسط العرض كان عاملان شابّان، معتمرَيْن قبّعة مُسدلَيْن ياقة معطفَيْهما خلف أذنَيْهما وواضعَيْن أيديهما في الجيب، يتهامسان، مثل إياز وأورهان، في هدوء وأناة.

اندفع إياز: "ساندتك مثل الأسد".

لم يدرِ أورهان ماذا يفعل، كان متردّداً، فقال: "أنحفر حفرة نقع فيها؟"

- إنِه الموضوع.

- ماذا لو تسرَّبَ الخبر؟

- لا ينبغي أن يتسرّب، يجب أن تكون ذكياً.

انغمس أورهان، هنيهة، في التفكير، ثمّ خطف نظرة إلى إياز:

- مثل يُوسُف؟

- وهل علم أحد بشيء؟ انقضت سنوات، ولم تحدث أية مشكلة.

- سمعتُهم بأذنيّ، يقولون: قاتل أخيه!

تأجّج إياز صارخاً "تبّاً لهم من حثالة". ثمّ خفض صوته: "الناس يغتابون الله أيضاً".

- عزيزي إياز، هذه بئر من الويلات، هل أنزل إلى القاع برأسي؟

- أخبرني فقط، هل كنتُ صديقاً لوالدكَ؟ أم لا؟

- هذا كله صحيح، لكن...

قاطعه إياز: "أنتَ تُذكِّرني بوالدكَ، كان ثرثاراً".

مسح أورهان بيده على صلعته، وزلّف وجهه أكثر ناحية القنديل النفطي، وقال:

- أنا لستُ ثرثاراً، لديّ الجرأة للقيام بأيّ عمل.

- سألتَني ماذا أفعل بهذه الفاجرة؟ قلتُ لكَ طلِّقْهَا. هل خسرتَ شيئاً؟ والآن تسألني ماذا أفعل بهذا الوغد؟ أقول لكَ اقضِ عليه. إذا ظهرتْ ابنتُه غداً، فأنتَ لستَ الرابح، سترى ذات يوم فتاة شقراء تسأل عن دكّان أبيها.

لزم أورهان الصمت.

تابع إياز: "طالما وصل الأمر إلى هذا الحدّ، لا تتأخّر أكثر، انطلق الآن".

ردّ أورهان: "أفي هذه العاصفة الثلجية؟ إلى أين أذهب؟"، ثمّ لمح خارجاً.

تساقطت الثلوج بكثرة حتّى إن الناس، بعد مرور سنوات، سينعتون هذه السنة بالسوداء. زحف نصف الناس إلى مثواهم، والنصف الآخر أُرغم على التعايش مع الصقيع والبرد. كان الثلج قد رهن الجميع. لفّ الزقاقَ والشارع صمتٌ رهيب. وضرب الصقيع أنابيب المياه، فتجمّدت. تعطّلت السّيّارات، فما عادت محرّكاتها تدور. تراكمت في الشوارع أكوام من الثلوج. كان العمّال قد جرفوا الأرصفة، لكنْ، ما يزال أمامهم على الأرض نصف متر من تساقطات الليل متراكماً.

أما في الأزقة الضّيّقة، فقد غطّى الثلج حتّى مداخل البيوت وأبوابها، فحفر الناس من الأسفل أنفاقاً، يعبرون من القنوات المتّصلة بكل أريحية وراحة بال. هل كان بلاءً نزل علينا؟ ربّما. لقد توالت مواسم شتاء كثيرة، وولّت، وتساقطت الكثير من الثلوج، لكنْ، لا أحد يتذكّر مثل هذا الثلج. أما الغربان، فقد فتحت المدينة، واحتلّ كلَّ شجرة عددٌ منها.

كانت الغربان تقيم مطمئنّة في البيوت، فوق الدرابزين وشبابيك الشرفات، تطير هنا وهناك. أما أحد المنازل، بجدرانه العالية وأفاريزه المتدلّية ونوافذه ذات الدفّتَيْن، طواه النسيان تحت الثلج، فانتفخت أسقف حجراته العلوية، وسكنت، لسنوات طويلة، رائحة العفن والنتانة طابقه السفلي من دون أن يدخله أحد، أو يوقد به مصباحاً، أو على الأقلّ، يجرف الثلوج المتراكمة في السطح، ويرميها إلى الأسفل. زجاج مصابيح البوّابة انكسر هو الآخر.

انصرم زمان كانت الأمّ تستخلص الدقيق من الأوساخ، فتعجنه، وتطبخه في تنّور، توسّط المطبخ، فترتفع من الموقد أعمدة الدخان الممزوجة برائحة الخبز الزكية والخشب المحترق. حين كانت تُخرِجُ الخبز من الفرن، تلفّ

ستّة أقراص في منديل، وتبعث بها إلى العمّ صابر. يستقل آيدين وأورهان عربة، تجرّها خمسة أحصنة مسرعين إلى بيت العمّ صابر، ويرجعان، وقد ملأت زوجته جيوبهما بالأطعمة الطّيّبة.

مضى زمان كان الأب، حين يصعد السلالم يمسك بالدرابزين اللولبية، ويعدّ إلى واحد وعشرين، هناك ينزع قبّعته، ويُعلّقها على الشمّاعة، يخلع معطفه، ويرجّه، ثمّ يعلّقه، ويمسح سرواله بمنديل، ولا يُعلّقه، بل يمدّه تحت فراشه، حتّى إذا ارتداه صباحاً، بدا أملس بلا ثنيّات، كأنه كُوي بالمكواة.

وكانت أخت تُدعى "آيدا"، تراها إمّا خلف السلالم أو في المطبخ أو في حجرة التخزين، تصارع آلام الروماتيزم.

والآن، في صمت الغرف وبقايا صقيعها لم يعد هناك أورهان حتّى يزحف تحت بطّانية قذرة، ويخيّل إليه أن بمقدوره النوم مستريحاً. مات الجميع. وهذا آخرهم.

قال: "يجب التخلّص من هذا بأيّ وجه كان".

قال إياز: "إذنْ، ماذا تنتظر؟"

- أين؟

- كما العادة، في مقهى شورابي.

- أفي هذه العاصفة الثلجية؟

- أنتَ لم تأتِ من السعودية. الطفل في أردبيل يُولَد مع الثلج. على فكرة، ربمّا يكون قد مات.

- كلاّ، أعلم أنه على قيد الحياة.

- كيف تعلم؟ كيف يكون حياً بعد مرور عشرة أيّام؟

قال أورهان جازماً:

- آيدين ما يزال حياً. لا أصدّق أنه مات. علمتُ بالأمس أن له بنتاً عمرها خمس عشرة سنة. وعرفتُ أن بطاقة هويّته بأيديهم. لو كان حياً، فسيكون أمامنا غداً ألف مُدّع، إياز!".

- إذنْ، اذهبْ. وأنا سأسندُ ظهركَ مثل الأسد. لن يحدثَ أيّ شيء، لا تنظرْ إلى شيخوختي، ما زلتُ أنا إياز...الضابط...

أصاخ أورهان سَمْعَهُ إلى صوت المصباح الخافت، وراح يفكّر في البنت الشقراء ذات الخمسة عشر ربيعاً، وأنها سوف تأتي يوماً ما.

أمال إياز رأسه، وحملق في وجه أورهان: "أخي، هيّا، تحرّكْ!".

كان أورهان غارقاً في الصمت حين أردف إياز: "لو كنتُ أنا محلّ المرحوم والدكَ، لاصطحبت آيدين إلى الحدود في تلك السنين التي اغترّ وتشاعر فيها، وجعلتْه يُغادر".

قال أورهان: "أبي، أبي، كان أبي يهابه".

- وهل تخاف أنتَ أيضاً؟

- كلاّ، أنا لا أخاف. قلبي لا يطاوعني.

- لو ذهبتَ الأسبوع الماضي، لما كنتَ الآن مهموماً. على المرء أن

يقول: ماء، ثمّ يشربه، ويقول روح، ثمّ يزهقها. وإن لم يفعل، فإنه هالكٌ، لا محالة.

وضع قبّعته على رأسه، ثمّ استوى واقفاً، عقد أزرار معطفه من الأسفل إلى الأعلى، بترتيب ونظام، وقال بنبرة جادّة، كأنه يخاطب خادماً: "ماذا ستفعل؟".

انتبه أورهان من غفلته، واعتدل برأسه، وقال: "سوف أذهب".

فضرب إياز بقدمه على الأرض: "هيّا، انهضْ، مثلي، تحرّكْ". ثمّ ذهب.

نسي أخْذَ مستحقّاته الأسبوعية، أو لربمّا لم يُرِدْ أخذها وترك أورهان سادراً في حيرته. ويا لها من وحدة غريبة تعتري الإنسان، وتسحره! ظلّ متكدّراً محتاراً كجبل، لكنْ، هل كان ممكناً البقاء؟

بعد مرور لحظات، وبالضبط على الساعة الثانية زوالاً، لم يستطع أورهان، جرياً على العادة، تقييدَ حساب الدفتر اليومي في السجلّ العامّ، رغم أنه كان يريد إقفال الحساب. عَدّ نقود الدَّخْل، وبالُه مضطرب مُشوَّش، ثمّ أودعَهَا جيب سرواله. وضع الدفاتر في إطار المعداد، ونسي إدخالها في دُرج الطاولة، وإقفال بابها. بيد أنه ما كان ينسى قبّعته، كانت لا تفارق رأسه صيفاً وشتاءً. في أثناء العمل، يضعها على الطاولة، ويأخذها عند الانصراف. ثبّتَهَا على رأسه، ثمّ أقفل أزرارَ المعطف. جال بناظرَيْه في الدكّان، ومن دون أن يُلزِم العمّال بشيء، قال: "أنتُم طلقاء".

انتظر حتّى جمع العمّال أواني طعامهم، وانصرفوا. وفي لحظة، أحسّ أن عليه القيام بشيء، فنظر إلى ما حوله، وعَصَر على ذهنه غير أنه لم يتذكّر. أطفأ الريح القنديل النفطي، فخرج من الغرفة. أحْكَمَ وَضْعَ أقفال الباب من أعلى وأسفل، وراقبَ جيّداً الجهات والأماكن كلها.

توجّه صوب واجهة الخان، فأخرج ورقة نقدية من فئة خمسة تومان(*)، ووضعها في راحة المتسوّلة "مارتا" التي كانت منزوية في ركن الدهليز. خاطبها: هل انتابتْكَ قشعريرة؟

ردّت العجوز: "البرد قارسٌ جدّاً"، ثمّ أدخلت يدها بسرعة تحت برقعها، وقالت: "أعطاكَ اللهُ البركةَ".

عاد أورهان، فرمق الحمّالين أسفل الخان يحرقون الخشب داخل برميل. كان الدخان قد وارى المكان كله. أشار بيده إلى رُزَم الفستق والبزر تحت الأسقف، وقال لإسمايول:

- أيّها الحمقى، عابدو النار! ستحرقون هذا الخان.

ودونما انتظار لجواب، مضى من أمام صفّ بزر نوّار الشمس المحمّر تحت الأسقف، وأمرَّ يده على الأكياس، وغير قاصد إسمايول، خاطبه: "انتبه أيضاً للدكّان". بعد ذلك عرّج إلى الناحية اليسرى صوب رُزم الفستق التي كانت مُنضَّدة فوق بعضها إلى قاع السقف، وكان يُفترَض أن تُحمَل اليوم أو غداً إلى صغار التجّار، وكان من المحتّم رجوع نقودها قبل العيد. مرّر يده أيضاً على بطن أكياس الفستق، ومرّة أخرى ألقى نظرة نحو أسفل الخان. أحنى الحمّالون، الذين كانوا قد سحبوا طرف قبّعاتهم إلى أسفل، رؤوسهم تحية لأورهان. كان التعب قد نال منه، وعلت عينَيْه أمارات الإرهاق. سلك بأناة من أمام دهليز الخان، وسمع: "السلام عليكم، آغا أورهان". كره أن ينظر، فردّ: "وعليكم" كائناً مَنْ كان.

لم يكن يعرفهم، ولم تكن له حاجة بمعرفتهم، كانوا يمرّون كما يمرّ الريح

*) وحدة نقدية إيرانية أُلغيت، وبقي اسمها يُطلق على كل عشرة من الريال الحالي.

من منبت الأذن. كان الأب يقول: "إذا وصل الريح إلى حافّة قبّعتكَ، فإنه ينزعها، فكنْ محترساً!".

آنذاك، كان الوقت ملائماً والوالد يستطيب النوم في مصطبة البيت فوق ما يمكن تخيُّله. وليلاً كانت السماء زرقاء، وكان ممكناً رؤية أحلام وردية. وصوت غسل الأمّ وآيدا الأواني في المطبخ يُسمَع حتّى آخر الليل. أما آيدين، فكان يظلّ متنقّلاً من ركن إلى آخر حتّى ينام الجميع، ثمّ يفتح كتابه في الغرفة، ويشرع بالقراءة. أحياناً، كان يُخيَّل إليّ أنه يلتهم أوراق الكتاب التهاماً. وفي الأخير، تسبّبت له الكُتُب في متاعب. كان صوت رفرفة رموشه وتفكيره يصل من تلك الغرفة إلى آخر القبو، بينما القطط تموء من فوق جدار الباحة الطويل.

سأله الوالد: "آيدين، ماذا تقرأ؟".

أكيد أنه كان يراجع دروسه حين أجابه: "أنا أدرس، أبي".

- ادرُسْ حتّى أرى إلى أين يمكنكَ الوصول!

كان قد وصل إلى الشارع. ضرب برجله بقوّة حتّى لا يبقى الثلج عالقاً على جزمته. كانت حبّات البرتقال المتعفّن تطفو فوق سطح الماء، ثمّ تغطس والماء يجري بسرعة والسماء قد أضحت، تماماً، سحابة دكناء. توقّف أورهان، ونظر إلى أسفل الخان، حيث باعة المكسّرات. كان متردّداً، لا يدري ما يفعل. أعمال الغرفة، وزبائن المساء، هذا كله في واد، لكن غياب "سوجي" لعشرة أيّام كان يُعذِّبه أيضاً. منذ الصباح وهو في صراع مع نفسه وتجاذُب: أيذهب أم لا؟ ومنذ ليلة أمس حتّى. وهل يستطيع أن يبقى؟ ليلاً، لمّا كانت قَدَمَاه تطأ ذلك البيت الكبير البارد، كانت همهمة

السنوات الخالية تستحيل حائطاً، وتلتزم السكون، وتتحوّل إلى صنوبرة، تنتصب واقفة وسط الساحة، ثمّ تغدو باباً، يظلّ مقفلاً. كانت الهمهمة البعيدة تلوح في صورة "يُوسُف" كقطعة لحم بعينَيْن جاحظَتَيْن محملقَتَيْن. لو كُبِّل آيدين في البيت، لكان كافياً أن أنادي: "أين أنتَ سوجي؟" مرتدياً معطفاً طويلاً ولافّاً رقبته بشال ومعتمراً قبّعة الوالد القديمة، يزحف من تلك الحفرة كخنزير، ويعلن عن حضوره من دون أدنى صوت. ويغمغم: "لا تُكبِّلني بالسلسلة، أورهان!"

قلتُ: "لا تقلْ أورهان، بل قلْ أخي، وسيّدي". وصفعتُه تحت شحمة أذنه صفعة، أطارت القبّعة من على رأسه. فترُغمني قبّعة والدي القديمة على حفْظ مشاعري. أحياناً، كنتُ أودّ صفعه أو تكبيله بالسلاسل إلى شبّاك الشرفة العلوية، لكنْ، يمنعني وجهه المفترّ بابتسامة من تحت تلك القبّعة الشاحبة. ماذا عساي أن أفعل؟ قالت أمّي: "أنتَ عديم الإحساس!" قلتُ: "بل عندي". لو كنتِ مكاني، لوصلتْ روحُكِ إلى حلقومكِ، وما كانت قَدَمَاكِ لتطأا منزلاً، اخضرّ ماء حوضه، وغطّت أوراق الصنوبر ساحته، وسكن البرد خلف نوافذ غرفه المغبرّة، وتوارت أفران مطبخه ومواقده وسط الأزبال والقمامة. لا أحد يُحرِّك ساكناً، أو يطوّح بقطة صغيرة مُلقاة في مجرى الماء في أعلى الساحة منذ شهرَيْن. لم يبالِ أحد بإيقاد المدفآت. والآجرّ يتساقط من أعلى الأسوار واحدة تلو الأخرى، وكأن البرد التهم البناية. لا أحد يكنس، ولا أثر لضيف. زجاجات مصابيح بوّابة البيت هي الأخرى تكسّرت. تبدو الغرف الخالية من الأثاث كبيرة وصدى أقدام المرء يطرق الدماغ. وصوت النفس يتموّج حتّى إنكَ لا تجرؤ على السعال مجدّداً، كأنه يدور في دماغكَ ويُدوِّركَ معه. وحدها غربان الصنوبر التي تبقّت من كل تلك الضوضاء والهمهمة وذاك الصخب،

أضحت سمينة وطاعنة في السّنّ، تتبادل الأماكن فوق الأغصان وهي تضجّ نعيقاً بصوتها الممزّق: "ثلج، ثلج".

رمق أشجار القبو اليابسة؛ كان الثلج قد أمال الأغصان، بحيث ستنكسر، لا محالة، في التساقطات المقبلة. كان الناس يشبهون الأشجار، تعلو دائماً أكتافهم ثلوجٌ ثقيلة، تبقى إلى الربيع المقبل. الأسوأ أن الإنسان يموت مرّة واحدة فقط. وهذه الميتة كانت فاجعة مؤلمة.

دسّ يده في جيب المعطف، فلمس في أسفله طرّة حبل، كان قد حمله منذ الصباح. ثمّ غاص وسط الناس وهو مُنتش بطمأنينة في أعماقه. على مفترق الطُرُق، أزال الإطار الفضّيّ من الساعة التي كان يتأبّطها، ودونما أن يعرف التوقيت، ألقى نظرة عليها كما العادة، ثمّ أغلقها ثانية، ووضعها في الجيب. كانت الأمّ تقول إن آيدين يضيع، يجب التفكير بأمره. فتسألني: أين تلك الفتاة الأرمينية؟ ربمّا بسببها. قلتُ لها: "كلاّ، أمّي، إنه الإرهاق. سآخذه إلى ويلادره(*)، ونستنشق هواء نقياً، وسيشعر كلانا بتحسّن".

لمّا كان مارّاً من أمام الساعاتي "درستكار" تبادر إلى ذهنه أن يتوقّف للحظة، كي يتفرّج على واجهة المحلّ. قد يكون مرّ من أمامها آلاف المرّات، طوال حياته، لكنه الآن نظر بدقّة، خاصّة إلى ساعة السّيّد درستكار الكبيرة والمُدوِّرة. كانت مصنوعة من خشب البلّوط وذات عقارب خشبية مصنوعة من خشب توسكا، ولها صفحة بارزة منقوشة وزجاجة دائرية محدودبة، من جنس زجاج الواجهة. كانت عشرة أو اثنتا عشرة ساعة طاولة معروضة، على الدوام، بين الزجاجة وصفحة الساعة. كانت غاية في الروعة والجمال، صنعها السّيّد درستكار قبل عدّة سنوات، لكنها توقّفت عن العمل منذ

*) اسم قرية في محافظة أردبيل بإيران.

أزْيَدَ من ثلاثين عاماً، يعني في الوقت الذي توقّف فيه قلب السّيّد درستكار عن النبض فجأة، أو ربمّا حين توقّفت الساعة عن العمل توقّف معها قلبه عن الخفقان. الحادثتان كانتا مترامنتَيْن، مع فرق وحيد هو أن قلب السّيّد درستكار عاد للعمل، لكن الساعة ظلّت معطّلة، ولم تستطع مهارته وخبرته إعادتها للدوران. توقّفت العقارب عند الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم صيفي حارّ من العام ١٩٤٦م. واليوم، وبعد مرور هذه السنين كلها لاتزال نائمة بينما السّيّد درستكار مُنكَبٌّ، خلف جهاز، يُصلح عجلة ساعة معصم، وتفكيره كله مُنصبٌّ على اليوم الذي سيُشغّل فيه تلك الساعة. بعد ذلك، أثبت للجميع، بإصداره رنّة الساعة الجميل، أن الإنسان بمقدوره تحقيق كل شيء يريده شريطة ألا تُعانده الطبيعة أو تُحاربه. هذا الكلام كان الأب قد قاله لأورهان، وكان هو يقوله للآخرين. حين دارت عقارب الساعة، استلقى السّيّد درستكار على أرضية دكّانه بلا أية أمنيّة، يتقلّب منتظراً تسليم الروح إلى بارئها.

كان الوالد يقول: "يا لها من تعاسة ما قبلها تعاسة!".

فتردّ عليه الأمّ: "لا تُكرِّر كلام هذا المجنون".

واليوم، وقد خارت قواي كلها، لم أعد أطيق أي شيء. ما إن أفتح باب البيت حتّى ينصرف عنّي أولئك الأحياء كلهم، بكل ما يملكون من شغب وهمهمة. فيحتضنني على عتبة الباب صمتٌ مخيف، يصعد بي السلالم، ويُرقِدُني تحت ملحفة قذرة ميتة على فراش خشبي، وحتّى أشعر بالدفء، يكون منتصف الليل قد حلّ، مع ذلك التعب وتلك الأوهام والوساوس كلها.

في العصاري، وفي طريق عودتي من الدكّان، كنتُ أمرّ على غرفة الأمّ. كانت تجترّ أنفاسها الأخيرة، ولم يبق منها سوى العَظْم والجِلْد، لو أخذتَ منها الأنف، لانتهى أمرها. تنبعث من غرفتها، ذات الأبواب الثلاثة في الطابق السفلي، رائحة العجز والضعف، رائحة نفَسها المسلول الذي يبقى جاثماً على حافّة كأس الشاي، فيهبط معه إلى الحلقوم. جلستُ إلى جانب سريرها، وحاولتُ ألا تقع عيناي على عينَيْها. قلتُ: "أهلاً، أمّي"، وداعبتُ يَدَيْها بجفاء، ومن دون أي إحساس.

سمّرت عينَيْها من عمق التجاويف والشقوق نحو السقف، وبدت كأعشاش السنونوات المعلّقة على جذوع الأشجار الهرمة. سألتني: "أين ولدي آيدين؟".

طرفت عيناي محملقَتَيْن إلى الورود التي في السّجّاد، أو ربّما طَرَفَتَا، ولم تُحملقا في أي شيء، أنا أيضاً كنتُ ولدها أورهان، ولم أكن. لم يكن مجدياً فعل شيء، قبلتُ ألاّ أكون. قلتُ لها: "إنه هنا في الأطراف، أمّي".

أدارت رأسها، للحظة، وسحبتْ يدها من يدي، ثمّ شبّكت عظام أصابعها البيضاء على حافّة السرير، وقالت: "أحضره إلى هنا حالاً. أتفهم ما أقول؟ إذا لم تستطع الاعتناء به، فكبِّله هنا أمامي".

قلتُ لها: "من أين أُحضره؟".

اعتدلَتْ في جلستها، كانت بين الفينة والأخرى تُبدي قوّة جديدة، تبدو عجيبة، كأن لها خزّاناً، لم أكن أدري مكانه. صاحت عليّ: "أنتَ ظالم"، وانهمرت دموعها على وجهها الشاحب، ثمّ أردفت: "أنتَ تشبه مَنْ؟ أين ولدي آيدين؟". كان صوتها يُذكِّر بصوت تمزيق القماش.

قلتُ لها: "لا تُخرِّبي أعصابكِ، والدتي، سأجده هذه الليلة، أعدكِ".

قالت: "أتدري أين آيدين الآن؟".

كان خلف مدرسة أنو شيروان العادل يتفرّج على عزف صبي ذي اثني عشرة أو ثلاث عشرة سنة على قيثارة. ولعابه قد سال. قلتُ له: "أنتَ، ماذا تفعل هنا، أيّها الغول؟".

قال: "جئتُ، هكذا من دون سبب".

قلتُ: "ارتكبتَ حماقة، هذه آخر مرّة، هيّا، انطلق".

كانت الأمّ ترتعش قلقة متوتّرة. أمسكَت بكُمٍّ معطفي، وشدَّتْني بقوّة: "أين هو؟ أأنت أصمّ؟".

قلتُ لها: "إنه، حتماً، هنا أو هناك، خلف المدرسة أو المقهى أو بستان أخوان.

والآن هدأ روعها، لكن صوتها ما يزال يرتعش: "أَهو صبيّ؟ عمره ٢٩ سنة".

قلتُ لها: "وهل أرتضي السوء لأخي؟ كلاّ، بالطبع. لمَ تلومينني على كل شيء؟".

استلقت على فراشها، وسحبت الملحفة حتّى صدرها، وأحكمت شدّها بيَدَيْها، كأنها تعصرني، وقالت: "أنا لا أعرف ما الذي فعلتَ به. لكني آمركَ بالاعتناء به جيّداً. ليست لديه انتظارات منكَ. يأكل لقمة، ويطرق رأسه".

قلتُ لها: "أمّي، أستحلفكِ بالله ألا تقولي. لا تُعيدي هذا الكلام".

ثمّ أجهشتُ. فقالت: "إذنْ، بعْ مكاناً، واصرفْ على أخيكَ من نصيبه، خذْه إلى مكان ما".

أردتُ إخراج وصيّة الوالد من جيب المعطف، وقراءتها بصوت عال، لكنْ، هل كان ممكناً؟ قلتُ: "أعدكِ، أمّي، أن آخذه إلى طهران، أو إلى الخارج، وأصرف عليه. دعي الأمور تأخذ مجراها، أعدكِ".

كان الوالد قد كتب في وصيّته ألا أحد من الورثة له الحقّ مادام حياً أن يُفوِّت جميع ما يملك، أو جزءاً منه لشخص آخر. ماذا كانت تَرِكتُهُ؟ ستّ قسمات من دكّان المكسّرات، وجانبٌ من دهليز خان تجّار المكسّرات، وبيت مسكون، مساحته أربعمائة وثمانين متراً في شارع صفي الدِّين الأردبيلي، زنقة اللورد، يحمل الرَّقْم ثلاثة. وقطعة من بستان مشجّر، مساحته ألف ومائتان وأربعون متراً، تقع شمال قرية سرداب. وكان قد أعطى بستان مشمش للوالدة، كي لا يبقى مَديناً لها بشيء.

وضعت منديلها على عينَيْها، وجفّفت خَدَّيْها المبتَلَّيْن، وقالت في وجوم: "لا أريد أن يموت غريباً في الجبال أو وسط الصحراء، هذا كل ما في الأمر..".

- أمّي، لا تقولي هذا الكلام.

- ماذا سيحلّ به بعد موتي؟

وطفقت تشهق بكاء. انتصبتُ واقفاً، وناولتُها كوب ماء، ساعدتُها على الجلوس. تجرّعت قطرة ماء، وأسندت ظهرها على مخدّة السرير. كان صمتها يقتل المرء، تنظر وعيناها تطرفان. يحتار المرء في أمره، أيبقى أم يذهب؟ . لكنْ، خلال الأيّام الأخيرة ما عادت تجزع كما كانت في السابق.

واليوم، بعد مرور ما يقارب سنة، نسيت الفاجعة، وبدأت تتعوّد، ولم يعد لها ناي، تصيح فيه، ولا روحٌ لتقف قبالة الإنسان، وتصرخ عليه:

- ماذا فعلتَ به، يا عديم الشرف؟

- أنا لا أكنُّ له ضغينة، أمّي.

فتتأجّج وتصيح وتضرب الصدر بقبضة اليد، وتسكب الدموع على الخدود، أو تجمعها في آماقها. وتدعو عليّ: "أذلّكَ الله!".

- لا تدعي عليّ، أمّي!

- كيف لا أدعو عليكَ، أيّها الكافر؟ أتحسب أن خاتمتكَ ستكون خيراً؟ أنتَ...

وشيئاً فشيئاً، تبرد حرارة مأتمها.

ذات يوم، حينما عدتُ مع آيدين من الخان، طبخت لنا دلمة شهية. أكلنا، ثمّ تحدّثتُ عن سفري إلى مدينة آستارا(*) ، وقلتُ من الأفضل أن نذهب أنا وآيدين ذات مرّة لمشاهدة الغابات الكثيفة، حيث أعناق أجمات أشجار توت العلّيق تشرئبّ فوق الأبواب والمنازل المُطلّة على الطريق، وزبد البحر يتراءى، وهناك فتاة تبلغ تسعين ربيعاً ستتزوج آيدين بعد أن تُقوّم أخلاقه. بعدها، غلب النعاس آيدين، فاستلقى فاقداً وعيه، ساعدتْني أمّي في حمله إلى غرفة في القبو.

قالت له: "آيدين، أتحبُّ أن ترجع إلى الغرفة السابقة؟ مع أورهان؟".

---

*) مدينة صغيرة تقع على ساحل بحر قزوين في الجزء الشرقي من محافظة أردبيل، وهي آخر مدينة في شمال إيران قبل الوصول إلى جمهورية أذربيجان.

قال: "لمَ خطّطتُما مجدّداً؟".

طرحناه على الفراش، وفي الطريق إلى السلالم، قالت: "ليتَه لا يستيقظ أبداً. لم أعد أستطيع رؤيته على هذه الحال، أين ذهب ذلك الوقار كله، وتلك الشخصية، و ذلك الحنان كله؟" وأجهشت ثانية، وجرّت نفسها إلى الأعلى مستندة على درابزين السلالم.

قلتُ لها: "لمَ تتعبين نفسكِ، أمّي؟ أتعتقدين أنه يتعذّب؟ قسماً بالله، إنه أكثر واحد في الدنيا ينعم بالراحة؛ لا هَمّ يحمله، ولا يشغل باله شاغل، لا فاتورة ولا كمبيالة. مرتاح البال".

كانت تسبقني بدرجَتيْن في السلالم، ولم تكد شفتاي تفترّ بضحكة حتّى عاجلتْني بصفعة تحت أذني، أرتْني نجوم السماء: "عديم الشرف!"، "على مَنْ تضحك؟".

كان صوتها بارداً وجافّاً شبيهاً بصوت تحكُّم الوالد. دار بخلدي أن الجدران تتشقّق، ويصل السقفَ تشقُّقها. كانت المرحلة الأولى من الطفولة قد انقضت. وبعد موت آيدا غدت حياتنا تغوص في مهاوي الثلوج، لتصل إلى وادي الموت، تماماً مثلَ شهر دجنبر، ولم يكن بمقدور أحد أن يحول دون ذلك، أو لم يكن يريد ذلك. وكأنّ القدر أرادني، منذ الصغر، أن أحمل على أكتافي هذا الأخ الهزيل البليد، وأعبر به مرتفعاً عالياً، غير أنه كان يُبدي ترفعّاً، لم أقدر أنا ولا حتّى والدي، على فعل شيء إزاءه.

كان يُخرّب سيارتي الحديدية، ويُخرِج أحشاءها، يصعد على الجدار، ويهزأ بالجميع. وما كنتُ أستطيع إقناع أبي وأمّي بإيقافه عند حدّه، فأُجبر حينئذ على رطم رأسي بالجدران، أضرب وأعربد حتّى يأتي مَنْ يساندني.

ذات يوم، أخذ درّاجتي من جنب الجدار، وبدأ يدور حول حوض الماء، يدور بسرعة تُدوِّخ المرء، مثل زنبور تجرّع مبيداً. ما ذنبي أنا، إذ لم يشتر له أبي درّاجة؟ صحتُ عليه من الشرفة: "انزلْ عن درّاجتي". لكنّه دار بسرعة أكثر، وهو يقهقه. ذهبتُ إلى الساحة، وجلستُ في ركن، وشرعتُ أضرب رأسي على الأرض حتّى أُغمي عليّ.

لم يُحرِّك أبي الذي كان يأكل بطّيخة في الشرفة ساكناً قبل أن أهمَّ بضرب رأسي، لكنْ، عندما رأى الدم يُخضّل وجهي نزل. أمسك بآيدين، وضربه على قفاه، وآلمه بشدّة حتّى لم يقوَ على تحريك رأسه لثلاثة أيّام. كانت أمّنا تلعننا، وتسبّنا، أنا وأبي. تلك الوالدة الحنون التي أغدقت كامل حبّها على آيدين، ولم تتفوّه، ولا مرّة واحدة، بـ"ولدي أورهان".

كانوا يُرسلوننا نهاراً إلى أرجاء مصنع المراوح لتزجية الوقت، فنذهب إلى خندق كبير جدّاً أسفل الزقاق، حيث يقع المصنع المحاط بالأسلاك الشائكة. كانت الريح تتلاعب بدفّتَي بابه الخشبي باستمرار. وثمّة طريق غير معبّدة منحدرة تصل إلى الساحة الأمامية المحاذية لبنايات المصنع.

وقفنا هناك ننظر، كما العادة، من الزقاق نحو الأسفل. كان المصنع يُصدر ضجيجاً قوياً، ويصنع مروحات بسرعة عجيبة، بينما نحن قابعان في زاوية، ننظر إلى الأجزاء المنكسرة المتكوِّمة على بعضها في جانب من الساحة.

قلتُ له: "هيّا، لنذهب".

ردّ قائلاً: "لنر مَنْ يصل أوّلاً".

ركضنا، واجترنا المنحدر. كانت محفظتنا اليدوية ثقيلة، ومع كل حركة

أو منعرج تصدر ضوضاء، وصوت المصنع كان صاخباً، بحيث يتمنّى المرء لو يصيح بأعلى صوته. لم نكن نسمع صوت بعضنا. شعرتُ بحَرّ شديد، فأسرعت الركض غير أني ما كنتُ ألحق بآيدين.

كانت محفظته تتموج في الهواء عند محاذاة صدري. ومع أني كنتُ أعلم أن رسغَي قَدَمَيّ يلتويان، تراخيتُ. وفجأة تدحرجتُ على رأسي، وتمددتُ أرضاً. فخرج السّيّد فرمان من حجرته الزجاجية، وأوقفني، كان الدمع والدم قد غطّيا وجهي بالكامل، ورجلاي تؤلمانني، والوهن قد تمكّن من جسدي كله. وبصعوبة بالغة، كنت أرمق آيدين سعيداً متحمّساً، يلتقط فراشات حمراء جميلة.

أبرحه الوالد ضرباً بالحزام، وعالجت أمّي جراح محيّاي. "إلى متى الشغب؟ لمَ هذه الفتنة كلها؟" صاح عليه الوالد وهو يضرب.

ليلتها لم تستطع أمّي تضميد جرح أنفي، وإيقاف نزيفه. لوّى الأب أذن آيدين: "لقد كسرتَ عَظْمَ أنفه، أتفهم؟".

ردّ آيدين: "لم أكسْره ، لا تتّهمني جزافاً!".

لم يُمهله الأب، وصفعه تحت شحمة أذنه. فقال آيدين: "أنا أتألّم لأنفه المنكسر، لكنْ، ما ذنبي؟".

في اليوم الموالي أحضر الوالد الطبيب، لكنْ، من دون جدوى. واليوم أبلغ أربعين سنة، ولا يزال أحد طَرَفيَ أنفي يكبر الآخر بضعفَيْن.

أخرج ساعة جيبه، وألقى نظرة إليها، أقفل غطاءها، ثمّ أعادها إلى الجيب. كان لا يزال متردّداً، أيذهب أم لا؟ كان يخشى أن يُدركه الليل.

حينذاك، وكالمعتاد، جمع طَرَفيَ معطفه، وأرسلهما من دون أن يُقفل الأزرار، دسّ يده في جيب المعطف، فلمس طرف الحبل المفتول. سرت على وجهه حماسة دافئة، وانتعشت شرايينه بطمأنينة خاصّة. كلاًّ، كان عليه أن يتمّ المهمّة. حينئذ سيقولون "قاتل". مَنْ كان يجرؤ على قول "قاتل أخيه"؟ أمّاه، أين أنتِ كي ترمي تهمتكِ بدون وجه حقّ، وتتحملي ذنبي، وتخفّفي وزري. لكنْ، قسماً بالله، في مصلحته. هو ميت منذ سنوات، أينما كان تفوح منه رائحة الموت: في مقهى شورابي أو على حافّة السبخة، كأنه تمثال متخشّب، ظلّ قابعاً في ماضيه. لم ينسَ بعدُ درس الحرب العالمية الثانية.

نظر إلى الناس، كان الجميع منشغلاً بحاله؛ عجوز نحيفة تهمّ بعبور الطريق، لكنها تعجز، وشاب منشغل بوضع عينَيْن من فحم لرجل ثلجي ضخم، ومجموعة شدّت رؤوسها بأكياس بلاستيكية، وامرأة متلفّعة بشادور(*) أسود، تشبه قمة جبل دماوند(**) من كثافة الثلج الذي تساقط على رأسها. أكيد أنها قدمت من إحدى القرى المجاورة. وأورهان مستمرّ في سيره. تجذبه قوّة إلى خارج المدينة صوب مقهى شورابي، يحثّ الخطو متثاقلاً غارقاً في ذاته، وكأنه رجل عاطل يتمشّى على الثلج لإذابة شحم بدنه.

لم أستطع تمالك نفسي، ولم أرد، كما العادة، أكتم آلامي في قلبي، فصحتُ: "أيّها المعتوه، أنا أفنيتُ روحي في هذه الخربة اثنتا عشرة سنة، ماذا تفهم أنتَ؟".

قال: "وهل أنا بيدق حتّى تُحرّكني كما شئتَ؟".

---

*) غطاء رأس وبدن للنساء كالعباءة.

**) جبل يقع في شمال إيران، وسط سلسلة جبال البرز، وهو أعلى جبل في إيران والشرق الأوسط، يبلغ ارتفاعه ٥٦٧٠ متراً.

قلتُ: "مَنْ هو أكبر منكَ، يجب يأتمر بأمري، أيّها الصبي النّجّار".

أشار كالعادة بسبّابته: "أنتَ وأنا. للأسف فأنا مُرغَم، ولا أستطيع ترك هذه التعاسة والذهاب إلى نجارتي. ضميري....".

قلتُ له: "لا تتحدّثْ عن شيء هو ليس لكَ".

أحسّ بالتلاشي، فأطبق عينَيْه، وجلس على كرسي. كنتُ أعلم نقطة ضعفه حتّى أبطل مفعوله. قلتُ له: "كان والدي يعلم أيّ كائن أنتَ، لم يكن عَبَثاً، لو سمّاكَ ديّوثاً".

قال: "إذا كنتَ تظنّ أنكَ ، بإهاناتكَ هذه، سوف تقصيني، فأنتَ واهمٌ. أنا مُضطرّ للمجيء إلى هنا، بسبب وصيّة الوالد. لن أبيعَ حصّتي، ولا مالَ لديّ، كي أشتري حصّتكَ".

قلتُ: "أتَهْذي؟ سوف أُصلحُكَ". استويتُ واقفاً، وهممتُ بضربه، لأقوّم عَظْمة من عظامه، فإذا بإسمايول يتدخّل. أقفل باب الدكّان، وقال: "اشتبكتُما ثانية، أووف!"

جلستُ إلى المنضدة، وتابع إسمايول: "يا سيّد أورهان، مهما حصل، فهو الأكبر، أووف!".

ضربتُ على المنضدة بقوّة، وقلتُ: "الحمار أكبر منّي أيضاً، لكنْ، هل احترامه واجب؟!".

فقال إسمايول "ما شاء الله، أنتما أخوان!"

قلتُ: "اللعنة على هذه الأخوّة"، ثمّ رمقتُ آيدين يخرج من الغرفة.

كنتُ أشفق عليه، لكنْ، لم أستطع إقناعه أنه لا يجب أن يشتري من دون إذن منّي. اشترى أربعين كيساً من الفستق، لو انتظر قليلاً، كنتُ سأبتاع الكيلو الواحد بخمس أو سبع وحتّى عشر تومان أقلّ من السعر. كان موسم تسوُّقي أواسط فصل الصيف، حيث الجوّ يزداد حَرّاً، ولم يكن هو يدري.

وفي الليل، كان لنا شوط آخر في محضر الوالدة. كانت تقول: "حسن، حسن، راجعا حسابكما، واقتسما ما تملكان بالسوية، جهازان اثنان وميزانان اثنان، كأنهما دكّانان. وليأخذ كلّ واحد حصّته".

آثرتُ السكوت، وبتُّ ساهراً إلى الصباح أفكّر كيف يمكن إتمام العمل. لقد سدّت أمّي الأبواب كلها في وجهي، تقول نصف نصف، ميزانان وجهازان. هل كان أحد يسأل عن أحوالي، حينها؟ حتّى زبائننا، رغم علمهم بأقدميّتي في العمل لاثنتي عشرة سنة، كانوا يتعاملون مباشرة مع الأخ، يعتقدون أنني أعمل تحت إمرته. والأسوأ من ذلك، تلك النسوة التعيسات، ما إن يشاهدنَ طلعته حتّى تسقط ألجمةُ قلوبهنّ؛ يُقبلنَ متلفّعات بشوادرهنّ ومرتديات سراويلهنّ الفضفاضة، وبمُجرّد أن تقع أعينهنّ عليه، ينسينَ كل شيء، فيستسلمنَ له: "يا للخسارة، لأنكَ لم تتزوّج!". لم يكنّ يعرفنَ شيئاً عن خليلته.

قلتُ له: "ما شأنكَ بالفتيات الأرمينيات؟"

قال: " لا تتدخَّلْ في ما لا يعنيكَ".

كان مساءً بئيساً، قصدتُ المقبرة، وجلستُ على رأس قبر والدي، وأجهشتُ بالبكاء. قلتُ له: "والدي، ممّ صنعتَني، وممّ صنعتَهُ؟ لماذا لا تنظر النساء تجاهي، لماذا يتجهّمنَ في وجهي؟ لماذا سقطت أجمل فتاة في الدنيا في شراك عشق أخي؟ عجيننا واحد، أليس كذلك؟". لكن

الوالد يظلّ ساكتاً ساكناً، لم يعد يقوى حتّى على السعال. كانت الغربان متسمّرة فوق الأغصان، وريح قوية تحمل الأتربة إلى عينَيّ.

قلتُ له: " إذنْ، كيف ستعقدُ قرانكَ، أيّها المسلم؟".

قال: "لا تتدخّلْ أنتَ". ثمّ ملأ حقيبة الفتاة بالفستق، وأقفلها، وقال: "سورمه، يجب أن تذهبي إلى العربة". لمّا كنتُ أنظر إلى تلك الأعين الذهبية الملتمسة أموت غيظاً. كان النوم يجافيني في الليل. قلتُ في سرّي: "قسماً بالله، لأقضي عليكَ، يا أخي".

ومرّت مدّة والأمّ تسأل: "أين ولدي آيدين؟". هو الشخص ذاته الذي كان يلبس بذلة قطنية مع ربطة عنق، بوجه حليق وشارب قصير، تنتشي برؤيته، وتبتسم له قائلة: "الإنسان محظوظ". والآن تسأل: "أين ولدي آيدين؟". كيف لم تكوني تعرفين أين ولدكِ آيدين؟ إمّا في مقهى شورابي أو خلف جدران بستان أخوان الخرب. وأحياناً تجده في أسفل الخان مجتمعاً بالحمّالين حول برميل يكسر البزر، أو هم يكسرون وهو يُحدِّثهم عن أخبار الحرب العالمية الثانية.

قالت: "اعثرْ عليه أينما كان".

لكنْ، هذه المرّة لم تعد الأمّ حاضرة. كانت راقدة في مقبرة المدينة القديمة إلى جانب الوالد، تحت أكوام التراب والثلج.

كان الزقاق بارداً وقذراً. والضباب والدخان يبتلعان فضاءات المدينة جميعها. عاد أورهان، للحظة، ونظر خلفه، وكأن ذلك الدخان المتصاعد كله من خان تجّار المكسّرات يتحرّك، وينبعث خارجاً من فوهة الدهليز. فكّر أورهان، لهُنيهة، أن يرجع ويأمرهم بإخماده أو يتخلّصوا منه بأيّة طريقة.

إنه الشتاء، هنا الشتاء على الدوام، لكنه حزم نفسه، وانطلق في طريقه على الرصيف مبتعداً عن المدينة. انتهت تلك الضربات على الجسد والكتف، ولم تعد تلك العربات اليدوية تصطدم بأرجله، ولم تعد تلك الرصاصات الثلجية تنطلق من يد صبي. لطالما كان يطأطئ الرأس رغم ثقل بدنه، فتتمدّد رصاصة ثلج على قفاه، شاء أم أبى.

هطلت ثلوج كثيفة، وكانت تريد أن تهطل أكثر. سحب أورهان نفسه إلى شارع، علّه يظفر بعربة أو سيّارة تُقلّه. لكن الثلج كان قد سلب المدينة أمنها، لا سيّارة ولا عجلة، ولا وسيلة تُوصِلُه. لم تمرّ من وسط الثلوج إلا سيّارة جيب واحدة تابعة لدائرة الأمن، مكبّلة عجلاتها بالسلاسل، تركت خلفها خطَّيْن متوازِيَيْن في شكل ثعبان. ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هو يبتعد عن مقهى شورابي مسير نصف ساعة راكباً، لكنه لو واصل السير راجلاً، وفي هذه الثلوج، فلن يصلَ إلا والليل قد أرخى سدوله. هذا أفضل، كان قلّما يعاني في الظلمة. ولا ينتبه لوجوده أحد. لكنْ، هل كان ممكناً الرجوع؟ ماذا لو بقي؟ كلاّ. كان سيصل في الموعد. ولنفرض أن الليل داهمه أو الذئاب افترستْه، أو لم تفترسْه. إلى جهنّم! قطعَ شارع الشيخ صفي حتّى آخره. انعطف يساراً، ثمّ واصل السير. كان صوت الأمّ الجافّ والصدئ يصل دوماً إلى مسامعه مع أزيز نَفَسها المتهدّج. ماذا لو لم يعثر على هذا المجنون؟ كلا، سيجده بالتأكيد، في تلك المقهى، "سأجده أمّي، أعدكِ.." هذه المرّة وعد نفسه، للمرّة الأخيرة.

كلّما ابتعد عن المدينة أكثر، لفّت رأسه جلبة أكبر. أقبل على فلاة منبسطة بيضاء، لا يجرؤ كائن على اجتيازها. لا أحد يركض فوق الثلج، ولا عجوزاً يتمدّد على الأرض، حتّى الحمّالون لم يعودوا يحرقون الأخشاب في

البراميل الحلبية. كانت جنبات السماء زرقاء داكنة، وغرابٌ فوق أغصان آخر شجرة يابسة في المدينة، ينعق: "ثلج، ثلج".

سحب ياقته إلى أعلى، وانطلق يدبّ وسط البرّيّة المجمّدة كسلحفاة متهدّمة. بخطواته المعتادة، يمشي الهوينى، يتحرّك كالمعتاد غير متعجّل، يعرف جيّداً طريقه، لأنه طالما اجتازها. عثر عليه في مقهى شورابي:

- ماذا تفعل هنا؟ أيّها الغول!

ردّ آيدين: "سيّدي، أنا أيضاً لديّ قلب، أشتهي كوب شاي".

- اكتمْ نَفَسَكَ. احتسِ شايكَ في الخان.

ثنى آيدين الجريدة التي بيده بشكل مرتّب، ودسّها في جيبه الجانبي وقال: "يشرب المرء الشاي الذي يليق بتبوّله".

- قاتلكَ الله، أتعبتَني.

كان الجوّ مشمساً، والخرفان ترعى فوق التلّة، وصوت المدينة يُسمَع من بعيد. أومأت إليه أن يصعد إلى السّيّارة. قال: "لا". قلتُ: "ماذا تعني بلا؟".

قال: "أخي، تعال بنا نتسكّع راجلَيْن. في السّيّارة يغالبني رأسي، فأزبد".

قلتُ له: "إلى جهنّم!" وصفعتُه على خدّه. لم يكن لديّ خيار. لابد أن ينالَ جزاءه. لم يكن ممكناً تَرْكُهُ في ذلك الموقف العصيب. اندفع مُشْد عبّاس، صاحب المقهى، قائلاً: "مهما فعل، فإنه إنسان، وهو أكبر منكَ". وصفعتُهُ ثانية. زحف إلى مقعدِ السّيّارة الخلفي. أنزلتُه أمام الخان، وكان يرتعد ويرغد وسواد عينَيْه قد تلاشى. مدّدوه في الدهليز على الأرض،

وأخذ أحد الحمّالين، أظنّه إسمايول، سفوداً، ورسم على الأرض، حول محيط جسده خطّاً. فقلتُ له: "لمَ تفعل هذا، أيّها الصبي؟".

قال: "كي يبقى مرضه في الأرض".

قلتُ: "آآ، مثل فُطْري". فتذكّرت الفُطْرَ الذي كان على رقبتي. فُطْرٌ يابس بحجم قطعة نقدية. رسمتُ حوله خطّاً بقلم أزرق. وبعد بضعة أيّام، يبس واندثر، ولم يظهر له أثر بعد ذلك.

انبرى أحد الحمّالين لغَسْل وجه آيدين، وجلس آخر فوق عضلات رجله. وبعد أن سكبوا ماء بارداً على رأسه، هبّ جالساً كَمَنْ طار فزعاً من نومه. أخرج من ثنية سرواله جريدة قديمة، وشرع يقرأ: "وفي اليوم الموالي أخبروه: أيّها الأمير، لقد انتقع وجه الملكة، حسرة على فراقكَ، وقريباً سيُرفرف طائر الحياة مغادراً بستانها. تعالَ، وألقِ نظرة على القابعين في الرماد. قال: اسألوا النارنج، ماذا أفعل؟ سألوها، فتفتّحت شجرة النارنج، ورست رشيقة القوام تلك على ساحل بحر الأمير، وفطرت فؤاده...."

انتبهتُ إلى أن الحمّالين ينظرون إليّ بسخرية، وكأني أنا مَنْ أحكي هذه التُّرَّهَات. قلتُ: "حسن، لا تُثرثر كثيراً، هيّا، اذهبْ، واكسرِ البزرَ".

قال: "بزر، بزر، ما أكثر البزر؟ أخاه! لماذا ليل نهار ولأربع وعشرين ساعة؟". كان لا يزال يسيل رغوة من فمه، وثيابه مبلّلة بالكامل. أخرج جريدة أخرى من أحد جنبَي سرواله وقصد أسفل الخان. كان يسير وكأنه يُمرِّغ ظهري بالتراب، ولا أدري لمَ ليل نهار وأربعاً وعشرين ساعة. كان يفكر في هذا كله، وجيبه مملوء بالأوراق والجرائد. يمسك بالجريدة، وينقل أخبار الحرب بحذافيرها: "حسب الأرقام المُعلَنة، فقد ساق آلافَ القتلى والمعدومين الألمان لتجرُّع

طَعمْ الهزيمة. يعتقد المراقبون أن شخصاً واحداً فقط ما يزال على قيد الحياة في ألمانيا، هو هتلر. لكن هذا كذب، عشيقته أيضاً مازالت حَيّة".

ومن دون أن يقرأها، يتابع سطور الجريدة بعينه، بكل جدّيّة. كان الغرباء يظنّون أنه يقرأ، لكنه يستظهر من حفْظه. منغمساً في عالم أسراره في قوقعة صلبة، هادئاً شارداً، لا يُكدّر صفوه نغصٌ أو ألمٌ أو مشقّةٌ، يُزجّي يومه من الصباح إلى الليل في ارتشاف قدح من حساء اللبن. ينادونه: "سوجي، لقد برد حساؤكَ. تعالَ، كُلْ، ثمّ تابع القراءة".

- اتركوني الآن، ما قرأتُهُ كان فقط المكتوب على الغلاف، ماذا لو قرأتُ الرسالة نفسها؟

كان أورهان يغوص في الثلج إلى ركبَتَيْه متابعاً سيره. أطراف معطفه متدلّية على الثلج. يا لها من وحدة غريبة! كان الوالد يعتقد أن المرء يكون وحيداً حينما يختلي بنفسه في دكّانه. ولم يكن يعلم أن الإنسان يحسّ بالوحدة فقط في أوج الفوضى والازدحام.

قلتُ: "والدي أنا عملتُ وشقيتُ لسنوات. لا تساوي بين الجميع. أنا حملتُ أكياس الفستق هذه على ظهري، ونزلت بها أربعين درجاً".

قال: "أنا لا أريد لكما السوء".

حين حصل آيدين على الدبلوم، قالت أمّي: "أورهان، تعالَ، لتأكل حلويات دبلوم آيدين".

قلتُ لها: "يدي في الحلو والمالح من الصباح إلى الليل. ماذا فعل؟ هل فتح قمة دماوند؟".

فأجابت أمّي: "لماذا لم تستطع أنتَ؟".

لم أستطع، ولم يكن لديّ جواب. لكن الوالد قال: "درس أورهان حتّى الصّفّ الثامن. إنه يعرف القراءة والكتابة، وهذا يكفيه". كنتُ أجيد القراءة والكتابة.

كانت تلك السنة، سنة الغربان. غربان سود أغارت على المدينة. كانت الأمّ في كل يوم تعثر على ثلاث أو أربع قطع صابون. فتقول: "حرام، لا أعلم صاحب هذه؟"

فيجيبها الوالد: "إنها مائدة السماء، اغسلي، ونظِّفي".

كانت البطّانيات تبرق بياضاً على حبال الغسيل، وقد سرت في وسطها ألوان زرقاء باردة ومتداخلة. لو أمطرت، لذهب ماء المطر بألوانها. لم تكن بطّانياتنا دوماً بيضاء ناصعة، بل كانت مُخلّلة ببضعة خطوط زرقاء فاتحة. كان آيدين ينام إلى جانب النافذة، يضع شمعداناته على حافّتها، ويسكب عليها، كالعادة، ما تبقّى من ماء الكأس. قلتُ: "لمَ لا أنام أنا بجانب النافذة؟".

ردّت أمّي: "أنتَ تستطيع من مكانكَ أن تنظرَ إلى السماء".

كنتُ أُبصرها، غربان تطير وتُغيِّر مواقعها على أغصان الصنوبر والصِّنَّار، ودخان غرفتنا يتصاعد، ليلفّها، حينئذ تنعق: "ثلج، ثلج".

لمّا ابتعد كثيراً عن المدينة، ازداد غمّاً، واضطربت حاله، فقال مخاطباً نفسه لهُنَيْهَة: "هل أعود؟ كلاّ". ثلوج جديدة غطّت القديمة. نظر أورهان خلفه، فإذا بالمدينة غارقة في الضباب والبرد، تشبه جريدة قديمة مملوءة

بالكلام والصوت والسكوت والأموات والأحياء، غير أن صوتها لا يُسمَع. الجريدة التي لم تسنح الفرصة أبداً لأورهان كي يقرأها. تجاوز ذلك، والآن قلبه يخفق. بتعلُّمه الناقص، وبيت شبيه ببيت الموتى، وملاذ للنوم، وأخ أحمق، وأعزّاء تحت التراب. لا زوجة، ولا ولد، ولا حبّ، ولا أحد يُوصِله إلى الغسّال عند الموت. كانت أصابعه تستغيث داخل الجيب من هول البرد، وأسفل قَدَمه لم يعد يحسّ بالجليد. نزع قبّعته، ومرّر يَدَيْه على صلعته، فدبّت موجة برد في دفء رأسه. فجأة توقّف. فحص المكان جيّداً. لم يلمح سوى بياض ملتفٍّ على المرتفعات، فاستشعر الوحدة أكثر فأكثر. حينئذ، أدرك جيّداً لحظات أخيه آيدين. انتابتْه الحيرة، وأحسّ بخُلُوّ مكان آيدين خلال هذه الأيّام العشرة. آيدين المجنون، الإنسان المسالم الذي أنهكَهُ. لا يعرف ماذا سيفعل به، لو ظفر به. لكن قلبه كان يتوق لرؤيته. ربّما في وجوده أسفل الخان أمل وثقة. في الليل، حين أنام في الغرفة العلوية أعرف أن هناك مَنْ ينام في القبو؛ إنسان مثقّف مُعطَّل.

قال: "الأحمق هو مَنْ يُمزِّق الورقة النقدية من المنتصف". لا يتذكّر أنه في تلك الأوقات كان إنساناً، له قامته وهامته. تتعقّبه ألف عين وعين. يُعاشر ابنة بائع القهوة الأرميني. لا أدري أيّ نوع من العشرة كانت بينهما. يربض، مساءً، قبالة متجر "سورن" لبيع القهوة ينتظر وينتظر. قلتُ له: "هل أنتَ متعلّق بها؟".

- مَنْ؟ .

- أَدْخِلْها إلى دين الإسلام، وخُذْها. حَلِّلْهَا. يقولون إن الأرمن مُتودِّدون كثيراً.

أدركتُ فيما بعد أن جنون الحبّ أصابه. لمّا كان يعود مساءً، يشغل نفسه بقراءة كتاب، ويظلّ إلى منتصف الليل، إمّا يقرأ أو يكتب. كان الأب على علم بكل شيء. قلتُ له: "ماذا لو تزوّج بها؟".

قال: "سيعيش تعيساً في الدارَيْن مثل أخته آيدا. هما توأمان، ليس غريباً".

كنتُ أعرف أن الفتيات الأرمينيات ساخنات، وأن آيدين سيُحبِّلها يوماً، لكني تجلّدتُ، ولم أنبس ببنت شفة. كان يُعطِّر نفسه، ويرتدي ملابس أنيقة، ويُصفِّف شعره، ويُرتِّبه، ويضع ربطة العنق، ثمّ ينصرف. كان الأب يقول: "لجام الحضارة". أما الآن، فلم يعد يتذكّر شيئاً. انهارت أسنانه، يلبس ملابس رثّة ومُهَلْهِلَة مُستأنِساً بمكان في أسفل الخان. وجودُه مصيبةٌ، وعدمُهُ ألفُ مصيبة. الناس لا يرحمون، يتكلّمون بكلام كثير.

لا، لم يكن يريد هذا. لو أخبروه بموته دفعة واحدة، كان سيُكفِّنه، ويدفنه بشرف، يقيم له مجلس الختم، ويحيي بانتظام سابعه وأربعينيّته، وحتّى ذكراه السنوية. يُطعم سكّان المدينة جميعهم، الذين يعرفهم، والذين لا يعرفهم. يجلس بجانب المسجد، ويضع على يَدَيْه منديلاً، وينتحب، ويبكي، ويسكب الدموع حتّى يعلم الناس جميعاً أنه كان يحبّ آيدين.

ماذا عليه أن يفعل؟ رفع قَدَمَهُ. غاص في الثلج إلى ركبَتَيْه. ظلّ يعرج كبغل. لم يعد شابّاً، لم يعد يقوى على العصيان والتمرّد. تجاوز الأربعين، ويبدو في الخمسينيات من عمره. يملك بيتاً ودكّان مكسّرات في الخان وضيعة مشمش. كان الوالد يقول: "إذا اغتنى المرء، سيحسّ بالشيخوخة في أيّ عمر كان".

فأجيبه: "سوف يحسّ بالرجولة، أبي".

والآن، تهاطلت ثلوج، لم تحبسه هو فحسب، بل المدينة بأكملها. الزقاق مثلجة وموحلة، والماء فاض من المجاري، وخان المكسّرات خلاء، وفي حداد، المدينة ماتت تحت الثلج.

كان حمّالو الخان مشغولين بإحراق الخشب في برميل، وقد تحلّقوا حوله يُكسّرون البزر، فينتشر دخان الخشب الجافّ والرطب في الدهليز. بينما سوجي بيده جريدة يقرؤها، واضعاً على رأسه طاقية، يسحبها للأسفل، ويُعقِّد خيوطها. بقامته السامقة، ووجهه التاتاري النحيف، وبعينَيْه السوداوَيْن الجميلتَيْن يترنّح بين الحمّالين. سألتْني زوجتي: "أين آيدين؟".

كان آيدين في حياة الوالد يرتدي بذلة بنّيّة، يُصلح شاربه، ويحمل بيده كتابَيْن. ويقول: "أبي، أنا لا أطمع في مالكَ وثروتكَ، أنا ذاهب".

فيردّ الأب: "إذا لم يأتِ، فسوف يلتمسُ". كان كلاهما عنيداً ولاجاً. كان الوالد يُحاصره بالمسائل الأخلاقية: "آيدين، لمَ تؤخِّر الصلاة؟".

- سهرتُ لوقت متأخّر.

- لماذا، عزيزي؟

- كنتُ أدرس.

يزمجر الأب: "هل تفدي الصلاة برقصاتكَ". كان صوته بارداً كالسوط: "الليلة ليلة جمعة، توضّؤوا، واقرؤوا سورة من القرآن".

ركضتُ بسرعة صوب المغسلة، توضّأتُ، وصلّيتُ صلاةً طويلةً في غرفة والدي في الطابق العلوي. سألني: "أين ذهب عديم الغيرة ذاك؟".

ردّت الأمّ: "في غرفته".

قطّب جبينه، ولم يستطع البقاء جالساً، دار دورة حول الغرفة، ثمّ أردف: "ماذا يفعل؟".

أجابت: "إنه يصلّي بالتأكيد".

- لماذا لا يصلّي هنا؟

- لا يحبّ التظاهر.

فقلتُ: "عجباً، خلتُ أنه لا يحبّ الصلاة".

قالت الوالدة: "تورا سنه نه؟" [ما دخلكَ أنتَ؟]

نطقت "سنه نه" بشكل لم أرَ أحداً، من قبل، يتحدّث التركية بهذه الطلاقة. ضحك الوالد، وقام لأداء الصلاة. فقالت لي أمّي: "مهما حصل، فهو أكبر منكَ. استحِ". كانت منفعلة، نحيفة وهائجة. كانت تعلم أن أبي، وهو يصلّي، منتبه ومتابع لكل شيء. قالت: "حين يتلفّظ أبوك بكل ما يتبادر على لسانه، ماذا أتوقّع منكَ أنتَ؟!".

بعدها ذهبتُ إلى غرفتنا. كان آيدين مستلقياً على الفراش، يطالع الأب غوريو. لم يكن والدنا يأتي إلى غرفتنا أبداً، لكنْ، ليلتها جاء، طرق الباب بضع طرقات، ثمّ دخل. قال: "ماذا تقرأ؟".

نطّ آيدين من مكانه، والكتاب بيده. ثمّ اعتدل واقفاً واضعاً يَدَيْه على صدره. كنتُ أرقب ارتعاش يَدَيْه بوضوح. قال له والدي: "قلتُ ماذا تقرأ؟" ضيّق عينَيْه، ودار حول الغرفة من المكان الذي يقف فيه.

أجاب آيدين: "الأب غوريو".

قال الوالد بهدوء: "ماذا يكون الأب غوريو هذا؟".

كان أصبع آيدين ما يزال في صفحة الكتاب، بينما بقية أصابعه ترتجف. قال: "سيرة رجل عجوز".

- مَنْ يكون؟

- الأب غوريو.

فضحكتُ. صرخ الوالد: "اصمتْ". ثمّ قال له: "هذا الأب فلان، ما عمله؟"

- يصنع الشِّعْرِيّة.

- ماذا؟

- يصنع شِعْرِيّة غريبة.

قال الأب: "وأنتَ، ما دخلكَ؟". لزم آيدين الصمت في ما كان الوالد لا يزال يتفحّص الغرفة بناظرَيْه. كان صغير الهيكل يضع على عينَيْه نظّارات مستديرة. جبهته ذات أبّهة، يجمد لها المرء في مكانه. كان آيدين يقول: "إن له أبّهة ومهابة، يجمد المرء في مكانه. لا أدري لمَ أخاف منه. ألا تخاف منه، يا أورهان؟".

فأجيبه: "كلا، الأبُ أبٌ. لا خوف منه".

كان يقول هذا حين كنّا نتسكّع أسفل المدينة، هناك حيث النسوة يغسلنَ الملابس.

قال: "هل رأيتَهُ يضحك إلى الآن؟".

قلتُ: "إنه يمزح ويضحك في الدّكّان من الصباح إلى الليل".

قال: "أنا أحبّه، لكنني أخاف منه". فنظر إلى السنونوات التي تحلّق فوق رؤوسنا. أكملت النساء غسيلهنّ، وانصرفنَ، بينما توجّهنا نحن صوب المدينة. هنّ يحملنَ لباسهنّ فوق الرؤوس، ونحن نتفرّج عليهنّ غير عابئين.

ألقى الوالد نظرة على باقي الكُتُب في الرّفّ، ثمّ استدار فجأة: "أيّها الجرو، مازلتَ تقرأ الخزعبلات؟" فانتزع منه الكتاب، ومزّقه ورقة ورقة حتّى امتلأت أرضية الغرفة بالأوراق. كان يُمزِّق وينثر ويغمغم: "لا تحضرْ هذه الأراجيف إلى بيتي". وعند الخروج، نظر إلى شارب آيدين الضئيل والمتناثر، الذي غدا اليوم يغطّي شفته العليا بالكامل، وقال: "أي مكان تريد فتحه بهذا الشارب؟".

وأنا أنظر إليهما، كنت أطرق برؤوس أصابعي على باب الغرفة، فأشار الوالد إلى يدي خلف ظهري، وصاح: "توقّف".

في تلك الليلة بالذات فصل غرفة آيدين. قال: "تحرّكي الآن، ولا تجادلي".

قالت الأمّ: "لماذا؟".

ردّ عليها: "لأنه يجب اقتلاع الأضراس المهترئة، والتخلّص منها حتّى تبقى الأخرى سليمة".

كنست الأمّ القبو على مضض وهي تتمتم: "ليلة نحس". فقال لها: "اكنسي ولا تجادلي".

فرشتْ سجّاداً، ووضعتْ فوقه سرير آيدين. كانت غرفته بعيدة عن أرضية الساحة بسبع درجات. كانت مظلمة وندية، تنبعث منها رائحة الخلّ والحموضة.

كان الأب يقول دوماً: " يجب على الإنسان أن يغتنم الفرص". لهذا السبب وضعتُ سريري في تلك الليلة بجانب الشّبّاك، وأبحرتُ في السماء، وكأني بالنجوم قد تكاثرت ودخان المدفأة تمدّد ورسم في العلياء قوساً. ويقيناً أن الغربان السوداء جلست فوق الأغصان وهي تنعق: "ثلج، ثلج".

ليلتها رأيتُ في المنام حديقة أشجارها ذهبية، وزقاقنا قد اتّسع، ومصنع المراوح بسقفه الأحمر المنحدر قد خرج من تلك الهوّة، ليتساوى مع الأرض. وأنا أدرس. ثمّ حلمتُ أنني متّ. في الصباح، لمّا قصصتُ رؤيتي على أمّي، قالت: "أنتَ طويل العمر، ولدي".

تضاعف سمك الثلج في البرّيّة. ما إن يضع قَدَمَهُ حتّى تغوص، لكنْ، في العمق تجمّدت الثلوج القديمة، وغدت جليداً. كان يشعر وكأن قَدَمَيْه حافيتان، ويحسّ بالألم في أعماق وجوده. لذلك، كان يخطو خطوات خفيفة. ورغم أنه طاف المدينة منذ الصباح بحثاً عن آيدين، وعبَر الحديقة الوطنية والمقبرة القديمة، لكنه لم يعد الآن يحسّ بالتعب، لا يضيره سوى تجمُّدِ رجلَيْه. كان ينادي من مكانه: "سوجي"، فيتلاشى صوته في الثلج، ولا يتفشّى. ومع ذلك يواصل الخَطْوَ.

ذات يوم، أحضر الوالد عدداً من كُتُب آيدين إلى الغرفة، وأخذ بين الفينة والأخرى، يتصفّحها، ولا يفهم شيئاً ممّا يقرؤه. احتفظ بالكُتُب إلى أن جاء، يوماً، إياز الضابط. قال: "جابر، شوشت بالي، ها قد جئتُ".

قال له الوالد: "هناك أمر ضروري". فأطلعَهُ على الكُتُب: "ألقِ نظرة على هذه".

أخذ إياز الضابط الكُتُب، وخطف نظرة على عناوينها، ثمّ وزنها بكفّه كتاباً كتاباً، وقال: "أين كان؟" وأغمض عيناً، وظلّ يترقّب وهو على تلك الحال.

أجابه الوالد: "لا تسألْ".

قال إياز: "أمهلْني حتّى أرى ما كُتب". ثمّ قرأ بصوت عال وبصعوبة عناوين الكُتُب: "أوديسة"، وصرف نظره صوب الأب: "أين كان؟". وبعد هُنَيْهَة، قرأ العنوان الثاني: "حديقة إبي...العمياء"، ولم يقرأ الثالث. وقال: "لمَنْ هذه الكُتُب؟".

- لآيدين..

- آيدين ولدكَ؟

تسرّب القلق إلى الأب. وقال: "نعم، آيدين ولدي".

صاح إياز: "واي واي واي".

فردّ الوالد: "كنتُ أريد أن أجعل منه نموذجاً يُحتذى به، لكني لم أستطع". مسح يده، وسأل: "أين تقع حديقة إبي العمياء؟". أجابه إياز: "هنا مربط تعاستنا".

فتساءل الوالد مجدّداً: "أين؟".

ردّ إياز: "لقد ساءت الأوضاع". وصمت لبرهة، ثمّ قرّب رأسه، وهمس له: "ألم يصلكَ أن الشيوعيّيْن بنوا حديقة خضراء، وبدؤوا يؤثّرون في

الشباب، ويستقطبونهم؟". وضع الكُتُب في مظروف، واستشاط غضباً، ثمّ انصرف بدون أن يأكل الفستق. قال إنه سيأخذ الكُتُب، ويُطلّ على مخبئه. وأوصى بأن ننتبه إلى آيدين. قال له الوالد: "لا حرمنا الله منكَ!".

عاد إياز في الحين، وأومأ برأسه قائلاً: "إذا ضحّيتُ بنفسي، ففي سبيل صداقتنا، أخي...".

وردّ الوالد: "لو لم يكن لديّ إياز، ماذا كنتُ سأفعل؟!".

جلس إلى الطاولة لهُنَيْهَة، وأطرق رأسه، ثمّ قال: "أورهان، انطلقْ".

قلتُ: "إلى أين؟".

قال: "نُلقي نظرة على البيت". كلّفَ المتعلّمين بالعمل، وأوصى بتوخّي الحذر. وضع قبّعته، وانطلقنا. لم يكن من عادته أبداً الذهاب إلى البيت في ذلك الوقت. كانت العاشرة صباحاً. أسرعنا الخُطى. لم أكن أعرف علامَ ينوي. حين وصلنا إلى البيت عاجل والدي آيدا بالسؤال: "أين آيدين؟".

امتقع وجه آيدا، وقالت وشفتاها ترتعشان إنها لا تدري. نحّاها جانباً، وهرول الوالد صوب القبو. توقّف على الدَّرَج، وصاح: "أورهان!".ركضتُ إلى الأمام، وقال: "أَخْرِجْ الكُتُب والدفاتر كلها".

نزلتُ إلى القبو، وأحضرت الكُتُب الموجودة في الكوة والدفاتر والمذكّرات والكُتُب المخبأة تحت السرير جميعها. احتضنتُها، وقصدتُ حافّة الحوض، حيث يقف أبي مشيراً بأصبعه إلى الأرض. فيما آيدا تنتحب خلف النافذة عاجزة عن القيام بأي شيء. كان غاضباً جدا حتّى إن أمّي لم تجرؤ على الظهور. أكيد أنها كانت تتابعنا من مكان ما.

قال: "أهذه الكُتُب كلها؟".

قلتُ: "أجل".

نضح أبي قطرة نفط، وأوقدتُ أنا عود ثقاب. يا لشعلة النار! ويا لتطاير الورق! كانت تشبه نزع روح إنسان كلبي الروح. تتقنطر وتتمدّد، يصير لونها ذهبياً، ثمّ يتحوّل إلى بنّيّ، وإلى أسود. حدّق الوالد في النار، وتأمّلها قليلاً، وقال: "الأب غوريو. أورهان! أليس هذا الأب غوريو؟"

نظرتُ، وإذا بالكتاب يشتعل، فقلتُ: "بلى".

قال: "ألم أُمزِّقه من قبل؟"

قلتُ: "اشتراه مرّة أخرى".

قال: "وأنا سأبيده مرّة أخرى".

بعد أن خمدتُ النار، طمسنا الرماد، وغادرنا إلى الغرفة. لكن بقعة سوداء ظلّت ماكثة على آجرّ أرضية الساحة، تبدو كحيوان أسود، سُحل بظهر المسحاة. كانت آيدا تقف خلف النافذة، ولم أكن أعرف ما الذي سيحصل بعد ذلك. قال أبي: "قُضي الأمر".

وفي الليل، لمّا رأى آيدين البقعة السوداء بجانب حوض الماء، تسمّر هناك، ثمّ اقترب، خائفاً مرتجفاً، إلى غرفة القبو. ليلتها، وعلى عكس عادته، لم يحضر لتناوُل العشاء. كنتُ أراقب من الأعلى. ذهب إلى غرفته، وأطفأ النور في الحال، وخلتُه نام. لم يكن أحد يريد حضوره على مائدة العشاء.

أبصر شورابي من بعيد، فطفق قلبه يخفق. لم يكن يدري كيف ستكون حالته حين يلاقي آيدين. إثارة هذا اللقاء وألم رجلَيْه جرّاء البرد كانا يُربكان

حساباته. زلف قليلاً، فوقع نظره على سبخة موحشة وقد غاصت ميتة تحت الثلوج. إلى جانب المزرعة، انتصب كرسيّ صخريّ كُسِيَ، هو الآخر، بالثلج. كان آيدين يقول: "كم أودّ لو أن هذه الطيور المهاجرة تطير مُيمِّمة صوب الساحل".

قلتُ له: "أيّ ساحل؟".

قال: "أترى هذه الطيور البحرية؟" إنها جلست على كرسيها الصخري شاخصة بأعينها نحو السماء.

قلتُ: "أيّ طائر؟".

قال: "ذاك المحاط عنقه بخطّ أسود هو طائر السلام"، وتابع ببصره خطّاً أسود في السماء، وابتسامة عريضة مرتسمة على وجهه.

كنتُ على مضض، ومن جهة أخرى، استودعتُ اللهَ أمانَ الدّكّان. قلتُ: "حسن، انهضْ، لنذهب".

قال: "إنها تطير بإحساس عال، أترى أورهان؟".

كان يُرهقني، وإذا لم أوقفه، يظلّ يهذي إلى الليل. قلتُ: "كفى، أيّها الحيوان".

تغيّرت ملامح وجهه، وأرسل إلي نظرة، وقال: "أنا إنسان، أبي".

قلتُ: "أجل. أنتَ إنسان، أنتَ على حقّ. والآن هيّا، قمْ".

ذات مرّة، لم يذعن، ونظر ناحية شورابي، وقال: "أردتُ أن أقول هل توافق على أن نغطس في الماء؟".

قلتُ: "انظرْ إلى الشمس تغرب، يجب أن نرجع قبل حلول الليل"، حينئذ تذكّرتُ تلك السنوات لمّا كان الوالد على قيد الحياة، وكنّا نغطس في الماء غير آبهَيْن، ولا مكترثَيْن. فيقول آيدين: "انظر أورهان، لا حيوان ولا حشرة، هذا الماء يلفظ كل شيء غريب. انظرْ هناك، كل ما يطفو على الماء من أوراق وعظام تُخرجه هذه الأمواج الصغيرة". كان يطفو على الماء وهو يتحدّث، وشعره الأسود الناصع منسدلٌ على جبهته، مع كل موجة، كان يبتعد مائة متر، ويرجع. كان الماء مالحاً ومُرّاً، وكنّا نبصقه باستمرار.

قلتُ: "أنا بردتُ، انظرْ إلى الشمس"، وأردتُ العودة إلى البيت، لكنه أبى.

رفض الانصياع، وطفق يشاهد المقهى الطينية المطلّة على شورابي.

من المؤكّد أن آيدين الآن هناك جالساً على مقعد مع جرائده وأوراقه. ذبلت أسنانه كلها، يُتأتئ الكلمات بصعوبة. يخافني ككلب، ويطيع أوامري كَحَمَل وديع.

وقفتُ خلف زجاج المقهى المضبّب. كان الفصل خريفاً، والبرد لافحاً. تفقّدتُ المكان، فإذا بآيدين متربّعاً على مقعد، يقرأ جريدة بجدّ وعناد، وهو يُحرِّك سبّابته في الهواء، وأمامه كأس فارغة. لمّا فتحتُ الباب، اهتزّ من مكانه. قلتُ: "ماذا تفعل هنا، أيّها الولد؟".

قال: "أبي، جئتُ لأسرد الأخبار".

كنتُ ألمح، بوضوح، ارتعاش يَدَيْه وجِلْد وجهه. ضحكتُ، وقلتُ: "أنا أورهان".

قال: "لا تحاول خداعي، أبي!"

قلتُ: "لمَ جئتَ إلى هنا؟".

قال: "أحسستُ بضيق شديد، واشتاقت نفسي لآيدا. لا أعرف ماذا حلّ بمجنونها. كنتُ منقبضاً جدّاً، أبي". بعدها ضيّق عينَيْه، وسألني: "هل تصدِّق أن آيدا أضرمت النار في نفسها؟".

قلتُ: "لا يجب أن تتكلّم بأي كلام خارج البيت. ما كان عليكَ أن تأتي إلى هنا".

اندفع القهوجي مُشْد عبّاس: "يا سيّد أورهان، لو رغب بالمجيء، فليأتِ، ما دخلكَ أنتَ؟".

قلتُ: "أنا مَنْ يتحمّل متاعبه، هو لا يعود من تلقاء نفسه. كلّما جاء إلى هذا المكان، عليّ أن أتعقّبه".

قال آيدين: "إلى أين سنذهب الآن؟".

قلتُ: "أمّي تسأل باستمرار أين ولدي آيدين. انهضْ، وانطلقْ. أنتَ تعلم أنها عليلة. لماذا تؤذيها وتؤذيني؟".

قال: "في النهاية، لم يسمح هؤلاء السَّفَلَة بأن تنعم أمّتنا بحكومة وطنية. أتفهم أخي؟ أتفهم؟".

قلتُ: "أجل، أفهم. هيّا، انهضْ، لنذهب". وانطلقنا. حينئذ كان آيدين قد بلغ لتوّه الثلاثين، لكن الشيب غزا صدغه. كانت الأمّ تقول: "ليس عجباً في هذا العمر، ليس عجباً!".

في الخارج، كان الجوّ صقيعاً، وإلى حين الوصول إلى المدينة، كان يُكثر الكلام، لدرجة أحار من أين تعلّم هذا كله. كان يتمتّع بذاكرة عجيبة،

ويعرف أساطير مُبهِرة. لكنه بعد برهة قال: "أخي، يقال إن هذه الثلوج مليئة بالحَجَل. لو أحضرتَ خيشاً، لجمعتُ لكَ مائة حَجَلَة".

قلتُ: "إنها لا تُثلج الآن، فصل الشتاء مازال بعيداً".

- "كلا، ألا ترى المكان مليئاً بالحَجَل، فوق ذاك الجبل".

- "طيّب، وإن يكن، ماذا تريد أن تفعل به؟".

قال: "لا أعلم". وتوقّف يتأمّل الجبال في غروب الشمس وهي تتوشّح بلون بنفسجي. كنتُ قد ضقتُ به ذرعاً والجوع قد نال منّي. قلتُ: "لا تثرثرْ، وانطلقْ، وإلا ضربتُ...".

فلا يتفوّه بكلمة. يتبعني كطفل صغير. ولَّينا ظَهْرَيْنا المقهى الطينية، وتركناها منكسرة كما كانت.

كان الجوّ حالكاً والشوق يشدّه إلى دفء المقهى. قصدها. مسح يَدَيْه ببعضهما، وأراد أن يضرب برجلَيْه الأرض،وينفخ في كفَّيْه. لكنّ ذلك كله لم يكن مُجدياً. كان يجب أن يصل إلى هنالك، وينتشي بدفء الأجواء، حيث الغلاّية وكأسا شاي، بجانبهما قطعتا سُكّر، يُنعشانه، ويزيلا تعبه. كان يرفع قَدَمَهُ، فتغوص مع كل خطوة. وقف خلف باب المقهى. وقال بهدوء: "يا للعجب!". كان الزجاج منكسراً والثلج قد زحف إلى وسط المقهى. لا غلاّية ولا أريكة ولا شيء يدلّ على الحياة. كانت أشبه ما تكون بمغسلة أموات مهجورة، نسجت آكلاتُ الجيف على جدرانها المنتنة أعشاشَها. كانت الجدران مخطّطة بقطعة فحم. والجدار فوق مبسط المقهى قد سجّه سواد الدخان حتّى السقف، في الجهة اليمنى منه، عمّ الفضاءَ ثقوب وانهيارات. وتحت الغلاّية جهاز عظمي لحيوان منزوع الرأس، يدلّ على أن الكواسر

كانت بالأعلى حين افترسه. قد يكون ذئباً اختطف ذاك الحيوان في فصل الشتاء من أمام أعين أبنائه الجوعى، وجلس على المصطبة هادئ البال، يلحس عظامه وكأنها غشيت بحلوى السوهان (*).

نظر أورهان إلى ما حوله، فلم يجد أثراً للكواسر. تراجع القهقرى. إذنْ، لأجل ماذا جاء؟ ماذا عليه أن يفعل الآن؟ فجأة سمع صوتاً. ثمّة شيء يتحرّك. أمعن النظر. إنه صوت حيوان. كانت المقهى مُوحِشة وصامتة. الآن بات يسمع بوضوح صوت حصان. صدر صوت خشن مع فتح باب الاصطبل، وتراءى في مدخله عجوز، بقبّعة خزّ فوق رأسه يبدو كلوحة قديمة. نزع أورهان، غير منتبه، قبّعته، وعصرها بكلتا يَدَيْه. أحسّ بشيء مثل الروح يصعد من رجلَيْه، ثمّ داهم سائر جسده، وخرج من رأسه. اعتصرت حلقه غصّة، وخارت ركبتاهُ، وجمدت عيناهُ. بقي على تلك الحال إلى أن تزحزح العجوز. حينها شعر بنبضات قلبه تتسارع. فاندفع قائلاً: "مَنْ أنتَ؟".

أجابه العجوز: "هذا الثلج أقعدَ الجميع".

تقدّم أورهان خطوة: "يجب أن يكون المرء قاسي القلب"، ثمّ قاس بعينَيْه قامة العجوز؛ كان يرتدي معطفاً قصيراً، ويلفّ على رجلَيْه قماشاً صوفياً أسود حتّى الركبة.

قال العجوز: "لقد عجزنا"، ثمّ سحب نفسه جانباً.

دخل أورهان إلى الاصطبل، وضرب برجله على الأرض أمام الباب، فتناثر الثلج من بوطه وأطراف معطفه. قال: "النار. النار. ألم تُوقِدْها؟" وحدّق

---

*) من أنواع الحلويات الإيرانية تُحضَّر من القمح، أشهر أنواعها يوجد في مدينة قمْ.

بالاتّجاهات جميعها. كان المكان سادراً في تلافيف الظلام، تنبعث منه روائح البهائم. ثمّ أردف: "ألم تُوقدْها؟"

كان العجوز يتفحّصه متحيّراً، ثمّ قال: "بماذا؟".

كان أورهان يرتعش، ورجلاه تؤلمانه، والبَلَل قد تسرّب إلى ملابسه الداخلية. وبصعوبة أراد أن يركّز. قال: "ألم تكن هنا مقهى؟".

جلس العجوز فوق بردعة حمار، وأجابه: "لا أعلم".

- نعم، كانت هنا مقهى، منذ أن مرض مُشْد عبّاس، صلُّوا على هذا المكان صلاة الجنازة. مَنْ كان المستأجر؟

ألقى نظرة إلى ما حوله؛ حشر حصان وحماران رؤوسهم داخل مخلاة، وتزاحموا في مكان ضيّق في قعر الاصطبل. حمل العجوز بردعة أحد الحمارَيْن، وأعدّها للجلوس، وشرع يدخّن السيجارة تلو الأخرى.

قال له أورهان: "ألا تذهب إلى المدينة؟".

أجابه العجوز بصوت مختنق: "كلاّ".

- إذنْ، إلى أين تذهب؟

- إلى رام اسبي.

- هل ستذهب الآن؟

- سيحلّ الليل، سأنتظر حتّى طلوع الفجر، ثمّ أنطلق.

لزم أورهان الصمت. لم يكن يريد أن يبقى وحيداً. كان يخشى أن يُغيِّر العجوز رأيه. قال: "ذئاب هذا الفصل لا ترحم".

أوقد العجوز سيجارةً جديدة بعقب سيجارة منتهية، وقال: "الذئاب لا ترحم في أي وقت. لقد التهمتْ ثلاثة رجال في القرية المجاورة في وضح النهار". نهض، وأحضر البردعة الأخرى، ووضعها على الأرض قبالته. جلس أورهان، ونظر خارجاً؛ كان البياض والبرد يكتسحان المكان، مسح يَدَيْه ببعضهما، وفتح خيوط بوطه، وأخرج رجلَيْه، ونزع جواربه، وأمسك رجلَيْه بكلتا يَدَيْه. قال: "أنا أورهان".

قال العجوز: "أورهان؟ أيّ أورهان؟".

- أخو سوجي.

دقّق العجوز النظر، وقال: "قاتل أخيه؟!".

أحسّ أورهان ببرودة شيء حادّ تخترق جِلْده. لكنْ، ما فائدة الإنكار والهَرَج. هزّ رأسه، ثمّ اندفع قائلاً: "آخ"، وضغط على رؤوس أصابعه بيده: "الآن أتاجر في البزر".

- البزر؟

- نعم، المكسّرات. الجوّ صقيع هنا.

كان حبل أصابعه بدأ ينفلت. قال له العجوز:

- اخلعْ معطفكَ، وضعْ رجلَيْكَ بداخله.

- لا، لا. أنا مزكوم. سأُصاب بالتهاب رئوي.

كان الألم يجوب عظامه كلها. سأل العجوز:

- ألديكَ شاي؟

ظلّ العجوز صامتاً مسترسلاً في تدخين السيجارة. قال له أورهان: "ألا يوجد شيء، نُوقِدُ به النار؟".

بقي العجوز سادراً في لامبالاته. أشعل سيجارة أخرى، وسحق تحت رجلَيْه عقِب السيجارة المنتهية. قال أورهان: "أنا الآن أسير سوجي. تعرفه، أليس كذلك؟".

- كَبِّلْه بالسلسلة.

لم يقدر على تدفئة رجلَيْه، أو على الأقلّ التخفيف من ألم العظام. تألم وتابع: "أربعة عشر عاماً وهو آسري. وهل يمكن تكبيله؟ إنه ليس طفلاً، عمره اثنتان وأربعون سنة".

- ألقِهِ في حجرة، ووفِّر له الخبزَ والماءَ، خلاص.

- هذا ما أنوي فعله إذا عثرتُ عليه. لكن مجنوننا كالطائر يموت في القفص، وإذا كان خارجه يطير. لا يمكن تكبيله، إنه مسالم. في الأصل، هو وُلدَ، كي يعذّبني.

كان يودّ الاستمرار بالحكي، لكنْ، لم يكن يدري هل العجوز يصغي إليه أم لا. تمكّنت منه نوازع الضعف والهوان.

كنّا قد تعوّدنا، لفترة، نحن الاثنَيْن، أن يغيب ليوم أو ليومَيْن، كلّما شعر بالكدر، فأسأله عند العودة:

- أين كنتَ، أيّها الصبيّ؟

- ذهبتُ لأزور سيّدي.

- ماذا أحضرتَ من هدايا؟

- لا شيء ذات أهمّيّة. كل ما وجدتهُ بزر نوّار الشمس ومشمش الصحراء هذا.

- حسن، اذهبْ إلى الخان، ولا تبتعد كثيراً، لا تفضحني.

- أخي العزيز، كأسا شاي من عند مُشْد عبّاس يُبهجان المرء. أتستطيع فَهْم هذا؟

ملأ جيوبه بالبزر، وأطلق ساقَيْه للريح. لم يكن لحضوره أهمّيّة عندي، لكن غيابه كان مُوجِعاً جدّاً. كنتُ أبيت في الأعلى بمفردي، وهو في ذاك القبو، أعلم بوجوده، وحيداً، قابعاً يجترّ النفس في الأسفل، خاصّة في البيت الذي تزكم فيه الأنوف سترةُ أبي المشبعة بماء المطر، في البيت الذي تنبعث منه رائحة نَفَس أمّي المتهدّج، ورائحة آيدا أيضاً. كنتُ أتحمّل هذا كله يومَيْن أو ثلاثة وأنا موقن بأنه سوف يأتي.

أسأله واجماً: "أين كنتَ، يا ولد؟".

- ذهبتُ إلى موسكو؟

- ما الخبرُ هناك؟

- حرب ودمار في كل مكان، ولهيب نار متأجّجة وسط الصقيع والجليد.

- وهل كنتَ أنتَ تُحارب؟

قال وهو يرنو إلى أناسٍ يدبّون خارج الدّكّان بعجلة وتؤدة، زرافات ووحداناً: "برأيكَ، من أين يأتِ هؤلاء الناس كلهم بالملاعق؟".

- طيّب، ما أخبار الحرب؟ كم قتلتَ؟ كم جرحتَ؟

- أسرنا امرأة، فإذا بها باغية. اسمها مارتا، جميلة. لا بأس بها. أظنّ أنها يوغوسلافية.

- وأنتَ، كنتَ مع مَنْ؟

- أخي العزيز، لقد أزاغتْني.

كان يبدو مكتئباً.

حدَّق كلاهما في وجوم إلى الخارج، كأنهما ينتظران قدوم أحد. قال أورهان: "ألا تشعر بالبرد؟". ردّ العجوز: "أنا أتحمّل"، وأردف بعد هنيهة: "كيف جئتَ إلى هنا؟"

- راجلاً. هل لديكَ سيجارة؟

كانت البرودة تنزلق من عينَيْه، وتنحدر على خَدَّيْه. وفي ثانية، اشتهى دخاناً، وقال للعجوز: "ألديكَ لفافة دخان زائدة؟"

فتح العجوز علبة سجائره، وقرّبها إليه: "سوف تُخفِّف من ارتعاشكَ"، وظلّ في تلك الظلمة ينتظر أورهان كي يتناول لفافة. وحين كان يُوقد عود الثقاب دقّق في تقاسيم وجهه، ولاحظ احمرار رجلَيْه. قال له: "أجئتَ إلى هنا من أجل سوجي فقط؟".

هزّ أورهان رأسه وهو يشكو من ألم رجله. وانتابه شعور بالرضا وهو يُفهِم العجوز أنه يحبّ أخاه. بيد أن قلبه كان في تموُّج وهَرَج ومَرَج. كان قد طوى هذه الطريق مرّات ومرّات في الحَرّ والقَرّ. وجازف بحياته غير ما مرّة، كي يُرجِع

آيدين، لكنه اليوم، اتّخذ قراراً نهائياً. كان يريد إنهاء الموضوع مهما كلّفه الثمن. نفث من فيه الدخان متقطّعاً بكل غضب وولع. لم يكن يدري نوع السيجارة التي يدخّن. كان طَعْمها سيّئاً. استوى واقفاً، وأقفل باب الاصطبل، ونظر إلى الفلاة من جانب دفّة الباب المنكسرة. قال: "حُبسنا ها هنا". صمت العجوز واجماً. كانت الفلاة هائمة في العتمة، وغارقة في الثلوج. لم يدرْ بخلده أبداً أنه سيبقى. قال: "إذنْ، إلى أين ذهب هذا الأخ؟". استمرّ العجوز في صمته.

كان الوالد يقول: "ليس مهماً إلى أين ذهب".

قلتُ: "ليس بيد الإنسان حيلة، الأمّ تسأل من الصباح إلى الليل أين ولدي آيدين؟ تريد استرجاعه. إنها تذهب بين الفينة والأخرى للبحث عنه".

فيجيب الوالد: "إنها ترتكب حماقة. مَنْ أذِنَ لها؟".

وقتها مرّت قرابة السنة على مغادرة آيدين للبيت. كان يشتغل في معمل لقَطْع الأخشاب في الضّفّة العليا لنهر قرية رام اسبي. أضحى نحيلاً ومنكسراً. لم يكن يأكل طعاماً جيّداً، لكنه قرّر أن يستقلّ، وألا يعود إلى بيت الوالد أبداً. اضطربت حاله بعد حادثة الحريق تلك، وكأنه هو مَن احترق. وفعلاً احترق؛ بغضب الوالد، والوالد بغضب الطبيعة.

كتبت صحيفة (خورشيد شرق) يوماً واحداً بعد الحادثة: "على الساعة الثانية عشر والنصف من يوم أمس، تقلّص ضياء الشمس فجأة، وكأن يداً كبيرة حجبت وجهها". وحفظنا نحن هذه الجملة.

يومها، حصل كسوف تامّ للشمس، ونزل الليل. ورغم أنه لم يتناول غذاءه، ألقى الأب نظرة على الساعة، ومع أنه كان يرى عقاربها تدور في أماكنها، خُيِّل إليه أن عينَيْه أخطأتا النظر. فسألني محتاراً:

- أورهان، هل حلَّ الليل؟

أجبتُهُ وأنا أجهل ما الذي حدث: "يا أبا الفضل!". وخرجت من الغرفة راكضاً. وصلت الظُّلمة مداها. وفي تلك الآونة، أطلق مصنع المراوح جرس انتهاء العمل. أيقنتُ حلول الليل، لأن مصنع المراوح لم يتوقّف عن العمل حتّى في عزِّ الحرب. والغريب أنه لم يُغلق أبوابه بعد التاسع من سبتمبر، حين كان الناس يمُزّقون بطون بعضهم، بسبب خبز أسود. أما الآن، فقد دوّى جرس الوقوف. كان صوت الضوضاء والجلبة يُسمَع من الزقاق والشارع، فيما انهمك البعض في نصب أوان نحاسية فوق السطوح اتّقاء شرّ الكسوف.

جاء الوالد إلى الساحة، ووقف بجانبنا أنا وأمّي، وطفقنا نحدِّق في الشمس بتمعّن من دون أن نحجب أعيننا بأيدينا. كانت أمّي، كل مرّة، تتذرّع بشيء، لتذرف دموع الشوق على آيدا التي كانت تعيش بمدينة آبادان.

تحوّلت الشمس إلى قرص دامٍ، وغطّى جوانبها غبار أسود قاتم. في ذلك اليوم، ولأوّل مرّة، رأيتُ الرعب مرتسماً على كيان الوالد. الأنحاء كلها غارقة في الظُّلمة، وغوغاء مخيفة تطرق الآذان آتية من الزقاق.

كانت أمّي تُتمتم دعاء، وتبكي بصوت حزين. فيما أنا أنظر باندهاش وحيرة إلى السماء وقد غاصت، للحظات، وسط النجوم. لم أرَ في حياتي نجوماً بتلك الكثرة. قلت: "يا أبا الفضل!".

قطع الأب دعاءه، وقال: "هذا بلاء نزل علينا. أتدري ما معنى هذا؟" أظهر كفَّيْه، وقال محموماً: "أنحن قَتَلَة؟".

قالت الأمّ: "أستغفر الله".

قال الوالد: "هذه أفعالنا. أفعالنا وأفعال أبنائنا. اللّهمّ، الطفْ بنا، اللّهمّ، لطفكَ".

بعد لحظات، سكن لغط الشارع، وسدرت المدينة في ظلمةٌ وسكون، وكأن ساكنيها قضوا منذ سنوات، وكأنها لم تكن مدينة من قبل. أوقدت الأمُّ القنديلَ النفطيّ، ووضعتْه في كوّة الغرفة. لم تكن لأحدنا الجرأة لترك الغرفة. قالت: "ماذا عن آيدين؟".

أجابها الأب: "هو حيث هو".

كانت الأمّ قلقة، وبعد أن فاحت رائحة طعام محترق في المنزل، ضربت على ركبَتَيْها: "يا لتعاستي!". هرولتْ إلى المطبخ، وتبعها الأب حاملاً بيده القنديل. وقف على عتبة الباب وقال: "هذه نتيجة أفعالنا. ماذا فعلنا نحن؟" لمحتُ يَدَيْه ترتعشان والدمع قد غطّى كامل وجهه. استلمتْ منه القنديل. واندفع قائلاً: "نحن الآن نعيش في مكان وتحت أقدامنا بالضبط مخزن من الكُتُب الضّالّة المُضِلَّة. لم يترك ولدنا كتابَ كُفر إلا وخزَّنه في هذا القبو. صار شاعراً أيضاً. لم يبقَ إلاّ أن يعزف على آلة، ويغدو عاشقاً مطرباً. لكني لن أسكت على هذا". شمّر عن ساعدَيْه، وقال وهو بتلك الحالة: "يجب أن نُصلّي صلاة الكسوف".

عدنا إلى الغرفة، وأدّينا صلاة الكسوف.

استمرّت الظُّلمة لساعة ونصف، ودام ارتعاشنا أيضاً ساعة ونصف الساعة. بعد ذلك صار الجوّ مظلماً ومضيئاً يشبه اللحظات التي تسبق الشروق والغروب. إثر ذلك، تخلّصت الشمس من الظُّلمة، وأضاء النهار. أومأ لي الوالد بأن أتبعه. ذهبنا صوب الساحة والأمّ واقفة في الشرفة حيرانة مثلي. قالت: "لمَ لا تذهبان إلى الغرفة؟ هل حرتما؟

في ظلّ صمت الوالد ورائحة الاحتراق المنبعثة، فضّلت الأمّ أن تشغل نفسها بعيداً عن الأعين. قال الأب: "أخرِج من الغرفة الأفرشةَ والملابسَ".

طويتُ البساط، وأخرجتُهُ، ووضعتُ ملابس آيدين على الشرفة. أردتُ أن أُخرِج السرير غير أن والدي قال: "يجب أن يُحرَق"، بيد أنه لم يكن يدري ما الخبر هناك. بعد حرق الكُتُب في المرّة السابقة، بات المكان اليوم مليئاً بالكُتُب والدفاتر؛ تحت السرير، وعلى الكوّات، وعلى أطراف السلالم، وفي أركان الغرفة كلها. كان آيدين ينظم الشِّعْر، وقد صاحب عدّة شعراء. قال والدي: "اسكُبِ النفطَ".

حملتُ برميل النفط إلى الداخل، ونضحتُ المكان كله، وبعد هُنَيْهَة، أردتُ سحب السرير إلى الخارج بيد أنه أمرني: "أوقِدْ عودَ الثقاب". وأوقدتُهُ.

لمّا خرجت الأمّ من الغرفة، كان الأمر قد قضي. لعلعت ألسنة اللهب، وانبجست من باب القبو ونوافذه، تلتهم الأشياء كلها بصوت مهول. أرادت الأمّ فعل شيء، وأخذت تُحرِّك يَدَيْها، لكن لسانها كان أخرس.

قال الوالد: "هذه روح الشيطان تحترق".

لكنْ، حقيقة، لو كانت روح الشيطان تحترق، لما كان كل ذلك الصوت والدخان. وصل الحَرّ إلى الجانب الآخر من الحوض، وارتفعت أعمدة الدخان في السماء عالياً. أغلق الجيران أبواب بيوتهم وهم يتساءلون عن سبب الدخان، فقال الوالد: "إننا نطبخ معجون الطماطم".

تبادر إلى ذهني أن آيدين سوف يصاب بسكتة حين يرى الوضع. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. عاد في أثناء الغروب والبيت غارق في صمت حزين، كأن أحداً مات، والجميع يخفي عن الآخر سرّ الموت.

وضع آيدين كرتونة كُتُب كانت بيده على حافّة الدرجة، وقصد غسل يَدَيْه في الحوض. تقدّم خطوتَيْن، فرأى ظلمة وسواداً حالكَيْن مُوحِشَيْن وقد لفّا القبو، واشتمّ رائحة الحريق المتناثرة. كنّا نحن الثلاثة ننظر من أعلى. ذهب صوب غرفته، لم يتمالك نفسه وهو يقف على السلالم، فارتجفت أطرافه، وسرت قشعريرة في كامل بدنه. بعدها، ودون أن ينبس ببنت شفة أو يرى أحداً، غادر.

لزم الأبُ الصمتَ، لم يُقدِّر أن الأمر سيصل إلى هذا الحدّ. دار حول الغرفة وهو منغمس في التفكير. بادرتْه الأمّ بالقول: "أهذا ما أردتَ؟" وأجهشتْ.

قال: "ما الذي حصل؟ فعلتُ ذلك لأجله. أنتِ ترين أن الزمان تبدّل. يقبضون على الشباب لأسباب تافهة". أُصيب الوالد ليلتها بإسهال شديد، أفقده كامل قوّته وحميّته وإرادته؛ لا يجلس، ولا يقف، ولا يستطيع النوم. يذهب إلى المرحاض باستمرار، ويتمشّى.

قالت الأمّ: "أهذا ما أردتَ؟".

- انتظري لأيّام، سيُرجِعُهُ الجوعُ إلى البيت.

- إمّا أن تجده الليلة وتُعيده، أو أغادر البيت من الغد.

- أليس هو ولدي أيضاً؟ ألا يحترق قلبي لوعة؟

بعد ذلك الحريق، تكدّر آيدين لدرجة أنه اختبأ منّا حين ذهبنا، يوماً، للبحث عنه. كانت أمّي تُلحّ على أبي بإرجاعه، فننطلق في إثره قاصدين قرية رام اسبي. كان المعمل يقع في مضيق يجري من تحته ماء النهر، والعمّال منشغلون في الأعلى. ذات يوم، وفي وقت كان آيدين منكبّاً على

قَطْع ساق شجرة، وضع أبي غروره القديم تحت قَدَمَيْه، وتوقّف قبالته: "آيدين، انسَ الماضي".

أجابه آيدين من دون أن يرفع رأسه: "أبي، انسني".

رجعنا وأبي يعلوه الغضب والقهر والوقار. منذ ذاك اليوم، بدأ يذكر اسم آيدين على نحو خاصّ. ربّما بقي يعمل هناك لسنة. كانت أمّي تسأل عن أحواله، وأزوره أنا بين الحين والآخر. بيد أنه ما كان يقبل شيئاً؛ نأخذ له الطعام والملابس، فيرجعهما، نعطيه الكُتُب، فيرفضها. حتّى أمّي كان يعرض عنها. وحين كنّا نُصرّ، ينفجر: "ملفّي الدراسي، كُتُبي، أشعاري..." ثمّ ينتحب بكاء.

شيئاً فشيئاً، انفصل عن وجوده السرور والطبع المرح، وكأنه هو مَن احترق. ساء مزاجه، وتفاقم وضعه. رأيتُ بعينَيّ حذاءه الأسود ممزّقاً من طَرَفَيْه. يرتدي نفس المعطف والسروال القماشي الأسود، ويضع رجلاً على قطعة خشب ينشرها، ينشر وينشر حتّى يتصاعد الدخان من الخشبة، وتنفصل. يُجفّف عَرَق جبينه بمنديل، ثمّ ينقض على خشبة أخرى. كنتُ أنتظره حتّى يُكمل عمله، فننطلق معاً ناحية شورابي. يمشي بصعوبة بحذائه الأسود الممزّق. قلتُ له: "ألا تأخذ أجراً؟" ارتبك، وظنّ أنني أريد أن أقترض منه، فقال: "لديّ، أتريد؟" وهمّ بدسّ يده في الجيب، وإخراج نقوده. فقلتُ له: "لماذا لا تشتري حذاء لقَدَمَيْكَ؟".

ألقى نظرة على حذائه وقال: "لا برد ولا ثلج الآن، فكّرتُ بالأمر، بعد انقضاء الخريف". كان يرمق سبخة في أعلى الهضاب، ويشاهد شورابي أيضاً، ثمّ يندفع قائلاً: "أحبّ كثيراً شورابي".

في تلك الناحية، تموّجت السبخة، وتخثّرت الورود. وبدا أن الأمواج تتغيّر مع كل فصل. قال: "إنها تشبه كثيراً البحر".

قلتُ: "نعم". توقّفنا على التلال القريبة من شورابي، وهبّ نسيم منعش. كانت شورابي في الأسفل راكدة هامدة، تتراءى من جنباتها حقولها القصبية بوضوح. في جانب منها على الحدّ الفاصل بينها وبين الهضبة والماء، اشرأبّت أعناق قصبات طويلات مُورِقة. نظر آيدين بتمعّن، وقال وعينُه تبرق: "مثل بناية منظّمة الأمم المتّحدة".

قلتُ: "أين؟"

وأشار بيده إلى الجهة المقابلة.

قلتُ: "لماذا؟".

قال: "هذه القَصَبات تُذكِّرني بأعلام منظّمة الأمم المتّحدة".

في ما مضى كان الوالد يقول: "يجب أن تُدركوا قَدْر شورابي، بعد سنوات ستصير مثل السبخة، بركة مِلْح مُرٍّ، لا يصلح للاستهلاك". كان عودنا لم يشتدّ بعد، وكنتُ أحمل الدلو الأحمر، وآيدين الأخضر، وأبي من ورائنا، حين نصل إلى شورابي ينزع أبي ملابسه، ويغطس في الماء. كان يبدو، وهو وسط الماء، أكثر شيخوخة. نزعنا نحن أيضاً ملابسنا، وارتمينا في الماء. كانت أشعّة الشمس حارقة، والماء مالح ومُرّ، والهداهد على سطح الماء تتناوب على الدوران حول البركة، ووالدي فاتح ذراعَيْه، لا ينكشف منه سوى رأسه ضئيل الشَّعْر. قال: "اذهبا إلى الأمام، واستخرجا الأوحال".

كان الروس يستخرجون الأوحالَ من قاع شورابي بالمضخّة، وينقلونها

بواسطة الصهاريج. كان أبي يقول: "هذه الأوحال هي العلاج السريع للروماتيزم". مسح بقليل منها على جسده، وخرج من الماء، ثمّ استلقى على صدره في حاشية شورابي، كي يأخذ حمّام شمس. جمع رجلَيْه النحيلَتَيْن المشعرَتَيْن، واتّكأ على المرافق، قال وعينه تُحدِّق بكل مكان: "أحضِرا قليلاً من الوحل، ما دمتُ لم أبرد بعد".

أخذ آيدين نَفَساً، وفتح فاه، ثمّ غطس، فانتشر في مكانه حباب كثيف. ثمّ اقتلع من قعر الماء ودلوه منتصف بالوحل. قال: "أمسِكْ". وقفز. استلمتُ منه الدلو، وقصدتُ الوالد الذي كان واضعاً رأسه على الأرض ينتظر. ثمّ نظرتُ، فإذا بآيدين يغوص في عمق الماء. قال أبي: "أحسنتَ، يا ولدي، ادهنْ، فأنا أهلك".

كانت الريح تهبّ لطيفة، فيتراقص لها حقل القصب في الناحية الأخرى من شورابي. وكنتُ أدهن بَدَنَ الوالد بالوحل حفنة بحفنة. بدأتُ من الرجلَيْن، فقال: "ادهنْ جيّداً". صار جسده أسود قاتماً، كأنهم صنعوا له تمثالاً من الزفت. ومكث على تلك الحال حتّى يبس الوحل على بَدَنه. أما نحن، فكنّا ندهن أرجلنا فقط، وننتظر كي تجفّ، ثمّ نرتمي في الماء، ونُنظّف أبداننا.

قال الوالد: "خذا قليلاً من الوحل ليُوسُف أيضاً".

تحوّل يُوسُف، بعد ذلك السقوط، إلى قطعة لحم لا نفع لها، يأكل ويتغوّط صباح مساء من دون توقّف، منعزل في ركن الغرفة السفلية جامد صامت، ومسمّراً عينَيْه بالباب. يبتلع شيئاً باستمرار. تنبعث من غرفته رائحة النتن والجيفة وأمّي لا تكفّ عن غسل أغطيته في الساحة.

كانت آيدا تقول: "لو بنيتُم له غرفة صغيرة في الباحة، لارتحنا جميعاً". لكن أحداً لم يكن يُصغ إلى كلامها.

كان الأب يقضم الخيار، لئلا يشعر بالعطش. كان صيفاً ممتعاً وحرارة شمسه ملتهبة. أوحال بَدَن أبي جفّت، وغزا النمل بطنه. انتصب واقفاً، ثمّ غطس في الماء، وغسل بَدَنَه. وقال: "هذه علامة مفعول الدواء". كان جسده كله قد احمرّ. ثمّ أردف: "والآن سوف أظمأ". ثمّ عضّ على الخيار.

لا يتذكّر أورهان هل أخذ من العجوز سيجارة أخرى، وأوقدها بعقب السيجارة السابقة؟ كان ينفث دخاناً سميكاً، ويئن من وطأة آلام عظام رجله ويده. قال: "ماذا أفعل الآن؟" ثمّ نظر إلى ما حوله. كان ثمّة شيء يصيت برتابة وسط تلك العتمة، مثل ساعة المنبّه التي كانت موضوعة في كوّة حجرة الأمّ. تساءل: "من أين يأتي هذا الصوت؟".

ردّ العجوز: "إنها قطرات الماء"، وأراه السقف فوق البهائم. نظر أورهان إلى السقف، ولزم الصمت. وأردف العجوز: "لا تغتمّ، سوف تعثر عليه". وتابع العجوز بينما أورهان غارق في سكونه: "إنه يفرّ، أليس كذلك؟". طأطأ أورهان رأسه غير مبال بكلام العجوز.

قلتُ: "أبي، ممّنْ يفرّ آيدين؟".

- اهربْ أنتَ أيضاً، إلى جهنّم! جميعكم.

- لا أريد أن أهرب، أنا أختلف عن آيدا وآيدين. اليوم جمعة، أريد أن أذهب برفقة الشباب إلى شورابي.

- إذنْ، مَنْ سيُدقّق حسابات الدكّان؟

أجابتْه الأمّ: "دعْه يذهب، أهو آيدا أو آيدين، الاثنان صارا كالأبكَمَيْن، هل ستُعاند هذا أيضاً؟".

ردّ عليها: "كلهم سواء كفُرسان رهان".

أخذت الأمّ غليون الوالد، ووضعته في الكوّة: "مهما يكن، فهذا يُشبهكَ. لا يمكن تدخين الغليون من الصباح إلى الليل!". بعد ذلك وضعت يَدَيْها على خصرها ومن وسط الغرفة العلوية خاطبتني بعصبية: "هيّا، اذهبْ، ماذا تنتظر".

ركبنا سيّارة استيت ذات صالون خشبي. لن ينسى الناس في المدينة تلك السنة السوداء. كنّا أربعين نفراً. كان بعض الشباب مجنّداً. انطلقنا نغنّي ونصفّق ونترنّم بنشيد العلم. في طريقنا، في آخر شارع بالمدينة، استوقفنا بيت يضطرم ناراً، تخرج ألسنة اللهب والدخان من نوافذه. توقّف السائق، وترجّل الجميع. كان صاحب البيت المحترق عجوزاً أشيبَ الرأس، يلطم ويُعربد. يقف قبالة بيته، ثمّ يجلس ويركض، ثمّ يعود أدراجه، وينظر إلى ألسنة اللهب ويلطم رأسه من جديد. علمنا، لاحقاً، أنه لا يملك زوجة ولا ولداً. كاد يهلك. كانت النار مستعرة، بحيث لم تترك أثراً للبيت، ولم تنطفئ إلا والسقف ينهار.

في المرّة السابقة أيضاً، لم يستطع أحدٌ أن يوقف لهيب تلك النار الكبيرة. كانت تحتدم بجنون في الجانب الأيمن من السوق، وتتصاعد إلى السماء أعمدةُ دخانها الأسود. كان الناس في المدينة ينظرون باندهاش إلى الدخان، ولا يستطيعون تحريك ساكن. انقطع التيّار الكهربائي، وشرع حرّاس السوق بإطلاق الرصاص في الهواء استجداءً للمَدَد. فيما كان عدد آخر منهم هائماً على وجهه يصرخ ويُولول. تلك الليلة، وعلى عكس

باقي الليالي، نضبت السواقي من المياه. وعلى امتداد الشارع، هرعت سحابة البشر، قاصدين البازار، وحاملين الفوانيس بأيديهم. كان الوالد يرتعد مرعوباً، أمسك بإحكام بأيدينا أنا وآيدين وهو يتلو الأدعية. لم يحمل الهواءُ الحارُّ النارَ إلى خان بائعي المكسّرات، بل امتدّ لهيبها إلى الناحية اليمنى من البازار. انحشرنا متسمّرين في ركن من الساحة، نتفرّج كباقي الناس. لم تكن البلدية آنذاك تملك وسيلة لإخماد النيران، وكانت الريح الحارّة تُرسل النار إلى الناحية الأخرى.

ليلتها، احترق السوق، وظلّت النيران مشتعلة إلى الليلة الموالية. احترقت الجهة اليمنى من السوق بالكامل، وكانت تضمّ محلات لبيع وصُنع الحلويات وبعض معامل السّكّر. ولم تخمد النار حتّى انهارت الجدران، وسوّدت عيش البعض. ظلّت أعمدة الدخان الأسود قابعة في سماء المدينة لثلاثة أيّام، كانت سميكة، لدرجة عجزت الرياح عن تحريكها.

في اليوم الموالي، هطلت أمطار حلوة سائغة، ووضع الناس الأوعية والصحون حتّى لا يضيع عَبَثاً. لم نفهم هذا الموضوع إلا بعد أن كفّت الأمطار عن السقوط. صارت شُعُورُنا ولباسنا دبقين، تلتصق أيادينا بكل شيء تلمسه. لحس أبي يَدَيْه، وقال: "إنها شربات".

وظلّت الشربات، لمدّة، تندلق من الحنفيات العمومية عوض الماء. وكنتُ أصيح: "أريد ماءً".

كنتُ ألهث من شدّة العطش، ولا ينطفئ حَرُّ ظمئي مهما شربتُ من ذاك الماء الحلو. قال أبي: "اشربِ الشربات. من أين نُحضر لكَ الماء الآن؟".

- يجب أن تجلبه من مكان ما.

- ماذا تقول؟ الجميع الآن يتبوّل حلاوة.

بعد مدّة، أضرمت آيدا النار في نفسها، ومات الوالد، وأُطيح بآيدين أيضاً. بقيتُ أنا وأمّي المصابة بالربو، تنخر وهي متدثّرة بملحفة بيضاء. في منتصف الليل، كان يخيّل إليّ أن أحدهم يدقّ في الهاون، لكنه آيدين كان يضع رأسه على الجدار، وعروق جبينه ورقبته تنبض بسرعة، وكأنها تريد أن تخرج من تحت عينَيْه.

قالت الأمّ: "قلْ لي، بنيّ، مَنْ صنع بكَ هذا؟".

فأجابها آيدين: "أُخمدت نار الحرب في صقيع موسكو".

كان محقّاً. النيران كلها، بلهيبها ودخانها، بأضرارها وخسائرها تخمد تلقائياً. لا يزال الجميع يتذكّر أننا كنّا أربعين فرداً، بعض منّا كان مجنّداً. بعد إخماد النيران، ركبنا العربة ذات المقاعد الخشبية، كانت ترجّنا في متاهات طريق غير معبّدة حتّى كدنا نلفظ قلوبنا، ونتقيّأ أمعاءنا. في تلك الآونة التي تحرّكت عربتنا، رمقنا سيّارات الإطفاء الحمراء مهرعة. بيد أن الوقت كان جدّ متأخّر، إذ لم يتبقّ من المنزل إلا تلّة من رماد.

انطلقنا نغنّي، ونُصفّق، وننشد للعلم. اصطففْنا، كما جرت العادة، على حافّة شورابي. وعند العدد "ثلاثة" كان الجميع يرتمي في الماء. نسبح بملابسنا إلى مزرعة القصب، ونعود. كان الماء بارداً، والهواء منعشاً. بعد ذلك رأينا ذلك الزورقَ القادم تجاهنا من ناحية الشرق. لم يكن بداخله أحد غير رجل يرتدي قميصاً داخلياً أبيض اللون متّسخاً وهو منتصب أمام المقود. ينظر إلينا، وتركيزه كله على صوت محرّك زورقه.

حين وصل إلى الساحل قال: "ألا تركبون؟".

صحنا بصوت واحد: "ها"، ثمّ تعلّقنا بالزورق الخشبي من كل جانب. كانت تفوح منه رائحة طلاء الأظافر والصباغة. وكان يصطكّ مع كل حركة، كأن فقراته توشك أن تنخلع وتنفصل عن بعض. كنّا مسرورين، لأن شورابي بات لها زورق. واتّفقنا على موعد أسبوعي. لكنْ، لا أحد، إلى تلك اللحظة، كان قد رأى بحياته زورقاً، أو كان يعرف صاحبه مَنْ يكون، ومن أين أتى. كان رجلا مسنّاً ضاحكاً ومشوّش البال في الآن ذاته، مثله مثل مَنْ يسوق لأوّل مرّة خلف المقود. قال: "لديّ أربعة أولاد. الحياة تحتاج مصاريف" وضحك حتّى برقت أساريره.

حين خرج الجميع من الماء، وصعدنا، تحرّك الزورق، وابتعد عن الحافّة. قال العجوز "تعالوا كل يوم".

قلتُ له: "سآتي كل يوم، زدْ في السرعة". كانت أوّل مرّة أركب فيها زورقاً. تبلّلت كل ثيابي. كان له اندفاع، وحركة خاصّة، وحين وصلنا إلى وسط شورابي، استشعرتُ غرقه، فتصايح الشباب، وتسابقوا نحو الباب. عندئذ غاص الزورق في الماء من ناحية المحرّك، وطفا. انقلب على رؤوسنا، وطفق يغرق مقلوباً. كنّا نستغيث في قعر الماء، ونصعد إلى السطح، فيصطدم جسم الزورق الثقيل برؤوسنا، ثمّ نعود إلى الأسفل. نظرتُ من ذلك العمق إلى أعلى، فإذا بالظلام مُخيّم. كان يجب أن أبتعد عن سقف الزورق. أترعت عمق الماء مجدّفاً بيَدَيّ، وحاولتُ الابتعاد عن مستنقع الوحل، ولمّا وصلتُ إلى حيث الضوء، سحبتُ نفسي نحو الأعلى. نظرتُ أسفل الماء، فإذا بصاحب الزورق عالق في الأوحال إلى خصره، يحاول الاستغاثة وعيناه قد فارقتا حَدَقَتَيْه. كان يشير بيده إلى العدد أربعة، فأدركت أنه اشترى الزورق بأربعة آلاف تومان. قلتُ في نفسي: "فداء رأسكَ!". جهدتُ في الصعود إلى

أعلى، لكنْ،، كأنّ أحداً كان يشدّ طرف سروالي بإحكام. بحثتُ عنه تحت الماء، لقد كان جمشيد ديلاق. أحد المجنّدين، كان يبتلع الماء، ويسحبني، كان غارقاً في الوحل إلى كتفَيْه وشارته العسكرية المذهّبة تبرق. هو يجرُّ وأنا أبذل ما بطاقتي، وفي لحظة تبادر إلى ذهني أن أفتح حزام سروالي. فتحتُهُ، وأرخيتُهُ.

آنئذ كنتُ في العشرين من عمري. عدتُ إلى البيت بشورت بنفسجي. كان يوماً سيّئاً للغاية. ظللتُ أتذوّق طعم الماء المالح والمُرّ في حلقومي لفترة طويلة. واليوم ما يزال الناس يذكرون أننا كنّا أربعين نفراً. قالت أمّ جمشيد ديلاق: "أنتَ بقيتَ على قيد الحياة، لكنكَ لن ترى خيراً".

كان سائق العربة يقول: " يجب أن تعرفوا قَدْر أورهان هذا".

قالت الأمّ: "تعالَ، لأزيل ذلك بالكامل". جلبتْ قماشاً يابساً، ومَرَّرَتْه على جسدي كله، بدءاً من مقدّمة أصابع رجلي وحتّى مفرق رأسي وظهري. ثمّ مزّقت القماش، وأعطتْه لفقير.

كان وقتاً عصيباً. الحواري كلها والزقاق في المدينة في مأتم وحداد. ظلّ غوّاصو مدينة آستارا يُقلبّون الأوحال في قعر شورابي على مدى ثلاثة أيّام. أخرجوا بقايا الزورق المنكسر، لكنهم لم يجدوا أثراً للضحايا تحت الماء.

قال العجوز: "هل أنتَ محموم؟" ووضع يده على جبين أورهان: "إنكَ ساخن، لكنْ، لستَ محموماً". أشعل سيجارَتَيْن، وناول أورهان واحدة: "إذا لم نتجمّد حتّى الصباح، فلن نموتَ أبداً".

أجابه أورهان: "أجل".

- لماذا انطلقتَ في هذا الوقت من النهار، لتصل بالليل؟

لم يكونا يُبصران بعضهما. فقط شُعلتا سيجارتَيْهما تتراءيان وهما تدوران في الهواء وتتوهّجان أحياناً. قال أورهان: "حين لا يكون سوجي بالبيت، تجثو على صدر المرء سحابة الوحدة".

قال العجوز: "أنا سمعتُ بكَ من قبلُ. أنتَ قاتلُ أخيه!".

لزم أورهان الصمت، فيما العجوز استعذب الكلام: "أقتلتَ أخاكَ؟".

ردّ أورهان: "الناس يقولون كلاماً". ولم يرغب في الإنصات إلى ما يقول. سحق سيجارته المنتصفة تحت قَدَمه، وأطرق رأسه بين رجلَيْه.

بعد التفكير ملياً، تذكّرتُ ذلك الجندي النحيل والطويل جمشيد، الذي كنّا نناديه ديلاق. شبّك يَدَيْه بأطراف سروالي، وكان يريد أن يسحبَني معه. كان رفيقي، لكنْ، لا أدري لمَ أراد فعل ذلك بي. ذات جمعة عصراً، أقفلنا المحلّ، وذهبنا إلى بستان أخوان. كان بستاناً ضحلاً من دون باب، انقضّت عليه الحكومة بعد سنوات، فقطعت الأشجار الفتية وأشجار الصنوبر والدُّلْب القديمة، وغرست بدلها العشب، ونصبت بضع أراجيح وألعاباً للأطفال، وأوصلتْها بشبكة الكهرباء، ثمّ أطلقت عليها اسم الحديقة الوطنية.

بقي بستان أخوان كما كان، بجدرانه المتهالكة والآجرّ المسروق وأكوام النفايات وجيش من الذباب والبعوض. كنّا لم نُكمل الرابعة عشرة من أعمارنا بعد، وكنّا نتسكّع بجوار الجدار ونتفرّج على باعة الفالوذج(*) وصانعي المزامير. في أثناء الغروب، كانت الغربان تغير على المكان، وتقتتل على القذارة والقمامة، ونحن نتفرّج. كنتُ أحفر الأرض بكعب حذائي، لأستثير الغبار والتراب، وفي

*) من أنواع المثلّجات الإيرانية المشهورة.

لحظة برزت من تحت التراب قطعة نقدية سوداء. قذفتُها بقَدَمِي، فتدحرجتْ، وسقطتْ تحت ظلّ صنوبرة. نطّ جمشيد، والتقط القطعة.

قال: "مَنْ يريد هذه القطعة؟".

لم نرغب بها، لم نكن نعاني من شحّ النقود حتّى تبتهج قلوبنا لرؤية قطعة نقدية سوداء.

قال جمشيد: "أعتقد أنها ريالان".

قلتُ له: "لمَ لا تُودعها جيبكَ؟"

قال: "في بيتنا ما هو أثمن من هذه القطعة، ولا أحد يلتقطه".

فأجبتُه: "أما نحن، فلا يوجد ببيتنا مثل هذه النقود، لكن الله يبارك في دَخْل الوالد". كان آيدين يلمحنا وهو يضحك. أعجبتْه جسارتي. كان باستمرار يقول: "يُعجبني أنكَ إنسان وقح".

قال جمشيد: "مهما تكونون أغنياء، فلا أظنّكم تصلون إلى ثرائنا". قذف بالقطعة في الهواء، فالتقطتُها، لألعب بها. وضعتُها تحت حنفية إسمنتية مفتوحة على الدوام، ونظّفتُها. لكنها لم تطهر. أخذتُها، وحككتُها على الأرض، ثمّ غسلتُها مجدّداً. أردف جمشيد: "نحن نملك ثلاثة بساتين، تسير صباحاً، لتصل إلى وسطها ليلاً". كنتُ منشغلاً بالقطعة، وانتبهتُ إلى اصفرار الذهب الذي يبرق منها. كانت قطعة بهلوية. أخفيتُها بين أصبعَيّ حتّى لا يراها آيدين وجمشيد.

قال آيدين: "أهي من ذهب؟".

اندفع جمشيد قائلاً: "إنها لي". كان نحيلاً، وذا قامة سامقة، معقوف الأنف، وله فم يبدو كَمَنْ يريد نطق كلمة "نو". كنّا نناديه جمشيد ديلاق. قفز قفزة كالزرافة، وقال: "أنا مَن التقطتُها أوّلاً".

- لم تكن تريد التقاطها.

- إنها لي.

أمسكنا بتلابيب بعضنا. وأينما أضربه أجد عَظْماً. تدخّل آيدين، وقال: "لا تتشاجرا بسبب النقود، اقتسماها".

فقلتُ له: "لماذا؟". وأقفلْنا عائدين إلى البيت.

في الليل، لمحتُ جمشيد يدور بالقرب من مصنع المراوح بحثاً عن منزلنا. قلتُ له: "عمَّ تبحث ديلاق؟".

- أردتُ أن أطلب منكَ القطعة النقدية.

- لماذا؟

- لأننا فقراء. أبي متوفىً من سنوات، وأمّي تشتغل في معمل للشكلاتة.

- إذنْ، بيعوا بستانكم، وعيشوا بثمنه.

- نحن لا نملك بستاناً.

لم تكن يدي تصل إلى وجهه، فلكمتُه في بطنه، ومع انحناءته، عاجلتُه بصفعة حتّى برقت عيناه، فضجّ بالبكاء: "لمَ تضربُ؟".

قلتُ له: "يا ابن الكلب! لماذا كذبتَ عليّ؟".

بعد تلك الحادثة، كان يتردّد عليّ باستمرار، فنتسكّع معاً في الأنحاء. ولم يعد يسأل عن القطعة النقدية. ثمّ أصبح جندياً. في إحدى الجُمع، ذهبنا معاً إلى شورابي. أجرينا مسابقة في السباحة، فحلَّ في المرتبة الأخيرة من بين أربعين شخصاً. كان يجهد في أن يتسلّق ظهر ذلك الزورق المهترئ. لم يُفلح غوّاصو آستارا في العثور عليه.

كان جمشيد صديقي الوحيد. في يوم تأبين عمّه عِزَّت حضر فقط سبعة عشر شخصاً، وكنتُ أنا الثامن عشر. وبعد لحظات من دخولي، اختُتم مجلس التأبين، فسألتُه: "لماذا لم يأت أحد من قبيلتكَ وطائفتكَ؟". فأجاب: "لم يعد لدينا أحد".

- وماذا عن الجيران؟ وإذا بي أرمق آيدين منزوياً في ركن من المسجد.

قلتُ لجمشيد: "إنه أخي". وتابعتُ: "لمَ لم تقيموا التأبين في مسجد حيِّكم؟".

- إنه كبير، ويحتاج إلى مال كثير، وهنا المكان بعيد.

كان عمّ جمشيد ديلاق بائعاً متجوّلاً، يملك عربة يبيع في الشتاء البنجر والبقوليات، وفي الصيف الفواكه الطازجة. كنتُ أراه كثيراً، وكلّما ذهبنا مع جمشيد إلى مكان نأكل شيئاً عند العم عِزَّت، ولا يأخذ منّا النقود.

سألتُه: "ألم يترك عمّكَ وصيّة؟".

قال ساخراً: "وصيّة؟! لم يكن مَديناً لأحد حتّى يأتي طالباً دينه".

- إذنْ، لمَنْ وَهَبَ متاعه وما يملك؟

- لم يهبْ لأحد. لأن عربته لن تصلح لأحد. وإلى أن يكبر ابنه بعد عشر سنوات، ستكون قد تآكلت تحت الثلج والمطر.

انتصب العجوز واقفاً، وفتح باب الاصطبل، وأساح عينَيْه في صفحة السماء. تسرّب إلى الداخل برد طريّ، حارق وقاتل. صاح أورهان: "أغلقْ، أغلقْ"، فأقفل العجوز الباب بسرعة وخفّة.

أحسّ أورهان بالنعاس، وقال: "كيف سننام؟".

قال العجوز: "أنا سأنتظر إلى السَّحَر، ثمّ أنطلق". أوقدَ عود ثقاب، وتقصّى المكان جيّداً، ثمّ أوقدَ آخرَ، ورفعه صوب أعلى الاصطبل، وقال: "ارقدْ هناك".

عبَر أورهان من وسط الدوابّ، ولفّه دفء جميل في ثنايا الصقيع والبرد. قال: "أوقدْ عود ثقاب". نظر إلى الاصطبل، فوجده مليئاً بالحصى، وقال: "هنا؟".

- أجل، نمْ، ولا تخفْ.

صعد إلى ذروة الاصطبل، وجلس في الوسط، ومَدَّ رجلَيْه، وقال: "بطّانية، شيء". كان يحاول في تلك الظلمة أن يبصر ما حوله. ضحك العجوز بصوته الخشن. جمع أورهان رجلَيْه، وقال للعجوز: "بمَ أتدثّر؟".

- إذا لم تتأفّف، فهناك بردعتان.

أدخل أورهان يَدَيْه في ثنية ياقته، وارتجف.

قلتُ: "هل ستسلكُ مسلك الدائنين الذين لا يؤدّون ما بذمّتهم؟".

كان يظنّ أنني لن أراه حين يزيح رأسه جانباً. قال: "السلام عليكم، أورهان".

ذهب للجندية، فقصّوا شَعْره. كان نظره مصوّباً نحو العمق.

كان إياز الضابط يقول: "لقد ذهب جمشيد إلى الجندية، سيصير رجلاً".

لم يكن إنساناً سيّئاً. لستُ أدري كيف جاء إلى هذه الدنيا، واختفى منها في لحظة، من دون ضجيج، ولا صخب. ولمَ كان صديقي؟ حين كان يقف بقامته السامقة تلك ينتظرني أمام الباب، كنتُ أتساءل لماذا لا ينفد صبره؟ يسند رجلاً على الحائط، وينتظر خروجي. كنتُ أقول له: "إذا كنتَ تريد مجيئي، فعليكَ بالصبر حتّى أذهبَ إلى الحمّام، وأرجع".

يحكّ رأسه، ويعوّج فاه: "الحمّام؟ ألا يمكنكَ البقاء؟".

- لم أذهبْ منذ أسبوع.

- كم ستتأخّر؟

- ساعة واحدة، أو ربّما ساعتان.

- لا بأس، سأنتظر. لكنْ، أستحلفكَ أن تعود سريعاً.

ربّما كان لا يعرف، أو لم يكن يريد أن يعرف أو يهتمّ بالوقت الذي كنتُ أقضيه في بخار الماء الساخن حينما أذهب إلى الحمّام، أزجي الوقت بصبر وأناة، وأُسرف في غسل بَدَني، فأحمرُّ، وأعبُّ الماءَ، وآخذ برداً. وعند الخروج، ألفي ديلاق كما تركتُه مسنداً رجله على الجدار يترقّب.

قلتُ له: "حسنٌ، ديلاق، هل نذهب لتفقُّد مارتا؟".

أصاخ أورهان سَمْعَهُ إلى هَدْأة الثلوج. لم يكن يعرف ما الذي سيحصل،

وهل سيعثر على آيدين أم لا؟ كان موقناً من أنه حيٌّ يُرزَق. ويريد حتماً أن يُكملَ المشوار حتّى النهاية، ويُنهي الأمر برمّته، كي يرتاح من غصّة آيدين، فيتفرّغ، بعد ذلك، إلى تعاسته هو. كان يعلم أنّه باستطاعته أن يُكبِّله بسهولة، ويتركه في الثلج، من دون أن يخنقه أو يريق دمه أو يلكمه. كان بوسعه أن يربطه بهذا الإطار، أو يقذفه في شورابي من أعلى الصخرة، كي تغرق روحه في الرحمة بسرعة. لأن الوالد كان يقول: "كلّما كان مكان الأموات أبردَ، كان عذابهم أقلّ".

أهرقنا الماء على قبر آيدا، وكانت أمّي تحمل بيدها قارورة ماء ورد، وأنا أنتظر أن تتضوّع منه رائحة العطر. قال آيدين: "لقد عانت ما لا يجب أن تعاني، والآن انتهى كل شيء"، وجلس فوق قبرها وعيناه شاخصتان نحو السماء. يومها كان يرتدي بذلة زرقاء داكنة لافّاً رقبته بشال رفيع، وقد تدلّى من تحت ياقة سترته بمحاذاة أزرارها. كان الوالد منشغلاً بقراءة شيء، فرفع رأسه، ونظر إليه بطرف عينَيْه. ثمّ همس في أذني: "انظر إلى هذا الوغد". وأجبتُهُ بدوري هامساً: "ما دخلكَ أنتَ؟". هزّ أبي رأسه، وقال: "بالتأكيد يريد أن يقصد زقاق أرمينيا على الساعة الرابعة عصراً". وكان آيدين لا يزال ينظر إلى السماء، وكأنه يتابع السقوط التدريجي لمظليّ.

لمّا كنّا أطفالاً كانت ملابسنا ذات لون وزي واحد. كانت أمّي تُناولنا قطعَتَي حلوى "كلوشة" صغيرتَيْن، وتقول: "هيّا للّعب". تعلّمنا أن نمسك بأيدي بعضنا حينما نذهب إلى مكان ما. فحيناً كانت أمّي تُرسلنا، لنجلب لها زرّاً أو شبكة أو شيئاً آخر، وحيناً كنّا نذهب إلى مصنع اللورد للمراوح ونمسك بيدي بعضنا ونركض في المنحدر المفضي إلى المصنع. هناك حيث صخب محرّكات المصنع والعمّال مرتدون ملابس صفراء موحّدة،

يُعبِّئون المراوح في كراتين، ويُحمّلونها في شاحنات جيمس الرابضة أمام البوّابة الأمامية للمعمل. كنّا نذهب معاً إلى المدرسة، وكان حماسنا وشرُّنا أكثر من باقي الصبية، فكنتُ أرشد آيدين إلى الأطفال الوقحين، فيستدرجهم إلى ركن الجدار، ويوسعهم ضرباً وصفعاً وهو يقول لهم: "لا تنسوا أن أورهان أخي". حين أُصبتُ بداء الحصبة، حملني على ظهره، وأوصلني إلى البيت. لكن الزمان لم يكن على حال واحدة. تتخلّله أيّام جميلة، وأخرى سيّئة. وكلّما كبرنا أكثر، ازداد الوضع سوءاً.

قال آيدين: "في هذه البلاد نهرم قبل أن نصل إلى سنّ الثلاثين. أنتَ شكل، وأنا شكل، وآيدا شكل آخر".

قلتُ له: "رخصة العمل يجب أن تكون باسمي، أخي!".

- لا بأس، فلتكن باسمكَ.

- يجب أن تكون موافقة الشريك موثّقة. لكنا لسنا شريكَيْن، نحن أخوان.

ووثّقتُ الرخصة باسمي. قال إياز الضابط: "تقدّمتَ إلى الأمام عشر خطوات. والآن..."

قالت أمّي: "لقد أخطأتَ. لماذا تؤذي أباكَ في قبره. كل ما تملكانه نصف نصف".

واضطُررتُ لترك الوثائق والحجج دون أن أفكّر بمصيرها. وبالليل، حين كنتُ أرقب السماء من حافّة نافذتي، كان صوت رفرفة رموش آيدين وتفكيره يصلني من غرفته في القبو. ولمّا أغمضتُ عينَيّ، رأيته مقبلاً بسكّين كبير، يريد قَطْع بطّيختي الحمراء من الوسط، رأيتُه بوضوح في الضياء. تذكَّرتُ

نَقْلَ أربعين كيساً من الفستق على ظهري إلى قاع السلالم، وإرجاعها ثانية. لم يكن عدلاً. آنئذ كان آيدين يتسكّع ويدرس. وكنتُ أنا مَنْ يباشر العمل في الدّكّان. كان أبي يقول: "العمل للحمار، والأكل للبهيمة". كلاّ. لم يكن عدلاً. هذه السنوات كلها، وهذا التعب كله. قلتُ: "أمّي، ألم يكن بوسعي أن أدرس؟". قالت: " لكم أخبرتك أنه كان بوسعك أن تدرس ".

كانت الحياة صعبة ومريرة. كنتُ أصاب بالحمى في الليل، وأقضي النهار معذّباً. فأنادي: "يا إلهي، أين عدلكَ؟ نصف نصف؟!". فأرقب من النافذة دخان مدفأة غرفتي متصاعداً لملاقاة الغربان، يرتقي، ليجثم على ثنايا أغصان الصنوبر، كي يُذكّر الغربان بأن تنعق في أثناء الشروق: "ثلج، ثلج".

والآن، أنا موقن بأنه حيّ. إنه لا يمرض. بيد أن أسنانه متآكلة بالكامل، ولا يقدر على قضم الخبز والجوز، وباقي الأطعمة لا تدور في فمه. أكثر ما يتناول الحساء. مظهره أشبه بالعَجَزَة البائسين، غير أنه لا يُعرَف له قرار. يستيقظ من أولى نسمات الفجر حتّى نباح الكلاب، ولا أعرف عمّ يبحث.

سأله الوالد: "عمّ تبحث؟".

أجابه: "عن نفسي".

في البدء، كان يُخيَّل إليّ أن له رفيقاً جنّيّاً يُعذّبه، وأحياناً كنتُ أتخيّل أن الجنّ قد سكنه بالفعل. لكنْ، لا شيء من هذا حدث. علمتُ أنه يُعذّب نفسه، ويتمادى في ذلك. أشياؤه كلها كانت معكوسة. حتّى عشقه كان لغير آدمي. كان مُكتوياً بنار حبّ أرمينية شقراء، تُدعى سورمه. عمل لسنوات في معمل للخشب. صرف دخله كله في شراء الكُتُب. وكان يرى نفسه شاعراً.

سأله الوالد: "عمّ تبحث؟".

أجابه: "عن نفسي".

لم يكن ممكناً توقُّع الكثير من شخص يبحث عن نفسه، فلا يجد إلا الجنون. جنون لا يؤذي ولا يُحتمَل. كان يزجي يومه كله، من الصباح إلى الليل، في عمق الخان بين جمع العمّال والحمّالين. وبالليل يتبعني، وإلى الوصول إلى البيت، لا يترك أحداً يلتقي به في الطريق إلا حيّاه، وردّ عليه التحية، أو سأله عن شيء. وإذا لم يجد أحداً يحسب أعمدة الكهرباء الخشبية.

قال: "أترى أخي، أسبوعان والثلج ينزل!". نظر من فتحة سقف قبّة الخان إلى السماء، وأردف: "من كثرة ما تهاطل الثلج، انتابه الخجل من الناس. والآن، والناس نيام، ما يزال يسقط".

هذا الثلج اللعين شرّدني أنا أيضاً. غيومٌ بالنهار، وتساقط للثلج، بالليل، في نَفَس واحد لا ينقطع.

قال: "هل أسأتُ القول أخي؟".

ضحكتُ وقلتُ: "الحُرّيّة، قلْ ما يحلو لكَ".

دخل إلى الدّكّان، وملأ جيبه بحفنة بزر، ثمّ جلس على كيس، وقال: "أخي! أعطني نقوداً لأذهب إلى الحمّام".

كنتُ واقفاً في صدر الدّكّان، وطلبت من أحد العمّال أن يعطيه قطعة نقدية من فئة تومانَيْن. قال آيدين: "أخي، اطلب منه أن يعطيني أكثر، أريد أن أحتسي الشاي أيضاً".

قلت: "الشاي متوفّر هنا".

قال: "الشاي فقط شاي مقهى شورابي" واقترب منّي، وتوقّف. كان يبدو مُنهكاً وصوته يشبه البكاء. قال: "أخي! يجب شدّ الرحال، لقد طفح الخراب".

قلت: "إلى أين، إن شاء الله؟".

قال: "إلى مدينة زابول، وربّما إلى كابول".

قلتُ: "خيراً إن شاء الله. لا تنسَ الهدايا!". وما أدراني ربّما ذهب، ولم يعد أبداً.

لمّا رجعنا من ويلادره، اضطربت حاله. قالت له أمّي: "أدخِلْ أصبعكَ، لتزيله". أدخلَ وسطاه حتّى حلقه، لكن لم يستطع إخراجه. سألَتْه: "ماذا أكلتَ؟".

أجبتُها: "كباب ولبن وأشياء يأكلها الناس كلهم".

- ألم تُصَب أنتَ بأذى؟

- لا.

- إذنْ، لماذا آيدين صار بهذا الوضع؟

- لا أدري.

- خذه إلى الطبيب.

كانت حالته متأزّمة، فأخذتُهُ إلى الدكتور "ناي دانف". جلسنا في صالة الانتظار. كان يقول: "في رأسي سوق الصفّارين".

كانت رائحة الثوم الساخن تنبعث من طابق العيادة العلوي. قلتُ: "اصبرْ إلى أن يصل دورنا".

قال: "كأنهم يغسلون الغسيل في قلبي".

قلتُ: "يجب أن تستريح بضعة أيّام". كانت يداي ورجلاي، عَبَثَاً، ترتجفان وجسدي عمّه خمول مضحك، وقلبي تسارعت ضرباته. قلتُ له: "إن أعصابك مضطربة".

قال: "أشعر كأن سلكاً يُغرَز في قَدَميّ".

قلتُ في سرّي: "إذنْ، قُضي عليكَ". أمسك رأسه بين يَدَيْه، وجعل يخضخض نفسه، يتقدّم ويتراجع القهقرى. لجّ في حيرته. ذاك الصباح تمكّنت منه نوازع الغمّ والوهن. وصل دورنا، فدلفنا. غدا الدكتور ناي دانف أكثر سمنة، مثلي الآن. كان جالساً إلى تلك المنضدة الخشبية البنّيّة، تُزيّنه لحية البروفسور، وتعلو جبينه تجاعيد وانكماشات. قال: "أيكما المريض؟".

أشرتُ بيدي إلى آيدين، وجلستُ.

سأل الدكتور: "ما به؟".

قلتُ له: "في رأسه سوق الصفّارين، وفي قلبه، يغسلون الغسيل، وفي قَدَمَيْه يغرزون أسلاكاً".

فردّ الدكتور: "خذه إلى مستشفى المجانين". ثمّ فحصه، ووصف له الدواء. وفي طريق العودة، كان يعاند كل ما أقول له، ويصرّ على كلامه: "أطفئ المصباح الذي فوق رأسي".

قلتُ: "إنكَ، حتماً، مصاب بالحمّى".

كان يتمتم بشيء بين شَفَتَيْه، ويهزّ رأسه، ويفتح عينَيْه بصعوبة. يخطو خطوات كبيرة ويلوّي يَدَيْه غير مهتدٍ طريقه. قال: "إنه الزلزال".

قلتُ: "أين؟".

قال: "أدركتُ للتّوّ أن البلاد التي تخوض حرباً توشك أن تتزلزل. ستسألني لماذا؟ الأمر واضح، ستفهم حين تتطاير الحمم من قمم الجبال".

أحياناً كان ينظم الشِّعْر، ويقول كلاماً ما سمعتُهُ يقوله من قبل. قالت أمّي: "بمَ ضربتَهُ على جمجمته؟".

قلتُ: "أنا؟". ومن دون أن أشعر، تسلّلتُ إلى منزل العرّافة، وأحضرتُها. ومع ذلك لم أستطع إقناع أمّي ببراءتي. قالت العرّافة: "تصدَّقوا، لو زدتُ حرفاً واحداً على هذا الكلام، لانقطعت سلالتكم".

كانت الأمّ قلقة ومضطربة، لا قرار لها، وليس بيدها حيلة. قالت: "ربّما يكون شخصاً آخر".

قالت العرّافة: "احمدي الله أنه بهذه الحال".

قلتُ: "أماه، اسأليهِ بنفسكِ. أتعتقدين أن أحداً ضربه على جمجمته؟".

قالت العرّافة: "على ما يبدو هو فعل في نفسه ما فعل".

قالت الأمّ: "لا أعلم"، وأجهشت بالبكاء.

كان ينزل من السلالم، ثمّ يصعد مجدّداً، يفتح النافذة، ثمّ يُغلقها، حائراً لا يدري ما يفعل.

أرقَدْنا آيدين على السرير، لكنه لم ينم. حملناه إلى حجرته الفسيحة تلك. لكنْ، هناك أيضاً كان ينهض، ويبدأ بالهذيان والثرثرة.

قالت أمّي: "اذهبْ إلى طبيب آخر".

قال الدكتور "شوشانيك": "منذ متى وهو بهذا الوضع؟".

قلتُ: "منذ أيّام، ووضعه غير طبيعي، أما اليوم، فقد تفاقم الأمر".

قالت أمّي: "إلى أين ذهبتَ؟ ماذا أكلتَ؟".

قلتُ لها: "ذهبنا إلى ويلادره، أكلنا الكباب، وعدنا".

قال الدكتور: "لا يمكن أن يكون تسمُّماً. إنها صدمة مفاجئة". ثمّ أخذ عيّنة من دمه لإجراء التحاليل.

ثقل لسان آيدين، وبدأت شفتاه تتحرّكان بسرعة، وشرع يتفوه بكلام، لا نعرف فحواه، ولا يستقرّ في مكان. حقنه الدكتور شوشانيك بحقنة ضغط، أرقدتْه، ثمّ انصرف. ثمّ بدأت الأمّ تغسلُ قَدَمَيْه بانتظام، لتخفف من حرارته وهي تذرف الدموع. كانت تعتقد أنه محموم. وقفتْ قبالة الباب على الدرج، ونظرت إليّ نظرة سخط، أذابتْني.

قالت: "لقد فعلتَ فعلتكَ أخيراً"، ثمّ وضعت رأسها على حافّة سرير آيدين، وضجّت بكاء.

لكنْ، ليتها بقيت على قيد الحياة، لترى ما أعاني! لو أنها رأت كم ضاقت بي الأرض بما رحبت من جرّاء هذا الإنسان حتّى اضطُررتُ لتكبيله بالسلاسل إلى درابزين الشرفة العلوية، لبكت لحالي.

الحركة الثانية

-١-

يوم اشتري الأب الدكّان من شريكه لم تسعه الدنيا فرحاً. جلب لابنه البكر، يُوسُف، قلمَ حبر، يسيل مداده، فازرقّت أصابعه، وانسكب المداد على السّجّاد، فغسلتْه الأمّ مُرغَمة. قال الأب: "يا له من طفل بليد!".

كان يُوسُف ولداً ساذجاً، وقليل النباهة. يستطيع أيٌّ كان خداعه ببساطة. حتّى كان ممكناً بكذبة عادية إغراق رأسه في حوض الماء. كان حسّاساً أكثر من اللازم، فاقداً لقوّة المعارضة وقُدرة تحمل المشقّة. غالباً ما كان ينزوي للبكاء، ويتلهّى بشيء، لساعات طويلة. لا يصدر له صوت، ولا يطلب شيئاً، مثل مرضى السّكّري، لكنْ، لا يتبوّل، ولو لمرّة واحدة في اليوم، ولا يشتكي من أيّ ألم. كان يبدو منتقع اللون كئيباً حزيناً. لم تكن لعينَيْه قدرة التطابق. وحين كانوا ينادون عليه، يرجع ويظلّ، للحظات، مُحدِّقاً، ثمّ يقول "نعم".

قال له الوالد: "نعم، وبلاء. لمَ لطّخت أنفكَ بالمداد؟ ها؟"

اشترى الوالد لآيدين مجهراً ألمانياً، كي يلهو به، ولا يعود لسرقة زجاج نظّارات أحد. قبل ذلك بشهر، قدم الجدّ مع أبنائه وبناته من مدينة أرومية إلى أردبيل، لزيارة نجلَيْه جابر وصابر بعد ستّ سنوات من الغياب. صابر أصبح محاسباً لدى إدارة البلدية، والوالد، بعد بيع نصيبه من ضيعة العنب، هناك، واشتغاله هنا، ليل نهار، تملّك دكّاناً في خان باعة المكسّرات.

حينما عثروا على زجاجة نظّارات الجدّ في محفظة آيدين المدرسية، كان الوقت متأخّراً، لأنه كان قد تحسّس طريقه عائداً إلى أرومية بنظّارات من عين واحدة. وكان ذلك آخر سفر له إلى أردبيل. كان الوالد يقول: "لم يرجعْ من هنا مطمئنّ البال".

كان الجدّ إنساناً عجيباً، تُروى عنه قصص غريبة. كان الأب يظنّ أنه مبالغ في اللجاجة، لأنه كان قد باع للحكومة القاجارية الحجر قبل أربعين سنة، ولم يتسلّم أمواله. مات الملك السابق، وخَلَفَهُ ملك جديد، وراجعه الجدّ، وقالوا له إن الزمان تغيّر. بعد ذلك بتسع وثلاثين سنة، لم يترك الجدّ مكاناً إلاّ وأبلغه شكايته، سافر، عدّة مرّات، إلى طهران وتبريز، لكنْ، من دون جدوى. ذلك كله من أجل مبلغ مضحك. من أجل اثنَيْن وثلاثين توماناً وقرانين، طاف الإدارات كلها، وكتب العرائض والشكايات، من دون طائل أيضاً. وفي عهد رضا شاه، دبّج شكاية طويلة عريضة للتظلّم، لكنهم مزّقوها، وأعاد كتابتها من جديد. وحتّى في ظروف الحرب العالمية، أعاد الكرّة، فكتب الرسائل والشكايات، والتمس هذا وذاك. وفي آخر سفر له إلى أردبيل، كان يجرّ معه الملفّات والوثائق كلها في محفظة بنّيّة، ويتحدّث باستمرار عن اثنَيْن وثلاثين توماناً وقرانين. كان الأب ينوي إعطاءه هذا المبلغ، وإنهاء الأمر، لكنه اعترض، وقال إنه لم يأخذ رشوة في حياته، ويريد حقّه. مكث في بيت نجله جابر بضعة أيّام، ثمّ عاد إلى أرومية. وبعد سَنَتَيْن، كان يوصي أبناءه، وهو مستقبل القبلة يُداري لحظاته الأخيرة: "لا تسمحوا لهم بأكل حقّكم، أتفهمون؟ هذه وصيّتي الوحيدة إليكم".

كان الأب يقول: "بالتأكيد، كان في لحظاته الأخيرة تلك يفكّر في نظّاراته". ثمّ بكى وقال: "لم يذهب من هنا مرتاح البال".

حين عاد آيدين من المدرسة، عاجله الأب: "يا ابن الكلب، ماذا كنتَ تريد أن تفعل بزجاجة نظّارات أبي؟". لم يكن آيدين على علْم بعثورهم على الزجاجة مدسوسة في محفظته، لذلك أقسم أنه لا يعرف شيئاً عنها. قال له الأب: "لا تُجادلني"، واقتاده إلى الباحة، وقيّده إلى غصن الصنوبرة، وانهال على مؤخّرته جَلْداً بالحزام حتّى لهث من شدّة الضرب، لكنْ، من دون فائدة، لأن آيدين ظلّ يُنكر ولا يعترف، وازداد حنق الوالد، وعاود ضربه. وقتها، كان عمر يُوسُف تسع سنوات، وكان يشهق بكاء في الناحية الأخرى من الشرفة العلوية، ويصرخ. فصاح عليه الأب: "أنتَ، لمَ تصرخ، يا ابن الكلب؟".

وإلى أن وصلت الأمّ بنَفَسها المتقطّع لنجدة عزيزها المعذّب، كان الوالد قد زرّق جسده بسوطه. ذهبت، مقطّبة الجبين، وصدّت الوالد، وانتزعت منه الحزام، وصرخت عليه: "ما شأنكَ أنتَ حتّى تجلدَ بُنيّ؟"

- هو ولدي أيضاً.

لم تزدْ كلمة واحدة، فكّت وثاقه، منتحبة، ثمّ أخذتْه. في الغد، لم يذهب آيدين إلى المدرسة من شدّة الألم في الأقدام والخصر. بقي في البيت، وزاد حالة الأمّ سوءاً على سوء.

يوم اشترى الوالد الدكّان من شريكه، لم تسعه الدنيا فرحاً. اشترى لأورهان ذي الخمس سنوات شاحنة حديدية مستعملة، لها اثنتا عشرة عجلة مطّاطية، لمّا كان يجرّها أورهان بحبل في الباحة تُصدر صوت "تاخ، تاخ، تاخ". كان آيدين، دائماً، يتحيّن فرصة نوم أورهان أو غفلته لهُنَيْهَة، كي يتفحّص الشاحنة، ليعرف مصدر الصوت؛ يستخرج أحشاءها، ثمّ يعيد تركيبها من دون أن يفهم شيئاً.

بضعة أيّام بعد ذلك، صنع بواسطة خشبة وخصلة خشبية وسلك وعدد من أقلام حبر يُوسُف، سيّارة لا تُصدر صوتاً، ولا تتحرّك عجلاتها. ثمّ عاد ثانية إلى سيّارة أورهان، وفكّكها قطعة قطعة، وركّبها من جديد، ولم يفهم شيئاً أيضاً. بعد خمس سنوات، أكمل تصميمها: جلب قطع حديد، وقطعة خشب، وعلبة، وأشياء أخرى جمعها من مصنع اللورد للمراوح، وصنع سيّارة شبيهة بتلك التي يملكها أورهان، تُصدر صوتاً، وتتحرّك، وتضيء مصابيحها الأمامية، لكن ذلك كان على حساب سيّارة أورهان التي خرّبها.

قال له الوالد: "يا ابن الحمار! ألم أشترِ لكَ مجهراً؟ ما شأنكَ بسيّارة أورهان؟"

لم يكن الأب يعرف كيف يُبدي سروره. يذهب بلا وجهة، من الطابق السفلي إلى العلوي، إلى نهاية الممرّ وغرفة الضيافة والغرفة الأخرى. ثمّ يفتح، غير واعٍ، النافذة، ويشرع في الحديث إلى الجيران، من أعلى، والاستفسار عن أحوالهم. ثمّ يعود إلى الغرفة السفلية ويخاطب الأمّ: "إذا كانت للأولاد كفاءة فباستطاعتهم، لاحقاً، شراء الدكّان الكائن بركن الخان، حتّى إذا جعلناهما واحداً..."، لكنْ، لا أحد كان يصغي لكلامه.

اشترى لآيدا دمية مطّاطية أمريكية، تصيح كلّما ضغطوا عليها. كانت الدمية لا تفارق أحضان آيدا، ولا تصرخ من كثرة مداعباتها لها. كانت بدينة سوداء حين يكبسون على خصرها تقطب جبينها، وتُطلق صيحة شبيهة ببكاء النساء النائحات. بعد سَلْخه ضرباً من قِبَل الوالد، أخذ آيدين الدمية إلى الغرفة العلوية، ليتسلّى بها، نزع صافرتها بأسنانه، وأدرك أن مصدر صراخها، زرّ صغير وضعه تحت أسنانه، ونفخ فيه، وأحسّ بمتعة عجيبة، فتابع النفخ. لمّا سمعت آيدا صوت صراخ دميتها، أطلّت من النافذة، ورأت آيدين يُصدر صوت دميتها. توجّهت صوب الباحة، وأمعنت النظر،

لكنها لم تفهم شيئاً، حتّى إنها راقبتْه عن كثب، ولم تفهم شيئاً أيضاً. قال لها آيدين: "اضغطيني".

ضغطتْه، فأطلق صرخة مثل صرخة الدمية. حينئذ ذهبت آيدا صوب دميتها، ومهما بكت وانتحبت، لم يسمع أحد صوتها. فقرّرت أن تقتصّ لنفسها. ولمّا كان آيدين يلهو بقلم حبر يُوسُف، انقضّت على أذنه، وعضّتْها حتّى صاح آيدين: "احترقت".

قالت له آيدا: "أعطني صرخة دميتي".

ليلتها، نجا آيدين من سَلخة أخرى، لأن الأب لم يكن ليُلوِّث دمه من أجل آيدا، وكان يعتقد أن على البنات تعلُّم شؤون البيت، لأنهن حين يتزوّجنَ سيُنجبنَ دمى حقيقية، يتعاملنَ معها. في اليوم الموالي، وكان جمعة، قضى آيدين وقته في اللعب بالمجهر والورق وأشعّة الشمس، يجمع حوله أولاد الجيران، ويحرق دفاترهم وكُتُبهم بدون أن يُوقِد عود ثقاب، وما كاد الأطفال يهبّوا لإنقاذ دفاترهم وكُتُبهم حتّى كان الأوان قد فات، فتأجّجت شعلة النار في ذلك الجوّ الخريفي العاصف.

لم يكن آيدين لَيِّن الجانب، كان الشيطان يجري في دمه مجرى العروق، يوسوس له في أذنه، ويدفعه إلى الحركة، ليقضّ مضجع الآخرين، ويسلبهم أمانهم. كان لا يُعرَف له قرار ولا مستقرّ. يقضي اليوم كله في البحث عن شيء ما. تنبعث من رأسه حرارة عجيبة مثل توأمه آيدا. أحاطتْه الوالدة بالرعاية والحبّ، وأغدقت عليه الألعاب والمال والطعام وكل شيء كان بمتناولها، بينما الوالد كان في حيرة من أمره، ماذا يفعل بابن الحرام هذا؟! أصابه الذّلّ بسبب عصيانه. ومن دون أن يبذل جهداً كبيراً في الدَّرْس، كان يحصل، باستمرار، على درجة عشرين، فتزداد حيرة الوالد. بيد أن الأب لم

يكن يعرف حلاً آخر غير الضرب والعقاب، ولهذا السبب، لم يستطع أن يكبح جماحه. وأدرك، في نهاية المطاف، أنه لن يكون ندّاً لهذا الصبي ذي السبع سنوات. كان الأب ينشد الراحة، يعود من دكّانه، مرهقاً، باحثاً عن طفل هادئ وودود يملأ عليه فراغه. لذلك، كان يُفضِّل أورهان على سائر أولاده. كان حلو اللسان، هادئاً مثل يُوسُف، ملتصقاً بالأب والأمّ أكثر ممّا يجب، وهو ما كان يرتضيه الأب. كانا يضعان اللقمة في فمه، وليلاً ينام على فخذ والده. كان مطيعاً، عكس التوأم المشاكس، آيدين وآيدا. كان كل همّه أن ينام على رجلَي الوالد، ويأكل الفستق الممضوغ. فكان الوالد يلوك الفستق، ويضعه في فمه. وصار هذا الصنيع عادة لكلَيْهما.

كان يُوسُف يودّ، هو الآخر، أن يأكلَ الفستق الممضوغ، كما في السنوات السابقة، بيد أنه قنع بتمثُّل ماضيه في أورهان الصغير. من دون إزعاج أو تذرّع بأتفه الأمور، كان يلهو ويلعب بشيء حتّى يأخذه النوم وهو في مكانه. كان، في بعض الأحيان، يجلس في ركن، ويظلّ مُسمِّراً عينَيْه على كلام الكبار وحركاتهم، مُتحمِّلاً شَغَبَ الصغار. وحتّى لو سكبوا كوب ماء على ياقته، لم يكن ليحرّك ساكناً. كان يعتقد أنه يجب أن يكون بهذه الحال. وكان أكثر شيء يُسلّيه التوأم. كان يحبّهما، ويمنحهما طعامه، ويتقرّب منهما، ليكسب ودّهما، غير أنه لم ينجح. يمُسكان بيد بعضهما، ويذهبان إلى جانب الباحة، وينضدّان فاكهة الصنوبر في شكل قلعة أسطورية قديمة.

كان الأب يقول: "يُوسُف وأورهان يشبهانني".

بعد مرور سنوات، وفي ليلة شتوية باردة، حيث كان الوالد مُسجّىً في سرير حتّى ذقنه بملاءة، مهموماً بحال آيدين، قال: "لا أعرف لمَنْ يشبه هذا؟! مهما أطلتُ التفكير لا أجد في سلالتي أو قبيلتي مثل هذا النوع من البشر، لا هيئة ولا سلوكاً".

قالت الأمّ: "أنت زرعتَ، وأنا ولدتَ".

- ليتني ما زرعتُه، وليتكِ ما أنجبتِهِ.

انتحى الوالد سبيل المعصومين، وضيّق عينَيْه، وقال بنبرة حزينة: "كأنه ليس ولدنا، لا يأخذ مالاً، وليست له حاجة، ولا يُقيم وزناً لأحد".

بعد مضي سنوات، لم يستأنس آيدين، أيضاً، في نفسه إحساساً يربطه بهذه الأسرة. نسي، كُلّيّة، شَغَبَ مرحلة الصِّبا وشقاوتها. بالنسبة له، لم يعد لأيّ شيء جدّة. كأنه وُلد في هذه الدنيا مرّة، والآن، يعيش تجربته الثانية. كان يحسّ أنه لا يشبه أحداً من أفراد هذه الأسرة. والشبه الذي كان بينه وبين آيدا انمحى مع مرور الزمان. في سنّ الثامنة عشرة، صار نحيلاً، وامتدّت قامته، وفقد وجهه تلك الملاحة المحبّبة، واصطبغ بغبش الحزن والكآبة. كانت عينا الأب صغيرتَيْن زرقاوَي اللون، بلا رموش تقريباً، وعينا الأمّ، حتّى وإن تعمّدت مَدَّ خطّ الكُحْل فوقهما، لتشبه عينَي آيدين التاتارِيَّتَيْن، لم تكونا مائلتَيْن. كان الأب صغير الهيكل مثل حبّة زبيب يابسة. على عكس صوته الذي يحار المرء من أيّ مكان من جسده يصدره. صوت بارد وقاطع، يشبه تسلّط صوت عناصر الأمن.

قال الجدّ في آخر سفر له: "كان جابر وصوته دائماً مثل رشّاش هكلر آند كوخ".

كانت الأمّ نحيفة وظريفة متدفّقة، لها شَعْر أسود جميل، حين تفكّ ضفائره يتجعّد ويتموّج. أما آيدين، فكان مربعّ الأكتاف طويلاً بحواجب كثّة، تكاد تلتصق ببعض. وعيناه الضّيّقتان وشَعْره الصافي المَلمس الذي يحجب جبينه، يمُيّزانه من آيدا.

قال الوالد: "انظرْ إلى هذَيْن الشيطانَيْن، إنهما يستحيلان شرّاً".

ردّت عليه الأمّ: "طيّب، أنت تعرف الأطفال؟ ...".

- لن يموت هذا الولد ميتة طبيعية. سيُنزل بنفسه مصيبة وبلاء.

- لا قدّر الله!

تجهّمت، ونظرت نظرة ساخطة، وقالت: "ما هذا الكلام الذي تتفوّه به، جابر؟! آيدين قرّة عيني. الكل في واد، وهو في واد آخر". كانت تفديه بفكره وبنومه وبشغبه وحتّى ببكائه. كانت تقول: "إن صوته مخملي".

احتضن الأب أورهان، وأظهر للجميع قبضة يده التي لا يمكن فتحها، وقال: "انظروا إلى هذه اليد، هذا الولد سيكون جامعاً للمال، حياتي ستكون في قبضته. إنه ولدي أورهان".

لم يعرْ آيدين أدنى اهتمام لهذا الكلام، لكنْ، فيما بعد، في اللحظات التي كان يتعقّب فيها الغربان في تلافيف ظلمة الليل، تذكّر أن غربان شجرة الصنوبر لم تكن يوماً في مأمن من شرّ أورهان. كان ينقضّ عليها بالقوس والسهم. وتعلّمت آيدا أن ترتقب هذا وذاك، ولا تحظى بغيضٍ من فيض المحبّة التي تُغدَق على إخوانها.

كانت آيدا صنوة آيدين، بلا أيّ نقص، جميلة الابتسامة، مشاكسة ومشاغبة. ما إن ترى والدَيْها بعيدَيْن حتّى تقلب البيت رأساً على عقب. كانت تثير حيرة إخوانها، وتُطوّعهم. فضلاً عن ذلك، كانت آية في الجمال، وهذا ما أقلق الوالد باستمرار. كان يتمنّى لو كانت آيدا وقورة ورزينة وخرساء، أو متخلّفة حتّى. لكنْ، على عكس ذلك، كانت تحصل على كل ما تريد بجمالها وحيناً ببكائها، وحيناً آخر بتقاسيم وجهها. فجأة يفطن الوالد، الذي كان على الدوام منشغلاً بدكّانه وتجارته، إلى التغيير الذي بدأ يطرأ في البيت؛ نُمُوّ الأولاد، ورشدهم سريعاً، وخاصّة آيدا، مثله تماماً،

إذ كان كل عام يضاف إلى عمره سنة أخرى. بيد أن قامة آيدا كانت تتفرّع بسرعة، وتزداد جمالاً.

كان الأب، طوال الزمان، يكبح طبعها الجموح والمشاكس، ويقف سدّاً منيعاً أمام فورانها الروحي، كي يصنع منها فتاة وديعة منقادة. غير أنه ما كان يقدر على ذلك بمفرده، فيلتمس العون من الأمّ، ويطلب منها تربية آيدا في المطبخ. قال لها إذا أرادت تعلُّم الخياطة، فليكن في المطبخ. حتّى لو أرادت تعلُّم التطريز، فليكن في المطبخ أيضاً. فكانت آيدا تذبل في المطبخ، وتتطبّع مع الوحدة والخوف. لم تكن لها زميلة، ولم تتخطّ رجلها عتبة الدار، ولم يكن أحد يزورها في البيت. ورويداً رويداً انفصلت عن إخوانها، وغدا طبعها غريباً، لا مثيل له بين أفراد أسرتها. كانت تتحسّر على دوران عجلة الزمان الذي لم يكن لها موطئ قَدَم في أي بقعة فيه. تستأنس بالصمت والسكوت، وتتلاشى عن الظهور حتّى نسيها الجميع. كأنها جاءت إلى هذه الدنيا، لتكون وحيدة. أُصيبت في سنّ الحادية عشرة بروماتيزم المفاصل، ووصف لها الدكتور شوشانيك حقنة بنسيلين قوية، تُحقَن بها مرّة في الشهر. ومنذ ذاك الحين بدأت تذهب رفقة آيدين إلى عيادة الدكتور شوشانيك، تستسلم فوق السرير، وتعود إلى البيت عرجاء مشلولة. تتناول طعامها في المطبخ بمفردها، تقوم بأعمال الغسيل بمفردها، تطبخ بمفردها، تنام منفردة، وكأنها خادمة غريبة مصابة بالجذام. لم يكن أحد يسأل: "أين آيدا؟" إلا آيدين، حينئذ ينهره الوالد: "ما دخلكَ أنتَ؟". وبعد مدّة، غادرت فتاة تُدعى آيدا بيت والدها، متحسّرة وصبورة ومنكسرة وكئيبة، رأساً إلى بيت زوجها.

-٢-

في أوّل شهر سبتمبر، وتحت إلحاح الأمّ الشديد، لم يذهب الوالد إلى الدكّان، وبقي ليُسجّل يُوسُف وآيدين في المدرسة. ألحّت الأمّ على أن يكون ولداها أوّل المُسجّلين، ويتصدّر اسماهما اللوائح. قال لها الأب: "هذا إيذاء، والله، إنه إزعاج".

قالت: "إذنْ، مَنْ سيُسجّلهما؟" ثمّ ألبست الولَدَيْن بسرعة، ومشّطت شَعْرهما، ومرّرت منديلاً مبلّلاً على وجهَيْهما، وأردفت: "لا بد لكل أب أن يزور مدرسة أبنائه، ولو لمرّة واحدة في السنة، الآن لا وقت لديكَ، تستطيع لمرّة واحدة في السنة".

ارتدى الوالد بذلته، لكنه كان ينتشي بالتنكيد في أثناء مباشرته لعمل ما. وبرسم العادة، ضرب براحة يده بقوّة على طرف القبّعة، وقال غاضباً: "لو لم أكن أنا..." اعتمر القبّعة، وتساءل وهو نازل السلالم: "في أيّ صفّ أُسجّلهما؟"

في الزقاق، كان البعض يسرع الخُطى إلى الشارع فيما الدكاكين لا تزال مُقفَلة. وعلى غير العادة، كان معمل المراوح غارقاً في السكون، ويبدو أن نشاطه اليومي لم يبدأ بعد. ومن غير أن ينطق بكلمة، أحسّ الوالد أنه يتعيّن الإمساك جيّداً بيدَي الوَلَدَيْن. لمّا كان يعبر من أمام معمل المراوح تأمّل، للحظة، في الحفرة، وتوقّف بالقرب من الأسلاك الشائكة المحيطة

بالمعمل، أبقى الوَلَدَيْن في الخلف، وقال: "إلى أين يذهب هؤلاء الناس كلهم؟!" ، وطفق يتحدّث مع نفسه بكلام، لا يفقه الطفلان منه شيئاً.

كان عمّال المعمل يخرجون من قاعَتَيْن كبيرَتَيْن مسقوفَتَيْن بأسقف حديدية حمراء، بسطت ظلالها على جانب صفّ من أشجار الحور، يحملون بأيديهم مجارف وعتلات قاصدين الشارع عبر منحدر. لا يصدر من المعمل أيّ صوت، وكما يقول الوالد، المدينة تشبه مدينة قوم النمرود حين تركوا ديارهم وحيواتهم، وتوجّهوا صوب الصحراء.

في الشارع، التأم جمعٌ غفير من الرجال ماسكين بأيديهم أعصية أو مجارف، والبعض منهم مسلّح، وجوههم متجهّمة ونحيفة، وأعينهم مندهشة، قطعوا شارع الشيخ صفي الدين، وداروا حول ساحة الشاه، ثمّ واصلوا مسيرهم في شارع الشاه إسماعيل، وتوقّفوا قبالة مبنى الأمن الآجري من دون أن يُسمَع لهم صوت. المبنى المليء بالحدائق الصغيرة المترعة بزهور القطيفة والداليا، أكثر ما يشبه، بشبابيكه الحديدية المحيطة به، المستشفى الخصوصي. جلس الجميع على الأرض، ودبّت بين القوم ضجّة مبهمة. كان عددهم كبيراً، لدرجة أن الوالد لم يستطع تحديد نهاية التجمّع في الناحية الأخرى من الساحة. كانت الرياح تهبّ جافّة، فتثير النقع والغبار. أمسك يَدَي الطفلَيْن، وبقي يتفرّج؛ رجال جالسون، وآخرون لا يزالون يتقاطرون؛ يدٌ على قبّعاتهم، لئلا ترفعها الريح، واليد الأخرى تمسك شيئاً بالتأكيد. لم يملك الوالد إلا أن يقول: "إذا هبّت الريح تحت حافّة قبّعتكَ، فإنها ترفعها" . وأحكم إمساك يَدَي يُوسُف وآيدين، وتوقّف ليتابع مجريات الأحداث.

سأل رجلاً متأبّطاً يده متّكئاً على فأس خشبي: "ما الخبر؟".

لم ينبس الرجل ببنت شفة، وابتعد عن ذلك المكان بسرعة. فقال الوالد: "إذا لم نصل إلى البيت، فسوف يُلقى علينا القبض مع هذا الجمع". لكنه لم يعرف سبب احتشاد هذه الجموع. كان فقط يختار الطُّرُق الخالية، ويسوق الوَلَدَيْن من ورائه. كان قد شهد، فيما مضى، اقتياد الرجال العاطلين إلى طهران أو المُدُن الأخرى لحَفْر الأنفاق وشقّ الطُّرُقات. ورأى في الصباح الباكر وعصراً جموع العمّال في ساحة "عالي قابي"، والآن ازداد تعجّبه، ليس بسبب تجمّع هذه الحشود قبالة دائرة الأمن، أو بسبب حمل بعضهم للبنادق، أو بقائهم ساكتين لهذا الحدّ، إنما كانت حيرته كبيرة من أن أردبيل تحوي هؤلاء الرجال كلهم، وهو لا يعلم. سأل عجوزاً: "ما الخبر؟".

- لا شيء.

ونظر العجوز المتجهّم في وجهه نظرة، طأطأ لها رأسه. بعد ذلك، حاول ألا يسأل أحداً. سلك جانباً من الشارع، وحثّ السير، فإذا به يرمق إياز الضابط بهيكله الضخم وشاربه المتدلّي على الخَدَّيْن. قال من بعيد: "إنه هو".

اندفع آيدين: "مَنْ؟".

- لا تتكلّمْ، وانطلِقْ.

نطّ مسروراً ناحية إياز الذي كان واقفاً على درج مُسمّراً عينَيْه في الجموع. أراد أن يتقدّم ليسلّم عليه من خدّه، لكن إياز نظر نظرة مقيتة، وهزّ شاربه. ثمّ تمتم: "الأوضاع سيّئة، أنتَ لا تعرفني أبداً!"، وغمزه غمزة ودودة حتّى تموّج شاربه تموُّج النبات في البستان.

تظاهر الوالد بأنه ينظر إلى المبنى المقابل، وتوقّف جنب إياز وسأله: "ما الخبر؟"

- أمن وأمان.

- خسرنا أم ربحنا؟

دفع إياز الضابطُ بيَدَيْه الضخمَتَيْن الحشودَ إلى الجهة الأخرى، ونطق من بين أسنانه: "الألمان، الروس، إلى جهنّم، ملاعين"، ثمّ ألقى نظرة على الوالد الذي استطاع بالكاد أن يقول: "ماذا يجب أن نفعل، إياز خان؟".

- أن تلزمَ الصمت، فقط.

- أنا مرتاح البال، إياز.

كانت جدران بيته عالية وصلبة للغاية، وبالبناية كوّات مغطّاة بأسقف طويلة، لم تترك للسارق أي حظّ؛ تشبه قلعة، حرص بانيها على رفع نوافذها عالياً مصفّفاً القرميد فوقها، بحيث لا يكون قابلاً للإمساك. فضلاً عن ذلك، قرب معمل اللورد للمراوح من بيت الوالد جعله مرتاح البال لا يحمل همّاً. كان يعلم أنهم إذا احتلّوا المدينة، فلن تصل يد إلى زقاق اللورد. ومع ذلك قال: "الحيطة والحذر!".

صخب الحشود المبهَم، واللغط والتمتمة اللذان دبّا، والريح التي هبّت بشكل رهيب، والإحساس بانعدام الأمن الذي استمرّ لأيّام وأيّام، ذلك كله أدّى إلى ارتفاع الأسعار. ظلّت الإدارات والدكاكين مُقفَلَة. انتشر الجوع، وامتدّت الطوابير الطويلة أمام المخابز. حتّى الشجار والتقاتل لم يصرفا الناس عن الوقوف خلف أبواب المخابز المُوصَدة.

طرأت أمور خارجة عن طاقة الأطفال والنساء، وكان على الأب وحده أن يقف في طابور الخبز من منتصف الليل، ليعود ظهيرة الغد بقرص

أو قرصَيْن. كانت المقاتلات الروسية تُغير، باستمرار، والمظلّيّون ينزلون من أعلى رويداً رويداً. كانت الجموع تنظر إلى السماء، فتعلو أصواتهم: "طائرة، طائرة".

لم يكن الأب مغتبطاً بسبب عشرة تومانات التي دفعها للمدرسة لقاء التسجيل، ونقود المحروقات. شقّ لنفسه مكاناً في الساحة، وسجّل الوَلَدَيْن في مدرسة أنو شيروان العادل. والآن، يريد فقط أن يُعجّل بالرجوع، ويقفل الباب على نفسه. كان يستعجل آيدين المشي: "انطلقْ، إلامَ تنظر؟".

كانت قَدَم يُوسُف تزلّ به كثيراً، وأنظاره مشدودة إلى أوّل سرب من المقاتلات الروسية التي كانت تقوم بمناورة في سماء المدينة، والوالد يجرّ وَلَدَيْه جزعاً، وهما لا يقويان على الإسراع مثله. كان بودّهما لو يتفرجّان، أما هو، فكان يسكب العَرَقَ.

عصر ذلك اليوم، بدا أن حشود رجال أردبيل لم تستطع صدّ الهجوم. استسلم الجيش، واحتلّ الروسُ المدينةَ، وأخلوا الأماكن جميعها. وشيئاً فشيئاً، توقّفت المدينة عن الحركة، وشُلّت شللاً شبه تامّ. سقطت دائرة الأمن، واستسلمت "نارين قلعة"، أكبر حامية في محافظة أذربيجان، وبالليل، كانت الطائرات حاملات الجنود تُنزل المظلّيّيْن الروس جماعة تلوَ جماعة.

قال الوالد: "اقتصدوا في كل ما تملكون".

جمعَ الكُلَّ في غرفة واحدة، وأخذ يغدو ويروح إلى النافذة، ليستطلع الأخبار في الخارج. أبعد عن النافذة آيدين الذي كان يتسلّق الباب والجدار مثل هرّة صغيرة. شرع يتمشّى في الغرفة، وفي نهاية المطاف، قال: "يجب

أن ينتهي هذا الوضع، لا يمكن أن يستمرّ هكذا. إلى جهنّم، يجب أن ينتهي الوضع بأيّ شكل من الأشكال".

كان اللغط يتعالى من بعيد، وأحياناً يُسمَع صوت طلقات نارية آتية من ناحية المدينة. لم يكن أورهان وآيدا المرعوبان يفارقان الأمّ، بيد أنّ آيدين أجبر يُوسُف على تشبيك يَدَيْه حتّى يتسلّق إلى كوة النافذة، لينقل الأخبار، ثمّ أمسك بيده، وسحبه إلى أعلى ليشاهدا ثلاثة مظلّيّيْن نازلين من السماء بمرونة والريح تتلاعب بهم.

قال الأب: "إذا لم أخطئ، فقد تعسنا، وانخرب بيتنا".

كان يُوسُف ممعناً في مشاهدة المظلّيّيْن؛ برأس حليق وعينَيْن حائرَتَيْن، يتأمّل في السماء، كأنه إذا طرفت عيناه، لن يستطيع رؤيتهم مجدّداً. كمَّم لسانه، وسال لعابه. لكن آيدين كان يواصل الشرحَ لأمّه؛ مكان المظلّيّيْن وعددهم ولونهم وإلى أيّ اتّجاه تُرسلهم الريح. وهذا كله يتوقّف على الحظّ، إذ من الممكن أن ينزل أحدهم على الصنوبرة، أو يسقط في حوض الماء. وفجأة، فطن الوالد إلى آيدا، وفكّر في مكان آمن.

قالت الأمّ: "السماء تمطر بشراً، أليس هذا شقاءً؟".

أجابها آيدين: "لا، ليس كذلك، إنه منظر جميل للغاية".

قال الوالد: "تركوا المُدُن كلها، وجاؤوا مباشرة إلى أردبيل. هذا نصيبنا".

قال آيدين: "لو سقط أحدهم على الصنوبرة، فسوف يعْلَق هناك بين الأغصان".

ردّت الأمّ: "لا ندري ماذا يريد بنا هؤلاء الكفّار".

قال آيدين: "في اليوم الأوّل لا نُطعمه، نتركه يعاني قليلاً في الأعلى حتّى يستقرّ حاله".

قالت آيدا: "نصبُّ عليه الماء من نافذة الغرفة العلوية".

قال آيدين: "ونضرم النار تحت الشجرة أيضاً"، ثمّ مسح يَدَيْه ببعضهما، وضحك منتشياً.

قالت آيدا: "في اليوم التالي، نعطيه الخبز".

قال يُوسُف: "لا تعطوا له شيئاً، من الأفضل أن يموت بسرعة".

قال آيدين: "كلا، لنعطه كل يوم قطعة خبز حتّى لا يموت، لدينا معه شغل حتّى وقت بعيد".

قالت آيدا: "نعم، نأخذ عصا طويلة، ونمرجحه، يذهب ثمّ يجيء".

قال يُوسُف: "حسن، أعطوه خبزاً، لكنْ، لا تؤذوه كثيراً".

قال آيدين: "هناك اثنان آخران ينزلان على الأرض، لباسهما بالتأكيد كالبقية أزرق. والريح تتلاعب بهما".

كان صوت العرض العسكري يُسمَع في الخارج.

قالت الأمّ: "إنه آخر الزمان من دون شكّ"، ثمّ رفعت فتيلة الفانوس، لتُحضّر العشاء.

قال الوالد: "كلا، ليس الأمر كذلك، الفعل فعل الألمان، دعها تندلع، ما الفرق بين هذا الملك أو ذاك؟ لا يهمّنا، نحن الذين نسعى وراء لقمة العيش، إن كان هتلر أو روزفلت أو الشاه. الحمار حمار، بردعته هي التي

تتغيَّر فقط. هل صنع ستالين الوغدُ معجزةً للروس؟ خرّب بيوتهم على رؤوسهم، والآن هو يؤدّي كفّارة أعماله. أقسم بالله، لو كنتُ أنا سكرتير هتلر، لتغيّرت نتيجة الحرب". أولى روسيا ظهره، وأراد، بيَدَيْه، أن يجرّ الدنيا كلها إلى موسكو. قال: "الطريق إلى روسيا من هنا. إذا صرنا نحن قنطرة، فالهند والصين أمرهما هيّن، يمكن السيطرة على الأماكن كلها في ساعة واحدة. دعهم يمُسكوه. مهما حصل، فسيكون أفضل من وضعنا الراهن". ولمّا وقع ناظراه على آيدا والأطفال صمت لهُنَيْهَة. هزّ رأسه، وقال وهو يتنهّد تنهيدة من أعماق القلب: "أنا إيراني، وأحترق لوعة على بلدي. لكنْ، انظرْ كيف صار الوضع، حتّى بات الناس راضين، كي يأتوا ليُمسكوه، ويخلّصوهم من تعاستهم".

حين لعلع الرصاص، نطّ آيدين من النافذة إلى أسفل، وأراد أن يغادر البيت، فأرجعه الوالد بصفعَتَيْن مجنونَتَيْن.

ليلتها، حلم كل أفراد الأسرة بالمظلّيّيْن. كل واحد كان يظنّ أنه يهبط من السماء متعلّقاً بمظلّة خضراء. كأنّ جوف الإنسان يُفرَغ، أو كأنه يُقذَف من أعلى الجبل إلى غياهب الوادي. تلك الليلة طار الوالد من النوم أربع مرّات، وفي كل مرّة، تجرّع جرعة ماء، وصلّى المغرب والعشاء. وفي الأخير أدّى صلاة الصبح قضاءً. حُلْمُ المظلّيّيْن حقَّر الجميع، لهذا كانوا باستمرار يطيرون فزعاً من النوم، يتجرّعون قطرة ماء، ويعاودون النوم، ليستأنفوا رؤية الحلم.

استمرّت المناوشات حتّى صباح اليوم الموالي، ولم يستطع الوالد الذهاب إلى الدّكّان. ظلّ في البيت يُنكِّد. فمن ناحية، سئم البطالة، ومن ناحية أخرى، كان القلق يقضّ مضجعه، فيجد الذرائع، ليقرص أذن

آيدا مرَّتَيْن، ويصفع يُوسُف على أذنه صفعة بتعبيره "جنونية" ويجلد آيدين ثلاث مرّات بحزام سرواله.

قال: "لا أقدر على قيادة أربعة أطفال، فكيف يريد هذا الرجل المجنون أن يُغيِّر العالم؟!"

أجابته الأمّ: "ماذا علينا أن نفعل الآن؟"

- زَجُّوا بلادنا في الويلات، لا خبر ولا راديو، أي تراب يحثو المرء على رأسه؟!

واصلت المقاتلات غاراتها، وتواصل إنزال المظلّيّيْن، مجموعة تلوَ مجموعة. نظر الوالد من النافذة إلى الخارج، وقال: "انتهى الأمر".

بعد الصفعة المجنونة التي تكبّدها يُوسُف، صعد إلى شرفة الطابق العلوي، وبدأ يتفرّج من هناك على المظلّيّيْن. بيد أن آيدين كان متواجداً في كل مكان، يأتي سريعاً بالأخبار؛ كان يراقب الأمكنة كلها من النوافذ، ويقدّم التقارير، أوّلاً بأوّل، بشأن الأحداث كلها التي تقع في أطراف البيت. قال: "الراديو، لم يعد الراديو يعمل".

لمّا تناول المذياع، أدرك الوالد أن الروس سيطروا على شمال إيران بأكمله. ذهب إلى خان تجّار المكسّرات، وأضاف قفلاً آخر إلى باب دكّانه. وقتئذ علم أن وضع الخبز سيِّئ، وكل الدكاكين معطّلة. رأى أشخاصاً يكسرون قفل حانوت، وينهبون ممتلكاته في وضح النار وأمام أعين الناس، وجماعة تعتدي على أخرى، ورجال الشرطة جُرِّدوا من أسلحتهم، والحرّاس يتسكّعون. فيما انهال عمّال حارة "عالي قابي" بالضرب على رجل أمن

بتهمة السرقة. وفي هذا الخصمّ، أدرك أنّ عليه وصل النهار بالليل والليل بالصبح واقفاً في طابور الخبز. لقد غدت المدينة مدينة لوط.

بعد أيّام بينما كان الأب واقفاً في الطابور، وفي أوج الاستغراب، أبصر إياز الضابط بلباس مَدَني قاطعاً الشارع راكباً درّاجته ذات المحرّك. كم كان يبدو سميناً في اللباس المَدَني! خرج الوالد من الطابور مسرعاً، ولحق بإياز. مَدّ يده من الخلف، وأمسك بمؤخّرة الدرّاجة، وقال وهو يركض: "إياز، إياز، أتوسّل إليكَ، فكِّرْ بأمري".

نزل إياز من على درّاجته مصدوماً، وقال ووجهه متأجّج، يعلوه الوجوم: "لا يجب أن تقترب منّي. سآتي ليلاً إلى المنزل. اذهبْ".

وفي أوج عتمة آخر الليل، دلف إياز إلى المنزل، وقال مندفعاً: "ليس لديّ الكثير من الوقت، جابر. عملنا حالياً شاقّ جدّاً. لقد كثرت أعمال النهب، والروس يبغضوننا، لهذا نلبس ملابس مَدَنية. لا تنسَ! في الشارع، أنتَ لا تعرفني".

قال الوالد: "أتوسّل إليكَ، ما الذي حدث؟".

ردّ إياز: "استسلام".

- هتلر؟

وكأنه استوعب كناية إياز، فقال: "إذنْ، استسلام؟".

قال إياز: "نعم. والآن هتلر يضغط أكثر. والروس من هذه الناحية، والألمان حتماً سوف....".

قال الوالد: "مَنْ تقصد؟".

اندفع آيدين: "رحل الشاه". انحنى خلف درابزين السلالم، وهو يراقب الوالد وإياز في الظُّلمة. صاح عليه الوالد: "ماذا تفعل هناك، أيّها الوعل؟".

انفجر إياز ضحكاً، وقال: "ماذا تريد؟".

- الخبز.

- أربعة أقراص كل يوم تكفي؟

- أيّ تراب كنتُ سأحثو على رأسي، لو لم تكن أنتَ؟!

قال إياز عند المغادرة: "اعتمدْ على صداقتي، جابر". ثمّ أغلق الباب خلفه.

أجهش الوالد متأثّراً بلطف إياز، وصداقته العجيبة. وربّما أيضاً، بسبب التعب. لم يدر. لقد سكب الدموع. كان ضعيف النَّفْس، ولم يُجرِّب، إلى ذلك الوقت، هذه المتاعب كلها.

في اليوم التالي، أُصيبت الأمّ بصداع فظيع، لم ينفع معه ما قدّمه لها الأب من ملح وعصير ليمون. لم تستطع طَهْو الطعام. كانت تُمسك بشقّ رأسها، وتغدو وتروح.

قال لها الوالد: "على الأقلّ، اجلسي، أو نامي".

- كلا، لا أستطيع.

- إذنْ، سأرتدي ثيابي، لنذهب عند العرّافة. البسي شادورك.

- ماذا عن الأولاد؟

- الأولاد؟ إنهم بالبيت، والباب مُقفَل.

- لا يمكن تَرْكُهُم بمفردهم.

- إذنْ، لنأخذ هذَيْن الوغدَيْن، وليبقَ الآخران.

انطلقا خائفِينْ مذعورِيْن. كان منزل العرّافة يقع في آخر زنقة اللورد على بُعد منعَطَفَيْن، بالقرب من حقل القصب. لكنْ، مهما قرعا الباب، لم يجبهما أحد. صاح آيدين الذي كان ينظر من فتحة دفَّتَي الباب: "إنهم موجودون، لماذا لا يفتحون، إذنْ؟ العرّافة نفسها موجودة. ترتدي ملابس حمراء، لكنها لا تأتي لفَتْح الباب".

تقدّمت الأمّ خطوات، ونادت من فتحة دفَّتَي الباب، ففُتح. افترّت شَفَتَا الأمّ بابتسامة. جلسا في ذات السقيفة، ورفضت الأمّ الدخول إلى الغرفة، بالرغم من إلحاح العرّافة. قالت إن قلبها غير مطمئنّ على الأولاد.

أحضرت العرّافة مغرفة خشبية كبيرة موصولة بخيط في آخرها. أمسكت الخيط بيدها، وصلّت على الرسول، وقالت: "حسنٌ، ابدأ، سيّد جابر! "

قال الوالد: "صابر".

قالت العرّافة: "صابر، صابر، صابر" بينما المغرفة تتراقص بين يَدَيْها.

قال الوالد: "اجاقعلي".

- اجاقعلي، اجاقعلي، اجاقعلي".

"سليمان". وكل مرّة يذكر اسماً، يبتدئ التسبيح من جديد، ويقلّب السبحة في يده بسرعة.

- سليمان، سليمان، سليمان.

- فاتما.

جلست العرّافة القرفصاء، وشرعت تُحرِّك المغرفة بجدّيّة تامّة، وكأنها تُدخِل الخيط في خرم الإبرة، وتقول: "فاتما، فاتما، فاتما".

قال الأب: "هل بقي أحد من الأموات؟ نعم، سولماز".

فقالت العرّافة: "سولماز".

فجأة توقّفت المغرفة، فقالت العرّافة: "سولماز"، ونظرت إلى الأمّ: "أترين؟ إنها أختكِ ثانية. رحمها الله. تصدّقوا من أجلها، فهي تنتظر، رحمها الله. تصدّقوا بالتمر والحلوى. تصدّقوا من أجلها من حين إلى آخر".

قالت الأمّ: "طيّب، لنذهب".

ذهبت العرّافة إلى المطبخ، وأحضرت ناراً، ورشّت عليها بخوراً. فتناثر الدخان. صلّى الوالد على الرسول، وقال: "رحم الله أمواتكِ"، وناولها خمسة تومانات.

في أثناء العودة، لم تكن المحال مفتوحة، كي يشتروا شيئاً. أصرّت الأمّ على شراء شيء والتّصدّق به، بينما تمسّك الوالد بقوله: "الوقت غير الوقت، ألا ترين أن الأماكن كلها مُقفَلَة؟".

فردّتْ عليه: "لم أطلبْ منكَ شيئاً. روح الميت تتعذّب. أيرضى الله؟".

قال آيدين: "مَنْ تكون سولماز؟".

أجابتْه أمّه: "كانت أختي. ماتت وهي شابّة".

قالت آيدا: "لماذا ماتت في ريعان شبابها؟"، ثمّ وثبت لسماع صوت طلقة، أتى من بعيد.

مسحت الأمّ على رأس آيدا، وقالت لها وهي تنظر إليها نظرة محبّة وحنان: "لقد مرضت".

أحياناً، عندما كانوا يعبرون، من أمام الجنود الروس، يلتزمون الصمت، ويجفلون من دون أن يشعروا. جنود مُصطفّون كتفاً إلى كتف، وبنادقهم ملتصقة بصدورهم، يوزّعون نظراتهم على المارّة بتفحّص ووسواس. قام آيدين بحركات أمامهم وهم يضحكون، فتأجّج الوالد غضباً، وإلى أن وصل إلى البيت، كادت روحه تصل إلى حُلْقُوْمِهِ.

بعد الحرب، شلّ المدينةَ الجوعُ، وطفا على السطح هروب الفتيات اليافعات والسرقة والاقتتال واعتداء الجنود الصفيقين والطمع والشقاء. اعتُدي على عدّة نساء متزوّجات؛ مزّقوا أمنيّة إِرْبَاً إِرْبَاً، واختفت فتاة من حارة "پير مادر"، وغادرت المدينة بضع فتيات طائشات بدعوى تعرّضهنّ للاعتداء من طَرَف الجنود الروس. وبعد سنوات، أصبحت فتاة تُدعى زيبا تبلغ من العمر ثمان وعشرين سنة، وكانت ابنةَ لتاجر سجّاد، راقصةً في كباريهات طهران، وغيَّرت اسمها. قبل الحادثة كانت تراود الأبَ وتُعذِّبه هواجس انفعالية، فقال للأمّ: "ليتكِ لم تلدي آيدا".

كانت الأمّ تشعر بالبرد، فتمسح يَدَيْها ببعضها، وتقول: "ماذا نفعل؟".

أجابها الوالد: "لا تفتحوا الباب لكلّ مَنْ يطرق".

بيد أنّ الأمور كانت قد انفلتت. بعد زوال ذات يوم مغبرّ، طرقوا الباب بشدّة حتّى اضطرّ لإخفاء آيدا في حفرة تحت السلالم. وبعد أن فتح

الباب، اندفع جنديان روسيان إلى وسط البيت، أحدهما أزرق العينَيْن ونحيف وطويل القامة، وآخر صغير البنيان رمادي اللون. كانا يقولان كلاماً بالروسية، لا يفهمه الوالد، يتعقّبان أحداً. قال لهم الأب: "عمّن تبحثان، أيّها المُلحدان؟". ظلّ متحيّراً مندهشاً لا يعرف ما الذي حصل. خيّل إليه أنهما ينويان الاعتداء على أحد أفراد الأسرة. ارتعدت فرائصه، فقال: "ما الأمر؟".

لم يفهم الجنديان اللغة التركية، وكانا يريدان البحث داخل الغرف. وحين وقعت عيناهما على آيدين، أشارا إليه، وهَمَّا باقتياده. فصاح الوالد: "إنه ابني، ابني أنا، آيدين".

قبض الجنديان على آيدين، وبدءا يُخرِجانه، كان يمسك بيده جاروفاً أسود ذا قبضة طويلة، وهما يسحبانه، وعلى الفور، دخل البيت أربعة جنود آخرين، وحشروا أفراد الأسرة في ركن الممرّ، وصوّبوا بنادقهم تجاه الوالد.

كان آيدين مركّزاً على كلام الجنود وهو مسرور وعيناه تبرقان. أما الوالدة، فضجّت بكاء. قال الوالد ويداه ترتعشان: "ماذا فعل؟".

جلس الجندي الأزرق على ركبَتَيْن، وأمسك بذراعَي آيدين، ورجّهما رجّاً. نطق بالروسية، فأشار آيدين إلى الجاروف وقال: "الجاروف".

قال الوالد: "ماذا فعلتَ أنتَ؟".

ردّ آيدين: "وضعتُ يدي أسفل الجاروف، وصحتُ طق...طق" وصوّب الجاروف مثل البندقية صوب الجنود.

فجأة، انفجر الجنود ضحكاً، وقهقهوا حتّى سالت الدموع من أعينهم. قال أحدهم: "ني يتي پاليگُنى..." وخرج من البيت. أما قائد المجموعة

الذي كان ما يزال يضحك، فقال: "خارُشتي ايزنانيه"، وأعطى آيدين قبّعته الصوفية. لكنْ، بعد مرور سنوات، لمّا فقد آيدين حواسّه، ولم يعد يقدر على تمييز القبّعة الصوفية من قبّعة الوالد القديمة، بات أورهان يضعها على رأسه، ويُقفل أزرار وزرته، ويقصد الدكّان.

لمّا غادر الجنودُ الروسُ البيتَ، أمسك الوالدُ أذنَ آيدين، وأراد أن يأخذه ناحية الباحة، فإذا بهم يطرقون الباب من جديد. أرخى أذن آيدين، وقال: "ما الذي حدث ثانية؟" وفتح الباب مفزوعاً، فإذا به إياز الضابط. قال الوالد: "السلام عليكم، إياز، أين أنتَ؟".

تسلّل إياز إلى البيت، وهو يحرك كتفَيْه، كأنما يمرّ بين زحمة الناس، ثمّ أقفل الباب، وقال: "جئتُ لأقول لكَ بعض الأخبار، وأنصرف. حصلتُ على جريدة، فقلتُ ألا تبقى أنتَ من دون أخبار".

قاله له الوالد: "من أين حصلتَ عليها؟".

- لا يهمّ.

ثمّ جلس على السلالم. دعاه إلى الذهاب إلى الغرفة العلوية، فلم يقبل. قال: "المحلات في مركز المدينة مفتوحة منذ أيّام. يجب على الجميع هنا أن يفتح دكاكينه من يوم غد. نعم، لقد بات الوضع مُقرفاً، مدينة الأموات. كل يوم أمرّ على الخان، لأستطلع الأخبار، وأرى هل كُسِر قفل أو باب أو مكان. ليس لنا أحد آخر هنا".

قال الوالد: "إياز، أنتَ أدّيتَ بحقّي ما تمليه الصداقة على أتمّ وجه. والآن اقرأ حتّى أرى".

كان إياز يقطر عَرَقاً. أخرج الجريدة من ثنية ياقته، وأمسكها قبالة الوالد.

قفز آيدين للأمام، كي يستطلع، فقال له إياز: "اذهبْ، واجلس هناك، أنا سأقرأ، وليُنصت الجميع".

جلست آيدا بجانب أمّها على عتبة المطبخ ممسكة أطراف شادورها الأبيض بأسنانها. وحين أراد إياز أن يقرأ الجريدة، أشعل الوالد الغليون، وجلس قبالته: "حسن، اقرأ".

قرأ إياز: "إنهم يُخرّبون البلاد، إنه آخر الزمان. أنصِتْ إلى هذا، كيف تمّ مباغتة إيران: تصل أخبار مرعبة ومفجعة من كل مكان. وصل خبر مفاده أن الأسطول البريطاني اقترب، بعد منتصف الليل، من سواحل خرمشهر، وأغار على المدينة الساحلية بقذائف المدفعية والبنادق. وفجراً، أطاحوا بالسفن الحربية الإيرانية، وقُتل عدد من القباطنة والضبّاط".

ظلّ الأب فاغراً فاه، فنظر إليه إياز للحظة، وقال: "أترى، جابر؟ أي قوّة عسكرية نملك نحن؟ ستسمع ذات لحظة أنكَ فقدتَ إياز".

ردّ عليه الوالد: "لا قدّر الله!".

قال إياز: "لقد أخضعوا رضا شاه بعَظَمَته وجلاله. سأقرأ وترى". واستأنف القراءة: "بعد لحظات، وصلت الأخبار أن اللواء بايندر، قائد القوّات البحرية قد قُتل، وتمّ إنزال القوات الهندية والبريطانية. وبعد دقائق، وصل خبر باستهداف مدينة الأحواز بقصف جوّي، وفي الأثناء، وصلت من الشمال أخبار مرعبة تتحدّث عن الهجوم على أذربيجان، يقصد بها أذربيجان إيران، وقصف المراكز الحدودية بالغارات الجوّيّة، وتواصلت الغارات، فاستهدفت الثكنات والقواعد العسكرية، وهاجمت القوّات الروسية والبريطانية في الشمال والجنوب والغرب القوّات الإيرانية التي كانت تُقاوِم. الخوف والرعب يقضّان مضاجع الناس، والجيوش الأجنبية تتوغّل بسرعة. الكثير من العائلات تنزح من المُدُن. توالي

وصول هذه الأخبار كان يؤثّر على الشاه، فأصدر أمراً باستدعاء السفير الروسي مستر اسميرنوف، أنا رأيتُهُ مرّتَيْن، والسفير الإنجليزي مستر بولارد. على الساعة الحادية عشرة صباحاً، تفاوض الممثّلان السياسيان للدولتَيْن المهاجمَتَيْن مع الشاه في قصر سعدآباد. استمرّ لقاؤهم ساعتَيْن، ولم يسفر عن أية نتيجة".

"بالرغم من عدم توافر الأخبار عن المفاوضات، لكن ما تمّ استنباطه يفيد بأن الشاه أصرّ على أن تقدِّم الحكومتان السوفياتية والبريطانية طلبهما للحكومة الإيرانية، ووعد بأن يأمر بتقديم التسهيلات اللازمة جميعها التي يريدها الحلفاء بشأن نقل المعدّات الحربية، كما وعَد بتقليل العناصر الألمانية، وتقديم التطمينات المطلوبة جميعها. أَوقِفُوا هذا الهجوم فوراً، واسحبوا قوّاتكم".

"لم يكن لإصرار الشاه وانتظاراته أيّة فائدة. أترى، جابر؟ ذاك الإنسان بتلك العَظَمَة والأبّهة يلحّ على هؤلاء. إصراره وتوقّعه لا طائل من ورائه، لأن هذا الكابوس المخيف كان قد دُبّر لإيران قبل أشهر عدّة، كما ذكر من قبل".

"هذا اللقاء أزعج الشاه أكثر من أيّ وقت مضى، وأدرك أن مخطّطاً قد حيك ضدّه من وراء الحجب، وأن أصل المشكل والخلاف معه هو، لأنهم لا يريدون العمل معه، ويرون في وجوده تضييقاً على مصالحهم".

قال إياز: "حسن، كانوا يستحلون قول هذا الكلام. هو رحل. وقتها كان سيرحل أيضاً، إذنْ، لمَ هاجموا؟" ثمّ واصل القراءة: "في اليوم الموالي، قرّر الشاه أن يتنحّى. استدعى الوزراء إلى سعدآباد. وحضروا عصراً، وقال: أعلم أن الهدف من وراء هذا الهجوم والاعتداء هو معارضتي. أرى أن المصلحة تقتضي أن أتنحّى عن الحكم تفادياً لخراب البلاد، وتجنّباً للخسائر وسفك دماء الجنود والناس الأبرياء الذين يتعرّضون للقصف، وأن أُسلّم دفّة الأمور إلى وَليّ العهد. أنتم، أَدلُوا برأيكم، سأُعطيكم بضع دقائق للتشاور.

خرج الشاه من غرفة المشورة، ليفسح المجال للوزراء للتشاور. كان لكلام الشاه وقع كبير على الوزراء، وأجهش عدد منهم. بعد ذلك، قرّروا الوقوف ضدّ تنحّي الشاه، لأن هذه الخطوة ستُثير الفوضى والقلاقل في البلاد، وأضرارها كبيرة، وأبلغوه بقرارهم.

لذلك تعرّض الشاه لتهديد قوي من طَرَف الحلفاء. وبحسب قول ونسطون تشرشل، صباح يوم السادس عشر من سبتمبر وتبعاً لأخبار ليلة أمس وتحرُّك القوّات السوفيتية صوب طهران، أخبروا الشاه أن القوّات الروسية انطلقت من كرج قاصدة طهران، والهدف من هذا التحرّك واضح. فلم يرَ الشاه بدّاً من تَرْك العاصمة، والتنحّي عن الحكم. استدعى السّيّد "فروغي"، وأطلعه على الموضوع، وقال: أنا كنتُ أعلم، منذ اليوم الأوّل، أن الهدف هو معارضتي أنا. لكن الحكومة لم ترَ مصلحة في استقالتي. اليوم لا مفرّ من اعتزالي. اليوم يقول تشرشل حين يتكلّم السلاح يخرس لسان القانون.

على الساعة الحادية عشر والنصف من يوم السادس عشر من سبتمبر تحدّث السّيّد فروغي في قبّة البرلمان: يجب أن أبلغكم أهمّ قضية وقعت..."

قال الوالد: "السياسة تعني الخداع والمكر، أنتَ قلت لي هذا إياز".

ضجّ إياز بكاء، وأخرج منديلاً من جيبه، وأمسك وجهه بقبضَتَيْه، وطفق يبكي وينتحب حتّى أبكى الوالد. وبعد هُنَيْهة، ومن دون أن يُودّع، خرج من البيت، وتركه سادراً في صمت قاتل.

أخذ الأب نَفَساً عميقاً وهو مطرق رأسه، وقال: " المشاكل كلها، بسبب سفك الدماء من دون وجه حقّ".

قال آيدين: "ليس الأمر كذلك. إنهم يريدون احتلال البلاد، لذلك هاجموا من فوق ومن تحت".

فردّ عليه الوالد: "بنيّ العزيز! أنت تفهم أفضل أم أنا؟".

اندفع آيدين: "إذا كان بسبب الدم، فلمَ يحاربون، ليُلقوا بالعَلَق الذي يمتص الدماء".

- أكيد مثلكَ أنتَ الذي تأخذ روحي.

قالت الأمّ: "إنه الليل، لنذهب إلى الغرف، لنرى ما سيحدث".

ككل ليلة، ذهب الجميع إلى الغرفة الكبيرة. أوقدت الأمّ القناديل النفطية. وقال الوالد وهو يشمّر عن يَدَيْه: "طيّب يا أولاد، اتبعوني، توضّؤوا، أريدكم هذه الليلة أن تُصلّوا".

قالت آيدا: "أنا سأصلّي بمفردي".

أجابها الوالد: "لماذا؟" ثمّ جبذ أذنها.

قالت: "إن آيدين يُضحكني في أثناء الصلاة".

قال: "لا تضحكي. إذا شاغب آيدين، سأرميه". وضرب على رأس آيدين.

قال يُوسُف: "أين؟".

قال الوالد: "خارجاً، في الزقاق".

قال يُوسُف: "وماذا عن الروس؟".

قال الوالد: "لا تحمل هَمَّ هذا الشقي".

-٣-

ذات يوم تسلم عمّال معمل اللورد للمراوح أجورهم ناقصة. انتشر الخبر في المدينة كانتشار النار في الهشيم. غضب العمّال، وقرّروا الإضراب عن العمل بدءاً من السبت الموالي. البعض منهم ترك العمل باكراً في ذات اليوم. انتهى إلى مسامع السّيّد اللورد أن المعمل على حافّة خطر الإغلاق، بسبب مسؤوله الذي اقتطع من أجور العمّال.

عجّل السّيّد اللورد في إعداد كلمة، ألقاها أمام باحة المعمل، وبّخ فيها المسؤول وسط حضور العمّال، وعاتبه، بل هدّده، وأهانه. ثمّ أعطى أوامره بفتح مخبزة خاصّة بالعمّال في باحة المعمل نكاية في الروس، ولكي لا يحمل عمّال اللورد هَمّ الخبز، كما وعد بتأمين دقيق المخبزة خلال يومَيْن، وكذلك فعل.

كانت غرفةً صغيرة بنافذة تطلّ على الخارج، والعمّال، بلا طابور، يحصلون على الخبز الساخن أمام أعين الجوعى من الناس، الكبير والصغير، الطفل والعجوز، ثمّ يربطونه في سفرتهم، ويعودون إلى بيوتهم. لم يكن أحد يعلم مصدر الدقيق، لكنه كان يصل بانتظام. كان البعض يقول إن مصدره من تركية، والبعض الآخر يعتقد أن الدقيق حكومي، لكن إياز الضابط قال للوالد إنه رأى بأمّ عينَيْه في طريق "نمين" أن أكياس الدقيق تُشحَن في شاحنة روسية. في الأحوال كلها، كان العمّال يقصدون المعمل كل صباح

مستبشرين متهلّلين، ويشتغلون ضعفَي اليوم السابق، ويعودون، عصراً، إلى بيوتهم محمَّلين بالخبز.

تضاعفت مردودية العمل، فتفتّحت، فجأة، شهية البعض في أردبيل، ممَنْ لم يكونوا، إلى ذلك الحين، مستعدّين للعمل في معمل اللورد الإنجليزي، وكانوا يستنكفون من أكل لقمة الإنجليز، واندفعوا للتسجيل في المعمل. وفي صبيحة واحدة، اكتملت الطاقة الاستيعابية للمعمل من العمّال. وهو الهدف الذي لم يستطع اللورد تحقيقه طوال خمس سنوات من العمل.

وبات المعمل، أمام حيرة الناس وإعجاب الروس، يواصل عمله من دون توقّف أو تعطيل. كانت شاحنات "جمس" الصغيرة، تثبت كل يوم، عن طريق شحن المراوح، وحملها في ذاك المنحدر، بأن المعمل يشتغل وكأنه في حرب. يصفّف العمّال القطعات على بعض، وأزيز المعمل يعلو أكثر من السابق. تضاعف سهم العمّال من الدقيق أكثر من مرّة، وكان خبز اللورد يباع خارج المعمل بسعر مدهش. ينتقل من يد إلى يد، إلى أن يصل إلى يد الوالد، فاقداً للطراوة، وسعره تضاعف بثلاثين مرّة. كان خبزاً زكيّاً، أبيض خالياً من النخالة، ومن دون رائحة. كان الأب يقول بأنه يستحقّ ثمنه، ويقسم على ذلك.

كان المظليون لا يزالون يتهاطلون على المدينة التي خيّم عليها سكون قاتل، لا صوت يُسمَع، غير همهمات مُبهمَة، وأحياناً طلقات نارية أحادية الجانب آتية من محيط المدينة.

كان يُوسُف، كل يوم، يُبهر في الشرفة بمشاهدة المظلّيّيْن، ويمكث هناك

لساعات. لا يظمأ، ولا يُنشد خبزاً، ولا يقصد مكاناً. يقضي النهار والليل في الشرفة. ذات يوم، قرّر أن يطير بنفسه. وأُنجز هذا العمل بكلّ بساطة. ذهب إلى حجرة الأب، وأخذ مظلّته الكبيرة السوداء، وأوثقَ نفسه بالمظلّة مستعملاً بضعة أحبال، ووقف على حافّة السطح، وطار. بعد ذلك، ارتفعت جلبة في أطراف منزل جابر أورخاني، لم تستطع الأمّ تصديق ذلك. احتشد الناس، ووصلت جموعهم إلى الناحية الأخرى من معمل اللورد للمراوح.

كانت الفاجعة التي ظلّت الأمّ، لسنوات وسنوات، تحكيها لأبنائها، بهذه الصورة. طار ولدها البكر، وباتت عاقبته على هذه الهيئة. أصبح شيئاً بين الإنسان والحيوان، ميت وحي، قطعة من لحم، حيوان دائم المضغ والبلع. الأبناء كلهم كانوا يصدّقون الحكاية ببساطة، إلا آيدين حين كان يفكّر بذلك الأخ الأبكم، كان يدرك جيّداً بأن تلك الحرب وذلك الهجوم، بالنسبة لأسرتهم، لم يحصلا إلا ليُغيِّرا ماهية يُوسُف.

كان يحمل في ذهنه، على الدوام، صورة باهتة عنه، ويتذكّر الأيّام السالفة حين كان يُوسُف، ليل نهار، منزوياً يرقب السماء. ذات مرّة، قبل واقعة الطيران بالمظلّة، وفي تقليد منه للغوّاصين المَهرَة، ارتمى من الطابق العلوي يريد الغطس في الحوض، فهَمّ الوالد برَمْيه خارجاً. انزوى في ركن من الغرفة السفلية، تنبعث منه رائحة العطن والنتانة الناتجة من البول والغائط، ولم تعد تعمل من حواسّه الخمس سوى حاسّة البصر. يُحدِّق في المرء مسمّراً نظراته الطامعة فيما تحمله يد الآخرين.

كُسرت إحدى رجلَيْه من ناحية الفخذ، والآخر من الركبة، والتصقت العظام بلحم بدنه، وبدت بارزة من جانبي البساط محاذية ليَدَيْه، مثل أرجل الإوزة.

عندما أدخلوا جسم يُوسُف المحطّم والمعطوب، في يوم الحرب والنار ذاك، صاح الوالد من أعلى الدرج مندفعاً: "خذوه إلى المقبرة".

قالت الأمّ: "لماذا نأخذه إلى المقبرة؟".

- أهو حيّ؟

- لسوء الحظّ، نعم.

لكن يُوسُف لم يكن يبكي أو يشتكي أو ينبس بكلمة. كان يقضم قطعة تفّاحة متربة عثر عليها في الزقاق. منذ ذلك الوقت، حشر في ركن الغرفة. ورغم طَرْقهم للأبواب كلها، لم يجدوا طبيباً. كان الوالد يقول: "طالما أنه لا يتألم دعوه الآن ينام، وسنتدبّر أمره بعد الحرب".

وحين كانت الأمّ تُرقده، قالت: "جابر، انظر كيف تتحرّك رجله".

قال الوالد: "لا أظنّ ذلك".

بعد مضي أيّام، فَقَد يُوسُف بالكامل طبيعته البشرية، وتحوّل إلى حيوان يبتلع فحسب، لا يصدر منه أدنى أذى؛ لا يزكم، ولا يمرض، ولا يُسمَع له أنين. تقوقع في ركن الحجرة كجلمود صخر وسط نهر، لا يزحزحه من مكانه سَيلٌ.

جاء السّيّد اللورد شخصياً لزيارته، وأعرب للأسرة عن أسفه. خاطب الوالد بالجار الشريف والمواطن الصالح. وخصّص للأسرة خمسة أقراص من الخبز في اليوم، كان أغا فرمان، بوّاب المعمل، يحضرها كل عصر، ويُسلّمها لهم أمام المنزل.

كانت الأمّ تُطعمه يومياً ثلاث وجبات من ثريد اللحم، تُلقّمه إيّاه ملعقة ملعقة، ثمّ تغسل يَدَيْه ووجهه، وتضع له طستاً، وتُغيِّر ملحفته السفلية. ومن كثرة رائحة النتن والتعفّن كانت باستمرار تُشعل عود الطّيب. شيئاً فشيئاً، شُطّب على اسم يُوسُف من لائحة الأخوة والبنوّة، وبات في حكم مستودع الزاد، لا يُحسن عملاً آخر غير الإفساد والإتلاف. قال الدكتور ناي دانف: "لم يعد هناك أمل في أن يصير هذا آدمياً".

بعد مرور سنوات، وحين كان آيدين يستحضر شريط طفولته، أدرك أن الاتّجاهات كلها تغيَّرت من ذاك المكان. كان يعلم جيّداً أن الابن الأوّل، دائماً ما يدفع الثمن نيابة عن الآخرين، وكان يعلم أيضاً أن الوَرَثَة الوحيدين يتوسّلون بالطمع من أجل التملُّك. كانت هذه الأشياء حلماً رأى بوضوح تعبيره في مستقبل الأيّام.

كان الوالد يريد تربية آيدين تربية حسنة. لكنْ، كلّما حاول واجتهد، تراجع القهقرى. ولم يبقَ سعيه من دون جدوى فحسب، بل أكثر من ذلك، انتهى بضَرَره. بعد يُوسُف صار آيدين الابن البكر، وبات معرّضاً للتشديد والتضييق.

ذات يوم، شرب آيدين من الحنفية في أعلى الزقاق، وهو يقطر عَرَقَاً ووجهه محمرّ، ثمّ ركض مسرعاً إلى باحة البيت. وعلى أريكة تحت صفصافة، كان الأب منشغلاً بأكل بطّيخة، فسنحت له فرصة، ليسأله: "أين كنتَ؟".

قال آيدين وهو يجترّ أنفاسه: "في الزقاق"، وأراد أن يركض إلى المرحاض، فإذا بصيحة أبيه المدوّية تُجمِّده في مكانه: "أتلعب مع هؤلاء الحمير في الزقاق؟ أتعرف آباءهم وأمّهاتهم؟".

- لا، وراح يتلوّى على نفسه.

- العبْ هنا في الباحة، واحذر أن تكسرَ الزجاج، اذهبْ.

أسرع آيدين إلى مرحاض الباحة، وقلبه يدقّ من دون توقّف، وصدره ينتفخ ويتقلّص. كان يفكّر كيف يجب أن يلعب ولا يكسر الزجاج. توقّف على حافّة الحفرة للتبوّل وقلبه يخفق بسرعة، وبعد أن استعاد هدوءه، تذكّر فجأة أنه نسي إغلاق الباب. فلمح والده واقفاً أمام الباب يرقبه مغتاظاً.

- أيّها الوغد! تبوّلتَ واقفاً؟

أُصيب آيدين بدوّار، وبين الفرحة والهدوء، أحس بغتة بألم يسري في خصره. رفع سرواله بسرعة، وجمد في مكانه.

- تعال إلى هنا!

تقدّم آيدين. شدَّ الوالد أذنه، واقتاده إلى الأريكة بصفعات على القفا:

- أأنتَ كلب؟

خفض آيدين رأسه، ومكث على ذلك الوضع ينتظر متى يقول الوالد: "اغربْ عن وجهي".

ماتت أربع سمكات حمراوات في البركة من الحرارة. حينئذ أحسّ أنّ طوق خصره يؤلمه وركبتَيْه ترتعشان. وبين الحمّى والألم أدرك أن السمكات لم تمت بفعل الحَرّ، لكنه لم يعرف سبب موتها. ثلاثة أيّام وهو يعاني من عسر التبوّل، والأمّ تلقمه البطّيخ.

•

كان زمام التحكّم في آيدين يفلت من يد الوالد يوماً بعد آخر. صار

متمرّداً وجموحاً. كانوا يحبسونه في القبو، فيظلّ فيه منشغلاً، لا يبرح المكان حتّى يذهبوا إليه، ويُلحوّا عليه. كان يستظهر الكتاب، ويكتبه. قطعوا عنه المصروف لمدّة. اشتغل في محلّ لبنيات بساحة "سرچشمه"، يُخثّر الحليب، ويكسب بعض الملاليم كل يوم. يصرف نقوده في شراء الورق والكتاب، ويغيظ الوالد أكثر فأكثر. لم يكونوا يشترون له ملابس، يزجّي أيامه بالرثّ والقديم. لم يكن أسيراً لأي شيء، كل فكره كان منصبّاً على اشمئزازه من بيع البزر. كان يكره استنساخ حياة الوالد، ويكره الكثير من الأشياء التي يحبّها الأطفال في مثل سنّه. كان يحسّ بالضيق حتّى لما ترقص فتاة، ولا يدري لماذا. لكن الأب كان معتقداً أن آيدين معارض للبيت ومُنشقّ عنه، ويُقسم على ذلك. لذا كان يترصّده دائماً.

انصرم زمان كان الوالد، بهيكله الصغير وشَعْره الخلفي الخفيف الذي راح يتساقط من جانبي مقدّمة رأسه، يُجلِس آيدين على كتفَيْه، ويغمره في ماء شورابي. كان آيدين يخاف، لكنْ، حين تغطس رجلاه في الماء، تُضحكه البرودة والمرح الجميل، فيجذب أذنيَ الوالد، ويهتف: "جابر!".

بينما الأمّ تبسط رجلَيْها تحت أشعّة الشمس وهي تكسّر حبّات البزر على ضفّة ساحل شورابي الدافئ: "لا تقلْ، جابر. قلْ أبي".

قال "أبي"، ونظر إلى آيدا.

أنزلَهُ الوالد من على كتفه، واحتضنه ثمّ وضع قبلة على عينَيْه وتحت بلعومه. لكن شاربه كان يغطّي وجه آيدين. غمره ثانية في الماء، ثمّ وضعه على تراب الضّفّة الدافئ، وقال: "اذهب إلى أشعّة الشمس".

لفّتْه الأمّ بسرعة في عباءة، واحتضنتْه، وقالت: "أبوكَ يحبّكَ كثيراً...أترى؟"

قال آيدين: "كلاّ".

مسحت الأمّ على رأس آيدا التي كانت جالسة فوق رأس أورهان، وطفقت تنظر مبتسمة وبحسرة إلى الأب وآيدين. قالت: "إنه أيضاً يحبّ آيدا كثيراً". يبّست آيدين، وأجلستْه على رجلَيْها، وأطعمتْه لقمة كباب شاميّ، ثمّ ألبستْه بخفّة.

كان منتزه شورابي الأخضر والأزرق يبدو من تحت نور الشمس أكثر رحابة، لم تكن معالم المدينة بادية من خلف التلال الصغيرة المتناثرة في الأنحاء، لكن صخبها يصل. وفي الناحية الأخرى من شورابي، خلف حقول القصب، انقضّ يُوسُف على العصافير، يقوّض مساكنها بالقوس والسهم. قالت له الأمّ: "لمَ احتفظتَ باللقمة في فمكَ، بنيّ؟ كُلْ".

كان انتباه آيدين مشدوداً إلى يُوسُف، وحقول القصب تبدو له عجيبة. وفي ما بعد، لمّا كان يسترجع هذه الخواطر في غرفته، كان يتراءى له الوالد في شورابي وهو يغسل وجهه بالصابون، فيبدو له أنه يُطيل غسل وجهه بالصابون من دون أن يُغمض عينَيْه. سأله: "جابر! لماذا لا تؤلمكَ عينُكَ؟".

- لأن الله لا يحبُّ أن تُؤلمني عيني.

- إذنْ، لماذا تُؤلمني أنا؟

يتذكّر الشمس وقد عمّ ضياؤها كل مكان، وهو وسط ذلك الضياء وتلك الحرارة المنعشة، ينظر إلى الوالد الذي كانت الأمّ لا تزال تعتقد، بعد خمس عشرة سنة، أنه يحبّ أبناءه أكثر من أيّ أب في الدنيا، عيبه الوحيد أنه كان متشدّداً نوعاً ما.

آنئذٍ تاق آيدين إلى العودة إلى الماء والجلوس فوق كتف الوالد، يُدلله، ويصرخ عليه. لكن الأمّ قالت هذا يكفي. قام الوالد بحركة، وضحك ملء نواجذه، ورشّ عليه الماء من مكانه، وقال له: "إلى اللقاء"، وغطس في الماء. انتظر آيدين، لكن الأب لم يرجعْ. نادى: "جابر!"، وبحث عنه في شورابي، لكنه لم يجد له أثراً. صاح: "أبي!" ونظر إلى آيدا التي سرت في جسدها هي الأخرى مسحة قلق وتوجّس، وكزّت بأسنانها على طرف شادروها الصغير، لئلا يسقط.

ضحكت الأمّ، وقالت: "آخ، آخ، آخ. أين ذهب أبوكم؟".

ضجّ آيدين بكاء، ونادى: "أبي!".

حينها خرج الوالد من تحت الماء، واسترجع أنفاسه. ضحك ورشّ الماء على آيدين. فضحك آيدين بدوره، وجفّفت الأمُّ الدموعَ من عينَيْها. وفي ما بعد، كان يظنّ أن تذكُّر ذلك اليوم بتفاصيله، من أوّله إلى آخره ومن غير نقص، يُحيي في نفسه أوّل ذكرى له في طفولته. وكأن كل شيء بدأ من ذلك اليوم. وقف الوالد في الماء، وشفتاه مفترّتان بابتسامة عريضة، يغسل وجهه بالصابون، ثمّ يختفي. لكن الأب لم يكن بهذه الصورة؛ كان رجلا صامتاً وجافّاً، يحبّ عمله أكثر من أي شيء آخر. كان عبوساً، وكان آيدين يُسلّم عليه بارتياب طوال حياته، وإلى آخر لحظة، يُخفي في نفسه دوماً خوفاً مجهولاً منه. ولمّا بات عمره أربعاً وعشرين، أدرك أن أباه كان مغروراً. لهذا السبب كان يُحدِّق إليه، وقد خرج من الماء، ولفّ نفسه في فوطة بيضاء. سكبت الأمّ له الشاي، ارتشفه في مكانه واقفاً، وتمدّد قليلاً تحت أشعّة الشمس. في الناحية الأخرى، قطيع من البقر جاوز مرتفعات التلال. وهبّت أتربة كثيرة وغبار. وَقَتِ الأمُّ وجهَ أورهان بقبّعة الوالد، ففزع من نومه باكياً، وأناط القبّعة عن وجهه...

ثمّ هبّ نسيم منعش، وراح يرطم ماء شورابي في وسط حقول القصب وأورهان يضحك لارتداد الموج. في الجهة الأخرى، كان يُوسُف يصطاد العصافير، وآيدا تمضغ طرف شادورها مبتسمة. قال الأب ليُوسُف: "أيّها القذر!".

أما التوأم، آيدين وآيدا، فأمسكا بأيدي بعضهما، وراحا يتأمّلان عدداً من الطيور تتمدّد وتتقوّس فوق سماء شورابي. لم يكن يظهر من المدينة إلا عمود دخان. وبعد وقت قصير، عبر من هناك قطيع آخر من الأبقار، فرمى الوالد بقشور بطّيخه للبقرة السوداء التي كانت تبدو الأكبر، وظلّ واقفاً ينتظر، كي تأكل قشور البطّيخ.

-٤-

كانت الوالدة نحيلة وهزيلة للغاية، ذات عينَيْن سوداوَيْن كبيرتَيْن، يُلاحَظ شبههما الكامل في التوأم. كان خدّها المنتفخ يميل أحياناً إلى الحمرة، وحين تُكحِّل محيط عينَيْها، وتُمدِّد الكحل قليلاً في طَرَفَيْهما، تغدو شبيهة بالنسوة المغوليات. كان لها سنّان ذهبيَّتَان عندما تضحك يظهر طاقم أسنانها العلوية مفترّاً بالبياض، وممزوجاً ببريق سنَّيْها الذهبيَّتَيْن الملتصقَتَيْن بالناب من الجهتَيْن. لكنْ، حينما ينتابها القلق والوجوم، وتُقطِّب جبينها، تصير شبيهة بالنساء المُنهَكَات اللواتي يعلمنَ الشيء الكثير، ولا يُبدينَ ذلك.

قالت: "أنتم تتصوّرون أن أباكم عدوّ لكم، لكنكم مُخطئون".

أجابها آيدين: "أنا أعرف ما تودّين قوله، غير أن سعادته معي تفرق كثيراً". ثمّ نظر إلى أغصان الصنوبرة التي يتلاعب بها الريح، فتتساقط جذوعها خضراء على الأرض. كانت الأمّ جالسة على حافّة الدرابزين، وهيأتها توحي باحتمال وقوعها أو إسقاط الريح لها في أيّة لحظة. قالت: "حين تعود من المدرسة، اصعدْ من فوركَ إلى أعلى، وقلْ بأنكَ تدرس. أنا أعلم أنكَ تطالع أيضاً كُتُباً غير مدرسية، لكنْ، بوسعكَ تقديم مساعدة إلى أبيكَ".

لكن آيدين الذي كان على الدوام، يتأبّط كتاب شِعْر، ويحفظ الكثير من الأشعار، قال غير مبال: "لا أرى هذا البيت آمناً للعيش"، وضحك،

وأضْحَكَ أمّه. قالت: "أنت ترى أن أورهان يشتغل في الدّكّان منذ سَنَتَيْن، لديه مال أكثر، ويكسب احترام الجميع، وهو أيضاً أكثر طراوة وبشاشة منكَ. لقد غدوتَ متجهّماً وحزيناً. لمّا كنتَ طفلاً كنتَ ناراً متأجّجة. ربّما أنتَ لا تتذكّر، كنتَ تقلب البيت على الرؤوس، هل تتذكّر؟ كان صوتكَ وصراخكَ لا ينقطعان. كنتَ شقياً. لكنْ، الآن..." ثمّ سكتتْ.

كانت جدلتا شَعْرها المضفورتان متدلِّيَتَيْن وباديَتَيْن من الجهَتَيْن، تُرسلهما إلى الأمام، وتشرع في فكّ الخصلات وعقدها؛ تفتح ثلاث، وتُعيد ضفرها، من دون أن تنظرَ، تضفر وتلفّها على يدها: "أنا أحفِّزكَ للذهاب لمساعدة الوالد حتّى يعلم الجميع، منذ اللحظة، أنكما أخوان، أنتَ وأورهان. مصير آيدا أن تتزوّج وترحل، هذا إن وُجد مَنْ يأخذها بعِلّتها هذه. أما يُوسُف، فليس آدمياً. نصيبكما، أنتما الاثنان، متساوٍ، وأنتَ الأكبر، ولا أريد أن يُهضَمَ حقّكَ".

قال آيدين: "حسنٌ، سوف أذهب، لكنْ، مؤقّتاً، نزولاً عند رغبة قلبكِ فقط".

وبدءاً من اليوم التالي، شرع آيدين يذهب إلى الدّكّان في العصاري، ويعود بالأماسي رفقة الوالد وأورهان. هناك، كان يشرف على دخول الزبائن وخروجهم، ويطالبهم بالتسديد، ويُنظِّف الأرضية، ويمسح الزجاج، ويملأ الأكياس بالبزر والفستق، ويُدوِّن أسعار البضائع ونوعها، ويعلن التخفيضات والتنزيلات. عمل بإخلاص وضبطٍ وإحكام حتّى بات، في ظرف شهرَيْن، ماهراً وذا خبرة؛ حيث تمكّن من إدراج حساب الدفتر اليومي في السجلّ العامّ، وشراء البضاعة وحسابها بالمعداد جمعاً وطرحاً.

كان الوالد يراقبه باستمرار، وأحياناً، يحاول إقناعه بشكل غير مباشر، أن الحياة تعني هذا. لكن أورهان ما كان يقبل، كان يغتاظ ويحسد ويتمنّى بقاء آيدين ملتصقاً بكتابه ودرسه.

ذات ليلة، قال أورهان لآيدين: "متى تدرس، إذنْ؟".

- أبداً. أنا لا أدرس، أُنصِتُ في الفصل.

وقتئذٍ، ورغم أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها إلا أن المدينة كانت لا تزال غير آمنة. خرج مناضلو الأحزاب، وهشّموا زجاج معمل اللورد للمراوح جميعه. فقام السّيّد اللورد، وأعلن في كلمَتَيْن، أن الأجانب لن يسمحوا بتقدّم صناعة الوطن، ولن يسمحوا بالحفاظ على سُمعة البلاد، وإذا لم تتعاون قوى الأمن سيُضطرّ إلى تعطيل المعمل والعودة إلى بريطانيا. لم يكن في مصلحة الحكومة تعطيل معمل بتلك الضخامة، وتشريد أولئك العمّال كلهم، وبخاصّة خلال فترة التطوّر، لذلك وصلت الرسالة.

وفي صبيحة ذلك اليوم المثلج، حيث دُفنت المدينة تحت ثقل البياض، تمّ تنفيذ الإعدام في شخصَيْن حزبيَّيْن ذوي شوارب كثّة وسط ساحة "عالي قابي" التي باتت مركزاً عمّالياً، ونامت الفتنة.

الخبر أوصله إياز الضابط إلى الوالد، في وقت متأخّر من الليل والثلج يواصل الهطول، في الوقت الذي كان يريد إقفال المحلّ، وكان منشغلاً بالمعداد. سأله: "إياز، نسيتَ ليلة الجمعة".

رمى إياز قبّعته على المنضدة: "لا تسأل"، وجلس على كيس بزر.

سأل الوالد: "ما الأخبار؟"

- سيّئة.

كان آيدين وأورهان بانتظار أن يضع الوالد السجلات في الدّرْج، ويعدّ النقود كي يعودوا بسرعة، غير أنهما لاحظا أمارات الرعب والخوف بادية على إياز، وخمّن كلاهما وقوع خطب ما. خبرٌ تتلاطم أمواجه في وجه إياز، وكان الوالد على استعداد ليدفع ستّة كيلوغرامات من الفستق، ومثلها بزراً، ليسمع الخبر كاملاً غير منقوص. قال: "إياز، تكلّمْ" وأدنى رأسه.

قال إياز: "تمّ إخماد فتنة أصحاب الشوارب الكثّة".

- "لا، هذا غير معقول!".

- أجل.

تراجع إلى الخلف، وخطف نظرة إلى الدهليز، ثمّ تابع: "انتبهْ لنفسكَ ولأولادكَ. من المرجّح أن يقوم المناضلون بأيّ عمل".

قال الوالد: "نحن...نحن...أنتَ تعرف جيّداً...".

قال إياز: "هل معكَ كتاب أو منشور حزبي؟".

- على الإطلاق.

- من المحتمل أن يرموا منشوراً أو إعلاناً أو ورقاً في الدّكّان أو المنزل، أو يحضر الأولاد ذلك من المدرسة.

ألقى نظرة على آيدين وأورهان، وقال: "يا أولاد! أبوكما عمل وكَدّ بشرف العمر كله، بحقّ هذا الشارب، احذرا أن...إنه العمل".

قال الوالد: "الأصغر لا يذهب إلى المدرسة، الأكبر هو مَنْ يذهب، ولن يُصغي لكلامنا".

علا الوجوم وجه إياز، وقال لآيدين فاغراً فاه أكثر من المعهود: "ماذا ربحتَ من هذه المدرسة؟ ها؟ البطالة؟ بعد المدرسة، أين تريد أن تصلَ؟". وقال للوالد: "أخْرِجْهُ من المدرسة".

قال الوالد: "أنا أشاطركَ الرأيَ. في ظلّ هذه الأوضاع المضطربة لا نعرف مَن الطرف الذي معه حقّ.."

قطع إياز كلام الوالد بيده: "ألم تسمع بالحرب المفتعلة، يشتبكون نهاراً، ويتسامرون ليلاً. أنا بصفتي ضابط أمن، أؤيّد الطَّرَفَيْن، يعني محايد".

قال له الوالد: "أحسنتَ"، وأكّد ذلك لآيدين بعينَيْه.

منذ تلك الوهلة، وضع آيدين تحت رقابته، فكان يفتّش كُتُبه، ويُكرِّر على مسامعه كل يوم "احذرْ"، ويحاول صَدَّهُ عن الذهاب إلى المدرسة. وكان معتقداً أن ابنَهُ البكر يجب أن يسلك طريقِ والده.

تلك الليلة كان متواجداً، بمعطفه الجِلْدي في كل مكان، يغدو ويروح ويتمشّى. قال: "يجب أن تنتبه إلى كلامي، ما سوف تعرفه بعد سنوات، أقوله لك الآن. الحياة ليست مزحة. أين تظنّ نفسكَ واصلاً بهذه الدراسة؟ كم سيكون راتبكَ بعد ثلاثين سنة من الدَّرْس؟"، وكان يُحرِّك سبّابته قبالة وجه آيدين: "آاآ، كم سيكون الراتب؟". وفي مقابل سكوت آيدين المطبق، يزداد حماسة، فيواصل: "مائة تومان؟ ألف تومان؟ لن تتقاضى، بحال من الأحوال، راتباً أكبر من الشاه. أنا من الآن أعطيكَ هذا الراتب شريطة أن تُشطِّب على الكتاب والدَّرْس، وتُكسِّر الأقلام، وتصير إنساناً".

قالت الأمّ: "أجل، آيدين" وهي تغسل جوارب الوالد وأورهان في مغسلة الممرّ العلوي.

قال أورهان: "لمَ تُصرّون؟ ليفعل ما يحلو له، ليس بالغصب والقوّة".

اندفعت آيدا: "ما دخلكَ أنتَ؟".

قالت الأمّ: "إنها محقّة، اهتمّ بأموركَ فقط". في أثناء كلام الوالد، كانت الأمّ تتدخّل، وفي إحدى المرّات، قالت: "آيدين، فكِّرْ مليّاً بالأمر".

كان الوالد بذلك المعطف الجِلْدي ذا أبّهة وجلال مثل الوقت الذي كان يجلس على الأريكة الجِلْدِيّة. تخرج الكلمات من فمه مغلّفة بالقوّة والغرور الأبوي: "لأجل مَنْ قاسيتُ وعانيتُ هذه السنين كلها؟ ولأجل ماذا؟ معلوم، من أجلكم، لكنْ، شرط ألا تمسّوا شرفي أو تضرّوا بمصالحي. إذا كان هنالك احترام، فبسبب المال. ولهذا لسنا بحاجة إلى الآخرين. بفضل هذه المؤهّلات التي تمتلك، أريدكَ أن تصبح تاجراً من يوم غد. أتفهم، آيدين؟ تاجر". ثمّ انصرف إلى غرفته.

لم يستطع آيدين النظر في عينَي والده، كان جالساً على الدرج، يُصغي إلى كلامه. لا يعرف هل كان خائفاً أم خجولاً؟. كان ثمّة قوّة كامنة في تلك العينَيْن من تحت تلك النظّارات تُجبره، كما العادة، أن يكتفي بالنظر من الخلف فقط. حينما انصرف، أحسّ آيدين أن هناك كلاماً كثيراً يتعيّن قوله. كان يريد ألا يكون الأب متشدّداً إلى تلك الدرجة، وأن يُقنع بأورهان فقط. لكنْ، في ذلك الممرّ شبه المظلم، وفجأة مع انصراف الوالد، خيّم صمتٌ، وخُيِّل إلى آيدين كأن ساعة حائطية توقّفت عن العمل، وهو مثل عقربها يذهب ويجيء.

كانت الأمّ ممسكة بطرف جورب، وكأن الحياة تدور من حولها، وصوت الرتابة في أنابيب الماء يدعم بطء التكرار. كان الماء بارداً، ويداها مُحمرَّتَيْن احمرار المعطف الذي كانوا يلبسونه زمن الطفولة، ويخرجون به.

لمّا كان آيدين يتذكّر المعطف، كان قلبه يتحرّق شوقاً. معطف أحمر جميل مُتقَن الخياطة. كان قد ضاق عليه. قماشه سميك، به أربعة جيوب. كان يعتمر قبّعة، تسقط خلف كتفه. قال للأمّ: "إنه جميل جدّاً، ماما".

حين كانت تهطل الأمطار أو يبرد الطقس كانوا يُلبسونه إيّاه، وكان هذا أجمل لباس يملكه في حياته. كان يودّ، أحياناً، لو يُعلِّقه في مكان، كي يراه عند نومه. كان يحسّ، وهو يرتديه، بالهدوء والسكينة قَدْر إحساس الوالد بالغرور وهو مُرتد معطفه الجِلْدِي.

في اليوم الذي أراد الوالد تسجيله في المدرسة لأوّل مرّة، قال له إنه لا يجب أن يلبس هذا المعطف بعد الآن، فبكى آيدين، فقال له الوالد: "المعطف الأحمر للبنات".

عاود آيدين البكاء، واحتضن المعطف بحرارة. سحبه الوالد منه، وقال: "أتفهم؟".

لم يجبْ، ونظر إلى الوالد الذي كان غاضباً للغاية وهو يقول: "قلْ، هل تريد لبسه؟". هزّ آيدين رأسه بالإيجاب. ثمّ قال له الوالد: "إذنْ، لن أُسجِّلكَ في المدرسة".

أجهش آيدين، فوضع أبوه إحدى رجلَيْه على درج السّلّم، وأراد أن يُقنعه: "إذا أردتَ التسجيل بالمدرسة، فلا تلبسْ هذا".

- حسنٌ، سوف ألبسُهُ في البيت فقط.

سجَّله الوالد في مدرسة "أنو شيروان العادل". وبعد ذلك، لم يعد يرى ذلك المعطف. بيد أن لونه كان أحمر، وكان دافئاً. ليس كيد الأمّ الباردة الآن، ولو أرادت وضعها فوق المدفأة، لتداعت لها سائر عظامها بالألم، ولاضطرَّت حينها أن تكزّ على أسنانها، وتنظر إلى الجدار المقابل لها. ربمّا تُفكِّر لمَ أبو الأولاد غاضب ولجوج، لا يرجع عن كلامه حتّى لو ماتوا.

قالت: "أبوكَ قلق عليكَ، يقول إنكَ قادر على القيام بأيّ عمل، ويتحسّر على هذه الكفاءة كلها، وهذا الذكاء كله، لذا يريدكَ أن تكون بجانبه، لا يريد لكَ إلا الخير".

أجابها آيدين: "أعلمُ، أمّي".

- إذنْ، لماذا...

وسكتتْ، مثل آيدا.

نكّسَ رأسه. والشعر الأسود الخفيف قد غطّى كامل وجهه. ولم يرفعه، ولو للحظة، كي ينظر إلى مَنْ حوله، إلاّ نظرة غلّ وضغينة لأورهان. وبات الآن، مثل توأمه تعصر حلقه غصّة، ويَحول شَعْره الأسود بينه وبين الحياة لساعات طوال.

وعلى سفرة العشاء، قال الوالد: "كأني بكَ تريد المواجهة، لا تُعلن عن نفسكَ، تظنّ أن الدنيا هي آيدين. هل سمعتَ بالنملة التي حين حملها الماء قالت إن الماء يحمل الدنيا؟ أنا لا أقبل هذا".

قال آيدين: "رأيُكَ محترمٌ بالنسبة لكَ".

- يا للعجب! ولدنا لا يقتنع بنا.

التفتَ إلى الأمّ، وضحك ساخراً، وأردف: "يشتهي المرء لو يكسر غرورَ هذا الصبي".

قالت: "لا تعاندا بعضكما بعضاً".

- حسنٌ، فليكن. سأتكلّم بطريقة أخرى.

ثمّ توجّه ناحية آيدين، ونظراته مصوّبة نحو مقدّمة رجله: "انظرْ، أيّها الصبي، بدءاً من الغد، لن تذهب إلى المدرسة، ستأتي إلى الدّكّان".

ردّ آيدين: "أنا أريد متابعة دراستي، أبي".

- وماذا سيحصل، إذا لم تُكملْ دراستكَ؟

- سوف أموت.

- متْ، إذنْ.

وتجمّدت الغرفة وسط صمت رهيب.

لقد انهزم الوالد. لم يكن ندّاً لهذا الشّابّ، ولم يكن يعرف كيف يعامله. أفرغ كبشة أرز في طبقه، وقال: "هه، سيموت!" ، ثمّ غرف كبشة أخرى، وأضاف: "إلى جهنّم". غرف بضعة ملاعق من الإدام، وذاق ملعقة زبادي قائلاً: "فداء نفسي"، ثمّ شرع بالأكل.

مرّت لحظات، لم ينبس أحد بكلمة إلا الوالد: "أترين؟ سيّدكِ سوف

يموت"، ابتلع عدّة ملاعق، وتابع: "إلى جهنّم، طفل حقير يرفع صوته، ويردّ عليّ". ثمّ فجأة ثارت ثائرته: "يجب أن تقول سمعاً وطاعة لكل ما أقول، لكنْ، يبدو أنكَ تكرهني، لأنكَ لا تريد أن تصير تاجراً. ما عيبي أنا؟".

- أنا لا أكرهكَ. أنا مُصمِّم على الدراسة.

- وماذا لو لم تدرسْ؟

- سوف أموت.

استشاط غضباً، قذف بالملعقة، وانتصب واقفاً، بذلك المعطف الجِلْدِي، وبتلك الخطوات: "أترين؟ أترين الوقاحة؟".

بعد حين جاءت آيدا، وألقت نظرة على الجميع، ثمّ جلست إلى جانب الوالدة. كانت يداها مبتَلَّتَيْن وجِلْد أصابعها قد شاخ. قالت لها الأمّ: "كُلي"، ثمّ تأمّلتْ لبرهة في يَدَيْها المبتَلَّتَيْن، وقالت: "قال الدكتور شوشانيك لا تقتربي من الماء كثيراً. كُلي".

- ليست لديّ شهية.

زمجر الوالد: "إلى جهنّم، إذا لم تكن لديكِ رغبة، اذهبي، وانصرفي".

قالت الأمّ: "ما شأنكَ بهذه؟".

نظر من النافذة إلى الخارج. كان مُرهَقاً، ويفتقد شهية الطعام. قال: "لأن لا أحد منهما يشبه الإنسان. كلٌّ منهما له أطوار وأحوال. حضّرت لها مشروب أفلاطون(*)، فلم تتناوله، حسن، إلى جهنّم، فلتغرب، ولتتألم".

---

*) مشروب يُحضَّر من عصير الفواكه الجافّة المُقوِّية كالفستق والجوز والبندق وغيرها، للتداوي من العُقم والضعف الجنسي، وأمراض أخرى.

بعد ذلك، خرجت آيدا من الغرفة بأناة، ومن دون أن تُحدِثَ صوتاً. قال الوالد: "إذا أردتَ الدراسة، فلا يحقّ لكَ أن تضعَ قَدَمَكَ في الدّكّان".

عقّبت الأمّ: "في العصاري حين..."

صاح مجلجلاً: "لا يلزم، من هنا فصاعداً، ليس له الحقّ أن يأتي إلى المحلّ. لا أحتاج إلى مساعدة أحد. سيصبح الدّكّان من نصيب أورهان".

تناول أورهان غذاءه بشهية منفتحة. قال الوالد: "كما يقول إياز لا يصحّ النقاش مع نوعَيْن من الناس: "مع المثقّف والأمّيّ".

وقتئذٍ، وفي دفعة واحدة، اشتهى آيدين أن يصافحَ أباه، أن يُقرِّب، فقط، رؤوسَ أصابعه إلى يده أو وجهه. مرّت سنوات، لم تلمس يده يد الوالد، ولم تسنحْ له فرصة حتّى للمرور بجانبه. والآن، بهيكله الصغير ذاك وشَعْره القمحي، بشَفَتَيْه الجافَّتَيْن وتجهُّمه وتكشّره، توسّد مخدّة برُواء وكبرياء، لا يجرؤ معه أحد على تحريك ساكن. كان يبدو غريباً وغير مألوف يمكن فقط النظر بطرف العين إلى حاشية معطفه الجِلْدِي. وآيدين كان دائم التفكير كيف يتأتّى وضع اليد على كتف الوالد والوقوف بجانبه.

-٥-

عصر ذات جمعة قائظة من شهر أغسطس، انعطفت ناحية بيت الوالد سيّارة مرسيدس سوداء، إلى حدود ذلك اليوم، لم يُرَ مثلها في أردبيل، كانت قادمة من جهة معمل اللورد للمراوح مثيرة الغبار والأتربة. كانت مسرعة، لدرجة أن الجيران احتاروا في تلك السرعة وذلك الغبار. وازدادت حيرتهم حين توقّفت السّيّارة قبالة الباب. لأن بيتَ جابر أورخاني لم تطأه قدم غريبٌ قط. وإن قدمَ أحد، فليس بمثل تلك السّيّارة. الفلز المحيط بالمصابيح والمَجانّ والمرآة متلألئ ولون الهيكل الأسود مشعّ من فرط النظافة ولمعان شعار مرسيدس المثبت على مقدّمة السّيّارة البارز يأخذ بالألباب. خرج الجيران كلهم لمشاهدة السّيّارة، ولمعرفة عند مَنْ جاءت؛ النساء والحوامل والأولاد والبنات، وحتّى عجوز ضرير.

في الباحة، كان الوالد مستظلاً بظلّ صفصافة وصنوبرة مُنكبّاً على أكل بطّيخة. وآيدين منهمك في قراءة كتاب في الغرفة العلوية. وفي اللحظة ذاتها، صفع أورهان آيدا صفعة على وجهها، لأنها لم تغسل جواربه وملابسه كما يجب. وعلى الفور، التفتت الأمّ، التي كانت منشغلة بغسل الأواني، وضربت الوعاء الذي كان بيدها على الأرض بقوّة: "عديم الشرف! لماذا تضرب؟!". صاح الوالد: "ما الذي انكسر؟ ما الذي يجري هناك؟" فإذا بالباب يُطرَق.

أغلق آيدين الكتاب للحظة، وأصاخ السَّمْع، ثمّ عاود القراءة. كان يطالع "الجريمة والعقاب". وكانت آيدا تبكي، والوالد بيده شطر بطّيخة وقطعة في فمه، ثبت على تلك الحال، بينما تساءل أورهان: "مَنْ قد يكون الطارق؟".

هبّت الأمّ من المطبخ مرعوبة، وقالت بصوت بغيض: "عزرائيل!".

فتح الأبُ البابَ شخصياً. فقال الرجل الجالس خلف المقود غير آبه، ومن دون أن يُخرج رأسه من نافذة السّيّارة: "عفواً، أيّ واحد من هذه البيوت هو بيت السّيّد أورخاني؟".

قال الأب: "هذا هو. ما الأمر؟" ونزل درجة واحدة من عتبة البيت والقلق يعتريه.

أسكت الرجلُ مُحرّكَ السّيّارة، وأوصد زجاجَ النافذة، وتناول محفظتَه الجِلْدِيّة من مقعد السّيّارة الخلفي، ونزل بهدوء وأناة، ثمّ أقفل السّيّارة. بات الآن يشبه التلاميذ الذين يتلاعب الريح بشعورهم، وينثر الغبار في أعينهم. جمد الجيران وكل من عبر للتّوّ الزقاق كمجسّمات حجرية، لا تطرف لها عين، ولاحظوا أن الرجل صافح الوالد، ودخل معه إلى البيت. كان الوالد، وهو في الممرّ، يتحدّث بصوت عال حتّى تعلم النساء أن رجلاً أجنبياً دخل، ولا يجب أن تظهرنَ أمامه سافرات، أو يُسمَع لهنّ صوت. كان الرجل يتقصّى بناء البيت. كان يبدو كأنه جاء من طرف البلدية، أو يريد شراء المنزل. ينظر محتاراً إلى الجدران ومحفظته بيده. قال: "عجباً لهذه النقوش الجبسية الحديثة! على الطراز الروسي. لكن البناء كله شيّد وفق الأسلوب البريطاني، سيّد أورخاني. كوّات عالية ونوافذ مزدوجة". أطلّ على غرفة، وقال وكأنه صديق: "عجباً! أنا أُهنّئكَ على ذوقكَ. هذه المقرنسات دليل على رهافة ذوقكَ وسليقتكَ،

سيّد أورخاني". ثمّ أحجم بوجهه من رائحة الغرفة المشمئزّة. قال: "ماذا يقربكم الشخص الذي يجلس هنا؟".

قال الوالد: "إنه ولدي. لكن الدهر ألقى به هنا. قبل عشر أو اثنتَي عشرة سنة، خلال الهجوم الروسي..."

قال الرجل: "إذنْ، أنتم أيضاً قدّمتم جريحاً"، ونظر إلى يُوسُف الذي كان يجترّ.

قال الوالد: "لستُ أنا، لكن ابني أراد أن يُقلِّد المظليّيْن الروس، فأخذ مظلّتي، وطار بها، فأصبح بهذه الحال".

- عجباً! عجباً!

خرج من الغرفة، وأقفل الباب، ثمّ قال: "أجل، أنا أفهم. أنتم أيضاً سقط لكم جريح في الحرب. إنه ابنكم الذي...".

ظلّ الوالد حائراً كيف دخل الرجل الغريب إلى البيت من دون دعوة، والآن يتوجّه صوب السلالم. ومع ذلك، عامله باحترام، وقال له: "تفضّلْ إلى فوق، تفضّلْ".

توقّف الرجل، فجأة، في الدرج الأوّل من السّلّم، وقال: "اسمي آباداني".

- من أين تنحدر؟

- من مدينة طهران، واسمي أنو شيروان آباداني.

ثمّ صافح مجدّداً الوالد، وهذه المرّة بحرارة أكثر.

قال له الوالد: "أهلاً ومرحباً"، ثمّ أرشده إلى غرفته في الطابق العلوي. كان

آباداني يرتدي بذلة كحلية بربطة عنق رقيقة، لونها أزرق باهت. عِذاره نازل أكثر من المتعارف، طويل القامة، وشاربه غير مؤطّر. قصد صدر الغرفة، وهو يجيل بصره في النوافذ والجدار، ثمّ قعد بجانب سرير الوالد الجِلْدي.

برك الوالد على ركبتَيْه قبالة الرجل مثل الأشخاص المَدينين، وهو الذي يودّ أن يعرف على عجل مَنْ يكون؟ ومن أين جاء؟ وماذا يريد؟ وماذا يقول؟ : "حسنٌ، لننتقل إلى صلب الموضوع".

- بهذه العجلة؟ . ثمّ ضحك.

- طيّب، تفضّلْ.

- حقّاً، لا أعرف من أين أبدأ، لكنْ، ليس مهماً، في نهاية المطاف يجب أن أقول ما عندي. أتعلم؟ إن أختي كانت إلى حدود السَّنتَيْن المنصرمَتَيْن جارة لكم، تعيش بجانبكم، وأنا أخذتُ عنوانكم من أختي.

- طيّب.

- كنتُ أدرس في أمريكا قبل سَنتَيْن، والآن رجعتُ إلى إيران. يجب أن أُلملم حياتي، وأنظّمها. سمعتُ من أختي أنكم أب لأنجب وأجمل فتاة في إيران.

أصاب الوالد الاشمئزاز، لكنه آثر السكوت، وأطرق رأسه. قال آباداني: "أردتُ التحدّث مع كريمتكم الآنسة آيدا".

جمد الوالد. لم يكن أحد قد تجرّأ من قبل هذا، على أن ينطق باسم ابنته، فما بالكَ بأن يتحدّث إليها. قال: " كيف؟ مَنْ تكون أنتَ حتّى...؟". احمرّ وجهه، وارتعشت يداه.

قال آباداني: "قلتُ لكم، أنا آباداني".

هبّ الوالد من مكانه. لم يكن يعرف كيف يتصرّف، كان غاضباً. قال: "أنتَ كما قلتَ، لكنْ...".

قاطعه آباداني بنبرة ناعمة: "لا أريد أن يكون هناك سوء تفاهم. قصدي شريف، أبتغي الزواج، لهذا...".

جلس الوالد، ونكّس رأسه، وقال: "بهذه الطريقة، لا يمكن.. سيّدي". وبنبرة جافّة وابتسامة مرتسمة على محيّاه مثل شتاءات أردبيل، تابع: "تعلم أن كل مدينة...".

قال آباداني: "أعلم أن هناك تقاليد وأعرافاً يجب احترامها. لكني رجل صريح، ولهذا السبب زرتُكُم بمفردي. فقط لديّ رجاء واحد".

- تفضّلْ، قلْ.

- إذا كان ممكناً، أودّ أن أُلقي نظرة من بعيد على الآنسة آيدا، وأنصرف.

نهض الوالد من مكانه، وقال: "لا يمكن"، ثمّ خرج من الغرفة. وفي الممرّ العلوي رأى آيدا وأمها بعينَيْهما المستديرتَيْن تسترقان السَّمْع، وقد امتقع لون وجهَيْهما. أمسك بيد كلتَيْهما، وبسرعة جرّهما إلى أسفل، واقتادهما إلى المطبخ، وأقفل الباب، وعاتبهما على صعودهما إلى الطابق العلوي من غير إذن. ثمّ سأل زوجته ما العمل؟ بعد ذلك، أرسل آيدا إلى القبو، كي تتفقّد المخلّلات وماء الحصرم، وترى هل استوى مخلّل الباذنجان؟ أم لا؟ هل تعفّن؟ أم لا؟ سألتْه زوجته عن الرجل، كم عمره؟ ومن أيّ مدينة؟ ولمَ هو وقح إلى هذه الدرجة؟ لم يجد الأب جواباً. حمل وعاء به قطع

البطّيخ الأحمر مشطّرة، وصعد به إلى أعلى، ووجد السّيّد آباداني يُدخِّن الغليون، فقال له: "أتشتهي البطّيخ؟ تفضّلْ".

كان آباداني جالساً القرفصاء، وشرع يتحدّث عن أشياء أخرى بابتسامة لا تفارق شَفَتَيْه؛ أن المرء ما لم يصبح أباً، فلن يعرف قَدْر أبيه وأمّه، أن البلاد تتغيّر، لكنْ، أنّى لها أن تصل إلى مستوى أمريكا. تلك السّيّارات، والبنايات الشاهقة والجسور العجيبة، وشلالات نياغرا، وقوّة الهنود الحمر، والعبودية والبترول والحبّ والحياة والموت. وقال إن الإنسان في هذه البلاد إذا اشتغل بجدّ، فسوف يُحقِّق كل شيء. وتساءل لمَ طقس أردبيل في فصل الشتاء تحت الصفر دائماً؟ لماذا قنع الناس بالعيش بين أربعة جدران، ولم يُفكِّروا في جمالية محلّ سكناهم؟

وكأنه لا يجب أن يترك سؤالاً بغير جواب، كان الوالد يردّد بعض الكلمات، ويلهو بنظّاراته. قال آباداني: "أنا أرشيتكت. أعمل في شركة للطُّرُق والبنايات"، ثمّ تناول شطر بطّيخة، واستغلّ صمت الوالد، ليردف: "أريد الزواج بابنتكَ التي لم ترَ نور الشمس. أعلم أنها مصابة بالروماتيزم. وأريد كذلك أن أعالجها".

قال له الوالد: "أرجوكَ، لا تتحدّث عن هذا الموضوع. تفضّلْ، كُلِ البطّيخَ، وانصرفْ".

تناول آباداني شطراً آخر من البطّيخة، واستوى واقفاً، وقال: "هل مَلَلْتَ منّي؟".

- ليست الأمور بهذه البساطة. أنتَ لا تريد شراء حذاء.

- على كل حال، سأزورُكُم بعد شهر أو شهرَيْن، إذا غيّرتُم رأيكم...

ثمّ صافح الوالد، وقال: "أنا أتشرّف أن أكون ابناً لهذه الأسرة"، وذهب.

لمّا كان يركب السّيّارة، لمح من نافذة الغرفة السفلية فتاةً حوراء العينَيْن وسوداء الشَّعْر، انزوت خلف باب، تمُعن النظر من دون أن يطرف لها جفن. ارتجّ قلب آباداني، واهتزّ قلب آيدا.

ظهر الرجل ثانية بعد شهر، ورجع من حيث أتى من غير أن يرى آيدا. استمرّ هذا التردّد أربعة عشر شهراً، وكل مرّة كان يُحضر هدية لآيدا؛ مرّة قطعة قماش، ومرّة ملابس، وأخرى حذاء. وفي إحدى المرّات، أهدى لها عقداً لولبياً من ذهب. ذات مرّة، قال الوالد لآباداني إنه سيُبلغ الشرطة إذا استمرّ تردّده هذا، فأجابه آباداني ألا مشكلة، أقصى ما في الأمر أنه سيقضي ستّة أشهر في السجن، وبعد أن يخرج، سيُعاود تردّده إلى البيت. عجز الوالد عن فعل شيء، ولم يستطع أن يحول دون مجيئه. كان يتفاوض مع الأمّ لساعات طويلة، ولا يصل إلى نتيجة. يقطع ويمانع. كان يقول: "الوقح الجلف أبو الكارفات يخال أنني سأنخدع بسيّارته".

قالت الأمّ: "لا تدرْ ظهركَ لنصيب ابنتكَ. ماذا تريد أن تصنعَ بها؟".

- سيكون ما قلتُه. لن أسلّم جثّة ابنتي لهذا الرجل.

لكن آيدا العاشقة التي كانت على علاقة خفية بآباداني، لم تجرؤ على أن تنبس بكلمة. تندّت في ركن البيت، وواصلت حياتها العادية كما البُكم؛ تغسل الغسيل، وتطبخ الطبيخ، وتكنس، وأحياناً حين تحسّ تترنّم بشيء. لكن الأسوأ من هذا كله أن آلام المفاصل زادتها هزالاً وكآبة.

ظُهر ذات يوم، لمّا كانت راجعة من الخياطة، طرأ أمر عجيب. يومها كانت تتأمّل في معمل اللورد للمراوح، وتتمنّى لو لم تكن بنتاً حتّى تستطيع أن تهبط من منحدر المعمل، ولو لمرّة واحدة، وتقف بجانب بهو المعمل الذي كان مسقوفاً بسقف أحمر اللون، يشبه القبّعة الإفرنجية. وتصيح

بأعلى صوتها، فتُجبر العمّال على الخروج، ثمّ تنصرف بسرعة. غير أن دم الحياء جرى في محيّاها، وواصلت طريقها بوقار خاصّ. في تلك اللحظة وفجأة أحسّت بسيّارة تتعقّبها في هدوء. التفتت إلى الخلف، فإذا به آباداني. أحسّت أن شيئاً طار من جسدها، وذهب، فاضطرب فؤادها، وتسارعت نبضات قلبها، واحمرّ وجهها. تنحّت جانباً، لتُفسح المجال لعبور السّيّارة. لكن آباداني ترجّل من السّيّارة. حينئذ شرعت آيدا تركض كالذي يفرّ من الموت، تلتفت خلفها، وتتعثّر.

ركب آباداني السّيّارة، وتجاوز آيدا، ثمّ توقّف. نزل من السّيّارة، وسدّ الطريق في وجهها قائلا: "أريد فقط أن أسألكِ عن شيء". تمكّنت منه نوازع الضعف تحت نظرات آيدا المحتشمة.

كانت آيدا ترتعش وقلبها يكاد يخرج من ياقتها. سرت على وجهها وفي جسدها كله حمّى، والتصق لسانها بأعلى فكّها، ومهما حاولت أن تسترق نظرة إليه، لم تُفلحْ. ووقعت عيناها على عينَي آباداني، فهام وحار. أمسك، بقلق، ذراع آيدا من فوق الشادور الأسود وقال: "آنسة آيدا، لماذا انتباهكِ مُشتّت عنّي؟ ألستِ على ما يرام؟".

ودّت آيدا لو غاصت في الأرض، وتوارت في مكان. كانت تودّ لو تُعلن صافرة الدنيا عن نهايتها. كانت خائفة من أن يراها والدها من مكان. قالت: "لا. لا تلمسني"، وصرخت.

قال آباداني: "ليست لديّ نيّة سيّئة".

بكت آيدا، وهي تجول بناظرَيْها في الأنحاء، رأت البيت، فركضت. كأن الريح كانت تحملها إلى أسفل المعمل، والطريق تبدو طويلة، ودويّ المعمل يبدو

مثل تردّد مطرقة على شيء صلب. وفي الوقت الذي كانت تقترب من البيت، سمعت صوت آباداني يقول: "سآتي... سأكون... سأذهب... سأرى...".

تلك الليلة، اعترت مشاعر آيدا حالة غريبة. عظامها كلها كانت تتداعى ألماً. استدعوا الدكتور شوشانيك، وحقنها بحقنة، لكنْ، في منتصف الليل اشتدّت عليها الحمّى حدّ الهذيان. أرقدتْها الأمّ فوق سرير في الغرفة الكبيرة في الطابق السفلي، ودثّرتها ببطّانية وملحفة بيضاء. دلف الأب إلى الغرفة مقطب الجبين بنظّاراته تلك ورأسه الصغير، حفيف الشَّعْر. وجلس على حافّة السرير. أمسك معصم آيدا، ليقيس حرارتها، لكنها صرخت: "لا تلمسني".

فزع الأب، وتقهقر، وتمالك نفسه كثيراً، لئلا يصفع آيدا صفعة في وجهها. وبعد أن جفّفت الأمّ وجهها بمنديل رطب، فطنت إلى أنها نائمة في حضور والدها. أحسّت بالخجل، فطارت من مكانها، وتكوّمت على الأرض.

قال الوالد: "هل أكلتِ دماغ السنونو؟" ووقف على رأسها، ووضع يده على جبينها: "أعطوها خبة". ثمّ انصرف إلى غرفته.

قالت الأمّ: "لمَ تخافين من أبيكِ؟ وهل يخاف المرء من أبيه؟" وأرقدتْها في سريرها، وتذكّرت أيّام طفولة آيدا حين كانت جميلة ولطيفة. قبّلتْها، وسحبت البطّانية فوق كتفها. وحين دخل آيدين إلى الغرفة، قالت له: "ألا تأتي للاطمئنان على حالة أختكَ؟".

- بلى، جئتُ مرّة، فكانت نائمة.

- طيّب، سأذهب لأتدبّر عشاء والدكَ.

جلس آيدين على طرف السرير، ونظر، لهُنَيْهَة، إلى آيدا التي أطرقت عينَيْها: "آيدا".

فتحت عينَيْها، وعندما رأت صنوَها، ابتسمت. تيبّست شَفَتَاهَا. قال لها آيدين: "أنتِ جميلة جدّاً اليوم".

ضحكت، وحادت برأسها قليلاً. لم تسمع من أحد من قبل مثل هذا الكلام. وكم تمنّت الحديث مع آيدين الآن، وكم كان هو جميلاً. غمرتْ يَدَيْها وسط شَعْره، وقالت: "لا تُمازحني". قال آيدين: "صدِّقيني، آيدا، حينما كنتِ مغمضة عينَيْكِ، كنتِ أشبه بملاك مطبق عينَيْه".

- والآن كيف أبدو؟

- الآن أيضاً تبدين كملاك فاتح عينَيْه.

ضحكت آيدا. وقال آيدين: "منذ مدّة، وأنا أودّ التحدّث إليكِ. أنا لا أفكّر كما يفكّر أبي وأورهان، وأنتِ أيضاً لا يجب أن تكوني مثلهما. أنتِ كبرتِ، ويجب أن تتّخذي أي قرار تريدينه، قرّري بنفسكِ، لا تخشي شيئاً. رأيتُكِ اليوم تبكين أمام المعمل. لكنْ، لماذا توجّستِ؟ ليتكِ ركبتِ معه السّيّارة، وتحدّثتِ إليه. من المؤكّد أن السّيّد آباداني يحبّكِ، ويريد أن ينتشلكِ من هذا المكان. حسن، أنا لا أعرف إن كنتِ تحبّينه أم لا. لكنْ، لا تخافي. الموت واحد والعويل واحد" ثمّ سكت. وغرقت الغرفة للحظات في سكون مطبق.

كزّت آيدا على شَفَتَيْها من شدّة الألم، لكنها تحاملت، وضحكت، وقالت وهي تصارع آلام الحمّى: "أخي..."، ثمّ أطبقت عينَيْها بأناة، وما هي إلا لحظات حتّى نامت.

حلمت بملاك، هو الأجمل بين الملائكة كلهم، وكانت هي الملاك. مكثت في مكان وسط الصخور، ولم يكن ثمّة أحد، كان الماء ينسكب من أعلى الصخور، والطقس غاية في الرقّة.

-٦-

آيدا، آيدا، آيدا. فرد من العائلة، لم تحتفظ الذاكرة بذكريات كثيرة عنه. وحتّى آيدين بعد مرور سنوات، ورغم التفكير كله، لم يستطع تذكُّر شيء عن طفولة هذه الفتاة؛ لا كلام ولا صخب ولا حضور. تعفّنت في دولاب البيت، ثمّ، بقول الوالد، غربت عن هذا البيت واختفت بلا ضجيج أو إزعاج.

أقامت عرسها في خريف بارد جدّاً في غياب الأب. كانت نعومة الثلج في الشوارع والأزقة قد استحالت جليداً، والمطر ما فتئ يهطل، ويشجّ واجهة الزجاج وأسطح الأسقف الحديدية. أغلق الوالد دكّانه لأسبوع كامل، وسافر إلى مدينة تبريز. اقتنى تذكرة ذهاب وإياب، وأصرّ على قوله. التمست الأمّ حضوره، غير أنه أقسم أنه لن يرجع ما لم يرحلْ هؤلاء. وضع في محفظة صغيرة سجّادة وكتاب المفاتيح وطقم لباس داخلياً وفوطة، وارتدى معطفه الأسود الضخم الذي بدا شكله مُضحِكاً على بَدَنه الضامر، ووضع قبّعته الجديدة على رأسه. رحل صباح اليوم الذي كان مقرّراً أن تأتي عائلة آباداني من طهران. أَمَرَّتْهُ الأمّ من تحت المرآة والمصحف(*)، وقالت: "ليتكَ تحمَّلتَ".

قال الوالد: "أنا أكره هذا الوغد سارق العرض". استقلّ من أمام باب المنزل عربة، يجرّها حصانان، لتوصله إلى محطّة الحافلات. أخذ الحصانان

*) من العادات لدى الإيرانيّيْن أن يَعْبُرَ الذي ينوي السفر قبل خروجه من تحت المرآة والمصحف.

يدكّان سنابكهما، يستعجلان الانطلاق. وفي آخر لحظة، أخرج رأسه من العربة، وقال: "لا تمُرِّغوا شرفنا، بلا ضوضاء وبلا صخب، قَدْرَ الإمكان". انطلق الحصانان ناقلَيْن الأب، وتاركين الأمّ تذرف خلفه الدموع.

كانت آيدا منكبّة بشوق جارف، على خياطة ملابس عرسها؛ فستان أبيض طويل، أضافت على أكمامه وخصره وياقته انكماشات صغيرة، كي يُخفي نحافتها، وتبدو متناسبة مع آباداني. كانت التصاميم من إنجاز أخوات أنو شيروان آباداني الثلاث، وآيدا كانت تتولّى الخياطة بمساعدة بعض فتيات الجيران وزميلات الخياطة.

أما أورهان وأمّه، فقد نقلا يُوسُف بجهد جهيد إلى الغرفة الصغيرة بالطابق السفلي، ونظّفا الغرفة الكبيرة؛ فتحا نوافذها للتهوية، وأثّثا أركانها جميعها بالكراسي الخشبية المكتراة، فيما قضى آيدين وقته كله في وضع الزينة؛ زيّن جدران البيت بالورق الملوّن والأعلام الصغيرة، وأخرج الزقاق من حالته البسيطة، ودبّجه بسلاسل المصابيح الملوّنة.

حضر أيضاً أقارب آباداني، وشاركت أخواته الثلاثة في العمل، لمّعنَ الزجاج بورق الجرائد، وبسطنَ سفرة العقد في الطابق العلوي: مرآة كبيرة، بجانبها مصحف مصري نفيس، مزيّنة بزوج شمعدان ثنائي تشيكوسلوفاكي الصنع، وقطعة خبز صخري. ووضعنَ طبقاً صغيراً ذا سبعة ألوان، واللوز والجوز المُطعّم بنبات إكليل الجبل في سَلاّت مذهّبات. وأخرجنَ المائدة في حلّة بديعة مرتّبة وكاملة غير منقوصة حتّى إن الأمّ من شدّة الفرح ذرفت الدموع.

أنفقوا الكثير من المال: مشروبات وحلويات ومرآت ونبات مشكّل...

أما هو، فكان يركض، يركب سيّارته، ويشتري ضعف ما يطلبون. ومع ذلك، لم يكن الزفاف زفافاً. كان كاسداً وفاقداً للنشاط والرونق، لأن الأب كان قد أوصى: "أقيموا عرساً يليق بمكانة العائلة، بلا ضجيج وبلا صخب، الرجال في الأسفل والنساء في الأعلى. وإذا أرادوا شراء جهاز العروس من هنا، فالمال موجود، المبلغ الذي يريدونه، لكني أوصي بدفع المال، وتجهيز الجهاز في طهران".

كان الضيوف ليلة الزفاف، بضحكهم وصراخهم ومزاح الشباب ومرحهم، يرغبون في إضفاء شيء من الواقعية على الحفل ودفع المَلَل عنه. حضر العمّ صابر بعد تأكّده من غياب الوالد، وأحضر رفقتَهُ أركسترا من ثلاثة عازفين، انشغلوا منذ دخولهم بأكل البرتقال والحلويات. لكن صياح الأطفال وصخبهم وركضهم، وصوت الصحون، وأحياناً صوت انكسارها، وتلك الضّجّة، كان يُجبر العمّ صابر على تحريك عزف العازفين.

مايسترو فرقة العازفين كان عجوزاً صغير البنية، وذا وجه عبوس كئيب، يلهو بأكورديونه القديم، وواضح أن إيقاعه غير مضبوط. لكنْ، بإشارة من رأسه لعازفِيِ الناي، كان يعلن الاستعداد للبدء. وفي آن واحد، شرع الثلاثة في العزف، وسيطروا على الساحة. عزفوا بضع مقطوعات مُبهِجة وصاخبة، وكانت أيضاً حزينة للغاية.

كانت المعزوفات ذات إيقاع سريع ومرح، تغوي الشباب بفَرْش بساط الرقص، لكنْ، في ثنايا نوتاتها، تنساب موجات من الحزن. في اللحظة ذاتها، خرجت الأمّ من المطبخ، وطلبت من العمّ صابر أن يتفادى موسيقى الإيقاع والرقص، لأن الخبر إذا وصل إلى الأب، فسوف يسوّد عيش الجميع. غير أن العمّ صابر لم يكترثْ لكلامها، وكان ينشد إغراق المجلس في النشاط والرقص والسرور.

اندفعت الأمّ: "أغا صابر! أستحلفكَ بالله! كفّوا"، لكنْ، بلا جدوى. آنئذٍ أمسكت طرف وزرة العمّ صابر بقبضتها، وبدأت تترجّاه. وفجأة انتبه، وأمر بالتوقّف عن العزف.

عاد حفل الزفاف إلى أجواء الضجر ثانية. لكنْ، ما هي إلا لحظات حتّى ساند الضيوف، بهَرَجهم ومَرَجهم، بمزاحهم ونقرهم على الطاولات، العمّ صابر، وأنقذوا الموقف. كانت وجنتاه قد توّردتا بفعل حرارة المُدفِئات، ولم ينفكّ عن مخاطبة الأمّ: "أرأيتِ؟ لا يمكن إسكات الناس، يحبّون المرحَ والنشاطَ".

كان أورهان جالساً على حافّة نافذة الطابق العلوي، يبدو في تلك البذلة البيضاء أكثر سمنة، وأقصر قامة من سائر الأيّام. لم تبرح الأمّ مكانها في المطبخ، كانت تُرسل الشاي والحلويات والفواكه بانتظام، كي تُوزّعها بنات الجيران وأخوات العريس على الضيوف. وكان آيدين رابضاً على عتبة باب غرفة العقد يُراقب آيدا التي كانت شَفَتَاها مُحمَرَّتَيْن، بعينَيْن سوداوَيْن واسعَتَيْن. تشعر بالخجل حين تقع عيناها على آيدين، وتتمكّن منها نوازع الغربة والوحدة، ويحسّ آيدين بأنه يحلم.

كان آباداني يرتدي بذلة سوداء منسوجة من جِلْد مدبوغ ممزوج بالكونغا السوداء، تنمّ عن ذوق رفيع، ويضع حول عنقه كارفات أرجوانية، ويلبس قميصاً خيطيّاً أبيض، يشبه الأمراء الأوروبيّيْن، وبالضبط أولئك الذين كان آيدين قد رأى صورهم في المجلات الأجنبية. واللحظة، أمسك بيد عروس جميلة، كانت تطهو أطعمة شهية، وتغسل الأواني، ولم تكن لها انتظارات، وكانت تعاقب من طرف الوالد أو أورهان.

حين أكمل العاقد قراءة الخطبة(*)، تقدّم آباداني، وصافح آيدين، وقال: "الآن، وقد باتت آيدا زوجتي بشكل رسمي، أستطيع القول بأني أملك أجمل امرأة في الدنيا". ثمّ ضحك، وقبّل وجه آيدين، وشكره. بدوره قبّل آيدين وجه أخته، وهمس في أذنها بهدوء: "ارحلي، آيدا! ارحلي، ولا تطئي جهنّم هذه مرّة أخرى". ارتعشت آيدا، بيد أنها ابتعدت ووجهها مفترّ بضحكة شكلية. واضعة يدها في ذراع العريس، ذهبت، وجلست على مقعدها. بعد ذلك، احتلّ وسط الغرفة فرقة من فتيات الجيران، وشرعنَ بالرقص التركي، لدرجة أن آيدا لم تعد ترى آيدين.

نزل آيدين من السلالم بصمت، وذهب خارج الباب، ليجلسَ على مصطبة حجرية تحت الفوانيس الزجاجية، ويصيخ السَّمْع لصوت المطر. ولأجل استقبال المَدعوّين والترحاب بهم كما يبدو، لأن الابن البكر، حسب المعمول، ينوب عن الوالد. لكنه، في واقع الأمر، كان ينفر من تلك الضّجّة الوقحة، وبالخصوص حينما ترقص فتاة، يحسّ بالضيق والضجر. جلس على المصطبة، وشرع يُوزّع الابتسامات على الوافدين كلهم، الذين يعرفهم، والذين لا يعرفهم، يهزّ رأسه، ويُرحّب. كان يُفترض أن يجلس إياز الضابط، أما الباب، لكنْ، لم يعرف سبب غيابه.

أمطار ورياح، وفجأة رعد وبرق، ثمّ بَرَدٌ شديد، تكسّرت على إثره سلسلة المصابيح، الواحدة تلوَ الأخرى بفعل ضربات حبّات البرد. بينما كانت الأسلاك الكهربائية تتراقص وسط الطقس العاصفي. أطبقت الظُّلمة على الزقاق، وقلّ هَرَج الضيوف لانشغالهم بتناول وجبة العشاء. وسط تيك العتمة كان يُسمَع صوت محزون، أشعر آيدين بأن أحداً يبكي، فقام يتعقّب

---

*) هي خطبة مستحبّة لدى الشيعة عموماً، يلقيها العاقد قبل أن يتلوَ العروسان صيغة عقد نكاحهما.

الصوت. ابتلّت ثيابه، وكان رأسه مستديراً بشكل عجيب. في وسط الزقاق، قبالة معمل اللورد للمراوح، وفي محيط الساحة، كان يتواجد دهليز ضيّق ومظلم، وكان الصوت الحزين قادماً من هناك، صوتٌ باكٍ مرافقٍ لعزف العازف. ولج آيدين الدهليز، وتوقّف وسط صحن قديم مسقوف. كان الصوت يترنّم بـ "أمان أمان"، بروعة، لم يقدر معها آيدين أن يحبس دموعه:

أَتَرى تِلْك الجِبَالَ التي غَطَّى الضَّبابُ قِمَمَها،
وذاكَ الصَّيادَ الذي وَضَع السَّهْمَ على وَتَرِ القَوْس؟
رُوحِي فِداءٌ للأَحْرار في كافَّة أَرجاء هذه البلاد،
الذين يَحلُو قولُهم، وتَحْلو تَضحياتُهم.
تَذَكَّرَ بُرعمُ الزهرة البلبلَ
فاحترق قلبُه، وتَعَلَّق بمُرادِه
نَظَر الأستاذُ إلى ريشِ حَمَامَته، وقال
حَمَامَتي! جُودي، فإنَّ لكِ قلباً بِرَحابةِ عمّان
قلتُ الأَمان، أَيُّها الشاعر، أُنْظُر إلى حياة الأستاذ
أُولئِك العَارِفون، لن يركبوا أبداً حِصَانَ الآخَرِين(*) .

مكث العروسان ثلاثة أيّام أخر، وغادرا صباح الجمعة وسط عبارات وداع الجيران ودخان الأبخرة ودم خروف ذُبح لأجلهما على عتبة الباب. أوصت آيدا آيدين بأن يزورها حين يُكمل دراسته، وألا يتركها وحيدة. أما الأب الذي كان قد رجع من سفره إلى تبريز في اليوم السابق، فمن فرط فورته، لزم مكانه في الغرفة العلوية المقلوبة رأساً على عقب، ولم ينزل البتّة. قصده آباداني، وقال: "كنتُ أتمنّى حضوركَ في عرسنا، والدي!".

قال الأب: "لا تنادني والدي". كان يتحدّث بانفعال شديد.

---

*) أصل المقطوعة الشعرية باللغة التركية.

قال آباداني: "لا تغضبْ منّي، والدي!".

ذهب الوالد بمحاذاة نافذة الممرّ، ووقف مُولياً ظهره لآباداني وآيدا، وقال في حشرجة: "أنتَ سرقتَ عِرضي".

- أنتَ الأكبر، لا تقلْ هذا الكلام. لا تجعلنا نغادر بيتكَ على ذكرى سيّئة.

- أنا لا أكرّر الكلام، ولا يربطني بكَ أيّ شيء.

ضربت الأمّ وجهها بكَفّ يدها، وتقدّمت مهرولة: "جابر!".

قال الوالد: "أنا لا أخجل حتّى من أخي، وأنتِ لكِ مكانتكِ الخاصّة".

قالت الأمّ: "أستحلفكِ بالله، جابر، توقّف".

قال آباداني: "على كلّ حال، آيدا ابنتكَ، لديها انتظاراتٌ منكَ. وأنتَ قصّرتَ في حقّها كثيراً".

- أنا قمتُ بما أقدر عليه.

- أنتَ لم تعرف قَدْرها، والدي!

- كيف ستنظر آيدا إلى عينَيّ؟

- وهل ارتكبَتْ محرّماً، والدي العزيز؟! كان شديد التوتّر.

قال الوالد: "أكثر من الحرام". وكان أكثر توتّراً من آباداني. لكنه غيّر من حدّة نبرته، وقال بأناة: "أنتَ أجبرتَها على مواجهتي. لم تكن آيدا هكذا. ذهبتَ وجئتَ كثيراً حتّى طوّعتَ النساء، وانتهى الأمر...وعلى كلٍّ، هي مَن اختارت، وهي مَن..."،.وابتلع كلامه، كأنه أجهش بالبكاء. حينئذٍ قال: "مع السلامة"، وذهب إلى غرفته.

-٧-

في اليوم ذاته الذي توفيّ فيه السّيّد اللورد، مدير ومالك معمل المراوح، لم تتوقّف عجلة المصنع عن الدوران، وظلّ وفياً لصخبه المعهود وصفّارة بداية العمل ونهايته. اصطفّ العمّال في طابور حول أطراف المعمل، في ذاك الخندق الواسع، يحمل كل واحد منهم وردة في يده حتّى إذا مرّ التابوت من أمامهم، رموا الورود فوقه. غُطّي التابوت بعلم إيران وبريطانيا معقودَيْن ببعضهما، ونُصبت صورة للسّيّد اللورد في مقدّمة التابوت.

اليوم ذاته، ولأداء الاحترام الواجب، لم يفتح الوالد دكّانه، وذهب رفقة آيدين وأورهان إلى منحدر مدخل المعمل. كان المكان يعجُّ بالكثير من الناس، من الشخصيات العسكرية والحكومية؛ الرجال نازعون قبّعاتهم مُمسكون بها في أيديهم، والنساء يراقبنَ المكان من أعلى المعمل، بعيداً عن الأسلاك الشائكة. وأمام باب منزل جابر أورخاني خَلْق كثير يتململ وينتظر. عناصر الأمن بلباسهم الوظيفي وأوسمتهم وبُوَطِهم البيضاء، بعضهم يؤدّي التحية بتحريك البنادق، والبعض الآخر مسيطر على الأوضاع، وفي حال القيام بدوريات.

الوالد، الذي كان واقفاً إلى جانب إياز الضابط، متقدّماً على صفوف التجّار، وبعد تلقّي إشارة من رأس إياز ،وضع وردة على التابوت كعربون وفاء من الجار المحترم والشريف، ثمّ تنحّى جانباً. حينئذٍ قذف العمّال

ورودهم على التابوت، وعملاً بوصية السّيّد اللورد، ومن دون أن يُعطّلوا العمل، عيَّنوا مُمثّلين لهم لتشييع جنازته إلى المقبرة القديمة في المدينة.

لم يُحمَل التابوت على الأكتاف، بل كان هنالك حَرَسٌ خاصّ بلباس أزرق سماوي، تقدّموا أمام الجموع، ورفعوه من مقابضه الخشبية السوداء البرّاقة. هلّل بعض العمّال بصوت واحد: "لا إله إلا الله"، بيد أن عريفاً عسكرياً ألزمَهم السكوت. وفي تلك الآونة، قامت الفرقة الموسيقية العسكرية بعزف معزوفة العزاء مع المسير. فجنحت الجموع إلى صمت مهيب.

كان السّيّد اللورد بريطانياً يتحدّث التركية بطلاقة بلبل. كان، على الدوام، خلال عيد الفصح أو الكريسماس، يُعلن عن حضوره أمام المعمل، واضعاً على رأسه قبّعة طويلة، مرتدياً بذلة سهرة غامقة تحتها قميص أبيض ذو ياقة مستديرة. تراه يعطي أبناء الحارة علب هدايا: كتاب مُصوّر بالإنجليزية، رُسمت حروفه بأشكال مختلفة، وعلبة شكولاتة، وبروش طاووسي، ومذكّرة، طُبع على غلافها شعار معمل اللورد للمراوح.

كان، أحياناً، يتواجد بالحيّ، ليتفقّد الجيران. وخاصّة، الوالد الذي كان جاراً شريفاً. يتحدّث عن الأمس واليوم، ويحكي عن بلده. كان الوالد يُقدِّم له الفستق وهو يتناوله، وفي نهاية المطاف، كان يتحدّث عن مراوحه. كان الوالد في محضر اللورد مستمعاً نجيباً، ويكنّ له احتراماً كبيراً. لهذا السبب، أهدى السّيّد اللورد الوالدَ في احتفالية تأسيس المعمل، ميدالية الجار والمواطن الشريف. كانت هذه الاحتفالية تُقام، سنوياً، بقاعة البلدية، ويحضرها التجّار المعروفون والمواطنون الشرفاء وعلية القوم في المدينة؛ يتناولون الفاكهة والحلويات والعشاء، ويستمتعون ببرامج فنّيّة، ويُصفّقون

عقب إكمال السّيّد اللورد خطابه. ويختتم الحفل بتوشيح السّيّد اللورد صدور ثلاثة أشخاص بميدالية الشرف.

كانت القاعة تغصّ بالحضور، يُضيء الفضاءَ سلسلةُ المصابيح والأضواءُ الكاشفة القوية. الأعلام الإيرانية والبريطانية تُزيِّن الأعمدة كلها بشكل متقاطع، وكل طاولة محاطة بأربعة كراسٍ، تتوسّطها مزهرية، تضمّ أزهاراً زرقاء وحمراء، أو برتقالية وبيضاء. قيل إن السّيّد اللورد كان يستورد تلك الزهور من الخارج، لكنهم عجزوا عن فَهْم الوسيلة التي كان يستعملها لجَلْبها، وكيف بقيت غضّة طرية! وكأنّها قُطفت للتّوّ من الغصن.

كانت منصّة القاعة مزيّنة بالورود، بمقدّمتها تريبون، أُلصقت به صورة لشاه إيران. كان الحضور من البداية وحتّى الختام يأكلون ويشربون ويُصفّقون ويمرحون؛ مشروبات كحولية أجنبية، شاي، قهوة، مثلّجات، عصائر، وكلها تحمل ماركة اللورد. كان الوالد يرتشف الشاي فقط، ومنشغلاً بالحديث إلى إياز الضابط الذي لم يشرب الكحول ليلتها، احتراماً للوالد.

على إثر ذلك، أخذ السّيّد اللورد، ببذلته السوداء المخصّصة للسهرات وقميصه الأبيض ذي الياقة المستديرة وقبّعته الفارعة الطول، مكانه خلف التريبون وسط تصفيقات الجموع وهو يبادلهم، من مكانه، التحية بإيماءات من رأسه، ووجهه متهلّل بابتسامة عريضة. أشار إليهم بيده كي يصمتوا، وقال: "أبناء البلد الشرفاء! أنتم الأفاضل الذين أجبتُم دعوتي، وامتننتُم عليّ بمقدمكم العزيز، ألم يكن ذلك بسبب مصير الوطن؟ ألم تُشجّعوني؟ لمَ تخلّيتُ عن بلدي؟ اسألُوا أنفسكم، ولو لمرّة واحدة، لماذا يبذل مِسْترِ اللورد هذا الجهد كله؟ أنا جعلتُ مملكة إيران تحت غطاء مراوح اللورد...".

بعد إنهاء الكلمة، دعا السّيّد اللورد المواطنين الشرفاء إلى اعتلاء المنصّة: رئيس دائرة الأمن الذي قضى على فتنة أصحاب الشوارب الكثّة؛ المزارع الذي نجح في مكننة زراعاته، السّيّدة الخيّاطة التي علّمت نصف بنات المدينة فنّ الخياطة؛ الرجل الشهم الذي رفض أن يقبل أيّة مساعدة بعد الحريق الذي أتى على سوق أردبيل، وكان طلبه الوحيد تسديد مبلغ مائة وبضع تومانات، التي احترقت في النازلة، لسيّدة عجوز كانت قد استودعتْه إيّاه. عُدّ هذا الرجل نموذجاً أمثلَ للإنسان الشريف؛ رجل الأمن الذي تفوّق على نظرائه في إحلال الأمن بالمدينة، بواقعية ودقّة وهمّة، لا تعرف الكَلَل؛ وجابر أورخاني، الرجل النحيل والصغير الهيأة، بنظّارات مستديرة وقبّعة بنّيّة، وأسفل اللحية أبيض وأسود، برصيد تجاري مشرق في تجارة البزر في المدينة. "جابر أورخاني، الجار الشريف، والمواطن الشريف، والتاجر الشريف". صفّق الحضور له، وطوّق إياز الضابط عنقه بإكليل من الورد، وتقدّم السّيّد اللورد لمصافحته.

أثارت وفاة السّيّد اللورد، فضلاً عن تأثّر ساكنة الحارة والعمّال، حالة دعائية. ممثّلو العمّال بعد عودتهم من مراسم الدفن، باشروا العمل، بطواعية، حتّى الساعة السابعة ليلاً، وصنعوا المراوح. وظلّت سيّارات الشحن الصغيرة تنقل، تباعاً، المراوح إلى خارج المدينة عبر طريق منحدر. لكن مراوح ذلك اليوم كانت مختلفة عن سائر الأيّام. ألصق عليها مُلصق كُتب عليه (توفّي السّيّد اللورد، لنقدّم له الاحترام).

بعد الحرب، وخاصّة بعد وفاة السّيّد اللورد، تمّ رشّ المبيدات، وتعقيم منازل المدينة جميعها تقريباً. حيث قرّر الناس القضاء على الحشرات والكائنات المُضرّة عن طريق برنامج مُفصَّل للتعقيم. افتَتحت شركة كيماوية دوائية أمريكية

تُدعى "بايكوت" فرعاً لها في المدينة، وقامت بالإشهار والدعاية. فتدافع الناس، وتزاحموا على الشراء. انتهت المبيدات، واضطرّ الناس للتسجيل في لوائح الانتظار. كانوا يشترون مبيد الحشرات معبّأً في قارورة من لتر واحد، محكمة الإغلاق، مع مضخّة. رُسمت على السائل السّمّي صورة فتاة شقراء، تمسك بيدها مبيد ذباب كبيراً، وتطرد الفئران المؤذية من نافذة بيتها. المهمّ كان إشهاراً: "الحياة بعد الحرب سهلة مع التعقيم فقط".

بعد بضعة أشهر، أسّست شركة بايكوت معملاً لها في ضواحي المدينة، ونشرت إعلاناً لتوظيف العمّال والموظّفين. تطوّر العمل، وغزا السّمّ والتعقيم كامل المدينة ونواحيها حدّ الإشباع. فصار بايكوت يُباع لدى البقّال والفاكهاني، وباتت إعلانات الشركة تُعلّق على واجهات الوكالات البنكية. وبعد ذلك، قرّرت الشركة أن تُنتج ألعاب الأطفال؛ البالونات والدمى والكرات والعرائس والحيوانات والألعاب الذهنية والألعاب المسلّية، وآلاف الأنواع من أدوات الزينة. صَنع هذا المعمل أكبر بالون ممكن على هيأة فيل، وأطلقه في الهواء. صنع هرّاً من فرط كثافة شواربه، كادت رقبته تنكسر، لكن وجهه كان شبيهاً بالإنسان، ويبدو كأنه واضع نظّارات على عينَيْه. صنع مروحة لمّا تضغط على زرّ تشغيلها تُحلِّق في البيت. صنع ملاءة حين تعرّضها لأشعّة الشمس أو لحرارة مفرطة تتبوَّل. وصنع كرة حين ترتطم بالأرض تُصدر صفيراً، وتطير في السماء عالياً، وتنفجر. صنع كتاباً حين يُفتَح، يتفاجأ المرء بآلة رجل.

تحوّلت هذه الشركة، فيما بعد، إلى أكبر زبون لبزر نوّار الشمس في المدينة. ومنذ ذلك الحين، راج سوق الوالد أيضاً، وارتفع شأنه. ولم تمضِ إلا مدّة قصيرة حتّى استثمرت هذه الشركة في تربية الحيوانات والزراعة. في

قطاع البنوك وصناعة السّيّارات والطباعة والصباغة والصناعات الكهربائية والبترولية، كانت تؤسّس شركة جديدة في كل قطاع، تحت غطاء شركة بايكوت. كان عمّال التعقيم يُعقّمون العمارة أوّلاً، ثمّ يُدشنّونها.

الوالد أيضاً عقّم منزله. ذات يوم، أخذ أهل بيته جميعهم إلى خارج المدينة، واكترى خيمة، وباتوا ليلتهم هناك. لأن أثر السّموم كانت جدّ قوية، لدرجة أن امرأتَيْن وبنتاً صغيرة ورجلاً عجوزاً سقطوا ضحية لها، في ذلك الوقت. وبحسب تعاليم الشركة كان يمُنَع الدخول إلى المكان المعقّم قبل مرور أربع وعشرين ساعة على الرشّ.

وهناك، وجرياً على العادة، تذكّرت الأمّ يُوسُف للحظة. من المؤكّد أنهم نسوه، فطلبت من الأب أن يذهبوا لإحضاره، والأب كان بدوره قلقاً. كان يذرف الدموع لأجل يُوسُف، لكنْ، حينما قام عمّال التعقيم، بكمّامات ومريلات غامقة، برشّ أنحاء البيت جميعها؛ ثقوب الآجور، ثنيات الأبواب، شقوق الخزّانات، وحتّى تصدّعات الجدران، ماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا؟

ليلتها، باتوا حتّى الصباح يذرفون الدموع، وينتحبون على يُوسُف. وفي اليوم الموالي، لمّا قفلوا عائدين إلى البيت، كان الجميع يعتقد أنهم سيجدون جثّة يُوسُف متيبّسة أو منتفخة. فتح الأبُ بابَ الغرفة الصغيرة في الطابق السفلي، والهلع والخوف قد نالا منه: كان يُوسُف جالساً هناك على هيأته، متحيّراً وخائر القوى مع فرق وحيد، هو أن عدّة فئران وهرّة ومئات الصراصير والبعوض والبقّ والقمّل تنتشر وسط الغرفة بعد أن قُضي عليها. وبسرعة، فتح الأبُ نافذةَ الغرفة، وذهب صوب يُوسُف، واندهش لرؤيته على قيد الحياة، وذُهل وهو يراه يأكل شيئاً.

كانت الأمّ موقنة بأنه أكل من هذه الحشرات.

-٨-

بعد رحيل آيدا، بات الوالد نزقاً مُوَسوَساً. لأتفه الأسباب يقيم الدنيا، ولا يُقعدها، ينتقد الأكل، وغدا قليل الشهية مَلولاً ومُدمناً على الغليون. يرجع من الدكّان، ويقصد غرفته رأساً. يتناول عشاءه، ويصلّي، ويقيم مرافعة، ثمّ يرتدي عباءة، ويتوجّه صوب الزقاق. يتمشّى قليلاً تحت نور عمود الإنارة، آنئذٍ يعود للبيت، ويخلد إلى النوم. تلك الليالي استرعى انتباهه شيء عجيب، كلّ ليلة على الساعة السابعة، كان إياز الضابط يركب درّاجته ذات المحرّك، ويتّجه نحو الشمال، ويعود إلى بيته رأس الساعة العاشرة بالضبط. شغلت هذه القضية بال الأب كثيراً حتّى إنه سأل إياز مرّات عديدة إلى أين يذهب. وأجابه أنه يذهب في دورية. تعلّق الوالد بهذا المثابر، وانقلب شكّه في اختيارِ إياز، بصفته رجل أمن شريفاً من طرف السّيّد اللورد، إلى يقين. لذلك كان لا يقدم على عمل إلا بإشراف من إياز، ولا يتسرّب إليه شكّ، وكان يباشر عمله، ويقف عليه، بكل جوارحه.

حين كانت تشتدّ حرارة النقاش، كان يقول: "اذهبْ إلى عملكَ، وعلى قول إياز، لا يمكن مناقشة نوعَينْ من الناس: المثقّف والأمّيّ".

كان آيدين يحسّ أنه هو المقصود بهذه المناقشات. لأنه لم يكن موافقاً على الالتحاق بدكّان الوالد، وأن يصير، مثله، تاجراً محترماً وشريفاً. كان يريد أن يكتب ويقرأ ويغوص في أعماق عالم كُتُبه وشِعْره. لمّا غيّروا غرفته،

وبات مُجبراً على العيش في قبو في الطابق الأرضي، كلاجئ، لم يعترض. تركهم يُنغصّون حياته، عَلَنَاً. سمح للوالد بأن يقول له: "أيّها المتسكّع"، "يا عديم الشرف". وحتّى لمّا أحرقوا مخطوطاته وكُتُبه بجانب البركة في فناء البيت، انجذب أكثر إلى عمله، وقرّر أن يعيد استرجاع كل ما ضاع من جديد.

اعتاد آيدين رؤية الوالد عبوساً قمطريراً. أحياناً، كان يرى بوضوح أن الوالد حين يمرّ من أمامه، لا ينتبه إليه، أو يتحاشاه. لكن الأمّ تعبت، ولم تعد تتحمّل. وكانت معترضة وفي صراع دائم مع الأب بسبب التوأم: "ذاك بسبب آيدا، وهذا أيضاً بسبب آيدين. أليس ولدكَ؟ لماذا تفتري عليه؟".

لكن الأب كان هو نفسه ذاك الأب. قال: "أنا أريد فقط أن يصبح إنساناً".

قالت الأمّ: "تُسمِعه كل ما يتفوّه به لسانكَ، وهل تظنّ أنه سيصير تاجراً، ويترك كُتُبه، وينقاد لكَ؟ وذاك الشقيّ تعلّم هو الآخر، يتفوّه بكلام أكبر من فيه..."

- مَنْ؟

- أورهان.

وسكتت للحظة، ثمّ تابعت: "ليس لديه الحقّ. ليس لديه الحقّ".

- وماذا يقول؟

- نَعَتَهُ يوم أمس بعديم الشرف. إنه لا يناديه باسمه، يدعوه "ميرزا"(*)، ويناديه بالمتسكّع، وبكل ما علّمتَهُ أنتَ.

---

*) ميرزا في الأصل تعني ابن الأمير، أي الأمير. تطوّر استعمالها، لتؤدي معنى المتعلّم القائم بوظيفة إدارية (أفندي).

ثمّ أجهشت بالبكاء.

ضحك الوالد: "معه حقّ، إنسان بلا شرف!".

- ليس لديكَ الحقّ أن تقول هذا الكلام لولدي!

- هو ولدي أيضاً.

- بسبب أموال الدنيا، بسبب الدنانير والزهيد من المال، جعلتَ من نفسكَ أضحوكة.

زمجر الوالد: "حتّى تموتي بغيظكِ، آها، لا تدافعي عنه".

انفجرت الأمّ: "كي تموتَ أنتَ غيظاً، وإلا لما رميتَهُ". وأحسّت بصفعة مجنونة انهالت على وجهها. وبعد لحظات، تلفّعت بشادورها، ودلفت ناحية آيدين وعيناها تذرفان الدموع. ونادت من أعلى السّلّم: "آيدين!"

أخرج آيدين رأسه من غرفة القبو، وقال: "أمّي!". لم ير أمّه من قبل بهذه الحال.

قالت: "ارتدِ ثيابكَ، وانطلقْ بنا، لنذهب". كان بصوتها حشرجة تنمّ عن العذاب والألم.

"إلى أين؟". وبسرعة لبس المعطف الطويل ذاته، وصعد الدَّرْجَات مندفعاً. كانت الأمّ تنتظره خارج الباب. لما رأت آيدين حثّت الخطو، وابتعدت عنه. لم تكن تريد أن تقع عيناها على عينَيْه. كان ذات عصر من شهر أكتوبر، وكان الشارع خالياً إلا من رياح تهبّ أحياناً، وتكنس غبار الشارع، فيضطرّ المرء إلى إغماض عينَيْه. كانت الدكاكين معطّلة، ولا

وجود لأحد باستثناء بضعة فتية عاطلين يتسكّعون في ركن الساحة. قطعا شارع الشيخ صفي راجليْن، مرّا من أمام خان تجّار المكسّرات، وتابعا سيرهما. بالقرب من الساحة اصطفّت عدّة عربات. قال آيدين: "إلى أين سنذهب، أمّي!".

قالت: "إلى المقبرة"، ثمّ تقدّمت نحو العربة البيضاء التي كانت رابضة في أوّل الصف. قالت: "اركب". ركبت هي، وتناولت خريطة.

سألها صاحب العربة: "إلى أين؟".

- إلى المقبرة.

- أيُّ واحدة؟

- القديمة.

ركب السائق العجوز، مرتدياً زيّه الرسمي الأزرق بأوشحة بيضاء، وقبّعة وحزاماً، ثمّ صاح "هي". فانطلقت العربة رويداً رويداً. اجتازت حديقة "أخوان"، ثمّ انعرجت ناحية رأس النبع. في حارة "پيرمادر" كانت بضعة دكاكين مفتوحة. قالت الأمّ: "لنتذكّر شراء قليلاً من حلوى شكرپنير"(*). وبمحاذاة محلّ بقالة، قالت الأمّ لصاحب العربة: "توقّف، أريد أن أشتري شيئاً"، ثمّ ترجّلت. اشترت حلوى، وعادت. وانطلقت العربة تشقّ الطريق نحو المقبرة.

هناك، جلست الأمّ بجانب قبر أبيها، وضعت رأسها على القبر، وأخذت تبكي. لم يكن آيدين قد رأى أمّه تذرف هذا القَدْر من الدموع من قبل.

---

*) من أنواع الحلويات الإيرانية المعروفة أصلها من مدينة أصفهان، تُحضّر من الماء والسّكّر.

كانت المقبرة مزدحمة. في كل ناحية منها ترى أناساً مطرقين رؤوسهم على قبر. الأطفال يركضون، والرياح تثير النقع والأتربة، ويُسمَع لها أزيز بين الأشجار. هناك في الأمام، باعة متجوّلون يبيعون حلويات وتمراً وحلوى شكرپنير. قام آيدين، وابتاع كيلوغراماً تمراً، وحينما عاد وجد أمّه في حالة غريبة، عيناها مسمرّتان صوب أفق بعيد، لا تُبصران شيئاً، ولا تطرفان. تشبه المرأة التي يرسمون صورة لها. كانت سادرة في غبش أفكارها، منغمسة في سكون، ومطمورة في ضباب ثقيل.

وضع آيدين يَدَيْه على جيبه، متظاهراً بالهدوء، وأخذ يروح ويغدو عند رأس أمّه. قال: "ألن نرجع؟".

قالت: "بلى"، استوت واقفة، وتنفّست نَفَسَاً عميقاً، وأطرقت رأسها، وقالت كلاماً. قالت إنها لم تعد تحتمل، وإن الوالد، بعد خمس وعشرين سنة، رفع يده عليها، وشتم المتوفّين من عائلتها. وقالت أيضاً إنها باتت أسيرة، ولا خيار لديها.

قال آيدين: "عمري يناهز العشرين، ولم أر، بعدُ، ابتسامة واحدة من والدي".

خارج المقبرة، كان المكان يعجّ بالناس، العربات تقلّ الركاب، الواحدة تلو الأخرى، وتنقلهم إلى وسط المدينة. في الناحية الأخرى، زرافات من الناس ينصرفون راجلين، وقد شكّلوا سلاسل بشرية على طول الشارع المفضي إلى المدينة. وعجائز معدمات، يلتصقنَ بالناس كالبقّ، ولا يكففنَ عن التضرّع إليهم. ومجموعة من المتسوّلين افترشوا الأرض هنا وهناك. أما سور المقبرة، فقد انهار، وتكبّد أضراراً.

قالت الأمّ: "أنا أعرف كيف سأتصرّف!" كان قلبها عامراً وهي تُسرع في المشي: "صارعنا الخَطْبَ عمراً كاملاً، وداريناه، ولم ننبس بكلمة. صبّ علينا بلاياه كلها في عرس آيدا. المسكينة كانت مريضة، كانت على وشك الانتقال إلى بيت البخت، لكنّنا ابتلعنا ألسنتنا. وتعاملنا وفق الأصول. والآن يقول ليس لكَ الحقّ أن تذهبي إلى طهران. أنا..."وتوقّفت عن الكلام.

قال آيدين: "أنتَ مَنْ رفعه عالياً"، استغلّ الفرصة، ليقول هذا الكلام. ولحظة خطر على باله ألا يُتمّه، لكنْ، في ظلّ صمت أمّه تابع: " كيف خدع أولئك الأخوال والأعمام الذين كانوا ينحنون، ويقومون له؟ منع العمّ صابر من القدوم إلينا لسنوات، منذ تلك السنة التي قدم فيها الجدّ والعمّات. لم يعد لنا أحد، وكأننا أيتام وعاطلون. أنتِ، أليس لكِ عائلة؟ إذنْ، أين هي؟".

قالت الأمّ: "في رضائية. لكنْ، كيف يمكنني أن أذهب، إذا لم يأذن لي؟ أنا امرأة. وهم، بأخلاق أبيكَ هذه، لا يجرؤون على المجيء". قصدا عربة، وركباها. قالت: "الشيخ صفي".

كان آيدين في فورة. كان يريد اختصار غصصه جميعها في جملة واحدة، لكنْ، لم يكن ممكناً. كان الوقت قصيراً. كان عليه أن يستحضر الذكريات والكوابيس كلها التي عاشها هو، وعاشتها أمّه أيضاً. قال: "أنتِ مَنْ رفعتِه عالياً، وإنزاله الآن، صعب ومُعقّد".

كانت العربة تسير الهُوَيْنَى، أبطأ من العربة الأولى. والسائق ذائبٌ في الألجمة. ولا رغبة لديه للضرب بالسوط. والجوّ تلفّه ظلمة المساء، وأزيز الريح محتدم.

قالت الأمّ: "مهما روّيتُ في الأمر، لا أرى مخرجاً غير مُداراته".

- ماذا نفعل، إذنْ؟

جمدت الأمّ مكانها، لكنْ، سرعان ما رجّتها لوثة عنادها: "مثلاً، اذهبْ في أثناء العصاري أو الأصباح لمساعدته. فهو منزعج جدّاً من ابتعاد ابنه الأكبر عنه".

- يُوسُف هو ابنه الأكبر. ما ذنبي أنا؟!

- عدّهُ ميْتاً، يُوسُف ليس إنساناً. أنتَ تعلم ذلك. أين العيب في أن تحرص بحياة جاهزة ومهيّأة وتفكّر في نفسكَ؟ لأجل مَنْ كابد وعمل هذه السنين كلها؟ لمَن اشترى الدّكّان؟ ألأورهان وحده؟

- أنا لا أحبّ استنساخ حياة أبي. أنتِ تعلمين، أمّي، أني أتلقّى دروساً في الشِّعْر لدى الأستاذ ناصر دلخون، ووعدني بأن ينشر شِعْري في مجلّة، أأتركُ هذا، وأصير بائع بزر؟!

ألقت الأمّ نظرة على آيدين، فبدا لها أن وجهه ممتقع، فقالت له مازحة: "أنا لا أعلم ما تنوي فعله، لكنْ، اعلم أنكم، جميعكم، مُكابرون! تشبهون جدّكم. أنتَ وآيدا وأورهان، وأبوكم أيضاً. وحتّى يُوسُف، ذاك التعس، كان يعند ويكابر، كي يبقى على بلادته". وسحبت، ثانية، بساط قصّة بيع الجدّ للحجر.

توقّفت العربة عند مدخل زقاق اللورد، وترجّلا. ناولت الأمّ صاحب العربة أجرته، واتّجهت صوت البيت. قالت: "هذا عن جدّكَ، أتفهم؟".

ظلّ آيدين خلف أمّه يتثاقل في المشي. رجعت الأمّ: "لا تنسَ شيئاً، إذا حُرمتَ من نصيبكَ في الدّكّان والحديقة والبيت، فسيضيع حقّكَ.

أنتَ الآن لا تفهم هذا الكلام. الحياة متقلّبة، ولم تذقْ بعدُ طعم الشدّة والعناء، ولا تعرف للحياة قَدْرَاً. لكن أورهان، من الآن، بات يملك كل شيء، رأيي أن تكون أنتَ مثله".

مكث آيدين صامتاً. وحين كان يهمّ بقرع حلقة الباب، رمق إياز الضابط على درّاجته النارية قاصداً الجهة الشمالية من الشارع. نظر إليه، وهزّ رأسه.

قالت الأمّ: "أرأيتَ؟".

- ماذا؟

- إنه إياز الضابط، المسكين، إنه ذاهب في هذا الوقت من الليل إلى مقرّ عمله.

- أجل، رأيتُه.

ولمّا ولجا البيت، قالت الأمّ: "حين يزور المرء المقبرة، تنبسط أسارير قلبه".

-٩-

"شِعْرٌ أَحْمَر – آيدين أورخاني

في مَعْبر يومٍ طَويلٍ، من البَدْء

في مُنْتَصَف الجَبَل

رِجالُ قَبيلَتِنا السَّاخِطُون،

مُمْتَطِينَ خُيولاً

بِأَعينَ تَسَعُ كُلَّ الأَوْدَاء

تَوَقَّفوا، لِلَحْظَة.

الشَّمسُ تَسْطَع لاَفِحَة

حتّى إنَّ رَخْوَة الأَرْض الدَّافِئة تَنْسَابُ من أَقْدَامِهم

جميعاً،

انَغَمَسُوا في الصُّخُور.

ومن دون أن يَعْقِلُوا لِجامَ خُيُولهم

إلى أَشْجارٍ يَابِسَة،

رَقَدُوا.

قُبَّعَاتُهم على الوُجُوه

ثَمِلينَ من النَّوم، والتَّعَب.

تساءَلَتْ فَتَيَاتٌ حُمْرُ اللِّبَاس:

هَؤُلاَءِ الرِّجَال!

أَيَسْمَعُون صُهَالَ الخَيْل؟
لماذا هُم راقِدونَ، إذنْ؟
هَبَّتِ رِيحٌ عَاتِيَةٌ
فبَعْثَرَتْ طُرَّةَ الفَتَيَات حُمْرِ اللِّباس".

نقر إياز برؤوس أصابعه، مرّات، على صفحة الجريدة وقال: "اقرأ بتركيز، جابر!".

قرأ الأب الشِّعْر ثانية، ثمّ التفت إلى إياز، وقال: "أهذا الشِّعْر لولدنا آيدين؟".

قال إياز: "وهل تظنّ غير ذلك؟"، ثمّ ضيّق عينَيْه، وحدّق في الوالد: "سمّى شِعْره: الشِّعْرُ الأَحْمَر. أتعرف ما معنى ذلك؟". بالله عليكَ، هل هذا شِعْر؟".

- ما العمل، إياز؟

- يجب إيقافه.

- أنا لم أعد قادراً عليه.

انحنى إياز على الطاولة، دنا برأسه من الأب، وقال: "لولا كلام الناس، كنتُ زججتُ به شهراً أو شهرَيْن، ليتجرّع الماء الصقيع".

قال الأب: "هناك مَنْ يُحرِّضه، إنه يذهب إلى مكان ما، ويتلقّى التعليمات". لقد هدّه القلق على آيدين.

قال إياز: "أنا أعلم أنه يذهب عند الأستاذ دلخون، ذاك المجنون المتفلسف".

قال الأب: "كم هو رائع، لو خلّصتَنا من عَتَهِ هذا المجنون!".

قال إياز: "يجب أن أفكّر بالأمر".

بعد أيّام، وفي ليلة متزيّنة ببدر مكتمل أضاء الأرض، هاجم ثلاثة عناصر من الأمن منزل الأستاذ ناصر دلخون، واعتقلوه بتهمة تخريب عقول الشباب الغيور، وأرسلوه إلى طهران على ذمّة التحقيق.

حصيلة ثلاث سنوات منَ الدراسة المستمرّة، كانت ذاك التحوّل الذي طرأ على حياة آيدين، والجميع كان عاقداً عليه الأمل. نَظَمَ باللغة التركية عدّة رباعيات، وبضع غزليات، وعدداً من القصائد من شِعْر المزدوج، وعشرات القِطَع، وربّما المئات من قصائد الشِّعْر الحُرّ. كان البعض يظنّ أنه سرق هذه الأشعار من شخص أو مكان ما. قال أحد الأساتذة الروّاد: "لو طفتُم أطراف أردبيل، لوجدتُموها مليئة بمثل هذه الكُتُب العتيقة".

غير أن آيدين، الذي كان يصرف وقته كله في القراءة والكتابة بوسواس وتركيز عجيبَيْن، ما كان يلتفت إلى هذا الكلام. كان يحيل كل شيء إلى الشِّعْر، وللتدليل على كلامه يستشهد ببيت شِعْري. وفي فترة قصيرة، بات الجميع يعرف أن الشِّعْر ينساب منه انسياباً. وبالتدريج، تغيّرت طريقة أكله ونومه ومطالعته وحديثه وسلوكه كله، واتّخذت صبغة خاصّة. وذاع صيته في المدينة. لدرجة أنه صار، في سنّ الثانية والعشرين، محطّ اهتمام فتيات ونساء كثيرات. لكن الجميع كان يحار لعدم وجود امرأة في حياة هذا الشّابّ حَسَن الطلعة رهيف الطّبع. حتّى أمّه أسرّت هذا الأمر، بشكل من الأشكال، إلى أرملة، تُسمّى فروزان: "ما إن تذكر له اسم المرأة، حتّى يندفع قائلا: راحة العالَمَيْن..."

قالت فروزان: "لا أحد يجرؤ على الادّعاء بعدم وجود امرأة في حياته".

قالت الأمّ: "هل توجد؟ لو كانت موجودة، فإنني أودّ معرفة ذائقتها".

قالت فروزان: "من السهولة بمكان إيجاد رأس الخيط، دعي الأمر لي".

قالت الأمّ: "نعم، رجاءً. هل بمقدوركِ معرفة تفاصيل القضية؟".

كانت هذه ذريعة فروزان للتقرّب إلى آيدين، والوصول إلى حجرته، والتحدّث معه، ودعوته إلى بيتها.

ذات الصيف، دخل آيدين إلى الغرفة، فأقفلت فروزان الباب، وألصقتْه، هناك بجواره، وبنَفَس محموم وارتعاشة متشنّجة، مزّقت قميصه، وقالت: "لمَ لا تأتيني؟"، وتلوّت عليه كالأفعى.

كان آيدين يسيح في عوالم أخرى، وكان يبدو مختلفاً عن أقرانه. كلّما قلّ اهتمامه بالآخرين، كثُر إقبالهم عليه؛ في الشارع، في المكتبة، في حديقة أخوان. حتّى فروزان، التي كانت تحترق بنار عشقه، ولهذا السبب كانت تتردّد على بيتهم، قالت للأمّ يوماً: "أميركِ حبّوب، لكنه لا يعير اهتماماً للآخرين".

قالت الأمّ: "الأمر يتوقّف على مَنْ يكون هؤلاء الآخرون".

- إنه لا يردّ عليّ السلام.

- إنه خجول.

كانت فروزان موظّفة في البنك الوطني. أصولها من مدينة تبريز، وأقامت في أردبيل بعد وفاة زوجها في الطابق العلوي قبالة بيتهم. كانت مغرمة بشيء وحيد في حياتها، التجميل والتزيين حتّى قيل إنها كانت تصرف كل راتبها في شراء لوازم التجميل. تتعطّر بعطر، يخطف الألباب.

كانت الأمّ تتحسّس الخطر في اقتراب هذه المرأة من ابنها. ذات ليلة، رأت في المنام أن آيدين وفروزان يغتسلان وسط ألسنة نار ملتهبة. يوماً واحداً بعد ذلك، لمّا دخلت فروزان إلى بيتهم عند مخايل الغروب، قالت لها الأمّ كلاماً، قَطَعَ قَدَمَهَا، إلى الأبد، من وطء هذا البيت.

كانت ثمّة فتاة أخرى تسكن بالقرب من منزل الأستاذ دلخون، وكانت تعبر من أمام معمل اللورد للمراوح عدّة مرّات في اليوم الواحد، علّها تظفر برؤية آيدين. وحين تراه ممتقع الوجه ساكناً، تكتفي بالنظر إليه، ثمّ تنصرف.

فتيات ونسوة أخر كنّ أيضاً، إلاّ أنّ آيدين كان والهاً بالشِّعْر، أكثر من أيّ شيء آخر. وكان يكنّ الاحترام، فوق ما يجب، لسنده وأستاذه.

علّمه الأستاذ ناصر دلخون التفاعيل وبحور الشِّعْر، وكان يعتقد أن آيدين قد تخلّص من قيود الشِّعْر الموزون، ويتنبّأ له بمكانة شامخة في سماء الأدب رغم أن الأستاذ نفسه، بكل ما حصل من العلوم والمعارف من فلسفة وأدب وتصوّف، لم يستطع أخذ موقعه بين المشاهير.

كان قد تجاوز عتبة مرحلة الشباب، طويل القامة هزيل البنيان. عاش زاهداً قانعاً بالقليل مثل ممارسي اليوغا الهنود، طويل الشَّعْر نحيف الوجه، يشبه بلحيته المشوَّشة، صورة الحلاّج التي رسموها وعلّقوها على باب خَانِقَاه الشيخ صفي الدِّين الأردبيلي. كان ذا صوت رخيم، يعيش في حجرة في حارة "پير شمس الدين"، جميل الخطّ، رفيع الذوق. كان، أحياناً، يعزف على القيثارة. يُعدّ لتلامذته، بين تلك الأوراق والدفاتر والكُتُب والدَّوَيَات كلها، شاياً على موقد ذي ثلاث فتائل. لم

يكن منجذباً إلى الشهرة أو المال أو المقام. يقرأ الشِّعْر القديم، وينظم الشِّعْر الحديث شديد التعلُّق بـ نيما يوشيج(*) .

لم يكن أحد يعرف عنه شيئاً؛ من أين جاء، ولأي بلدة ينتسب، ولماذا ظلّ وحيداً. لا أحد كان يعرف. لكنْ، يقال إنه درس الأدب العربي في فرنسا، وكان، لسنوات مديدة، يعشق فتاةً مصابةً بمرض عضال. بعد موتها، انزوى الأستاذ دلخون مع الشِّعْر والأدب، واعتزل الناس.

بعد القضاء على الأستاذ ناصر دلخون، انفضّ درسه، وتشتّت شمل تلامذته، ومن آنئذٍ لم يعثر أحد على أمارة عنه.

---

*) علي اسفندياري المعروف بـ "نيما يوشيج" (١٨٩٥-١٩٦٠م)، شاعر وأديب وناقد إيراني كبير، كانت قصائده الأولى محاكاة للقدماء، لكنه أوجد الشِّعْر الفارسي الحُرّ. ولُقِّبَ بأبي الشعر الفارسي الحديث.

-١٠-

قالت آيدا: "لمَ نحفتَ هكذا؟".

كانت قد تغيّرت جذريّاً، غدت سمينة بعض الشيء. لم تكن تعاني من ألم المفاصل والعظام. كانت تتحدّث الإنجليزية بطلاقة. لم يعد يُرى ذاك الهلع والغمّ، اللذان كانا يعلوان وجهها في طفولتها. ترتدي ملابس جميلة. أحضرت لكل من آيدين وأورهان سروالاً خيطياً أزرق من صنع أجنبي، قالت إن الجميع في مدينة آبادان يلبسونه. وقالت بجوارها الكثير من الإنجليز والفرنسيّيْن أمثال السّيّد اللورد، وهم كثرٌ هناك. أخبرتها الأمّ أنها أرادت، مراراً، زيارتها في آبادان، وقلبها لم يفارقها طوال هذه المدّة؛ على مائدة الطعام، وفي المطبخ، كانت تتذكّرها في الأماسي على وجه الخصوص. أما الوالد، فهي تعرفه، لا يأذن أبداً. وليس باليد حيلة؟ المرأة مُلزَمة بطاعة زوجها.

كانت تريد أن تُقنع آيدا بأن مكانها ظلّ فارغاً. لذلك كانت تسعى إلى العناية بها. اشترت لولدها، سهراب، مسدّساً، تخرج من فُوَّهَتِهِ شرارةُ نار. قال الوالد: "هل في جمجمتكِ عقل؟ وهل هذا الصبي يعي شيئاً حتّى ذهبتِ واشتريتِ له مسدّساً نارياً؟".

كانت آيدا تزور بيت الوالد مرّة في السنة، وتمكث هناك خمسة عشر يوماً، وكانت هذه المرّة الثالثة. خاطت الأمّ لسهراب صدرة ووزرة، ولم تكن تسمح لآيدا بغسيل ملابسه طوال الفترة التي تقضيها في البيت. وآيدا

أيضاً كانت تحاول أن تبدو سعيدة ومنشرحة. انسلخت من صمتها القديم، لكن لوثة كآبة عجيبة، كانت أماراتها القانية ترتسم تحت عينَيْها، خاصّة لمّا كان الأب يعود من العمل بالوجوم ذاته، والتعب ذاته، فلا تجد آيدا إلا طفلها، لتنشغل به؛ تُطعمه، تُعلِّمه الخطوَ، أو تُمسِّد شَعْرَهُ. وأحياناً، حين تُتاح الفرصة، تختلس نظرة إلى الأب.

كان يسألها: "كيف حال عظامكِ؟".

فتجيب: "منذ سنة تقريباً، اختفى الألم، لكنْ، عليّ أن آخذ حقنة بنسيلين قوية مرّة في الشهر. الأطبّاء الأجانب، هناك، كُثُرٌ".

ليلتها، لمّا ذهبت آيدا إلى غرفة أخوَيْها، لم تجد أكثر من سرير واحد. ولم ترَ أثراً لكُتُب آيدين وملابسه. قالت: "أمّي! ماذا جرى هنا؟".

قالت الأمّ إن الوالد بات لاجّاً، وذات ليلة غيّر غرفة أخوَيْكِ. لكنها لم تحكِ لها التفاصيل خشية أن تعتصر الغصّة حلقها. ولم تكن ترى مصلحة في شرح ذلك في مراسلاتها لها. سألت آيدا أين ينام آيدين، إذنْ؟ وأخبرتْها الأمّ.

كان زرّ ياقة معطف آيدا ملتوٍ، فوقع. قالت إنهم يذيقون أخاها طعم الموت. صار نحيفاً وعيناه متعبتان على الدوام، كأنه يشكو من مرض عضال. أخبرتها الأمّ أنه غدا شاعراً كبيراً، لكنْ، منذ أن قُضي على أستاذه، تكدّر حزناً، وتحوّلت حياته إلى نكبة.

وطّدت آيدا العزم على تنظيف غرفة آيدين وخياطة ستارة بيضاء لنافذته، وإزاحة الغبار عن جدرانها، وإخراجها من حالة حجرة التخزين. قالت: "لماذا صرتَ نحيفاً هكذا؟".

احتضن آيدين سهراب، واصطحبه إلى خارج البيت، ليشتري له شيئاً. لأن زوج آيدا لم يأت، لأنه كان قد صمّم أن قَدمَهُ لن تطأ هذا المنزل. كان يُوصِل آيدا والطفل، ويعود بعد خمسة عشر يوماً لإرجاعهما. خلال هذه الفترة، كان الطفل يستغلّ غيبة أبيه. وكانت آيدا تُنظِّف الزجاج، وتضع الستائر للأبواب، وتصنع من السّلّة الحصيرية ثريّا. صارت يداها مثل البنجر، حمراوَيْن. ولم تكن تجد الوقت لتسريح شَعْرها.

أما آيدين، فكان يقوم بجولة مع سهراب في الأزقّة، يُريه معمل اللورد للمراوح، ويشتري له الحلوى الديك. وحين العودة عصراً، يُرقد الصبيَّ على السرير، وقد دسّ يَدَيْه في ثنية ياقة معطفه، واستسلم لنوم هانئ. حينذاك، يقصد القبو، وشهيته مسدودة، يتمدد فوق فراشه، ويتلوّى في البطّانية الحمراء التي أحضرتْها له آيدا من مدينة چاه بهار، ويستسلم للنوم. في منتصف الليل، حين يكون الجميع سادرين في عميق النوم، يُشعل المصباح الحائطيّ، ويُخرج كتابه من تحت السرير، ويشرع بالمطالعة، أو يأخذ الدفتر، ويُدبّجه.

ذات ليلة من تلك الليالي التي كانت آيدا حاضرة، حوالي منتصف الليل، سمع صوت صندل الأمّ. أصاخ السَّمْع، فتأكّد من وقع خطواتها، وهي، حتماً، تهمّ بالمجيء عنده. لكنْ، لمّا استرق نظرة، رأى في إطار الباب الوالد وقد أدلى على كتفَيْه معطفه الجِلْدِيّ، ينظر بحنق وهو يقول: "عجباً، عجباً!".

كان الجوّ قد صار بارداً جدّاً، وروائح الخلّ وماء الحصرم تختلط برائحة مدفأة "علاء الدِّين"، فتزكم الأنوف، وتؤذي. جهّز آيدين نفسه، وظلّ متوثّباً، وعيناه متسمّرتان على أقدام الوالد، أيأتي أم لا؟ كان قد انتعل صندل

الأمّ، وجمد في مكانه. لم يدر آيدين كيف يتصرّف. دبّ الارتعاش في يده مجدّداً، وأخذت أوراق الكتاب تُصدر صوتاً عجيباً. حاول أن يمنع الاهتزاز باليد الأخرى، لكنْ، دون جدوى. هبط الوالد الدرجات، بأناة وهدوء، وقام بدورة، أخذ نَفَساً عميقاً، وانصرف، وهو يهزّ رأسه. كانت شَفَتَاه قد تيبّستا، وازرقّتا. ومن شدّة الغضب، يُتَوَقَّع أن يرتكب أي شيء. حينها، قال في تلافيف ذاك الصمت القاتل: "بالفعل، قد أُصبتَ بإسهال الشِّعْر، متى سيتوقّف؟ الله أعلم!". ثمّ ذهب.

قالت آيدا: "لمَ صرتَ نحيفاً هكذا؟!".

ومرّة أخرى، أخذ آيدين سهرابَ في حضنه، وخرج به. اشترى له الحلوى الديك ولعبة. أجاله في الحارة، ونزل به منحدر معمل المراوح. استأنس آيدين بصحبة سهراب خلال المدّة التي قضتْها آيدا في البيت.

قالت آيدا: "أتريد أن يكون لكَ طفل كهذا؟".

- كيف؟

مسّدت آيدا جدلتَيْن من شَعْرها، وأسدلتْهما برؤوس أصابعها خلف الأذن، وقالت: "وجدتُ لكَ فتاة جميلة".

قال آيدين: "لديَّ مشروع آخر".

- أيّ مشروع؟

سألت متحمّسة، ومن دون أن ترفع عينَيْها عن آيدين، كانت تثني بيدها ستارة الباب البيضاء.

قال: "أريد أن أعدل عن هذه الحياة، وأهتمّ بنفسي. أتدرين، آيدا؟! كنتُ أَلِفتُ أستاذي دلخون، وقلتُ في نفسي، ليست هناك حاجة للذهاب إلى الجامعة، ولكنْ، الآن وقد قضوا عليه، أريد الذهاب إلى طهران، لأستأجر غرفة، وأُكمل دراستي. كان الأستاذ دلخون يعقد عليّ آمالاً كبيرة، وكنتُ أنا أيضاً أطمئنّ له".

بعد يومَيْن، جاء آباداني، وأخذ معه آيدا وسهراب. لكنْ، رغم إلحاحهم الشديد لم تطأ، كما العادة، قَدَمُهُ الدارَ، بل رفض حتّى ارتشاف كأس شاي على عتبة الباب. يومها عصراً، أخذ الأمّ وآيدا وآيدين، وقام معهم بجولة في المدينة، وأخبرهم أنهم سيبقون في آبادان خمسة أعوام أخرى، بعدها لا يدرون أين ستكون وجهتهم. قال لآيدين إنه بإمكانه المجيء إلى آبادان، إذا رغب، لتعلُّم الإنجليزية، والبقاء معهم. لكن آيدين قال إن إمكانية التطوّر في المُدُن الصغيرة ضئيلة جدّاً. لقد أبادوا البلاد كلها لبناء طهران. لذلك، من الأفضل أن يذهب المرء إلى هناك، ويبدأ أيّ عمل يريده، من هناك.

كان وجه آيدين منقبضاً، ويبدو متحيّراً. أسفل عينَيْه اعترتْه حالة عجيبة. قالت آيدا: "كأنّي بكَ عاشقٌ ولهان".

قالت الأمّ: "إذا تزوّج، فسأُجرّد المرأة من هيبتها وجلالها حتّى يكونا مرتاحين".

قال آباداني: "إذا عزم على الدخول إلى الجامعة، فرجاءً، لا تمنعوه".

قال آيدين: "رغم أن الإنسان يشيب في هذا البيت، لكني سأصبر حتّى أستعدّ جيّداً. في النهاية، سألج الجامعة. حينما يكون المرء وحيداً في مثل هذه المدينة الصغيرة، لا بد أن تعتوره الأفكار السلبية".

قال آباداني: "أُدركُ ذلك، أُدركُ". ثمّ حكى لهم عن مرحلته الدراسية

في أمريكا، وعن وحدته، ومدى حبّه للشباب الطموح. وأقسم أن آيدين سيكون له شأن كبير، لأنه يفوق عمرَه في الفَهْم والإدراك. بات آباداني ليلته تلك في الفندق، وصباح الغد أخذ آيدا وسهراب.

في اليوم الموالي، عادت الأمّ وحيدة من جديد، ولفّ الصمتُ البيت. كان الوقت يمرّ بطيئاً، والأمّ تتحسّر على نسيان شراء صابون مراغة لآيدا، وترك سروال الطفل في البيت، وتتمنّى وصولهم سالمين إلى مُتَّجَههم.

كان فضاء البيت يعيش، دوماً، على وقع رتابة وصمت، يحسّ معهما المرء بتعب، وكأنّ له مفقوداً. لا يقدم زائر ولا وجود لصخب أو حفل أو عزاء. وحدها أصوات الغربان تلتفّ حول أغصان أشجار الصنوبر في باحة البيت. لم يكن الأب يفتح حريم بيته لأحد. إذا جاء رفقاؤه، يستضيفهم هناك في الدّكّان على طبق بزر أو شاي يطلبه من كُشك الخان. حتّى العمّ صابر لم يكن يقدم إلى البيت. وهم أيضاً لا يذهبون عنده. كان الوالد يقول: "مَنْ يحتسي الخمر، ويتدخّل في شؤون أبنائي، ليس له الحقّ أن يدخل بيتي. فضلاً عن ذلك، لو أنّ المال لم يرفعنا عالياً في ذلك الزمان، لكنتُ الآن، أملك نصف الخان".

قالت الأمّ: "وهل قَطْعُ الرحم جائز؟! وهل يجوز أن تقول للأخ إلى اللقاء حتّى يوم القيامة؟!"

قال الأب: "سحقاً لهذه الأخوّة! لو لقيتُه، سأُسمعه كلاماً غليظاً، يُوقعه في ورطة. أعلم أنه هو مَنْ يُعبِّئ آيدين، ويُعلّمه القيام بهذه الحركات السمجة، ويُشجّعه على تَرْك التجارة والعمل. متى أصبح قول الشِّعْر عملاً؟! وأي شِعْر؟ الشِّعْر الفكاهي الذي يقوله هذا الوغد".

أحياناً، كان آيدين يرى العمّ صابر قبالة متجر خشبي لبيع الخمور، متردّداً بين الدخول والخروج. كان ثملاً على الدوام. ذات مرّة، دسّ يده في جيبه، وأخرج حزمة من أوراق نقدية، وقال: "أخي، أخي، كُلْ ما تريده أخي، أعلم أنكَ لا تأخذ المال من أبيكَ. مهما كان، فهو أخي، أنا أعرفه. إنه لا يمنحكَ مصروف الجيب، ليُخضِعَكَ. منذ متى، وأنتَ ترتدي هذا السروالَ الشطرنجيَّ وهذا المعطفَ؟ إذنْ، متى تريد أن تعيش شبابكَ؟ لكنْ، تذكّرْ، عمّو العزيز، شَطِّبْ على هذه الحياة. واذهبْ لاستكمال دراستكَ، أنا سأسندُ ظهركَ كالأسد". وكان لا يزال ممسكاً بالمال في كفّه: "بروح عمّو!".

قال آيدين: "لا أحتاج للمال، عمّو العزيز!".

- لا تُجاملني، على الأقلّ، خذ بعضاً منه.

نحّى وجهه إلى وجهة أخرى. تدلّى غَبْغَبه، الذي يميل إلى الاحمرار، من ياقته البيضاء مقدار دَرَجَتَيْن، فأحسّ آيدين أنه يودّ لو يفتح قليلاً عقدة كارفات عمّو صابر. قال له: "شكراً لكَ، عمّو العزيز".

قال العمّ صابر: "لا تردّ يدي خائبة. أنا أدرتُ وجهي حتّى تأخذ ما تريد".

- يكفيني أنكَ تتذكّرني، شكراً.

ودفع يد العمّ بيده. فأرجع المال إلى جيبه، وقال: "أقلاًّ، تعال لنحتسِ معاً كأسَيْن".

- أنا لا أشرب، عمّو العزيز.

- حسنٌ، في وقت آخر. ولكنْ، تذكّر، ينتظركَ مستقبل مشرق. أنا أعقد آمالاً كبيرة على مستقبلكَ.

قرص خدَّ آيدين، وقال: "أقلتَ إنكَ تريد الذهاب إلى الجامعة؟".

- نعم، عمّو العزيز.

- أيّة جامعة؟

- قلتُ لكَ. جامعة طهران، أو أي جامعة أخرى تقبلني.

- جيّد. هناك جيّد. جامعة شيراز أيضاً ليست سيّئة. خاصّة أن شيراز تحتضن حافظ وسعدي. وخاصّة أن خمر خلاّر فيها ليس له مثيل.

أمسك بكلتا يَدَيْه يدَ آيدين، وشدّها بحرارة، ورجّها بقوّة حتّى اهتزّ غَبْغَبه. قال: "إلى اللقاء، نحن لم نصل إلى شيء، عمّو. أنتَ، ادرسْ، لعلّكَ تُصبح شيئاً. أملي كبير فيكَ. لا تنسَ، حين تحزم أمتعتكَ، تعال إليّ، أريد أن أحرّر لكَ شيكاً، كي تقضي سنتَيْن، وأنتَ مرتاح البال".

ليلتها، على مائدة الطعام، أخبر آيدين بلقائه العمّ صابر، فحدَّق الأب، للحظة، في عينَي آيدين، وقال: "ارتكبتَ حماقة".

قال آيدين إن العمّ صابر ينوي التكفّل بمصاريف دراسته لسنتَيْن. فردّ عليه الوالد: "إنه يخرّف، طائش أحمق، فقير مُعدَم. لو كان محقّاً، فلمَ يسكن بيتاً مستأجراً؟". ثمّ تابع بنبرة هادئة: "طيّب، يا أمير، ماذا قرّرتَ؟".

- أنا أعدّ نفسي للجامعة.

- ما النتيجة؟ عمّ تبحث؟ أخبرني، أعطيكَ إيّاه.

- أبي، ليس على الجميع أن يصير تاجراً مثلكَ. ليس على الجميع أن يأكلوا ميراث الوالد. هذا العمل كله، وهذا الفكر كله...

- لا تُجادِلْني، هل ستأتي معي أم ستذهب؟

- أنا استثمرتُ وقتاً طويلاً، والدي. هذا ليس عدلاً.

قالت الأمّ: "في زمننا هذا، المال وحده يضمن المكانة والاحترام، لكنْ، أنتَ...".

قال الأب: "دعيه يهيم في تسكّعه. لكنْ، لن يأتي عندي".

قال آيدين: "وأنا لا أنوي ذلك".

هاج الوالد: "أترين الوقاحة؟"، ثمّ وقف وانصرف يغدو ويروح في عرض الغرفة. قال: "هذا آخر كلام عندي. من الآن فصاعداً، ليس لدينا حقّ على بعضنا. أقول هذا لإتمام الحجّة، آيدين". تمشّى، لهُنَيْهَة، في صمت وقال: "عمّ تبحث، أنتَ؟".

- عن نفسي.

- اغربْ عن وجهي!

-١١-

على الساعة الثانية عشرة والنصف ظهر ذلك اليوم الربيعي الحارّ، انتقص، فجأة، نور الشمس وكأن يداً سترت وجهها. تماماً مثل الغروب. وبين العتمة والضياء، ألقى الوالد، الذي كان قد جاء إلى البيت لتناوُل وجبة غذائه، نظرة إلى الساعة. ومع أن عقاربها كانت في مكانها المعتاد، اعتقد أن عينَيْه أخطأتا الرؤية. فنادى محتاراً: "أورهان! هل حلّ الليل؟!".

خرج أورهان من الغرفة، وصاح: "يا أبا الفضل!".

كانت الظلمة تكاد تصل منتهاها، وفي اللحظة ذاتها، سُمع صوت صفارة معمل اللورد للمراوح. فاطمأنّ الوالد إلى حلول الليل. أو أحسّ أنه في الليلة السابقة، ويفكّر في تتمّة كلام إياز الضابط، وأن التعب الشديد هدّه، وألقاه في غياهب الحيرة والتيه.

يوماً قبل ذلك، نشرت صحيفة "اطّلاعات" قطعَتَيْن شعريَّتَيْن لآيدين: "شِعْر الأيّام" و"لحظات آيدين"، ودبّج رئيس تحريرها شرحاً على القصيدَتَيْن، أفقد الوالد صوابه؛ "إذا كان آيدين أورخاني مجهولاً لدى عامّة الناس، فإنه معروفٌ عند شعراء وأدباء البلاد المرموقين. هو ينتسب إلى مدينة أذربيجان ونجلُ أحد تجّار التقسيط. تتلمذ، مدّة ثلاث سنوات، على يد المرحوم الأستاذ ناصر دلخون، وهو من أنصار الشِّعْر الحُرّ. وهيئة

تحرير الجريدة، إذ تنشر قصيدتَيْه "الأيّام" و"اللحظات"، تتقدّم إليه بدعوة للتعارف والتعاون، وذلك يوم الاثنَيْن أو الأربعاء...".

قرأ الوالد الشِّعْر، ولم يفهم شيئاً، لكنه كان مذعوراً. يخاف أن يذهب آيدين إلى طهران، ويصير ما لا يجب أن يصير. كان الذهاب إلى طهران، في ذلك الزمان، يعني عدم العودة أبداً. قبالة محطّة المسافرين، كان المكان يضيق، على الدوام، بالمسافرين الذين يقصدون تبريز أو طهران أو وجهات أخرى. وكل مسافر تُشيِّعه طائفة، وتُودِّعه وداعاً أليماً ومُرّاً. استغرق الوالد في التفكير، لو أن آيدين سافر إلى هذه المدينة الكبيرة المجهولة، ماذا سيبقى من الأسرة. كان إياز يقول إن فكْر شعراء طهران مسموم، جميعهم يساريون، أصحاب الشوارب الكثّة. لذا، حدّق الوالد، وحدّق، من مكانه الجالس فيه ذاك، من فوق السرير الجِلْدِيّ في الغرفة العلوية، وقال: "أيّ مكان تريد فتحَه، بهذا الشارب، ميرزا؟!".

قال آيدين: "لو كنتَ رأيتَ شوارب الأستاذ ناصر دلخون، ماذا كنتَ ستقول، أبي؟!".

وأعاد الوالدُ تكرارَ جملة إياز عليه: "تذكّرْ مكان إعدام أصحاب الشوارب الكثّة".

قالت الأمّ: "ما علاقة هذا الكلام بنا؟ ماذا أصابكَ؟ جابر! أيجب أن يبتلينا الله بغمٍّ، كي لا نبحث عن الذرائع؟".

- ما دخلنا نحن بالشِّعْر والشعراء؟

قال إياز: "كان الابن، في ما مضى، يُعدّ من متاع الإنسان. نادرشاه سمح باقتلاع عينَي ولده. أما الآن، فلم يعد الأخ في ملكِكَ وطوعِكَ. ألا

ترى هذا الوغد؟"، وأشار بيده إلى جمشيد ديلاق الذي كان ماراً من أمام الدكّان. دقّق الأب النظر، كي يُبصره. تابع إياز: "إمّا أن يصبحوا مثل مَنْ يستدرج مارتا العاهرة إلى خلاء الصحراء المجاورة، أو شاعراً، مثل ولدكَ. لن يصير الجميعُ أورهاناً".

وقف أورهان، للتّوّ، قبالة الباب، ينادي على جمشيد، ثمّ أفسح له للدخول. وقال له: "هل ستسلك مسلكَ الدائنين الذين لا يؤدّون ما بذمّتهم؟".

ألقى جمشيد التحية، وجلس بالقرب من الطاولة بجانب إياز. كان حالقاً شَعْره، ويبدو أكثر نحافة من المعهود. قال: "ذهبتُ إلى الخدمة العسكرية، يدي بيضاء. لكنْ..."

قال الوالد: "حسابه كم؟".

قال أورهان: "وصل دَينه إلى مائة وعشرة تومانات".

قال الوالد: "إذا لم يزغ إلى الفسق والفجور، سأتغاضى عن عشرة تومان".

قال إياز: "لكنه ولد مستقيم. والآن، وقد خدم في الجندية، سيكون رجلاً كامل العيار". وصفعه على رقبته، وقال: "اذهبْ".

قال الوالد: "لو أمكن ذهاب آيدين إلى الجندية، لصار إنساناً".

هزّ إياز رأسه: "اصبرْ. اصبرْ".

فتح الوالدُ الجريدةَ من جديد، ومهما قرأ الشِّعْر، لم يفهمه. كرّر بعض كلماته بصوت عالٍ، الكلمات التي يُشتمُّ فيها رائحةَ الدم والعصيان والانتقام. الكلمات الحمراء، كما يقول إياز؛ مَدِينَةٌ أَهْلُهَا، كُلُّهُم مَوْتَى،

كَالصُّخُور. وَعَلَى ضِفَّتَيْ نَهْرِ "بَالْخَلُو"، بَدَلَ أَعْنَاقِ الأَشْجَار، اشْرَأَبَّتْ حَلَقَاتُ المَشَانِق. وكلّما قرأ الأب لم يعرف مكان هذا النهر. هل هذا النهر هو بالخَلُو؟ وبينما يرشد الزبائن، قال أورهان: "شِعْر فكاهي"، وقهقه. لكن الأب لم يستطع الضحك. كان منفعلاً فوق ما يجب. كان الخطر يعشعش في بيته وينمو، وعلى وشك أن يشتدّ عوده.

جلس إياز، الذي كان واقفاً إلى حدود تلك اللحظة. بالقرب من الأب، وقال: "أتعلم جابر؟ كنتُ بالأمس في الباحة، وناداني أحدهم. التفتُّ، فإذا به رئيس دائرة الأمن، فتح شرفة غرفته، وأخذ يتأمّلني. نظرتُ إليه، وقلتُ: سيّدي. قال: اصعدْ. فصعدتُ إلى غرفته. قال: "إياز، نحن لا نملك الكثير من الرجال أمثالكَ. قلتُ حضرة العقيد، أنا يتملّكني الخجل أكثر من هؤلاء". قال إياز. أتعلم، يا جابر، كما تناديني أنتَ إياز هو أيضاً يناديني إياز. للعلم، تناولنا الغذاء أمس مع العقيد. اللعين! إنه طيّب، وأصيل".

قال الأب: "صحيح؟".

- أجل. ومع ذلك، لم أقدر على فعل شيء. كان الأستاذ دلخون يسارياً. وكان ذا شوارب كثّة، تسبّبت له في المتاعب. أرسلناه إلى المركز على ذمّة التحقيق. لكنْ، ماذا نفعل إزاء هذا الصبي؟

- إياز، أنتَ تسألني ماذا أفعل؟!

- من أجل حفْظ ماء وجه العائلة، أريدكَ أن تسمح لضابطي أمن، هذه الليلة، كي يهاجما بيتكَ".

- من أجل ماذا؟

- يقبضان عليه، يضربانه بهراوَتَيْهما على مؤخّرته عشر أو اثنتا عشرة ضربة. نحتفظ به شهراً أو شهرَيْن حتّى ينمحي الشِّعْر من ذهنه. قلتُ لكَ مراراً لا يمكن مناقشة صنفَيْن من الناس: المثقّفون والأُمّيّون. تذكّرْ هذا دائماً.

- أمهِلني يومَيْن، أريد أن أتمّ الحجّة عليه.

- أنتَ تعلم، يا جابر، ليست لديّ أية مصلحة. ماء وجهكم...

استقام الأب واقفاً على رؤوس أصابع قَدَمَيْه، وقبّل جانباً من وجه إياز قائلاً: "أنتَ قمتَ، بحقّي، بما يقوم به الأب تجاه ابنه، إياز".

بكى إياز. وظنّ الوالد أنه يجهش للعِشرة والرفقة التي تجمعهما.

كان صوت دقّ النّحاس يُسمَع من الأسطح، وهَرَج الناس ومَرَجهم وأصوات جماعات من فقراء وبؤساء الزقاق. صرخ أحدهم: "الشمس". توجّه الوالد إلى الشرفة، ورأى أن أورهان وأمّه في الباحة قد سمّرا أعينهما صوب السماء. قال: "ما الخطب؟".

كانت الأمّ تنتحب. وكل مرّة تذكّرتِ آيدا التي تعيش في آبادان، تذرّعت بذلك، ووجدتْها فرصة مواتية لذَرْف دموع الشوق والحنين. قالت: "بلاء، بلاء، بلاء!".

رفع الأب، الذي انتبه للتّوّ إلى السماء، رأسه، ورأى قرص الشمس الذي استحال أحمر كالدم يحيط به غبار أسود، وسمع أصوات ولولة بكماء، تأتي من بعيد، وكأن أحداً يشقّ الخدود، أو يصرخ. ارتعدت فرائصه، ولأول مرّة، خشي من وحدته. غرق البيت في ظلام دامس، وفقدت الدنيا بريقها،

واعتبارها. الشيء الوحيد الذي قدر الوالد على فعله، في تلك العتمة، هو تعليق قبّعته في مكان. بعد ذلك، نزل السّلالم ركضاً.

كانت الأمّ تُتمتم بورد، وتبكي بصوت محزون، وكان أورهان جالساً على حافّة البركة، بينما السماء غارقة في النجوم. كان عددها كبيراً، لم يُر له مثيل في ليلة أخرى.

وقف الأب بجانب الأمّ، وقال: "هل تعرفين معنى هذا البلاء الذي نزل علينا؟" أظهر كفَّيْه وراحَتَيْه، وقال محموماً: "هل سفكْنا الدماء؟".

بكت الأمّ بينما تابع هو: "هذا ما جنتْه أيدينا وأيدي أبنائنا. اللهمّ، لطفكَ!".

مرّت لحظات، وسكن هَرَج الشارع، وانغمست المدينة في ظلمة وسكون، وكأنّ أهلها هلكوا منذ سنين. استمرّت الظلمة ساعة ونصف. كان صوت بكاء يأتي من بعيد شبيه بعويل امرأة جاثمة تحت الأنقاض. حتّى يُوسُف كان يعوي، ويريد أن يتزحزحَ من مكانه. كان الأمر يبدو كزلزال، يوشك على الوقوع.

أدّى الوالدُ صلاةَ الخوف. وبعد أن خالط الضياء العتمة، توجّه إلى الباحة من دون أن يُكلِّم أحداً. خلع باب القبو بركلة، ومع انبلاج الضوء وانعتاق الشمس من وهدة الظلام، أخرج جميع ما تحويه الغرفة من أثاث وكُتُب، وأضرم فيها النار. انتشرت البقعة السوداء التي كانت بجانب الحوض، منذ شهور، مثل عنكبوت أسود، نسج خيوطه في كل مكان. كان يتمشّى وهو يقول: "هذه روح الشيطان التي تحترق".

وعند مخايل الغروب جاء آيدين. كان البيت سادراً في صمت حزين، وكأن فرداً من أفراد العائلة قد رحل، والجدران تخفي سرّ الموت. وبعد

مرور سنوات، لمّا كان آيدين يتذكّر هذه الأيّام، كان يقول لأمّه: "كانت أياماً محزنة".

رائحة الحريق والدخان منتشرة، دخل آيدين الساحة، بطمأنينة وهدوء أعصاب، وكأنه يعلم ما جرى، اقترب من السرداب، وأحسّ بخفّة وزنه وهو يقابل ذاك السواد. لم يستطع تصديق ما حدث، وأخذ يرتعش من الغضب، ويكزّ أسنانه. نزل الدّرجات نحو القبو. لم يجد سوى السواد والعَدَم. غطّى أرضيةَ الغرفة ماء أسود. كانت رائحة الموت والخراب تنبعث، رائحة الإنسان البدائي ورائحة الحيوانية. كأنّهم أحرقوا إنساناً، ودهنوا الأبواب والجدران برماده. كانت الغرفة مليئة بالرماد وقِطَع الأخشاب شبه المحترقة. فيما ارتفعت الكُتُب والأشعار عالياً مع ألسنة اللهب. لم يجد حتّى ما يجلس عليه. فكّر، للحظة، أن يهبّ لتكسير زجاج البيت كله بالأحجار، ثمّ يصيح: "لستُ ولدكَ، إذا لم أحرقْ حياتكَ!".

سنوات بعد ذلك، قالت الأمّ: "منذ ذلك اليوم النحس إلى الآن، لم نرَ يوماً سعيداً. يومئذٍ، يُوسُف، أيضاً، كان يعوي".

-١٢-

الخريف ذاته، ذهب آيدين إلى بلدة رام اسبي، وعمل هناك في معمل للخشب. اكترى حجرة صغيرة في أعالي رام اسبي من أحد مربّيي الأبقار، بابُها يُفتَح على الاصطبل. كان المكان يعجّ بالضوضاء، والأبقار تملأ أفضيته بخوارها، من الليل إلى الصباح. بيد أن آيدين كان راضياً، لأنه كان قد عاش أيّاماً عصيبة؛ أيّام الجوع والجيب الفارغ، ورغم التفكير كله، لم يهتدِ إلى طريقة، يُطوِّر بها ذاته. معنوياته، أيضاً، في تلك الأيّام، كانت متأزّمة. كان يتصوّر أن الناس يدبّون من دون وجهة. كل شيء كان مختلفاً، الألوان لم تكن على حقيقتها، والزمان يمرّ ببطء شديد، الصبح، والظهر، والليل.

قضى الأسبوع الأوّل بما كان متوفّراً لديه، واليومَيْن المواليَيْن بإرجاع الكتاب الوحيد الذي أحضره معه. كان يزجّي الوقت، من الصباح إلى الليل، كيفما اتّفق، إما في حديقة أخوان، أو في المكتبة العامّة، أو على ضفاف شورابي. لكنْ، حين يجنّ الليل، تجتمع عليه الغصص والآلام كلها، وتتّحد ضدّه. يفكّر في أشعاره التي أنشدها، لكنْ، لا يستطيع استحضار ولو كلمة واحدة منها، وكأن الكُتُب والأشعار أُحرقت في ذهنه أيضاً.

ذات ليلة، استسلم للنوم خلف مدرسة أنو شيروان، ناحية البرّيّة. لمّا أفاق، صباحاً، رأى نسوة يتوجّهنَ صوب النهر خارج المدينة حاملات سلالاً مملوءة بالثياب. من شدّة الخجل، وغير مكترث لملابسه المتربة، ابتعد

آيدين عن المكان، وسار في المتّجه المعاكس. في ليلة من الليالي، نام في حديقة أخوان، لكن عواء الثعالب قضّ مضجعه، فاضطرّ إلى تسلّق شجرة، وتكبيل نفسه بين أغصانها. في الأيّام الموالية، نخر كيانه الأرق والكوابيس والإرهاق. كانت نفسه تأبى التسوّل، لكن الجوع استبدّ به، ولم يدر كيف يداريه. لم يكن قادراً على النوم بجانب الجدران، أيضاً. أين ينام، إذنْ؟

ذات يوم، ومن دون أن يشعر، وجد نفسه منجرفاً نحو الحانة الخشبية. كان العمّ صابر هناك. ألقى عليه التحية: "السلام عليكم، عمّو العزيز!". كان جائعاً. اشترى له العمّ صابر الفاصوليا، وقال له: "سمعتُ أنكَ فررتَ من بيت الوالد".

امتقع وجه آيدين. سأله: "مَنْ قال لكَ؟".

- لديّ خبر.

- أجل، عمّو العزيز، لقد أضرموا النار في حياتي كلها، وأخرجوني من البيت.

- والدكَ رجل متشدّد، وصعب المراس، آيدين.

تجرّع آخر كأس، وظلّ ينتظر آيدين، ليُكمل الفاصوليا. بعدها، خرجا معاً. كان الغروب يوحي بحزن شديد، وأوراق الأشجار دثّرت الشوارع جميعها. قبالة الحانة، على جانب الشارع، كانت امرأة فاتنة تنتظر أحداً بالسّيّارة. رفعت نظّاراتها على شَعْرها أعلى الجبين، وكانت تتفحّص بنظراتها الأنحاء كلها. قال العمّ صابر وتركيزه هناك: "والآن، هل تحبّ عملكَ؟" حمل وزرته بأصبعَيْن على كتفه، وفكّ عقدة ربطة عنقه بالكامل. كان يبدو وكأنه يختنق من شدّة الحرارة. ومهما فكّر آيدين، لم يفهم أيّ عمل يقصده العمّ صابر.

قال آيدين: "لابد ممّا ليس منه بُدّ. لكنْ، لستُ أفهم لمَ أخرجوني بهذه الطريقة. لو طلبوا منّي ذلك، باحترام، لجمعتُ أمتعتي، وتدبّرت أمري".

قال له العمّ صابر، الذي كان بين الحين والآخر يُلقي نظرة إليه: "برأيي، ما كان عليكَ أن تترك حياة والدكَ. أنتَ مُخطئ، يا آيدين. حماقة الشباب تتلاعب برأسكَ. أتظنّ أنكَ قادر على بناء حياة مرفّهة كالتي هيّأها أبوكَ؟ الرأي عندي أن تعود إلى البيت، وتعتذر لأبيكَ، وتطلب منه أن يغفر لكَ".

- أي ذنب اقترفتُهُ أنا؟

- ربمّا لم ترتكب إثماً، لكنْ، كنْ مثل أورهان، وفكِّرْ في الحياة. كُلْ، وتجوَّلْ، وعِشْ حياتكَ. خلاصة الأمر، مارس عشقكَ.

كانت وقفتُه توحي بأنه منشغل بالحديث مع المرأة التي بداخل السّيّارة. قال: "الحياة غدت شاقّة، عمّو العزيز".

قال آيدين: "نعم، أنتَ على حقّ. يجب أن أذهب".

قال العمّ صابر: "في الأحوال كلها، أنا مؤمن بمستقبلكَ". وانحدر في منحدر، يتمايل طافحاً، ثمّ انعرج إلى شارع فرعي، وتلاشى.

تسرّبت إليه أحاسيس الوحدة والغربة، ولفّتْ شغاف روحه، وطوّقت عنقه وسط مدينة مألوفة. ما أشدّ وحدة الإنسان! كقشّة تتلاعب بها الريح وسط عاصفة عاتية. تبادر إلى ذهنه، لمرّات عديدة، أن يعود إلى البيت، ويمرّ بجانب زقاقهم، لكنه تهيّب، وتحمّل. قبل هذا الوقت، تعلّم لدى الأستاذ دلخون، ورأى وحدته، والآن هو يشعر بها. إنسانٌ يرسم على الأخشاب، وينقش براويز الصور. وحين يجني ما يسدّ به الرمق، يقضي

وقته في الشِّعْر. كان يقول: "كتبتُ شِعْراً لساعي البريد". فيقول: "أكتب شِعْراً عن البنات الحمر". ويعتمل في نفسه الحنين إلى ذكرى الأستاذ. كان مصمّماً أن يصل إلى طهران، ويتصوّر أنه لا يملك أحداً. لكنْ، بيد بيضاء، وبلا فلس أحمر واحد، ماذا كان يوسعه أن يفعل؟ العمل.

عصر ذات اليوم، ذهب آيدين إلى قاعة المطالعة. كان مسؤول القاعة، في السابق، قبل أن يُحال على التقاعد، معلّماً بالتعليم الثانوي، ويعرف آيدين. رجلٌ قصير القامة، نحيفٌ أحمرُ الشَّعْر. بوجهٍ به آثار الجُدري، وأذنَيْن كبيرَتَيْن. كان اسمه، قبل أن يتقاعد، لمّا كانت أذناه تعمل، السّيّد السَّمِّيع. والآن، لم يعد يسمع الكلام، وحين يرفعون أصواتهم، يقول: "بهدوء، هل أنا أصمّ؟". صعد آيدين درجات البناية الآجورية، وطلب من السّيّد السّمِّيع أن يتيح له الاطّلاع على جرائد بضعة أيّام، كي يبحث فيها عن عمل. حين كان يتصفّح الجرائد، سأله السّيّد السّمِّيع أيّ نوع من العمل يريد؟ وأجابه العمل الذي يليق به. في تلك اللحظة، وقعت عيناه على إعلان عزاء، بدا له غريباً. قرأ الإعلان ثانية وثالثة. كانت الكلمات تتراقص بين عينَيْه، وتفرّ. العزاء للفنّانين كلهم. خسارة كبيرة. العزاء لأسرة الأستاذ ناصر دلخون. وأيّ أسرة؟ كان مقطوعاً من شجرة. ربّما كانت له أمّ هرمة، وربّما زوجة وأولاد. لكنه لم يكن إنساناً عادياً. كتب له نيما يوشيج رسالة يقول فيها إن العزيز دلخون صار نبيّاً، لماذا لا يخرج من الشرنقة؟ والأستاذ شهريار(*) ، قصده في إحدى سفرياته إلى هناك، وبقي معه في البيت ليلة وقال له: "بتنا قابعين في المدينة، وحاصرونا. تعالَ، وانظرْ ما نكابده، دلخون".

ثنى الجرائد، ونزل الدّرجات من دون وداع. لا يعرف أي وجهة يتبع.

---

*) سيّد محمد حسين بهجت شهريار التبريزي (١٩٠٦-١٩٨٨م) شاعر إيراني كبير من أهالي محافظة أذربيجان الشرقية، أنشد شِعْراً باللغتَيْن التركية والفارسية.

تمكّنت من جوارحه نوازعُ الغربة. نظر إلى حوالي الساحة، ثمّ سلك طريقه في الشارع. ليلتها، جثت على صدره سحب الكآبة، أكثر من أيّ وقت مضى. وكان يأخذه الحنين، ليس للأستاذ دلخون وحده، بل للأمّ وآيدا، وحتّى للأب، لكنّ قوّة خفيّة كانت تدفعه للهرب؛ إلى ركن، إلى زاوية، إلى مكان بعيد عن المدينة، بعيد عن البشر.

اشتاق إلى العجوز المشلولة التي كانت تأتي عند أمّه، وتأخذ خبزاً وموقداً، وحيناً، سُكّراً، والفقر ينضح من وجهها ورأسها. كانت تعيش في حانوت خرب قبالة مطبّ الدكتور شوشانيك. وذاك اليوم، عصراً، سقطت على نار الموقد، واحترق قلبها. هدّ آيدين شوقُ هذه العجوز التي كان يعرفها. قيل إنها كانت ابنة كبير قوم، جاءت من إحدى القرى إلى المدينة، كي تشتري لوازم زفافها، وأُصيبت بالشَّلَل، فلم تعد قادرة على الرجوع.

خارج المدينة، في خانٍ خرب، اشتهر باسم خان المجذومين، وبات مكاناً لتزاحم العَجَزَة والشّبّان والمدمنين والجياع وعربدة الصبيان التعساء والأشقياء، توقّف آيدين، هناك، لهُنَيْهَة، ثمّ تابع شقّ طريقه، خائر القوى، نحو بيت فروزان، ينتابه إحساس بالتعب والتشرّد. هي الوحيدة التي تستطيع مساعدته، وإذا لم يكن بيدها حيلة، فأقلاًّ، يمكنه المبيت عندها رغم أنّ بيتها كان مقابلاً لبيتهم، ولو علم أحد بالخبر، لافتضح أمرها، وتمرغّ ماء وجهها في التراب. وصل إلى زقاقهم، كان معمل المراوح يراوح مكانه في الأسفل غارقاً في بحر من الظلمات والسكون. ومنزلهم، بجدرانه العالية تلك، يتراءى كأنه مهجور لسنوات. ضياء غرفة فروزان عمّ أفضية الأنحاء.

وقف آيدين في ركن متوجّساً، وقذف بحصاة على نافذة غرفة فروزان،

وتخفّى في ظلّ جدار. بعد حين، قذف حصاة أخرى. وتابع الرمي. حينئذٍ فتحت فروزان النافذة، ونظرت خارجاً، وهي محتارة.

تقدّم آيدين، وقال: "هذا أنا، آيدين".

ألقت فروزان التحية متحمّسة "السلام". تمكّن منها الارتباك. قالت: "انتظرْ".

فتحت البابَ بعينَيْن مفترّتَيْن بضحكة، وماكياج صارخ. كان نَفَسها متهدّجاً وهي تقول: "السلام".

"وعليكِ السلام". ثمّ دلف. كان يكتنفه إحساس سيِّئ. تذكّر الأستاذ دلخون: "مثل هذه النسوة يشبعنَ المرء. لازمها، لكنْ، لا تتعلّق بها".

انقضت تلك الليلة، وكأنها ألف ليلة. لمّا كان يتناول العشاء، ويُفرغ كؤوس الشاي، الواحد تلو الآخر، وحتّى عند النوم، كان قلبه يجيش ويفور مثل الثوم والخلّ، كأن أحداً بانتظاره. لم تذقْ عيناه طَعْم النوم. وكان يريد أن يخرج في منتصف الليل ذاك، ويتيه في المجهول. لكنْ، في نهاية المطاف، كانت طهران مُتّجهَهُ. كان يريد، بأيّ ثمن، أن يُكمل الدراسة الجامعية، ويحقّق أمانيه كلها، من غير أن يعتمد على أحد.

قالت فروزان: "نمْ".

- سأنام الآن.

- ذهبتُ إلى بيتكم في اليوم الذي اندلعت فيه النار. فتحت أمّكَ الباب. رأيتُها تلطم رأسها، وتنوح. قلتُ ماذا حدث؟ هل بيتكم هو الذي يحترق؟ قالت هؤلاء الملاحدة هم مَنْ أحرقوا غرفة ولدي. حتّى ذاك السرداب المتعفّن لم يسلم من بطشهم.

ظلّ آيدين ساكناً وعيناه ترمشان وهو في وضع النوم يفكّر.

قالت فروزان: "ماذا تريد أن تفعل الآن؟".

- سوف أذهب.

- إلى أين؟

- طهران.

استقامت فروزان واقفة. كان نور القمر الفاتر ينعكس على وجهها، ويُظهرها أكثر جمالاً. كانت تبدو كأنها جالسة في غطاء من ضباب أزرق. قالت: "أنا مستعدّة للذهاب معكَ. امكثْ هناك قَدْراً من الزمن، وأنا سوف أنتقل إلى طهران. حينها، يمكنكَ الذهاب إلى الجامعة والدراسة وأنتَ مرتاح البال". كانت تبدو وكأنها تريد أن تُسكِن آيدين في عينَيْها. قالت: " المصاريف كلها سَدِّدها لي فيما بعد. عدَّ ذلك قرضاً".

قال آيدين: "لا، قلتُ لكَ".

- حسنٌ. آه، منكَ! لا تحبّ عمل البنك. ولا تريد الحصول على عمل في مجال الثقافة. لكنْ، أنا لديّ معارف كُثُر في بنكي، بمقدورهم إيجاد عمل جيّد لكَ.

- لأجل هذا جئتُ إليكِ.

- إذنْ، لم تأتِ من أجلي أنا؟!

وقرصتْ أنفَ آيدين بأصبعَيْها: " آه، منكَ!".

- فروزان، أستحلفكِ بأعزّ شخص لديكِ، اعثري لي على عمل، يدرّ عليّ مالاً كثيراً.

- لا أعلم أيّ نوع من العمل تُحبّ.

- لا يهمّ، أيّ عمل، كيفما كان.

- أعرف رجلاً أرمينياً، لديه حساب في بنكنا، من إيروان في روسيا، يدعى ميرزايان. سأُحدِّثه غداً. يملك مصنعاً كبيراً، وأتصوّر أنّ دخله كبير جدّاً.

- أين؟

- معمل الخشب في رام اسبي.

ومن اليوم التالي، بات آيدين عاملاً مياوماً في معمل الخشب برام اسبي، ينشر الخشب مقابل أجر يومي وثلاث وجبات وحجرة صغيرة للنوم. كان يقضي العصاري في المطالعة الحُرّة بقاعة المدينة. راتبه الشهري مائتا تومان. قطع السّيّد ميرزايان لآيدين وعداً بمساعدته، في حال راقتْه شخصيّته، كي يبدأ بالادّخار، في أقرب وقت ممكن، ويعدّ عدّة السفر إلى طهران في غضون سنة أو سنتَيْن من العمل والمطالعة.

أحياناً، لمّا كان يذهب إلى المدينة، يزور فروزان. وحيناً آخر، كانت هيّ مَنْ تأتي إلى رام اسبي، وتقضي الليل هناك. بعد ذلك، أصبح أورهان يزوره أيضاً. يحكي له عن أخبار البيت، وقلق أمّه وانزعاجها. وكان آيدين يُخبره بعزمه عدم العودة. وبإمكان أورهان، لو أراد، أن يزوره في رام اسبي. وكذلك كان يفعل.

ذات يوم، زاره الأب، وطلب منه نسيان الماضي. لكن آيدين قال إن من الأفضل أن ينساه الوالد. وإنه لا يحتاج شيئاً.

حلّ فصل الشتاء، وسقط ثلج ثقيل. توشّحت أردبيل ورام اسبي والقرى كلها بالبياض. عُطّلت المدارس، وأُغلقت الطُرُقات، غير أن عمل الخشب لم يعرف توقّفاً. كان المعمل يقع بترعة في جبل، أو بعبارة أخرى، في مضيق يجري من تحته واد زلالُ الماء. بالجانب الأيسر، تحت قمّة الجبل، صُفِّفت أعمدة خشبية بيضاء في لوذ الطبيعة. وبالجانب الأيمن، كان يتواجد بهو المعمل المسقوف، وقد غُطّيت واجهته بقماش كتّاني. بداخله مناشير كهربائية وماكينات الخراطة وآلات للقَطْع والصقل، ويعمل به بضعة عمّال ونجّار محترف، لكن آيدين كان بمفرده يقطع أعمدة الأخشاب في الفضاء الطلق. لم يستطع التواصل مع باقي العمّال بسبب نفاد صبره، وقلّة كلامه. كان يضع في يده قفّازات كتّانية زرقاء، ويزجّي اليوم كله في أخذ مقاس الأخشاب العملاقة، وتقطيعها إلى أجزاء صغيرة.

ذات صباح، طلبه صاحب المعمل. قصد آيدين الحجرةَ الخشبية للسّيّد ميرزايان، وتوقّف بجانب الباب، وألقى التحية: "مرحباً".

كان السّيّد ميرزايان جالساً إلى مكتبه. قال: "تعال، ادخلْ، بنيّ". دخل آيدين. "اجلسْ".

جلس، وألقى نظرة؛ كان رجلاً كبير الهيأة، شَعْره مرقّط بالبياض مُمسّد إلى جهة واحدة. وثيابه بالغة النظافة. بعينه القليل من الحَوَل. قال: "بنيّ العزيز! لماذا تعمل بهذا الشكل؟".

- بأيّ شكل أعمل، سيّدي ميرزايان؟

كانت تغلب على لغة السّيّد ميرزايان اللكنة الأرمينية. كان وجهه في منتهى البشاشة، يبدو كَمَنْ خرج للتّوّ من الحمّام. وإذا دقّقتَ النظر، يمكنكَ مشاهدة عُرُوق وجهه بارزة. قال: "أرى أنكَ تفرم قِطَع الخشب من الصباح حتّى العصر، وليلاً، أُخبرتُ أنكَ تسهر إلى ساعة متأخّرة في مطالعة الكُتُب. هل هذا صحيح؟".

- أجل، سيّدي ميرزايان. أنا أعمل بموجب عقد.

- أعلم، لكني أتساءل لمَ تُهلِكُ نفسكَ؟

- قلتُ لكم، من أوّل يوم، أريد جمع مصاريف الحياة في طهران لأربع سنوات.

ضحك السّيّد ميرزايان. هزّ رأسه وقال: "لو اشتغلت الماكينة بهذه الوتيرة، لتوقّفت في سنة واحدة". ثمّ نهض، وتوقّف بجانب نافذة تطلّ على منظر القرية الغارقة في الثلج. وقال: "أتريدني أن أتوسّط بينكَ وبين والدكَ...؟".

وقطع آيدين كلامه، وقال له بنبرة ملتمسة: "أرجوكَ، سيّدي ميرزايان، لا تفعل".

قال السّيّد ميرزايان: "حسب ما سمعتُ، خلافُكما صغير. يمكن الكلام مع والدكَ، ليقدّم لكَ التسهيلات اللازمة حتّى تكمل دراستكَ. لديّ اتّصال بوالدكَ في حدود تبادل التحية، ولا أظنّه يضرب بكلامي عرض الحائط".

قال آيدين: "يبدو أنني أثقلتُ عليكَ، وتريد رفضي من العمل بأيّة طريقة".

تراجع السّيّد ميرزايان: "لا، لا، أبداً، ليس الأمر هكذا. أريدكَ أن تكون مرتاحاً. أنا لديّ ثلاثة أبناء، جميعهم في أمريكا. كدّي وعملي كله من أجلهم. لذا، لا أستطيع أن أستسيغ رؤية شابّ مجايل لولدي سركيس، يُهلِكُ نفسه، إلى هذا الحدّ، كي يستطيع إكمال دراسته، ومتى؟ في المستقبل".

قال آيدين: "أنا أحرقتُ الأوراق كلها، ولا أحتاج لمَنْ يشدّ عضدي".

- أنتَ شابّ متعلّم ومتعقّل، وأعتقد أنه يجب أن تتصرّف بقَدْر من المنطق.

- لو أنّ أحداً أحرق ما تملكه أنتَ كله، ماذا كنتَ تصنع؟

- الحقّ معكَ. وأفكاركَ مبجّلة وجميلة، لكنْ، هناك، أيضاً، طُرُق أخرى، تُوصلُكَ إلى تحقيق أمنيّاتكَ.

- هذا هو أجمل الطُّرُق!

- وهل تحسّ بالارتياح، الآن؟

- نعم، كثيراً.

هزّ السّيّد ميرزايان رأسه، واقترب من آيدين. وضع يده على كتفه، وقال له: "أمس حين كنتَ منشغلاً بقَطْع الأخشاب، جاء إلى هنا ثلاثة رجال دَرَك، ألم ترهم؟".

- "بلى رأيتُهم".

- جاؤوا يسألون مَنْ يكون آيدين أورخاني من بين هؤلاء. سألتُهم ماذا تريدون منه؟ قالوا الخدمة العسكرية. وهناك أيضاً مَن

اشتكاه. أجبتُهم: جئتُم متأخّرين أسبوعاً واحداً، لأنه ذهب من هنا الأسبوع الماضي.

كان آيدين ينظر واهناً، ويبدو متراخياً. قال: "الجندية؟".

- نعم، أنتَ تعرف أن الأمر صار معهوداً، هذه الأيّام، يجولون القرى، ويجمعون المجنّدين. لكنْ، لستُ أدري لمَ قلبي لا يريد أن يأخذوكَ. كنْ حذراً هذه الأيّام!

- نعم، سيّدي ميرزايان.

- لا أريد أيّة مشاكل لي ولكَ. إن عاودوا المجيء في إثركَ، فليست بيدي حيلة.

- نعم، سيّدي ميرزايان.

في هذه الأثناء، كان خمسة عناصر من الدَّرَك قادمين من بعيد قاصدين المعمل، يشقّون طريق القرية، التي انطمست معالمها تحت غطاء من الثلج سميك. كانوا غارقين في الثلج إلى الركب، ويجهدون في الوصول إلى هناك. قال السّيّد ميرزايان: "أترى إنهم قادمون مجدّداً؟".

رمقهم آيدين. من بين الخمسة، تعرّف إيازَ الضابط، الذي كان يصارع الثلوج. التفت آيدين، مذعوراً، إلى أنحاء المكان، وقال: "سأذهب إلى وسط الأخشاب. سأذهب إلى وسط الأخشاب".

- اختبئ الآن حتّى أفكّر بأمركَ لاحقاً.

-١٣-

ليلة الخميس كانت ليلة مثلجة. شرع الثلج بالهطول، منذ الليلة السابقة، واستمرّ إلى يوم الاثنين. كانت الطريق متلفّعة بياضاً، وضوء مصابيح المدينة الخافت يتراءى من بعيد. وآيدين، مرتدياً المعطف وحاملاً على كتفه فأساً، وبيده حقيبة صغيرة للكُتُب والملابس، يقترب من المدينة رويداً رويداً، وذهنه يزدحم بالأفكار المشوّشة التي تعصره، وتُسبّب له الشقيقة.

لم يستسغْ أن والده بصدد الانتقام، وأنه خطّط لتلك المؤامرات المشؤومة. مكث رجال الدرك في معمل النجارة إلى المساء. وكانوا واثقين لدرجة أنهم لم يُكلّموا أحداً. كلُّ فرد منهم كان ينتظر في مكان، وهو ينفث الدخان. قال إياز الضابط للسّيّد ميرزايان: "فضلاً عن أنه مجنّد، فهو شخص خطر للغاية، متشبّع بالأفكار اليسارية". وفي أثناء المغادرة، قال إنه على يقين من أن أحد العمّال خبّأه، أو هرّبه، لكنه سيقع في قبضته، مهما كلّف الثمن.

- هناك مشتكٍ خاصّ ضدّه، وإذا كنتَ تتستّر عليه، فالويل لكَ، مسيو ميرزايان.

مشوّش البال، مضطرب الحال، حزين القلب والوجدان، دخل المدينة عبر بوّابة "تابار قاپوسي"، ولم يزل الثلج يتساقط، وقد محا أيّ أثر للشارع.

قباب من الثلج انهالت من الأسطح، وتكدّست في عرض الشارع. لم يعد يُرَى سوى مسلك العربات المتعرّج، ومن المحتّم أن أماراته سوف تنمحي، إلى صباح الغد، تحت غطاء الثلج الجديد.

في أيّة لحظة كان ممكناً أن يتعرّفه أحد. أو يراه إياز الضابط صدفة. وعد نفسه، في مثل هذه الحالة، أن يقطع وريده، وينجو من العقوبات كلها. بيد أن الثلج والصقيع والبرد كان أشدّ من أين يسمح لأحد بالتجرّؤ على الخروج من البيت. اجتاز شارع بهلوي إلى آخره، ووصل إلى حارة "گازران"، ثمّ إلى حارة أرمنستان، وانعطف إلى زقاق أرمنستان. ورغم إحساسه بأن أحداً يتعقّبه، لم يلتفت خلفه، وقَصَد باباً أخضر في منتهى الزقاق المسدود، وطرقه بضع طرقات. تقهقر وقرأ، تحت ضوء عمود الكهرباء، في أوّل الزقاق، لوحة "حمّام فانتازي"، الذي كان مملوكاً للأرمن، وكان مختلفاً، جذرياً، عن الحمّامات الأخرى. لحظات بعد ذلك، سمع وَقْع أقدام، ثمّ فُتح الباب، وتجلّت في عرضه امرأة قصيرة القامة، تضع على رأسها وشاحاً أبيض، وترتدي عدّة جاكتات وسترات ذات ألوان مختلفة. قبل أن تنبس بكلمة، قال آيدين إنه جاء من معمل الخشب. سألتْه المرأة: "يادين؟".

- نعم، آيدين.

قالت: "تفضّلْ". أفسحت له المجال للدخول. كان بيتاً عتيقاً بجدران فارعة الطول ونوافذ خشبية مسقوفة مغطّاة بسواتر بيضاء ووردية، يتوسّط الباحة حوض ماء كبير مدوّر، بات ماؤه جليداً، وعلى جانبَيْه بساتين صغيرة مستطيلة الشكل منضّدة جنباً إلى جنب، تحيط بالبناية من الجهتَيْن.

فجأة، وقعت عيناه على بناء أبيض ورائع، بناء الكنيسة الذي فَصَلَ

جدارٌ قصيرٌ حدودَها عن الساحة، من الجهة اليسرى. قالت المرأة: "لمَ أنتَ واقف، عزيزي؟ تعال"، وأرشدتْه صوب البناية.

في مقدّمة البناية، توجد شرفة سداسية الأضلاع، يحملها ثلاثة أعمدة دائرية مقوّسة، تتصل من الجهتَيْنْ بسلالم، توصّل إلى البوّابة الرئيسة للبناية. قالت المرأة: "أزلْ عن نفسكَ الثلج".

رفس آيدين برجله الأرض، وأزال بيَدَيْه الثلجَ من أعلى كتفَيْه. أبقت المرأةُ البابَ مفتوحاً حتّى يخلع آيدين حذاءَه، ويدخل. توسّطت الصالةَ الكبيرةَ طاولةٌ مستطيلةُ الشكل، وأضفت على الفضاء حرارة مدفأة مليئة بالحطب، استقرّت في آخر الصالة.

حول الطاولة، كانت عجوز منهمكَة في حياكة قماش. وبالقرب من المدفأة، جلس السّيّد ميرزايان، بمعية رجل آخر، وغير بعيد منهما، في الناحية الأخرى من الطاولة، كانت فتاة ثلاثينية شقراء تلعب الشطرنج مع رجل. ألقى آيدين التحية.

قال السّيّد ميرزايان: "هل واجهتَ أيّة مصاعب؟".

قال آيدين: "كلا". واستقرّ في مكانه، لا يعرف ما يفعل.

قال السّيّد ميرزايان: "تعال، لتتدفّأ". استوى واقفاً، وصافحه، ثمّ قاده إلى الجلوس بالقرب من المدفأة. قال: "لا تخجلْ، بنيّ. ليس بيننا غريب". ثمّ عرّفه الجميع: "هذا أخي مسيو سورن، وهذه ابنة أخي، سورمه، وذاك ابن أختي، مكاييل، سيسافر غداً إلى إيروان، وهذه جدّة سورمه، مدام يوگينه". صافح آيدين الجميع، ثمّ جلس على كرسي بالقرب من المدفأة.

قال مسيو سورن: "يداكَ متجمّدتان، أدفِئْهما جيّداً".

كان آيدين يستمتع بدفء النار الحمراء المتراقصة، وكأنه يريد ابتلاع لهيبها.

قال السّيّد ميرزايان: "أقدّم لكم السّيّد آيدين أورخاني، حاصل على الدبلوم في الرياضيات، وشاعر".

قال مكاييل الذي كان مشغولاً بلعب الشطرنج: "عجباً، عجباً!". ثمّ حرّك فيلَه.

قال السّيّد ميرزايان: "إنه ابن تاجر مكسّرات كبير. لكن عمله تعثّر، واضطرّ إلى الشروع من الصفر. راقبتُه، لمدّة، في المعمل، كان متشبّثاً بالعمل، بشكل عجيب. أُتنصتين، يا سورمه؟ هو الشخص الذي كنتُ مداوماً على صحبته".

قالت سورمه: "نعم، عمّو العزيز" وتابعت لعبَ شطرنجها.

قال السّيّد ميرزايان ضاحكاً: "ضَمِنَتْه سيّدة طويلة القوام جميلة. كلّما كنتُ أذهب إلى البنك الوطني، تتقصّى أخباره، وتسأل أحواله. ما الصلة التي تربطها بكَ؟".

- إنها جارتنا.

التفتت سورمه، وألقت نظرة على آيدين، وقالت: "هل تناولتَ العشاء؟".

قال السّيّد ميرزايان: "كلا، بالتأكيد، لم يتناوله. ماذا تفعلين سورمه؟".

هبّت واقفة، وخرجت من الصالة.

قال مسيو سورن: "لم أفهم مشكلتكَ. قال لي گالوست، قبل بضع ليال، كلاماً، لكني كنتُ مستغرقاً في الثمالة، ولم أفهم شيئاً ممّا قاله".

حين عادت سورمه إلى الصالة، كان آيدين جالساً ويداه على صدره(*)، يحكي قصّته بالتفصيل. كان يخالط صوته مسحة غضب، لكنه كان يروي كل شيء، بحياد وهدوء، وكأن هذه الأحداث عاشها شخص آخر.

بعد ذلك، قالت سورمه كلاماً باللغة الأرمينية، واختلست نظرة إلى آيدين. ثمّ تحدّثت بالأرمينية، من جديد، ولم يفهم آيدين شيئاً. وفي لحظة، انتابه إحساس بمقدار حقارته أمام تلك الفتاة. أحسّ بالخجل ورائحة الخشب تفوح من رأسه وهو يرتدي ذاك المعطف من القماش السميك.

جلست الفتاة، وانشغلت باللعب. كانت، بين الفينة والأخرى، تسترق نظرة إليه بطرف عينَيْها، من دون أن تلتفت إليه. نظرة ثابتة متفحّصة، من موقع الغرور، وكأنها تنظر إلى شخص أهل للترحّم.

قال مسيو سورن، وكانت لكنته طاغية أكثر من أخيه: "عجباً لهذا الزمان!".

قال مكاييل: "ألم تقدّم لكَ تلك السّيّدة، جارتكم، أيّة مساعدة؟".

قال آيدين: "أنا لم أقبل".

قال السّيّد ميرزايان: "ظروف آيدين لا تسمح بالكلام في هذا الموضوع. عجيب أمره! أحسُّ بأن له أخلاق ولدي سركيس".

قال مسيو سورن: "حقيقة، إن الأمر لمخجل. أيعتقد هؤلاء أن لهم عبيداً؟!"

قال السّيّد ميرزايان: "أنتَ رجل صلب. لا تقلقْ، ستصل إلى ما تصبو إليه".

---

*) كناية عن جلسة الاحترام.

قال آيدين: "كلّما عارضني أولئك، ازداد اجتهادي وعملي".

قال السّيّد ميرزايان: "لا أريد أن أقول لكَ إني مُخلّصكَ. ولا أبتغي المشاكل والقلاقل. لكنْ، لستُ أدري لمَ تروقني. كما قلتُ لكَ، سوف أساعدكَ. أنا أحترم أفكاركَ وهدفكَ، لكني لا أعرف إلى متى سيستمرّ هذا التعقّب، وهل سيكفّ والدكَ عن ملاحقتكَ؟".

قال آيدين: "سوف يدرك، في وقت من الأوقات، أنني تركتُ هذا المكان".

قال السّيّد ميرزايان: "أفكّر بأن أُخفيكَ سنة أو سنتَيْن. لكنْ، هل تستطيع التحمّل؟".

قال آيدين: "نعم". ثمّ نظر إلى مدام يوگينه، التي كانت منشغلة، بجدّ، بحياكة شيء أرجواني اللون.

في اللحظة ذاتها، دخلت تلك المرأة، صغيرة الهيئة، حاملة صينية طعام. وضعتْها على الطاولة، وانصرفت. قال السّيّد ميرزايان: "إذا شعرتَ بالدفء، تعالَ، لتتناولَ عشاءكَ. لا تُصعِّب الأمور كثيراً".

قال مسيو سورن: "نعم، بالتأكيد. لا تغتمّ!".

قال السّيّد ميرزايان: "لم نحسب حساباً. في مستوى ملء البطن فقط".

قال آيدين: "شكراً. لم أكن أريد إزعاجكم". ثمّ نظر إلى سورمه التي هزّت رأسها راسمة ابتسامة على شَفَتَيْها.

قال مسيو سورن: "أبوكَ رجلٌ قَمْطَرير، لكنْ، لم أكن أعلم أنه عديم الرحمة، إلى هذه الدرجة".

كانت الفتاة لا تزال تتفحّصه بنظراتها، وهو محتار كيف يتناول طعامه أمام لسعات نظراتها تلك.

وبعد إلحاح مسيو سورن ومدام يوگينه والسّيّد ميرزايان جلس إلى طاولة الطعام، وأخذ الصحن ويداه ترتعشان.

قال السّيّد ميرزايان كلاماً بالأرمينية، فابتدروه بأعينهم. ثمّ تحدّثت مدام يوگينه: "ماذا عن أمّكَ؟ ألم تعترض على الوالد؟" وتابعت حياكتها.

قال آيدين: "أنتم تعلمون جيّداً، مهما فعلت أمّي، فهي تظل امرأة، والرجال أمثال أبي..." وبقي ساكتاً. لم يجد الصفة المناسبة لنعت الأب.

بعد العشاء، تكلّم مكاييل: "هل بإمكانكَ أن تقرأ علينا إحدى قصائدكَ؟ أريد أن أقرأها على أصدقائي حين أصل إلى إيروان".

احمرّت وجنتَا آيدين، وقال مرتبكاً: "ليس لديّ شِعْر في مستوى تطلُّعكم".

قال مكاييل: "إنكَ تتواضع".

وافترّت شَفَتَا سورمه بابتسامة جميلة، وحدّقت إلى آيدين، بطرف عينها، حتّى أحسّ باهتزاز، يرجّ أعماق قلبه. لم يكن، إلى ذاك الحين، قد بُهر بجمال وفتنة أيّ شيء أو أيّ إنسان. ولم يزلزل أيُّ كائن كيانه إلى ذلك الحدّ، من قبل تلك اللحظة.

قال: "لا أعرف أيّ واحدة أقرأ؟".

قالت سورمه: "اقرأها جميعها"، وضحكت. ثمّ ضحكت ثانية.

أطبق آيدين عينَيْه على ذكرى وجه سورمه. وحاول التركيز. مكث هادئاً، لهُنَيْهَة، ثمّ قال: "لا أتذكّر الشِّعْر بالكامل".

قال السّيّد ميرزايان: "اقرأ لنا ما تتذكّره".

قالت سورمه بنبرة يطبعها الجدّ: "اقرأ".

فأنشد:

دَمُ مُتَسَوِّلٍ مِثْلي، كَدَمِ الحَلاَّج، وَحْسب
أَغْلالُ العِشْقِ سِلْسِلَةٌ تُكَبِّلُ قَدَمَيَّ حتّى خَشَبَة المَشْنَقَة
أَيَا غَيْمَ العِشَقِ الأَلِيم! أَيَا فَتَاة! أَيَا فُتُوَّة!
أَنَا وَتَرُكِ الجَرِيح، اعْزِفِي، اللَّيْلَة، تَعَالَيْ وَأَمْطِرِينِي
مُكَمَّمُ الشِّفَاه مِنْ هَجْرِك، مَيْتٌ مِنْ جَحَافِلِ المَوْتَى
أَنَا بَرْزَخُ هَذَا الزَّمَان أَنَا الخَوْفُ من عاقِبَة الأُمُور
وَا أَلماً لِقَلْب في مَأْتَم، أَنَّى يَسْتَطِيعُ، من فِرَاقٍ، فِرَاراً؟
إِلى مَتَى يَظَلّ صَائِماً عَن هَذَا الوَكَن؟
أنىَّ لِلْبُلْبُل أن يَدْرِي عَلى أَيِّ سَطْحٍ نَزَل؟
مَنْ لاَ لَيْلَ لَه، يَحْسبُكَ حُرّاً طَلِيقاً
قَادِمٌ كَمَا الصَّنج وَسْطَ الضَّجِيج، حِينَ يَعْزِفُنِي
هَؤُلاَء النَّاس المتَلَوِّنُون، هَؤُلاَء الأَعْدَاء الفُجَّار
أَنَا، اللَّيْلَة، مَعْشُوقٌ مَارِق، سَارِقُ فُؤاد حَارِق
أَنَا بُرْكَانٌ صَامِت، صُورَة جَبَل بارِد
وَاحُزْنَاه عَلَى مُلْتَهِبِي القُلُوب، عُشَّاقٍ بِلاَ عُنْوَان
سَادِرِينَ بَيْنَ الطُّرُقَات وَأَطْلاَلٍ مُسْتَبْشِرِين
أَضْرِمُوا النَّارَ في بَيْتِي، اِنْزَعُوا الرُّوحَ مِنَ الجَسَد
فَأَنا رَمَادٌ في مَهَبِّ الرِّيح، تِمْثَالٌ شَبِيهُ الرِّجَال

بَيْرَقٌ دَالّ عَلَى الذِّكْرَيَات، فَوْق أَعَالي السُّطُوح
ذَابِلٌ في الأيَّام، ذِكْرَى عِشْقٍ مُسْتَتِر

صفّق الجميع له. حتّى مدام يوگينه وضعت قماشها على الطاولة، وصفّقت. لكن يَدَي آيدين كانتا ترتعشان على الطاولة، وسورمه تنظر إليه نظرة مَنْ يبتغي أخذ صورة له.

قال السّيّد ميرزايان: "أحسنتَ، أحسنتَ. أنتَ شاعر بارع، بنيّ!".

قالت سورمه: "لمَنْ أنشدتَ هذا الشِّعْر؟".

ردّ آيدين: "لا أعرف، هكذا" وهزّ كتفَيْه.

قال السّيّد سورن: "عجباً لهذا الزمان. إنه شِعْر جميل!".

قال مكاييل: "لكنه غير ناضج بما فيه الكفاية".

قال السّيّد ميرزايان: "مكا! إنه، حقّاً، شِعْر ماتع. أليس كذلك؟!" ثمّ قال لآيدين: "أين تعلّمتَ هذا الشِّعْر؟".

- عند الأستاذ ناصر دلخون.

ضيَّق السّيّد ميرزايان عينَيْه: "دلخون؟ إنكَ تُرعبنا، بنيّ. وكأنّ رأسكَ أثقل على بدنكَ، مثل دلخون نفسه".

قال السّيّد سورن: "أعرفه. كان يتردّد على دكّاني، يشتري البنّ والشاي. كان رجلاً نحيفاً بشَعْر طويل كامرأة، وذا شوارب كثّة. لستُ أدري هل كان من الدراويش أم من الشيوعيّيْن؟ بيد أنه كان رجلاً عجيباً. ذات يوم، وصلَنا خبره".

قال مكاييل: "اقرأ لنا شِعْراً آخر".

قال آيدين: "للأسف، لا أتذكّر". وانتابه التجهّم، ثمّ قال بصوت متهدّج: "للأسف، لا أتذكّر".

قال مكاييل: "ألا تعرف الشِّعْر الحُرّ؟".

أجابه آيدين: "على العكس، أنا من أتباع نيما يوشيج، لكني لا أتذكّر الآن".

قالت سورمه: "ألم تكتب شِعْراً حُرّاً؟".

- كتبتُه، لكنْ – تعلمون إن أبي أضرم النار في كل شيء.

قال مكاييل: "إن لديه موهبة جيّدة. آمل أن يصبح شاعراً بارعاً". ثمّ تابع لعبة الشطرنج.

قالت سورمه: "كشْ ملك"، ثمّ صمتت للحظة، واندفعت: "كشْ ملك. منذ ساعة والملك في وضعية كَش".

قال مكاييل: "آه. عفواً. لقد أخطأتُ، كان تركيزي مشتّتاً".

قال مسيو سورن: "لو لم تكن في ورطة، لأخذتُكَ إلى دكّاني، وعلّمتُكَ طحن البنّ. نحصل على لقمة العيش، ونقضي أوقاتاً ممتعة". وسكب لآيدين الشراب.

قالت سورمه: "كشْ ملك، مجدّداً".

قال السّيّد ميرزايان: "ليس بمقدوره الظهور إلى العَلَن، ولا الخروج خارج المدينة. عليه أن يعمل في مكان آمن، كي... لا أعرف ماذا سيحصل".

قال آيدين: "أجل. أينما كان، ليس مهماً. المهمّ ألاّ أعتمد على أحد. أريد أن أعمل".

- مهما فكّرتُ لا أجد مكاناً آمناً، غير قبو الكنيسة. هو المكان الذي فكّرتُ فيه في أوّل الأمر.

قطّبت سورمه جبينها، وصاحت: "عمّو، المكان هناك مظلم للغاية، يثير الرعب".

قال السّيّد ميرزايان: "سنُزوّده بالكهرباء، ونجعل منه ورشة. ليس مهماً بالنسبة لآيدين. هناك يعمل، وفي المكان ذاته ينام ويعيش حتّى تنقشع السحابة".

قالت سورمه: "المكان هناك غير مناسب بالمرّة، يعجّ بالفئران والصراصير".

قال آيدين: "أنا مستعدّ أن أعيش في غار، كي أصل إلى هدفي. يريد والدي أن يذلّني، لكنْ..."وسكت مرّة أخرى.

قال السّيّد ميرزايان: "نعم، يجب عليه أن يرتّب المكان بنفسه. سنعطيه الأدوات وما يلزم لافتتاح الورشة، والبدء بعمل بسيط. أي عمل تجيد؟"

قال آيدين: "كان الأستاذ دلخون يصنع، أحياناً، البراويز. وأنا أيضاً أعرف هذه الحرفة".

- هذا رائع، إذنْ، صُنع البراويز.

وضحك، شوقاً، ثمّ تجرّع آخر جرعة في كأسه.

قال آيدين: "أنا أحبّ الخشب، وتروقني أعماله".

- أعلم ما يتطلّبه العمل. من غد، سأجلب مائة بكرة من خيط الحرير المخصّص للبراويز، وطبق، ومسمار، ومطرقة، ولصاق، وطاولة للعمل. بإمكانه أن يصنع بضعة براويز في اليوم. وسيحصل على أتعابه. وفي الليل، يتفرّغ للدراسة والمطالعة. الرجال العظام كابدوا الكثير من المتاعب. كان هناك أنبياء رعوا القطيع، ومنهم مَنْ كان نجّاراً.

قالت سورمه: "كشْ مات". واستوت واقفة، وجلست إلى الطاولة.

قال آيدين: "متى أبدأ بالعمل؟".

- من صباح يوم غد.

صباح اليوم الموالي، وقبل أن يقصد السّيّد ميرزايان المعمل، قاد آيدين إلى المكان المتّفق عليه. وقال له: "والآن، لم يعد هناك مجال للمجازفة، لقد حذّرونا، وأنتَ، أيضاً، ستقع في ورطة. أعلم أن الوضع صعب، لكنْ، يجب أن تقاوم وتستسلم للعمل. مهما حصل، فهذا المكان أفضل من السجن، ومن الثكنة العسكرية. لن أتركَك وحيداً. سأحضر لكَ الكُتُب والجرائد، وأتوقّع منكَ، بالمقابل، التحلّي بالصبر. تعلم أنّ هذه كنيسة، يتردّد إليها الناس، بين الفينة والأخرى، لو رآكَ أحد...حسنٌ، المدينة صغيرة...".

كان الثلج يواصل الهطول، وهم غارقون فيه حتّى الرُّكَب. قال آيدين: "أنتَ مثل ملاك".

- لا، ليس الأمر كذلك. نحن بدأنا معاً عملاً تجارياً. ويجب عليّ أن أدعمكَ.

وأشار بأصبعه إلى الناحية الأخرى من الكنيسة: "هناك".

كانت سلالم القبو مجاورة لجدار البناية: "هيّا، لننزل". تقدّم يهبط السلالم، وراح يشرح بصوته المرتعش، أن على المرء أن يعمل على الدوام، دون توقّف، وأن يبني، وإلاّ سيهترئ من الداخل، ويذبل، فالبطالة أسوأ من الوحدة. والعاطل عن العمل يشعر بالوحدة رغم تواجده وسط الناس.

فتح باباً خشبياً رمادي اللون. كانت اللوالب تُصدر صوتاً جافّاً ومحفّزاً. عرف آيدين، لاحقاً، أن ذاك المكان كان محلاً لسُكنى خادم الكنيسة المتوفىّ. كان رجلاً من أهالي بادكوبه، ذا شعر أحمر، يرتدي، دوماً، قميصاً أبيض ياقته صيقلية. نُسي، ذات يوم، من سنوات الحرب، في هذا القبو. ولمّا تذكروه، بعد يومَيْن، فُوجئوا بجثّته المزرقّة.

كان مستودعاً كبيراً صُفّفت، في ركن منه، بضعة دِنَان روسية. ووُضعت في الناحية الأخرى منه عدّة صناديق خشبية. أما الأسقف المقبّبة، فكانت محمولة من وسطها على أربعة أعمدة. عدّ آيدين تسعة أسقف. وفي آخر المستودع تواجدت حجرة صغيرة، حُجبت بستارة.

قال السّيّد ميرزايان: "الجميل في هذا المكان أنه حارّ شتاءً، وبارد صيفاً" وأزاح بأصبعَيْه الستارة جانباً، ثمّ دخل. كان بداخل الغرفة سرير نوم وطاولة وكرسي. كانت بسيطة وصغيرة تشبه السجن. وكل شيء تفوح منه رائحة الذبول والعتاقة. بجدران عالية، جُصِّصت تصدُّعاتها بإسمنت أزرق اللون، أحال الغرفة كئيبة حزينة.

كان يتأبىّ على التصوّر أن المكان قابل للتنظيف والترتيب، لكنْ، ما هي إلا بضعة أيّام حتّى تحول إلى ورشة، تشعل في جوف المرء فتيل

العمل. ثُبِّتَت مصطبة العمل تحت منفذ زجاجي بالسقف، كان يتيح تسلّل قَدْر مناسب من الضوء إليها. وعُلّقت أداة صناعة البراويز في علبة المعدّات في العمود الأيمن، وكانت تحوي المناشير والمطارق والأطباق والكمّاشة. وكانت مدفأة حطب تُدفئ جنبات الورشة. عُلِّقت ستارة زرقاء بمدخل الحجرة، وأوصل التّيّار الكهربائي، واستبدل سرير النوم، وأحضروا طاولة وكرسياً جديدَيْن، وخزانة، ليضع كُتُبه في الرفوف العليا، وملابسه في السفلى.

منذ أن بدأ آيدين العمل، صنع ثلاثين بروازاً خشبياً للصور، وبعد أن أتقن تقطيع الخشب بشكل مائل، بات يصنع خمسين بروازاً في اليوم الواحد. كان السّيّد ميرزايان يحملها، كل صباح، إلى متجره. ومنذ ذلك الحين، شهد متجر گالوست للصناعات الخشبية رواجاً بفضل البراويز الجميلة والظريفة. كان السّيّد ميرزايان يمنحه توماناً واحداً، كربح، عن كل برواز. وكان يضع بمتناوله الموادّ الأوّليّة اللازمة. فيما كلّف خادمة بإحضار الوجبات الغذائية الثلاثة. وكل يوم، قبيل الغروب، كان منفذ السقف الزجاجي للضوء، أو بتعبير سورمه پوتشكا، يُفتَح، فيتجلّى وجهها في إطاره، وشَفَتاها مفترّتان بابتسامة، تُلقي عليه التحيّة، وترمي له بجريدة الأمس، وتنصرف.

ومن يومها، بات آيدين يعمل اليوم بأكمله متلهّفاً للقاء عابر، تفتح فيه سورمه زجاج السقف المشجّر، فتزيح عنه تعب يوم بالكامل. لقاءٌ كأنه تهييج لأمواج البحر، كان يُبطئ عقارب الزمن، ويوقد في أعماق آيدين جذوة شوق، وحبّ خفي. ومرّت الأسابيع والشهور، ونسي عائلته وأشعاره، وازداد نحافة وهزالاً.

يوم من العمل، في منتهاه لحظة لقاء. لقاء عيون بطَعْم العسل.

-١٤-

وحلّ الربيع، وسطعت أشعّة شمسه الدافئة، فأذابت الثلج، وبات المنفذ الزجاجي يُسرِّب إلى الداخل المزيد من الضياء. وأخذ شخص يُنظِّف بدقّة تلك المنطقة، وذلك الزجاج، مرّتَيْن في اليوم. وأحياناً يسيل قطرات ماء بالقرب من طاولة آيدين. واستمرّ العمل في معمل گالوست لصناعة البراويز. نُضّدت إطارات صور بسيطة، وأخرى منقوشة بألوان ذهبية وبنية وسوداء، في جوانب الورشة.

لم يكن أحد يعرف من أين يُحضر السّيّد ميرزايان هذه البراويز الجميلة والجذّابة، ومَنْ يكون صانعها. وحتّى لمّا سأله صاحب دكّان: "أين يوجد المعمل، سيّد ميرزايان؟" أجابه: "أتظنّ أن هذه البراويز تُصنَع في أردبيل؟". بالتأكيد لا، كانت في غاية الدقّة والمهارة، لدرجة يتعذّر تصوّر أنها صُنعت في هذه البلاد. لكن سعرها كان رخيصاً جدّاً. وربّما تجد، الآن، بكل بيت من بيوت المدينة واحداً أو اثنَيْن منها، تزيّن صور الموتى أو تؤطّر صور ومناظر أخرى. حتّى أورهان اشترى واحداً من هذه البراويز، وعلّقها على الجدار قبالة المطبخ، تحيط بصورة الإمام عليّ، جالساً على سجّادة العرش متأبّطاً سيفه ذا الرأسَيْن، وعلى يمينه الإمام الحسن بلباس أخضر، وعلى يساره الإمام الحسين بملابس حمراء، والملائكة فوق رؤوسهم مشرعين مظلاتهم، وقد حفّهم نور أزلي، وسطع من وراء ظهورهم إلى الأبد.

ذات يوم، أُلقيت رسالة، لا تحمل عنوان المرسل إلى داخل البيت، تُطَمْئِن بسلامة آيدين، وكتب فيها أنه لا يكن أي إحساس تجاه العائلة والبيت، لكنه يشتاق، أحياناً، إلى الأمّ وآيدا، ويسأل عن أحوال سهراب الصغير، وهل جاءت آيدا إلى البيت، ورجعت؟ وكتب أيضاً أنه مستعدّ للتوقيع على محضر، يقرّ فيه بألا حقّ لديه في ذمّة تلك العائلة. شريطة أن يتنازل الوالد عن متابعته، ويتركه ليواصل حياته. وكتب، أيضاً، لماذا يسعى الإنسان بنفسه إلى بثّ التفرقة وروح الغربة بين أفراده؟ ولماذا هذه الوحدة كلها، وهذه الأشياء كلها؟

ضاقت نَفْس الأمّ أكثر من ذي قبل. لم تكن تدري أين آيدين غير أنها كانت تعرف أنه وحيد. كانت واثقة، وتقول باستمرار: "آه، على وحدتكَ!" وبين الفينة والأخرى، كانت تنزوي للبكاء والنحيب، ولا يُطمئِن قلبها رغم غزارة الدموع التي تذرفها. كانت تحسّ بأن مصير توأمها ليس على خير. آيدا في آبادان، وقلّما تصلها أخبار عنها، إلا من تلغرافات، تُخبرها بصحّتها وابنها. والآن باتت الهوّة أكثر اتّساعاً. بينما آيدين غدا في تلك المدينة كقطرة ماء، ابتلعتْها الأرض، مهما بحثوا عنه، لم يعثروا عليه. كانت الأمّ قد أرسلت أورهان، مراراً، إلى معمل الخشب في بلدة رام اسبي، لكنه لم يتوصّل إلى رأس الخيط. ومرّة، ذهبت بنفسها إلى المعمل، ولم تجد له أثراً. توسّلت إلى السّيّد ميرزايان، وحفّزت السّيّد ريزوان بالمال، وذهبت إلى بيت إياز الضابط، واتّخذت زوجته واسطة، وذهبت إلى قاعة المطالعة. لكنْ، بلا جدوى.

في أحد الأيّام، ذهبت إلى كنيسة مريم المقدّسة، وإلى منزل گالوست ميرزايان. ورأت مدام يوگينه العجوز وسورمه ومسيو سورن، وتحدّثت معهم

جميعاً، وأجهشت بكاء؛ على ضعفها وقلقها وفقدانها حبيب قلبها. قالوا لها إنهم أصلاً، لا يعرفونه. قالت الأمّ إن ابنها شاعر، كيف لا يعرفونه. وقالوا لها إنهم سمعوا باسمه، لكنْ، لا يعرفونه. إذنْ، ما العمل؟

حين عادت إلى البيت أحسّت وكأنها رأت تلك الفتاة في مكان ما. كانت ملامحها مألوفة لديها، وكأن أمارات آيدين مرتسمة على تقاسيم وجهها، وكانت هي تراها لمّا يذكر اسم آيدين؛ وربّما رائحته وارتعاش يَدَيْه، أو ربّما حركة الحَدَقَتَيْن.

في اليوم الموالي، عاودت الأمّ زيارة كنيسة مريم المقدّسة، ورأت الفتاة ذاتها، وكانت مشغولة بتنظيف الأرض بخرطوم مياه، وسقي الورود، ونثر الماء على العصافير. جلست الأمّ على سلالم الكنيسة، وقالت: "ما اسمكِ، بنيّتي العزيزة؟".

أجابتْها: "سورملينا".

- سورمه، ما أجمله من اسم! ما أكثر شبهكِ بوَلَدَيّ آيدين وآيدا!

وبكت من جديد، وأمعنت تُحدّق في حركات الفتاة. وعادت إلى البيت مع المغيب، منخورة البدن، متثاقلة وحزينة.

تسرّب قلق الأمّ إلى الأب، وهزّ كيانه، وهو الذي كان يبدو صلداً لا يُقهَر. طلب الأب مساعدة إياز. فتّشوا المدينة، وجابوا القرى المجاورة والثكنات والمستوصفات والقبور. وآخر أمارة كانت بحوزتهم ذهابه إلى رام اسبي، في إحدى ليالي الشتاء قبل سَنَتَيْن، وعدم عودته. وحقّاً، لم يكن أحد يعلم. ولا أحد.

السّيّد ميرزايان، فضلاً عن ربحه المادّيّ وعائدات صناعة البراويز، كان قد أقسم بشرفه ألا يبيع آيدين، وأن يدعمه، ويسند ظهره. وكان يجيب، بكل إصرار وعزم، أنه طرد آيدين بعد متابعات عناصر الدَّرَك، ومضايقاتهم له. لأنهم توعّدوه، وهدّدوه، إذا ثبتت مشاركته لآيدين أورخاني في جريمته.

- إذنْ، إلى أين؟

لم يكن لدى الأمّ أيّ جواب لآيدا. في آخر يوم جاء فيه آباداني ليأخذ زوجته وابنه، لم يتركوا مكاناً، لم تطؤه أقدامهم. وذهبت آيدا، من دون أن ترى آيدين. وفي كل مرّة في الخمسة عشر يوماً، كان سهراب يتذكّر خاله، تحتضنه الأمّ، وتنتحب، وتجهش.

لقد غدت الحياة في بيت الوالد مريرة وصعبة، إذ فَقَدت الأمّ صبرها وحلمها، وأصبح الأب لا يفترّ عن الصراخ من دون نتيجة، واختفت تلك الأطعمة الشهية والمتنوّعة، ومرضت الأمّ. وأورهان كان يستولي على كل شيء، وباتت شؤون الدّكّان والبيت بقبضة يده؛ من بيع وشراء وقرارات أخرى. أما يُوسُف، فكان سادراً في نعراته وسط تلك الغرفة الصغيرة الغارقة في ظلام بهيم. يقتلع بأظافره جبس الجدران المحيطة به، ويلتهمه، ويأكل خليط التبن والطين المدهون على الحيطان، وحين لا يستطيع اقتلاع قِطَع الآجور المهلهلة، يرفع عقيرته بالوَعْوَعة. تنبعث من غرفته رائحة العطن، وتنتشر في أرجاء البيت كلها. ويصيح الأب: "إلهي! أرِحْنا من هذا".

فترت علاقة الوالدَيْن، وتلبّدت غيومها، وما عادا يتبادلان الكلام إلا لماماً، انقطع كلٌّ منهما إلى همومه وحياته المنكوبة. كانت الأمّ تقول له: "شرّدتَ ولدي".

كانت فروزان تقول: "إلى أين ذهب، بلا خبر؟".

فيجيب أورهان: "بالتأكيد، ذهب إلى طهران للدراسة".

أما الأب، فكان يرفض الآراء كلها، حتّى رأيه هو. استبدّت به حيرة عجيبة: "ليس واضحاً، لم يكن ذا دِين وإيمان كما يجب، ولم يكن يعرف حرفة، ولم يكن يسمع كلامي. يا للخسارة على تلك الموهبة! لمّا كان صغيراً، لم يكن يرضى أن يُناولني خيارة لتقشيرها له. كان يقول: سأُقشّرها بنفسي. كأنّ هذا الإنسان لم يكن محتاجاً لأحد. لكنْ، لا أعلم. إذا كان قد ذهب إلى طهران، فالأمر مُنته، ويجب إخراجه من الحسبان. لكن إياز يشكّ أنه قد عبر الحدود...".

قالت الأمّ: "سحقاً لإياز ذاك!". كانت تتلظّى بنار الغمّ والحزن على هجرانه. وعندما كانت تحكي هذا لآيدين، في ما بعد، كانت تذرف الدموع، وتُبكيه أيضاً.

لكنّ آيدين، النافر الشارد، لم يكن على استعداد، أبداً، للعودة أو حتّى المرور. حين كانت الأمّ تروي له ذلك، تأخذ نَفَسَاً عميقاً، وتتحدّث بمفردها: "ماذا بالإمكان أن نفعل؟". مع بزوغ طلائع الفجر وحتّى الليل، كان يصنع براويز الصور، وينقشها، ويطالع الكُتُب أو الجرائد. وكان هو أيضاً، يكتوي بنار عشق أحادي الجانب. ينتظر مخايل الغروب كي تأتي سورمه، لتفتح منفذ السقف، أو بتعبيرها پوتشكا. تناديه: "سيّد آيدين"، وتلقي له جريدة أو كتاباً، ثمّ تنصرف. من غير كلام ولا تواصل أو حتّى ابتسامة. ولم يزدْه مرور الوقت إلاّ إصراراً جنونياً، وعلى أمل أن يحظى، يوماً، بعشق سورمه، كان يجد ملاذه في العمل.

كان الانتظار يمُطّط الزمن، ويحيله إلى زجاج قاتم وغليظ، تطؤه أقدام زوّار الكنيسة، ويأتي، عصراً، مَنْ يُنظّفه، ويترك قطرات ماء بالقرب من طاولة آيدين. وهو المنتظر، يظلّ محدّقاً في وجه سورمه تحت إشراقة نور مصباح الورشة الخافت، أخرسَ اللسان، مضطربَ القلب، متيبّسَ الشَّفَتَيْن. بماذا كان يريد أن يسرَّ لها؟ هو نفسه لا يعرف. قد تكون كلّ كلمة بمثابة رصاصة طائشة، تُجفلها، ويستحيل، مع زوبعة الغبار والأتربة التي تتركها، رؤيتها من جديد. لم يستطع أو ربمّا لم يرد التصديق أنّ هذا التحكّم والدلال والتمنّع واللامبالاة من طبع سورمه وسجيّتها. لم تكن تأكل أبداً، وتتواجد في الأمكنة كلها؛ جالسة في شرفة البيت، أو على مزهرية صينية في الكوّة، أو بين أوراق الأشجار، وحتّى وسط شعلة النار.

أُغرم بها، لكنه لم يجرؤ على البوح بحبّه حتّى لنفسه. عَدِم جرأته كلَّها. وشاخ، وازداد شحوباً ونحافة بفعل الرتابة اليومية القاتلة، وانعدام نور الشمس والعمل المتواصل. وتحوّل إلى إنسان جبان، ينفطر قلبه فزعاً لأدنى صوت يسمعه. بوجه زئبقي، غزتْه التجاعيد، هرِمٍ ومتململ. كان يصنع خمسين بروازاً في اليوم، ويضع النقود في دَرْج الخزانة، لكنْ، لم يكن يدري لمَنْ يصنع، ولمَ يدّخر، وإلى متى سيظل هناك. كان الحبّ والخوف ينخران داخلَه، ويهتمجانه. حبّ إنسان مجهول، والخوف من أناس معروفين. والآن، لم يعد يريد أن يعرف لمَ هو حيّ. حتّى إنه لم يسأل السّيّد ميرزايان، ولو لمرّة واحدة، حتَّام سيلازم مكانه في ذلك القبو الرّطيب العليل. لكن الأخير كان يكنّ له احتراماً فائقاً، وكان راضياً على غلّته من البراويز، ومرتاحاً للغروب وپوتشكا.

فُتحت پوتشكا. تدلّت إلى الداخل كتلة شَعْر أشقر ومنسدل، بوجه

منزوع الابتسامة ورزين، مجلّل بمهابة وكمد. أبطأت للحظة، ثمّ نادت: "السّيّد آيدين".

- نعم.

- افتح الباب، أريد الدخول.

تسرّب إلى بدنه إحساس بالتلاشي والفناء، وامتقع لونه. فتح بإحكام الباب، مرتعداً. وقال لنفسه: "إلهي! كيف أقابل مسيو سورن والسّيّد ميرزايان؟". دخلت سورمه بتلك العينَيْن البرّاقَتَيْن والحاجبَيْن الدقيقَيْن والخَدَّيْن المنتفخَيْن، وتوقّفت وسط فضاء الورشة. كانت ترتدي بلوزة خضراء ناصعة، وجيدها يبدو في غاية الطول، وقلبها يخفق بشدّة. هل كان قلبها يخفق، دائماً، هكذا؟ هل ركضت؟ هل كانت تركض دائماً؟ إذنْ، لمَ دقّات قلبها متسارعة؟ هل كانت لتغضب لو رآها أحد؟ كم كانت جميلة!

لم يكن يُرى أيّ شيء. توقّف الزمن عن الحركة والصوت. هناك، كانت تمتدّ عبر الآفاق أراضٍ متصدّعة، لا لون لها. تيبّست الورود، وكفّت الريح عن الهبوب، وكادت جِلْدَة الرأس تنخلع، وتنفجر خفّة الإنسان المائعة تحت ضغط قوي. لم يكن ليلاً ولا نهاراً. إذنْ، ماذا كان؟ ولماذا كان ثمّة شيء لا يتوقّف عن الخفقان؟

- قلبكَ.

فجأة انتبه آيدين من غفوته، وتوقّف مقابل سورمه. خُيِّل إليه أنه يحلم.

- إنكَ ترتعش.

لم يقوَ على قول شيء سوى: "أستحلفكِ بالله أن تذهبي من هنا".

- أذهب، إلى أين؟

كان صوتها مُخملياً، يسيل كاللعاب، ويترك صدى ينساب إلى ثنايا الأذن وجفون الأعين. وكان آيدين يهابها، ويخشى الفضيحة؛ يخاف أن يُكبّلوها إلى خشبة حتّى تصير إنسانة، يخاف أن يطردوه من مكانه، بسبب العار، ويُجرجروه في المدينة، ويُشهرون أنه ابن حرام. لم يدرِ ما يصنع. قال: "لو رأوكِ هنا، فالأمر سيِّئ لنا نحن الاثنَيْن".

- سيِّئ؟ لماذا سيِّئ؟

كان عدم فَهْمه للأمور يرجُّه بقوّة. أحسّ بتهاوي ركبَتَيْه. انحنى على الأرض، وكاد يبكي، فقال متوسّلاً: "أستحلفكِ بالله أن تذهبي من هنا".

حينذاك، وغير مكترثة به، طافت حول الورشة: "الخوف، يا عزيزي، يعني الموت"، ثمّ واصلت الكلام بتحكّمها الخاصّ: "أنا سوف أذهب إلى المكان الذي أراه مناسباً". كانت تُمسك بيدها كتاباً وصحيفَتَيْن، وضعتْهم على مصطبة عمل آيدين، ثمّ ألقت نظرة إلى المنفذ الزجاجي في السقف، وجلست إلى الطاولة. تناولتْ مسمارَيْن صغيرَيْن، وغرزتْهما في الطاولة بمهارة عجيبة. بعد ذلك، التقطت لوازم العمل، وأرادت أن تُنهي صُنع برواز صور غير مكتمل، لكنها لم تستطع. قال لها آيدين: "اسمحي لي، ليس بهذه الطريقة".

- أنا أعرف ما الذي عليّ فعله.

وأردفت: "هذا الفضاء ليس مناسباً، امتقعَ لون وجهكَ، وصرتَ ضامراً، تُثير الهلع في قلب الإنسان بهذه اللحية الكثّة، وهذا الشَّعْر الغريب".

- ماذا بإمكاني أن أفعل؟

أجابت سورمه بسَوْرة: "يمكنكَ فعل كل شيء".

- منذ سَنَتَيْن تقريباً لم يزرني أحد غير السّيّد ميرزايان.

- أنتَ إنسان رِغْديد. أنا جئتُ إلى هنا، لكنكَ لا تكترث البتّة.

- هذا يوم عظيم بالنسبة إليّ، آنستي.

وأحسّ آيدين بدفء مفاجئ، دجّ في وجهه ووجنَتَيْه. ثمّ قال: "لقد تعوّدتُ الآن".

قالت سورمه وهي تلهو بأدوات العمل: "أبي، أيضاً، زاركَ مرّة أو مَرَّتَيْن".

- أجل، أبوكِ رجل لطيف وودود.

- وماذا عنّي أنا؟

- أنتِ إعصار.

- أنا مَنْ سأهلك به أوّلاً، أليس كذلك؟

- كلاّ، لأن الإعصار لا يموت أبداً.

- أنا مُجرّد امرأة.

- أنتِ ثورة.

- هذه كل أحاسيس فقط، ليست واقعية.

- فقط، أنا واقعي مرير.

- الحياة، في معظمها، تعب وخيبة.

- أنتِ، لماذا؟

- حسنٌ، في النهاية.

- أنا أحبّ كثيراً هذه النافذة في السقف.

- يوتشكا. لمَ تحبّها؟". ثمّ نظرت إلى المنفذ الزجاجي، وضحكت بتوق.

قال آيدين: "لأنكِ تفتحينها، كل يوم، و..." ثمّ سكت.

ومن جديد، ضحكت سورمه حتّى أحسّ آيدين كأنه نطق بكلام صبياني.

قالت سورمه: "ما أهمّيّة ذلك بالنسبة إليكَ؟".

- أشعر بالسرور.

- هذا فقط؟! .

- نعم.

قالت سورمه: "عجباً!" أزاحت المِفَكّ جانباً بأصبعها، ثمّ تناولت المطرقة: "هل كنتَ تحبّ أحداً من قبل؟".

- كلاّ.

- لكني كنتُ متزوّجة قبل سنوات، وبعد ثلاثة أشهر من زفافنا، وقعت حادثة سير لزوجي، رفعت رأسها، ونظرت إلى آيدين: "ثمّ مات".

- لم أكنْ أعرف.

- لحسن الحظّ، لم أنجبْ منه طفلاً.

- هل كنتِ تحبّينه؟

- أبداً.

- لماذا تزوّجتِ به؟

- لا أعرف.

- ما الذي تغيّر حتّى جئتِ اليوم لزيارتي؟

- لا أعرف. هكذا، أردتُ أن آتي إليكَ.

- أنا سعيدٌ للغاية.

- جميلٌ جدّاً.

رفعت يَدَيْها من على الطاولة، ونهضتْ تريد المغادرة. ومع كلّ خطوة، كانت تلفّ شَعْرها.

إثر ذلك، توجّهت صوب حجرة آيدين. توقّفت أمامها. أزاحت الستارة بأصبع واحد، ودخلت. لم يعرف آيدين هل يبقى واقفاً أم يلج. تردّد للحظة، وظلّ منتظراً. وحين قرّر إزاحة الستارة، خرجت سورمه، وقالت: "نظّمْ حياتكَ، واحلقْ ذقنكَ، وقصَّ شَعْركَ، وأحياناً، اخرجْ إلى الخارج، كي تراكَ أشعّة الشمس". ثمّ صعدت السلالم وهي تواصل الكلام. وذهبت.

غَجَرِيّةُ الأسارير. تُرسل، حيناً، شَعْرها، وحيناً آخر، تلفّ شالاً حول

رأسها ورقبتها. تلبس الأرجواني، وحيناً، البنفسجي. لطيفة، أحياناً، وحادّة مندفعة، أحياناً أخرى. وغرين هذه الفتاة الغجرية جعل من آيدين تمثالاً صخرياً، قابعاً على حافّة السرير، غارقاً في بأس الوجود وقسوته الصلدة. ذات الليلة، تذكّر أمّه وآيدا وسلالم البيت، وحنّ قلبه إلى ذلك القبو الذي التهمته ألسنة اللهب. تذكّر جمشيد ديلاق، الشّابّ الوسيم، لمّا كان يأتي، بقامته الفارعة، قاصداً البيت، يرفع رجلاً، ويستند عليها متّكئاً على الجدار في انتظار قدوم أورهان.

ليلتها، تذكّر الأشياء كلها والأشخاص جميعهم. كان ذهنه يمتلئ ويفرغ. لم يدرك نيّة سورمه من مجيئها إلى هناك، وقصدها من وراء ذلك الحوار كله. قالت له: "أنا أشعر بوحدة قاتلة. فكّرْ بالأمر، منذ سنوات وأنا وحيدة".

لم يكن حضورها يملأ فراغات تلك الأفضية فحسب، بل جرأتها تعدّت الحدود كلها؛ مُستَعِرَة ومتمرِّدة ومليئة بالحيوية والشّرّ. والآن وقد ذهبت، كأنها أخذت معها وزن الزمان، وخلّفت وراءها، في مشام آيدين، رائحة عجيبة: رائحة نوع من الفتنة، رائحة مرارة الاستيقاظ من حلم جميل، يراه المرء في غرّة الصباح.

قالت له: "إذا أردتُكَ أن تقرأ شِعْراً، هل تقرؤه؟"

- هل من الضروري أن تُورّطيني؟

- لا، لا، لا أقصد هذا. أريد فقط أن أسمع شِعْراً. إذا لم ترغبْ بذلك، فلا أُلزمكَ.

بعد بضعة أيّام، حين كان آيدين يَبْري البراويز الجاهزة، ويصقلها استعداداً لصباغتها، طُرق الباب طرقَتَيْن. فتح الباب، فدخلت سورمه.

سلّمت، من دون أن يلاحظ في عينَيْها أي فضول، وكأنها تعرف المكان وآيدين جيّداً. كانت تُمسك بيدها مرآة وقماشاً أبيض ومقصّاً. توجّهت صوب الكرسي، وأشارت إلى آيدين بالجلوس. قالت: "هل شاهدتَ نفسكَ في المرآة، في الآونة الأخيرة؟".

"لا". ونظر إليها. خجل من تحديقه فيها، لكن قلبه كان ما يزال توّاقاً إلى استراق النظرة إليها.

ثبّتت المرآة على الطاولة، وسحبت الكرسي إلى الوراء، وقالت: "حسنٌ، تعالَ، وانظرْ".

جلس آيدين على الكرسي، ولفّت سورمه القماش الأبيض حول رقبته، ومن دون أن تنبس بكلمة واحدة، بدأت في حَلْق شعره بمهارة فائقة. صفّفت لحيته وشاربه. كانت يداها تبدوان في المرآة ملتويتَيْنِ ومتداخلَتَيْن، لدرجة خُيّل لآيدين أنها، حتماً، ستقطع إحدى أصابعها.

قالت: "في السنة الماضية، جاءت أمّكَ، مرّتان".

- أمّي؟

ثمّ التفت.

- لا تتحرّك، لئلا ترى إحدى أذنَيْكَ وقد جزَّها المقصّ.

- ماذا كانت تريد؟

- كانت تبحث عنكَ. اقتفتْ أثركَ من المعمل. كانت تظنّ أنكَ هنا.

- يا لإحساسها!

قالت سورمه: "نعم، وما أشدّ حبّها لكَ!"، وأردفت، وهو مستمرّ في صمته: "قالت إني شبيهة بآيدين وآيدا. لكن أعينكما تاتارية، وأنا شقراء".

- أقسم أن الشبه لم يُثرها، بل لاحظت أمارات، جعلتْها تعتقد أني هنا.

- ربّما نعم، وربّما لا.

- ماذا يعني ربّما نعم، وربّما لا؟

ضحكت سورمه، وقالت: "يعني أنها تفطّنت لإحساسي تجاهكَ".

- وهل تحسّين بشيء تجاهي؟

- لمَ تتحرّك كثيراً؟ نعم، أحسّ.

قال آيدين بأناة متفرّدة: "حبُّكِ تعتّق في قلبي، آنسة".

- مثل الخمرة بالتأكيد.

- بحكم الآداب والواجب لم يكن لديّ الحقّ أن أحبّكِ.

قالت سورمه: "لماذا؟" أوقفتْ يدها عن العمل، وارتكنت بمرفقها إلى الطاولة، قبالة وجه آيدين بالضبط.

- لن أنزعجَ لو طردوني من هذا المكان، لكني أخشى أن يبغضني أبوكِ.

- أنتَ لستَ مخطئاً. لقد شببتَ على الخوف، قتلوا فيكَ الجرأة. انظر إلى المرآة، لترى كم صرتَ متهدّماً منكسراً.

- أتتصوّرين أني غير محتاج للمحبّة؟

عادت سورمه لمواصلة عملها: " الناس كلهم يحتاجون إلى المحبّة"، ثمّ فتحت فَرْق رأسه، ومشّطت شَعْره، وقالت: "انظرْ، لقد غدوتَ مثل المسيح عيسى. لم يبقَ إلا أن تذهب إلى الحمّام".

نظر آيدين. لم يكن يشبه المسيح في شيء، بل كان أشبه برجل تاتاري نحيف، صُفِّف شَعْره. وهو بين يَدَي سورمه، لم يقوَ على صدّ اندفاعها، رغم كل ما فعل. قال: "دائماً ما أُدفئ الماء هنا، وأستحمّ".

قالت سورمه: "لدينا حمّام، إذا أردتَ، يمكنكَ استعماله متى شئتَ".

أزال آيدين المريلة، وقصد براويز الصور. قالت سورمه: "أبتهج حين أراكَ تعمل".

جابت الورشة، ثمّ جلست أرضاً على ركبَتَيْها، وانشغلت بالبري. قال لها آيدين: "لا تُلطِّخي يَدَيْكِ".

- لماذا أنتَ عبوس على الدوام؟

- لا أعرف. أنا نفسي لا أفهم.

- أنتَ دائم التفكير، وكأن سفنكَ غرقت في البحر.

- أنا أبحث عن نفسي في الماضي. افتقدنا أشياء، كنّا نملكها في الماضي.

- مثل؟

- لا أعرف.

قالت سورمه: "من الآن وصاعداً سآتي كل يوم". وفي طريقها للمغادرة،

أطلّت على حجرة آيدين، جلست لهُنَيْهَة على السرير، تصفّحت بعضَ الكُتُب، ثمّ قالت: "هل أنتَ يُوسُف النّجّار؟".

- آنسة سورمه.

- سورملينا.

- آنسة سورملينا، أتأذنين لي أن أعشقكِ؟

جلست سورمه، ابتسمت، وبهدوء مسحت بلسانها على شَفَتها العليا، وقالت: "العفو".

آنئذ قبّلها آيدين، بملء المحبّة. وتملّكها، ووطئ ترابها مثل أرض موعودة.

-١٥-

خلال أيّام الأحد، كان أرامنة المدينة والضواحي يقصدون الكنيسة زرافات. يتلون دعاءً، ويقيمون شعائرهم، ثمّ يتناولون وجبة الغذاء في صفاء باحة الكنيسة المُوَرَّدَة، وعصراً يقفلون عائدين. كان سقف البناية آجرّياً أحمر اللون، يحتوي على صفَّيْن من النوافذ ذات الدفَّتَيْن. وفي الوسط، وبالتحديد أمام باب الدخول، انتصب عمودان طويلان بشكل باروكي حتّى السقف، وبنت الحمائم أعشاشها على شعفتهما. وفي وسط الساحة، نُصب عمود تذكاري، اعتلاه تمثال لقدّيس عجوز رافع يَدَيْه بالدعاء. وأحاطت بالمبنى من جانبَيْه بساتين صغيرة.

ساعة بوّابة الكنيسة توقّفت منذ سنوات عن الدوران، ويلازم فتح وإغلاق باب الصحن الخشبي الكبير صوتٌ شبيه بأنين المنتحب. ولم يبقَ من كل الخَدَم والحَرَس والعَسَس سوى امرأة قصيرة القامة، تقوم بأعباء الكنيسة كلها، وحتّى منزل گالوست ميرزايان.

فضلاً عن الزوّار المؤمنين، يقصد الكنيسة، أيّام الأحد، الباعة المتجوّلون، فيفرشون سلعهم في أطراف الكنيسة وزقاق أرمنستان وحارة گازران، فيتحوّل الحيّ الساكن إلى سوق مكتظّ وزعق، غاصّ ببائعي الجرائد والبنجر المحلّى، والخضروات، وطُهاة الفول، وبائعي الملابس، ومعدّي الصابون البلدي، وباعة الألعاب المحتالين الذين يخدعون الأطفال، والحلاّقين الجوّالين الذين يبيعون

الشاي والقرفة أيضاً، وبائعي الشمع الذين يتحيّنون الفرصة لجَمْع مصاريف عامهم كاملاً من هؤلاء النصارى؛ وعلى رأس الأزقّة، اصطفّ سائقو العربات بانتظار المسافرين، والنُّعاس يغالب جفونهم.

عدا أيّام الأحد، عند وفاة أحد، أو في أثناء إقامة شابّ وشابّة لحفل زفافهما، تضجّ الحارة من جديد، وتتزيّن، وتزداد رونقاً، يبعث گالوست ميرزايان بعربة إلى بيت القسّيس، ويأمر سورمه بطَهْو طعام خفيف مناسب، لقسّيس عجوز. لم يكن في ذلك اليوم يذهب إلى العمل، وكان يطلب من مسيو سورن البقاء لاستضافة الضيوف، وتقديم الشاي والقهوة لهم.

في مثل هذا اليوم عصراً، وكان يوم خميس حارّاً، ذهب مسيو سورن إلى الورشة، ليرتشفَ قهوة مع آيدين، ويتجاذب معه أطراف الحديث. كان قد سمع مدام يوگينه تقول إن سورمه ترتاد المكان بانتظام، وتقضي هناك أوقاتها، وكان يريد أن يعرف معدن آيدين ورأيه وتصوّره للمستقبل.

أخبره آيدين أنه ينوي قريباً مغادرة المكان، وأنه لم يُسرّ إلى أحد بهذا الخبر، وأنه لم يعد يتحمّل البقاء.

جمد مسيو سورن: "تذهب؟ إلى أين؟".

- إلى طهران.

- من أجل ماذا؟

- لأدرسَ، لأعيشَ، مثل الآخرين.

- مع هذه المطاردة.والملاحقة، وبهذه الحالة السّيّئة، لا أظنّ أنه تفكير عقلاني.

- ربمّا، لكني أضعتُ أربع سنوات من عمري في المعمل والورشة والقبو. كأنها اقتُطعتِ منّي، وأُلقيت بعيداً. أريد أن أذهب، لأرى ما يمكنني فعله. مسيو سورن، أنا تكبّدتُ خسائر كثيرة. أُحرقَت شواهدي وشِعْري وكتاباتي، كأنهم بتروا منّي الماضي. أشعر بالضيق والقَرَف، وعليّ أن أذهب.

كانت أحاسيس القلق والغضب تعتور مسيو سورن، وتسري بجلاء في أسارير وجهه. كان ينثر المسامير فوق الطاولة، ويعيد جمعها، يُصفّف البراويز فوق بعض، ويلتقط المطرقة. قال، ولوثة الغضب ترجّه: "الحقّ معكَ. أنا بدوري عشتُ وضعاً أسوأ من وضعكَ. احترقتْ حياتي، وماتتْ زوجتي، وولدي دانيال، وعمره لم يتجاوز العام الواحد. شتّتت الحرب شملَنا، ومن بين كل تلك السعادة والحياة لم يُبقِ لي الدهر سوى سورمه، ووضعها، هي الأخرى، ليس بأفضل حال من وضعي. ربمّا لم تحكِ لكَ. عاشت تجربة زواج فاشل وسيِّئ. مات زوجها بعد ثلاثة شهور من حفل زفافهما. بعد ذلك، فقدت طراوتها وذوقها، ولم ترضَ بالزواج من أبناء العائلة الذين تقدّموا لخطبتها مرّات عديدة. ولم نكن قادرين على إجبارها، وبقيت كذلك. والآن غدت نزقة، تنظر إلى الرجال بوسواس. لا أستطيع إرسالها إلى إيروان، ولا يطاوعني قلبي في بقائها هنا. لكنّي، مع ذلك، أوليتُ كل شيء ظهري، وتركتُ الأيّام تمضي. هذه هي حياتنا. أترى أنّ حالنا ليس بأفضل منكَ؟ ولا نملك مصارعة القَدَر".

قال آيدين: "نعم، معكَ حقّ. أنتَ أيضاً احترقتَ. لكنْ، ما الجدوى؟ أأقضي عمري كله هنا، في هذا القبو العليل المدلهم، أصنع البراويز دون أن أعرف فائدة المال الذي أجنيه؟ دون أن أعيش حياتي الاجتماعية؟ لِمَ خُلقتُ، إذنْ؟".

- لكنْ، لماذا اتّخذتَ هذا القرار فجأة؟

- لقد فكّرتُ مليّاً، كان لديّ الوقت الكافي للتفكير، والآن...

- أنتَ شابٌ متعلّم ومثقّف، تعيش في وطنكَ، لماذا، إذنْ، هذا الوضع؟

- هذا ما جناه عليّ أبي...!

بعد ذلك، تساويا في البوح، وكأنهما شخص واحد ينتحب وينوح. كلاهما مكدود ومغموم. لمّا كان مسيو سورن خارجاً قال: "تَرَوَّ، وفَكِّرْ مليّاً، قد تكون هناك حلول أخرى".

آخر الليل، حين هدأت الأصوات كلها، نزلت سورمه السلالم، طرقت الباب، ودخلت. في النهار ذاته، لم تستطع زيارة آيدين لكثرة مشاغلها. والآن تبدو خائفة ومنزعجة. وضعت الجريدة على الطاولة، وقصدت الحجرة. جلست على السرير، وراحت تحدّق في آيدين، وكأنها تتابع سقوط طائرة. انقضى وقت طويل في الصمت.

قال آيدين: "أظنّكِ متعبة جدّاً".

- هل تريد المغادرة؟

- هل أخبركِ أبوكِ؟

- نعم.

قال آيدين: "أجل".

- إذنْ، لِمَ لم تخبرني؟

- ليتني لم أخبرْ مسيو سورن أيضاً.

- أهذا كل شيء؟

لزم آيدين الصمت. لم يكن قد رأى، من قبل، سورمه قلقة ومشوَّشة إلى هذا الحدّ.

- إذنْ، ماذا أفعل أنا؟

- أنا لا أناسبكِ سورمه، صدِّقيني.

- لِمَ صرتَ هكذا؟

- أنا تعبتُ من نفسي أيضاً، فقدتُ القدرة على التحمّل. لقد ذبلَ قلبي.

- وماذا عنّي أنا؟

- لا أعرف.

- آيدين!

التفت إليها، وظلّت واجمة. وتأمّلا، للحظات، عينَي بعضهما. ثمّ قالت سورمه مرتعشة فاقدة السيطرة على نفسها: "أين ذلك الكلام الجميل والمنمّق كله...؟" ثمّ سمّرت نظراتها في الأرض.

قال آيدين: " ذلك الكلام كله كان نابعاً من أحاسيسي الصادقة. وما تزال موجودة. لكنْ، عليّ الرحيل قبل أن أدمنَ عليكِ. يجب أن أقتلَ الشوق في قلبي، يجب أن أستأصلَ العشقَ من فؤادي".

كانت الدموع تنهمر على خدود سورمه بينما تتحدّث بأناة: "حبّكَ ليس بالأمر الهيّن".

- ثقي بي، سورمه، لا أصلحُ لكِ.

- لا تردِّدْ هذا الكلام.

- لستُ قاسي القلب، سورمه. هنا، يمرّ عليّ اليوم الواحد وكأنه ألف يوم. كنتُ سأبقى لو كان من أجل قلبي، أو من أجل حبّكِ. لكني أريد أن أكون شاعراً أيضاً. يجب أن أوقدَ هذه الجذوة في قلبي. أنا فشلتُ في كل شيء.

- على الأقلّ، اسمحْ لي أن أرافقكَ.

- إلى أين؟

- إلى حيث تذهب.

- هذا ليس منطقياً. كيف أسمحُ بتشريدكِ معي، في مدينة لا أعرف فيها أحداً؟

- أيّها الظالم!

وانفجرتْ غيظاً، وغادرتْ، وهي تشهق بكاءً.

ليلتها، رأى آيدين في منامه أنه صار مسيحاً، بتاج الأشواك على رأسه، وصليب على كتفه، يقتادونه إلى صحراء، ليصلبونه. وكان أحدهم يجلده، ويقول له: "بسرعة، بسرعة"، وهو لا يقوى على حمل ذاك الصليب الثقيل. لم يبقَ في قَدَمَيْه رمق قوّة، وكأن قلبه قد انفطر،

بعيداً من ذلك المكان، وقفت امرأة، تشبه آيدا، ترثيه وتبكيه وسط عصف الرياح.

في اليوم الموالي، حين كان مُنكبّاً على قراءة الجريدة، لم يعزْ أي اهتمام لحلم ليلته، وراح يتناول غداءه، وهو يتصفّح الجريدة. في الصفحة الثالثة من جريدة "اطّلاعات" ليوم الخميس السادس من سبتمبر كُتب بالبنط العريض: "امرأة تُدعى آيدا، أضرمت النار في نفسها في مدينة آبادان".

وتحت العنوان كُتب: "أمام اندهاش طفلها وعينَيْه الباكيتَيْن والحائرتَيْن، أقدمت هذه المرأة الشّابّة في منتصف ليلة الأحد، على إحراق نفسها بالنفط، وظلّت تحترق حتّى قضت. لم يكن أحد موجوداً، كي يهبّ لنجدتها، وحين وصل رجال الأمن...".

الحركة الثالثة

جلجل رعد وبرق مصحوب بدويّ مرعب وزخّات مطرية، وغطّى رجعُ الصدى سماءَ المدينة وتلاشى. نظر إلى الغيوم الداكنة فوق رأسه، وأوصل نفسه تحت مسقوفة دكّان الساعاتي درستكار. ولاذ بالمكان، واضعاً يَدَيْه في الجيب، مفترّة أساريره بابتسامة، أظهرتْه أكثر حزناً.

ردّد في نفسه: "انْفَجَرَت السَّمَاءُ بِشَقَائِقَ كَبِيرَة، وَخَفَقَت بِتَمَوُّجَاتِ قَطَرَاتٍ بَارِدَة، وانْهِمَارِ بَرَاعِمَ نَدِيَّة". ولم يهتد إلى بقية الشِّعْر، رغم التفكير كله. ثمّ ألقى نظرة إلى السماء وأخرى إلى باب متجر البنّ "سورن"، المقفل. فحنّ قلبه، وأحسّ بشيء ثقيل يجثم على صدره. أخرج من جيب سترته لفافة دخان وعود ثقاب. كان قد أدمن الدخانَ منذ الصيف. أشعل عود الثقاب، لكن الرياح العاتية المصاحبة للأمطار لم تسمح، فأشعله ثانية بقبضَتَيْه المشبوكَتَيْن، ونجح، هذه المرّة، في إيقاد السيجارة. كزّ على أسنانه وأمعن في طريقة مشيتي. أجال بصره، بسرعة، في الجموع؛ لم يكن بينهم أحد يمشي مشيتي. حتّى الطالبات العائدات من المدرسة، بِوَزْرَاتِهِنّ الكُحْليّة، وجواربهنّ البيضاء، متأبّطات الكُتُب، بشرهنّ وشَرَرِهِنّ، كأنهن يتراقصنَ تحت سيل الأمطار، لم يستطعنَ، ولو للحظة، إثارة انتباهه. كان شَعْرهنّ مشدوداً برباط وردي اللون. كانت إحداهنّ ذات شَعْر أسود كثيف. لكنْ، لا واحدة من تلك الفتيات كانت تمشي مشيتي.

كنتُ أسرع الخطى ويداي تتأرجحان على جنبيّ. قفزاتي كانت شبيهة بأحصنة السباق. وفي أثناء المشي، كان شَعْري ينسدل طويلاً على ظهري، فيُخيّل إليه أنني أقفز. ولم يكن، أساساً، يعرف سبب ذلك. كان فقط مشوَّشاً، شاخصة أبصاره نحو السماء. بينما المطر يهطل غزيراً، فيغسل وريقات الورود ودواخلها من تراكمات الثلج وبقاياه على الأرض. كانت الأشجار تودّ إنجاب براعمها، وكنتُ أنا أحثّ السير.

قال: "أتصوّر أن قَدَمَيْكِ ستتعثّران، وتسقطين أرضاً".

قلتُ: "البرقوق". لكني كنتُ أريد من ذلك أن أزمّ شَفَتَيّ، وأجلس على أرجوحة أتأرجح في تلك الباحة الشاسعة الموردة والمشجّرة. قلتُ له: "أتأكل؟".

قال: "كلاّ". وجلس على حافّة حوض الماء. كان يرتدي بذلة خضراء قاتمة تحتها قميص أزرق سماوي.

قلتُ: "لا تتواضع".

قال: "ليس مهماً". وسمّر ناظرَيْه في تمرجحي.

قلتُ: "لا، والله؟" وضحكتُ، وأدرتُ رأسي إلى الناحية الأخرى.

قال: "لا، والله".

قلتُ: "اينچ په سس؟".

ومهما فكّر وعصر ذهنه، لم يتذكّر هذه الكلمة. رنا إلى باب متجر البنّ المقفول، ثمّ تلبّث بانتظار توقّف الأمطار. كان واضعاً يسراه وثلاثة أصابع

من يمناه في جيب سرواله، يجذب، بانتظام، أنفاساً من سيجارته. سلّم عليه أحدهم، فلم يسمعه. كان غارقاً في التفكير فيّ.

حين شرعت الأمطار بالهطول، توقّفتُ عن التمرجح. كانت واجهة البركة مليئة بالفقاقيع المستديرة الصغيرة والسمكات تتطاير، لتبتلعَ حباب المطر. قال: "أشعر أن هذه الأمطار تتهاطل من أجلي". ثمّ ابتدرني بنظرة من جانب عينَيْه، اضطرّتْني لأن أقول مجدّداً: "برقوق".

قال: "أنتِ أيضاً تزيَّنتِ هكذا من أجلي".

قلتُ: "أنا لم أفعل شيئاً. لا ماكياج، ولا شيء آخر. ذهبتُ إلى الحمّام فقط".

قال: "أتذهبين إلى الحمّام دائماً؟".

قلت: "لا تُؤذني".

دخلنا إلى البناية. أمسكَ بيدي أمام السلالم، فسمعتُ خفقات قلبه السريعة من باطن يَدَيْه. بعد ذلك صعدنا إلى أعلى. كانت الغرفة العلوية بها ستائر بيضاء، فأزحتُها جميعاً حتّى نتمكّن من مشاهدة الأمطار.

قال: "الأشجار هي الأخرى أورقت من أجلي". وأزاح برؤوس أصابعه بضع شعرات من على جبهته، وقال بصوت مرتعد: "لكنّي لستُ أدري لمَ أنا حيّ؟!".

لا أحد كان بمقدوره النفاذ إلى أعماق عينَيْه ودَرْك معناهما. وأنا كنتُ أعرف هذا منذ الوهلة الأولى. تلك الليلة التي دخل إلى حياتنا، كان درويشاً، يحمل فأساً على كتفه، يخطو خطوات كبيرة، ويقطع الشجرة

قسمَيْن بضربة واحدة، وهو يئنّ "هه". كانت تربيته وسلوكه مختلفَيْن عن الآخرين. يأخذ الحياة بجدّيّة أكثر ممّا يتصوّر الآخرون. ليلتها، ظننتُ أنّ الخوف كان السبب. لكنْ، فيما بعد أدركتُ أنني كنتُ مخطئة، وعلمتُ أن فَهْمه أيسرُ من استنشاق وردة، كان كافياً أن ينظرَ إليه أحد. لستُ أدري؟ هل كانت أمّه تحبُّه مقدار حبّي أنا؟ وهل كان أحد يستطيع أن يتذوّق لذّة حبّه، وأن يدرك كم يُدنيه من الخلود؟ كان المرء يمتلئ لدرجة تجعله لا يفكّر في شيء آخر. ولا يشتهي أن يهتزّ قلبه لشخص آخر، أو يستسلم أبداً للشّكّ. كلا، هو بمعطفه الطويل ذاك، وبلورته الخشنة والمنسوجة باليد، وقبّعته القديمة، لم يكن له ظاهر فقط. حين تنزع هذه الثياب تُشرق شمسكَ.

كانت تنبعث منه دائماً رائحة، الخشب، وسائل الكحول. كنتُ تعرّفت الرائحة من پوتشكا قبل سنة، لمّا كنتُ أفتح البوّابة، وأرمي له الجريدة، أنتشي برائحة الخشب، وسائل الكحول التي تتضوّع من المكان، وتصل إلى أنفي.

وفجأة، لفّ ذهنه سكوتٌ ماحق، وامتلأ المكان بالخلاء والخُلُوّ، وفقدت عيناه تجانسهما؛ المطر، الناس الراكضون، مظلّة سوداء، لوحة متجر البنّ "سورن"، كان يرى تلك الأشياء كلها. لكنْ، عوض أولئك الناس كلهم، كان صمت رهيب يُطبق على ذهنه، فيُنسيه مَنْ كان يفكّر فيهم. فقط بقية مستطابة من ذكرى جميلة كانت تعذّبه، وحتّى يهمّ بإيجادها، تكون آيدا قد ملأت عليه الفضاء. لم يكن ممكناً فعل أيّ شيء له. في ذهنه كانت آيدا تضحك، وتشعل النار تحت ظلّ شجرة، كي تعدّ الشاي للوالد. وطفلها سهراب في أحضان آيدين، وهو متّكئ على شجرة، يُحرِّك الطفل، ويقرأ كتاباً.

قال الأب: "آيدين، ماذا تقرأ؟".

- أحفظ الشِّعْر.

أعدّت الأمّ لآيدين بطّيخة، وأضافت إليها ملعقة سكّر، بينما قِطَع الثلج فوق البطّيخة كانت تلمع. قال الأب: "وأورهان؟!".

قالت الأمّ: "لماذا جلس معطّلاً معوّقاً، ليأتِ، ويأخذ ما يريد".

قال الأب: "وهل الآخر يبيض ذهباً كل شهر؟".

قالت الأمّ: "ببركة الله، كلكم تبيضون ذهباً".

قال الأب: "أنا لا أقول هذا الكلام لأجل بطّيخة. أقصد أنه لا يجب عليكِ التمييز بين أطفالكِ".

قالت الأمّ: "بالتأكيد، مثلكَ".

نطفة العداوة زُرعت قبل سنوات، ولم تكن بحاجة إلى إعادة زرع، وكان على الأولاد أن يفهموا ذلك.

تتبّعتُ تفكيره، وأعدتُ تطويعه. ولم أكن أقصد إيذاءه. هو نفسه كان يريد ألا أخلي سبيله. كان يريدني أن أقول: "شَعْر الرأس مثل الحديقة يحتاج للعناية المستمرّة". وأنا قلتُ ذلك. وكانت أصابع يدي تدعكُ شَعْره. أحسستُ بسخونة. قلتُ: "لا أجيد ذلك".

- ليس مهماً، آنستي. أشكركِ على تلطّفكِ.

- ألا تملّ؟

- ممّ؟

- من هذه الورشة. من قضائكَ سنة ونصف وحيداً.

قال: "تعوّدتُ". وأطبق عينَيْه، وسمح لي كي أرتّب شعره مرتاحة البال. أدركتُ، فيما بعد، أنه كان يحبّ أن أسلو بشَعْره دائماً. لكنه لم يُفصح لي، كان عليّ أن أفهم أنه يحبّ مداعبتي وجهه. كان، مرّات عديدة، يعتدل، ويقول: "ألا تنامين؟".

- كلا، أريد أن أتأمّلكَ وأنتَ نائم.

كان ينام بأناة وهدوء، ليس لهما مثيل. يُسلّم نفسه بين يَدَيّ، ويستغرق في النوم. ذات يوم، بعد مرور شهور على موت آيدا، لمّا أفاق من نومه، كنتُ لا أزال جالسة أداعب شَعْره الناصع. نهض، وجلس على ركبَتَيْه قبالتي، قبّل يَدَيّ، وانتحب بكاء. قال: "لهذا السبب، لا أستطيع أن أفارقكِ".

ترك موت آيدا أثراً بالغاً في روحه. كان يحسّ بالوحدة والحنين. بالليل، لم يكن يستطيع النوم. يرى الكوابيس ويتعرّق ويهذي ويبكي لأسباب متعدّدة. كان يقول: "قال جيرانها تلك الليلة، طرد آباداني آيدا من البيت. والآن لماذا؟ لا أحد يعلم. الصحف لم تنشر شيئاً. والجبان ترك كل شيء، وذهب إلى أمريكا. أعتقد أن آيدا كانت في موقف عصيب، لا هي استطاعت العودة إلى أردبيل، ولا الذهاب إلى مكان آخر. فأنزلت بنفسها هذا البلاء...".

خرجتُ من تفكيره، وشغلتْه آيدا. توقّف في مكان، وشرع يقضم أظافره.

قال الأب: "جهاز العرس الذي أعطيكِ إيّاه لا يليق بشخص مثلي.

لكنْ، لا يمكن توقّع شيء أكبر ممّنْ يدير ظهره لبخته". مثل الكلام الذي قاله لآيدين قبل سنوات: "أنتَ لستَ جديراً بالبذلة القطنية، سأشتري لكَ طقم لباس من قماش حتّى تكفّ عن الكبرياء". ولم يرتدِ آيدين تلك البذلة في حياته قطّ. وقال: "أنا أحتفظ بملابسي القديمة نظيفة".

لم يزلِ الرعد يهدر، والمطر ينزل. اجتمع الماء في حفر، وتكوّنت بِرَكٌ في الشارع، وحين كانت تمرّ سيّارة ترشّ الأنحاء بالماء الملوّث. احتشد الناس تحت السقوف، وخلا الشارع من المارّة. كم كانت الأمّ تُلحّ عليه بالزواج، لطالما قالت له: "أتريد أن أزوِّجكَ ابنة خالكَ ناصر؟".

- ماذا تقولين، أمّي؟!

ويتذكّرني.

- تعال، انظرْ إلى صورتها، كم صارت جميلة!

- أمّي، أنا نفسي عبء عليكم، تريدين أن تحضري ابنة خالي ناصر من أرومية. كيف سيصير الوضع؟

- كما تشاء.

وسكتت، وتذكّرني آيدين من جديد.

وعدتُ إلى ذهنه مجدّداً، بقميص أرجواني طويل الأكمام مسدود الياقة، ووزرة تحت الركب، وحذاء أسود مثلما كان يحبّ هو. وحين ينظر إلى المرء لا يحجم. كان يحبّ أن أموج أمامه، أُحضر الشاي، أضع الكُتُب على الرفوف، أقذف قطعة حطب في المدفأة، وأحادثه وأنا أعمل. وكنتُ أنا منشرحة بقضاء هذه اللحظات؛ أكلّمه، أزيح الستائر، وأفتحها، وأبحث،

باستمرار، عن شيء أقوم به أمامه. لأنه كان يحبّ أن أغدو وأروح بين يَدَيْه. فهمتُ هذا فيما بعد. كان الوقت يمضي كالريح، وكنتُ متوجّسة من أن يهمّ بالمغادرة.

قلتُ: "سأعيش مثلما تريد أنتَ. سأقوم بأيّ عمل تأمرني به. قلْ مت".

كان جالساً على الكرسي ينظر. قلتُ له: "أنتَ قائدي الأعلى والمطلق".

ضحك، واستوى واقفاً. خطا خطوات صوب النافذة حتّى خُيّل إليّ أنه يريد الذهاب إلى بيته. غير أنه عاد، وجلس على الكرسي. كنتُ أودّ أن أقول له كلاماً، كي يدرك مدى حبّي له. قلتُ: "أنتَ مَسِيْحِيَّ أنا"، ركعتُ بجانب كرسيه، وأخرجتُ الصليب، وشبكتُ يَدَيّ ببعض، ونكستُ رأسي احتراماً، فقبّل جبيني. كان قلبي يهفو دوماً للقائه. لا أعلم لمَ كنتُ أخشى إذا لم يأتِ ماذا أفعل؟ قلتُ له يجب قبول الحبّ بشموليّته، ولا يمكن البحث عنه في الجسم فقط، بل في الجسم والروح والجوّ. في المرآة، وفي الأحلام، وفي الأنفاس، وكأنه ينفذ إلى الرئة. والإنسان يحسّ دائماً بأنه يكبر. فهمتُ هذه الأشياء لمّا غاب عن بيتنا لشهر، خلال الأيّام التي ماتت فيها آيدا، وعاد إلى بيتهم بعد أربع سنوات من الغياب.

ذات يوم، جلستُ بجانب الكنيسة، أنظر إلى البساتين. يومها، كانت حدائق الباحة والكنيسة مترعة بالفراشات الزرقاء والصفراء. لو قال لي أحد، ذاك اليوم، أنني أخرجتُ جناحَيْن فوق كتفي، لم أكن لأتعجّب، لأني كنتُ مستعدّة لأتحوّل إلى مخلوق آخر. جاء آيدين على الساعة الرابعة بعد الزوال. كان يبدو منكسراً أكثر من ذي قبل تماماً مثل مَنْ يدخل مقبرة؛ جافّاً وحزيناً وذابلاً.

أردتُ أن أصيح من شدّة الفرح، لكني قصدتُ بنايتنا، من دون أن أبالي به، وبسرعة أوصلتُ نفسي إلى الطابق العلوي، وأخذتُ أنظر إليه من زاوية الستار. كأني به شرد في فراغ غريب. لم يُصدِّق عدم اهتمامي به. توقّف للحظات بجانب الكنيسة، بالضبط في المكان الذي كنتُ جالسة فيه. ثمّ تمشّى على رمل باحة الكنيسة، حينئذٍ رأيتُه يغادر على عجل. كان قلبي يخفق بشدّة، وأطرافي ترتعد. لم أعرف كيف أتصرّف. فتحتُ النافذة، وناديتُ: "آيدين".

لم يستطع تحديد مصدر الصوت، وأحسستُ من جديد بأنه غاص في فراغه. قلتُ في نفسي: "الموتُ لي، إلهي".

رجع، ونظر إلى الأنحاء حائراً. أشرعتُ النافذة، وقلتُ بكامل وجودي: "سلام".

ابتسم، وقال: "أين أنتِ؟".

- "انتظرْ". وخرجتُ راكضة من البناية. قلتُ له: "بالتأكيد، تريد أن ترى عمّو".

- "لا. جئتُ لرؤيتكِ أنتِ".

- "أردتُ أن أخاصمَكَ". ورأيتُ أن وجهه تجهّم. ثمّ عزّيتُه بوفاة آيدا، ودعوتُ لها بالمغفرة.

- "لا تعلمين، سورمه، لا تعلمين أيّ أختٍ رُزئتُ فيها".

تحدّثنا وتمشّينا حتّى الليل. طفنا حول الكنيسة والبناية لمرّات ومرّات. حدّثني عن الأب والأمّ وأورهان وأشياء كثيرة، غفل عنها خلال السنوات الأربع. وكلّما تحدّث عن آيدا، كان قلبي يودّ أن يبكيها.

لمّا ذهب، لم أنمْ تلك الليلة. ليس لأني جُننتُ، وأفسحتُ الطريق لخياله، كي يعبر ذاكرتي. لا، كنتُ أحسّ أن خياله، أيضاً، يفرّ منّي. كل شيء يفرّ منّي. حتّى أثاث البيت كان يركض خارجاً من النوافذ، والجدران تبتعد، وظللتُ أنا وخياله وحيدَيْن. كأنّي كنتُ في قبضة يده، ولم أكن. قرّر أن يقضي النهار في دكّان والده، ويفرغ خلال العصاري. احتضنه والده، وقاله له باكياً: "مَنْ لي غيركما؟".

والآن تتهاطل الأمطار، وآيدين يتأمّل في جدول ماء ممتدّ، وفي الأفق الخارجي ضربات قطرات الماء تزيد من وسعة أرضية الشارع. مات الأب قبل سنة. والصورة التي انطبعت في ذهنه تبدو مقدّسة. وفي اللحظة التي كان الوالد يحتضر على سرير أبيض نظيف مصارعاً مرض القلب، قال: "آيدين، أورهان، أَحِبَّا بعضكما البعض. لا قيمة للحياة". يومها، أمسك آيدين يد أبيه، وشاهده عن قرب، بالضبط بمحاذاة سريره، يخرخر باستمرار، ولا يقوى على التحكّم بلُعاب فمه، فتنظّفه الأمّ بمنديل. كان لون الوالد يصفرّ، شيئاً فشيئاً، ويتكلّم بصعوبة شديدة غريبة على آيدين: "جعل الله خطّاً وسط سنبلة القمح. حساب كلّ حبّة على حدة، لكنها ملتصقات ببعض". وفي أثناء انقطاع نفسه، قال: "حسنٌ، القافلة لها مؤخّرة ومقدّمة...".

لم ينسَ أبداً قدسية هذه اللحظة. في اليوم ذاته، تقرّب إلى الوالد، أكثر من أيّ وقت مضى. سكب ماء التربة (*) في حلقه، وتلا عليه سورة الحمد. ولو كنتُ أنا مكانه، لأخرجتُ الصليب عوض هذه الأعمال.

---

*) في الأدبيات الشّيعية تُعدّ التربة، وخاصّة تربة كربلاء، مقدّسة وشافية من كل بلاء، ووردت بشأنها الكثير من الروايات، وماء التربة له الحكم نفسه. ويُقصَد به أيضاً ماء زمزم.

بعد موت الأب، ازدادت سطوة ضيق تنفّس عند الأمّ، فكانت تقرفص، يائسة، في ركن من الدهليز، وتُحدِّق في الباحة والغربان تغدو وتروح سرباً سرباً وهي على الحال نفسها تنظر وتتطلّع. كانت قلقة على آيدين. قالت له: "إذا رغبتَ، سأكتب إلى خالكَ ناصر، كي يُحضِر ابنته إلى هنا، كي تراها".

قال: "لا تُردِّدي هذا الكلام". وكان مستاء لسماعه. لم يكن يريد نسياني. وحين استيقظ صباحاً من النوم، تذكّرني كما العادة، وأثقل قلبَه هَمٌّ كبير. كنتُ، باستمرار، حاضرة في ذهنه، كل مرّة في شكل. أحياناً، كنتُ أظهر باهتة، وكأنه ينظر إليّ من طبقات الضباب. قلتُ: "لازلتُ منتشية بليلة أمس، يا لكِ من خمرة عجيبة!".

كم كنتُ أودّ معرفة إحساسه. لمّا قبّلني، لم يُغمض عينَيْه حتّى يرى تأثير القبلة في وجهي. لو سألني، كنتُ سأقول له إحساسي.

قال: "ما أزكى رائحتكِ!".

قلتُ: "أرشّ في ياقتي ماء الياسمين".

كان نَفَسُهُ يتضوّع برائحة الريح والمطر. وكان ساخناً، تنبعث من فمه رائحة الخشب، وكنتُ، في دفعة واحدة، أستحيل بين يَدَيْه شعلة متّقدة.

في اليوم السابق، قال لي: "آنسة سورملينا، أتسمحين لي بعشقكِ؟".

قلتُ له: "العفو". وفي نفسي: "الحبّ لا يحتاج إلى إذن". وفيما بعد، رأيتُ من الضروري أن أخبره أنني تزوّجتُ قبل سنوات، لمّا كان عمري ستّة عشر عاماً، بمُلازم من بادكوبة، وبعد ثلاثة أشهر، ذهب إلى روسيا، وأُخبرت بمقتله في حادثة سير. نسيتُه بكل بساطة. عانيتُ لمدّة من شبح عينَيْه

الزرقاوَين، ثمّ انزويتُ في ركن، وتعوّدتُ على الوحدة مثل جدّتي مدام يوگينه. لكنْ، كان عليّ أن أُنقذ نفسي. واستغرق الوقت سنة ونصف حتّى عبّدتُ طريق نفسي إلى آيدين. عشتُ كل يوم مع خياله، وكم كان عجيباً لمّا تقع عيناه عليّ، فيلزم الصمت كتمثال. كان يبدو خائفاً جافلاً. يحب أن يختلي بنفسه في قبو الكنيسة، وفي كل مرّة، كنّا ندعوه لحضور حفل أو ضيافة يتمنّع قائلاً: "لستُ مستعدّاً".

قال أبي: "في ليلة العيد هاته مع هذه التساقطات الثلجية والصقيع كيف يطاوعكِ قلبكِ ألا تخبريه؟".

قال عمّو: "ذهبتُ عنده اليوم ثلاث مرّات، وفي كل مرّة دعوتُه للعشاء، قال: لستُ مستعدّاً، سيّد ميرزايان، أرجو المعذرة".

قلتُ: "إذنْ، أذهب أنا لدعوته". ذهبتُ إلى باحة الكنيسة. كان الجوّ بارداً والثلج يغمرني إلى ركبَتَيّ. أجليتُ بيَدَيّ الثلج من على المنفذ، وفتحتُه، فإذا به قد أوقد ناراً في برميل حلبي، وجلس إلى طاولته، يطالع كتاباً. قلتُ: "سيّد آيدين".

رفع رأسه، وقال: "سلام". هبّ واقفاً، وأظنّه خاف. قلتُ له: "تعال بسرعة لتناوُل العشاء".

قال: "إذا لم يغضب السّيّد ميرزايان، فإني أريد البقاء هنا". قلتُ: "الجميع بانتظارك، لماذا لا تريد المجيء؟" وأحسستُ ببرد شديد، اصطكّت معه أسناني.

قال: "بهذه الهيئة المضطربة... لا أعرف كيف أتصرّف".

وقلتُ وأسناني تصطكّ بشكل عجيب: "سيغضب أبي وعمّو".

قال: "سوف تبردين، اذهبي، وسآتي في الحال". ثمّ جاء. من المؤكّد أنه غسل يَدَيْه ووجهه في ماء البركة، فآثار الثلج عالقة وسط شَعْر وجهه.

قال عمّو: "ماذا جرى، بنيّ؟ هل غضبتَ منّا؟".

جلس أمام المدفأة وقطرات الماء تقطر من ذقنه، وقال: "لم أكن أريد الإزعاج". في تلك الآونة، أحضرتُ له كأس شاي، وقلتُ: "مبروك الكريسماس"، ثمّ ضحكتُ.

كان كلٌّ من الوالد وعمّو ثملَيْن، فقهقها. وكان آيدين يصغي لكلامهما، ويبستم حيناً. كنتُ أحسّ أن هموم الدنيا بأكملها تحتلّ كيان المرء حين يبقى وحيداً. فينزوي عن الناس، ولا يقدر على الاقتراب منهم من جديد. ويجد نفسه وحيداً وسط هؤلاء الناس كلهم. لا يملك أحداً. ليلتها كنتُ أودّ اقتسام فرحتي معه مثل تفّاحة، أقطعها نصفَيْن، يختار أيّهما يريد. وربّما كان هو يدرك هذه الأشياء، ولا يفشيها لي. حتّى إنها لا تبدو على وجهه. كان فقط يسمّر نظراته على أذني أو شَعْري، وإلى أن ألتفت ناحيته، يكون قد رفرف وطار كعصفور.

قلتُ: "الدنيا كموقد نار، كلّما ازدادت سرعة إلهابها، أسرعت بقذف بالإنسان خارجاً".

قال: "نعم، إنها سريعة لدرجة أن المرء يدرك حيرته ووحدته".

قلتُ: "إذنْ، ما العمل؟".

قال: "الصبر والصمت".

قلتُ: "حين يحبّ الإنسان يحسّ بالوحدة أكثر، لأنه لا يستطيع أن يبوح بإحساسه إلا لمَنْ يُحبّ". أردتُ أن أعرف كيف تكون حاله حين يسمع هذا الكلام. لكنه قال بنبرة جادّة وواضحة: "أنا لم أجرِّب، بعدُ، هذه المراحل".

قال أبي، الذي كان يضحك على كلام عمّو: "سورمه، قدِّمي الفاكهة".

وضعتُ برتقالتَيْن في صحن، وقدّمتُهما لآيدين. قلتُ: "وإذا كان ذاك الشخص هو مَنْ يُشجِّعكَ على السكوت، فإن وحدتكَ تكتمل".

قال: "لا يمكن أن يكون غير هذا".

قضينا تلك الليلة، إلى إشراقات الصباح الأولى، نتبادل أطراف الحديث، ولم أستطع، في نهاية المطاف، أن أحسّ هل يميل إليّ أم لا.

قلتُ له: "هل أسكب لكَ شراباً؟".

- لا، شكراً.

- هل تجامل؟

- كلا، لستُ من أهل الشراب.

أحسستُ في داخلي بارتياح لعدم رغبته في الشراب، لكني كنتُ أريد أن أرى هل يكون متحفّظاً أيضاً حينما يكون ثملاً. قلتُ: "حسنٌ، ماذا كنّا نقول؟".

قال: "لا أعرف". فكّ يَدَيْه من بعضِهما، فانتبهتُ إلى بعض الجروح، ثمّ لمّا دقّقتُ النظر رأيتُ أن جِلْد يده متورّم.

- هل تريد الغليسيرين؟

- ليس الآن. سآخذه منكِ فيما بعد.

قال عمّو گالوست وقد أسرف في الشرب: "إذا أحسستَ بالمَلَل، تعال بنا، نلعب الورق".

قلتُ له: "هل تلعب؟".

قال: "لا أعرف اللعب".

خلد الأب والعمّ گالوست إلى النوم على الأرائك، بينما كنّا نحن لا نزال نتحدّث، من دون أن أنجح في النفاذ إلى باطنه. وصباحاً، قبل بزوغ الشمس، أخذتُه إلى الكنيسة، وأدّيتُ صلواتي أمام المحراب، ودعوتُ الله مخلصة أن يحبّني آيدين.

توقّفت الأمطار دفعة واحدة، وتمزّقت السُّحُب إِرْباً إِرْبَاً، وأشرقت على المدينة شمس حارّة وجميلة. تفرّق الذين كانوا يستظلّون بالأسقف وأعينهم مصوّبة نحو السماء، وذهب كلٌّ إلى حال سبيله. وقصد آيدين الدكّان. تردّد في رأسه صوت جرس شبيه بالناقوس، كنتُ أرتدي ملابس بيضاء، بينما هو يلبس بذلة كحلية. فجأة، صدمتْه درّاجة، أردتْه بعيداً، غير أنه استعاد توازنه متدحرجاً على حافّة جدول الماء. أمسك بساق شجرة، نظر خلفه، كنتُ قد ذهبتُ في إثر راكب الدرّاجة.

خرج جزّار من مجزرته، وقال: "الحقْ به. ماذا لو كنتَ سقطتَ في الماء؟".

هزّ آيدين كتفه إيماء إلى رفضه، ثمّ انعطف في شارع الشيخ صفي الدِّين. كان على رأس الشارع محلّ لبيع القبّعات بداخله رجل عجوز بشوارب ملتوية، يضع قبّعة مسمّراً عينَيْه إلى الخارج، ظنّه آيدين تمثالاً،

فأعاد تفحّصه. وطرفت عينا الرجل هذه المرّة. حاول آيدين أن يصل بسرعة إلى دكّان أبيه في زحمة العصر.

ومرّة أخرى تذكّرني.

قلتُ: "العفو، أنا لم أفعل أي شيء".

قال: "لم أكن أريد إزعاجكِ". وأراد أن يقول شيئاً، لكنْ، لعلّه لم يستطعْ.

قلتُ: "أنا لديّ أخلاق عجيبة، لو شاهدتُ أحداً في الشارع لا يقدر على رفع سرواله، فقلبي يودّ لو أذهب، وأرفع سرواله. ولو نسي أحد باب بيته مفتوحاً، أذهب، وأغلقه. في الصباح، أوقظ جميع مَنْ بالبيت، وأُحضّر لهم الفطور، وأساعدهم حتّى يذهب كل واحد إلى عمله".

قال: "مرّت سنتان، لم أرَ فيهما وجهي في المرآة".

قلتُ في نفسي: "لازلتُ ثملة من ليلة أمس، يا لكِ من خمرة عجيبة!".
قلتُ: "كنتُ في الماضي أعمل في متجر أبي. أطحن البنّ، أحضّر القهوة، وأغسل الفناجين. لكنْ، لم يُكتَب لي المكوث هناك مع بابا".

ماسكة المطرقة بيدي، قلتُ له: "استمرّ في عملكَ". جلس إلى طاولته، وحدّق في طريقة مشيتي. قلتُ: "أتعلم، لو ارتديتَ بذلة، ستصير رجلاً أنيقاً".

قال: "أتقصدين أنني لستُ كذلك، الآن؟".

- بلى، بلى. أنتَ رجل الرجال.

- لو نجحتُ في الذهاب من هنا، سأوصي بخياطة بذلة بكل تأكيد.

- أتعرف أن ذاك المعطف لا يناسبكَ بالمرّة؟

- لا. لم يقلْ لي أحد هذا من قبل. لكني تعوّدتُ عليه.

- البسْ بذلة كحلية، وقميصاً أزرق بربطة عنق رقيقة وحمراء، ستصبح رجلاً. يعني أكثر أناقة.

- ليتني أستطيع الخروج من هنا، وأقوم بجولة في المدينة.

- ليس من الضروري أن توصي بخياطته، افتُتح متجر لبيع البذلات الجاهزة، مقاسكَ موجود.

- أحقّاً ما تقولين؟

كم كان محبوباً وبسيطاً وموقّراً! ليلتها، كانت جدّتي ناقمة من أني أفسد عليها نومها. كنتُ أذهب إلى جانب النافذة، وألقي نظرة إلى باحة البيت والأشجار والبنايات النائية التي كانت تبدو، وسط ظلمة منتصف الليل المشرقة، كأشباح شطرنجية. وإلى الأشجار، التي كانت تتراءى كعساكر لعبة الشطرنج، مخروطية الشكل، تذيب المرء خجلاً من نظراتها الثاقبة الماحقة. وإلى غفلة المدينة ونعاسها. ثمّ أعود إلى السرير. اهتزّ قلبي منذ اليوم الأوّل، لماذا لم أذهب في إثره؟ واليوم لا أدري ماذا بوسعي أن أفعل. كلانا وحيدان، لكنْ، لا نجرؤ على الإفصاح عن ذلك. لو لم يكن عمّو گالوست سبباً، ربمّا لم أقصد، أبداً، القبو وأتعرّف عليه. ورغم قضائي ليلة الكريسماس معه حتّى الصباح، لم أفهم منه شيئاً. أخبرني عمّو گالوست أن الربح الذي يحقّقه آيدين يعادل تقريباً ثلث ذاك المعمل الضخم. ومن فرط الفرحة أزال غليونه من فمه، وأنشد: "يا سماء ملأى بالنجوم، يا سماء ملأى بالنجوم"، وجعل يمطط صوته مثل مغنيّي الأوبرا.

قلتُ في سرّي: "لعنكَ الله"، وأخرجتُ الصليب.

تلك الليلة تمشّيتُ برفقة أبي في الباحة، وقلتُ له: "أبي، هل يحقّ لعمّو گالوست أن يستنزف هذا المسكين بهذا الشكل؟".

نظر إليّ والدي بحيرة، وقال: "أنا سعيد لأني أراكِ نشيطة ومتحمّسة، وأعرف سبب ذلك. أنا لم أفهم شيئاً من الحياة. الحرب شرّدتْنا، وأمّكِ أُصيبت بداء الحصبة، وهلكت به، وضاع كل ما كنّا نملك. بالتأكيد تتذكّرين ذلك. لكنْ، يجب أن تعلمي أن استسلامي وفشلي هو سبب بقائنا هنا، وسبب عدم تفكيري في مستقبلكِ. أنا مَدين لكِ. أنا دمّرتُ حياتكِ بيدَيّ. كنتُ، في زمن مضى، أتمنّى أن تذهبي إلى بيتِ بختكِ. لكنْ، اليوم أنا منكسر وراض بحياة رتيبة. لا أعرف إحساس آيدين تجاهكِ، وأدرك جيّداً إحساسكِ. لكني لا أعرف من أي طينة هو. على كل حال، هو مسلم وأنتِ أرمينية. كوني حريصة".

قلتُ: "لا شكوى لديّ من الحياة، لكن قلبي ينفطر حين أرى عمّو گالوست يفني هذا المسكين بالعمل. هل رأيتَ يَدَيْه ليلة الكريسماس؟".

قال أبي: "نعم. وقد زرتُهُ مرّة أو مرّتَيْن. هو شابّ وقور وعطوف. لا بأس من أن تصاحبيه، لديه اطّلاع على الأدب، وإلمام قليل بالفرنسية. كما أنه إنسان مُنظّم".

قلتُ: "لمّا أجلب له الجرائد عصراً يفتح فاه مثل السمكة فوق الماء".

في اليوم الموالي، أخذت جريدة "اطّلاعات" وكتاب ذكريات منزل الموتى، وذهبتُ عند آيدين، وعوض أن أُلقي بهما من السقف، نزلتُ السلالم. حين فتح الباب، امتقع وجهه، وحدّق فيّ.

قلتُ له: "رفقاً بقلبكَ".

قال: "ماذا لو رأوكِ هنا، آنسة؟".

- لن يحدثَ شيء.

- أستحلفكِ بالله أن تغادري المكان. عيب.

- عيب؟ لماذا عيب؟

ثمّ قصدتُ مصطبة عمله على الفور، وجلست على كرسيه، وبدأتُ أتفحّص الأدوات. فحصتُ المنشار من دون غاية. كان للملقاط مقابض حمراء، ينفتح وينغلق مثل فم عصفور. تناولتُ مسامير صغيرة من صندوق، وغرزت اثنَيْن في الطاولة. أخذتُ برغياً، وقلتُ له: "لمَ يصلح هذا؟".

قال: "نُثبّتُ به البرواز".

هشّمتُ بالمسمار والمطرقة برواز صور غير مكتمل.

قال: "ليس هكذا، اسمحي لي".

قلتُ: "أنا أعرف ما عليّ فعله".

كان يرتعش، وعيناه تدوران في حَدَقَتَيْهما، وظلّ وسط الورشة كالمحموم. انطلقتُ، ومشيتُ. كانت قد مرّت سنوات، لم أذهب إلى ذلك القبو. لم يعد مخيفاً بالنسبة إلي، وباتت تفوح منه رائحة جميلة. على عمود منتصب وسط الورشة، عُلّقت صورة إطارها المنقوش غاية في الروعة. نُقشت على محيطه بشكل بارزٍ سمكات صغيرات ملصقات رؤوسها في بطون بعضها البعض. قلتُ: "هل هذه صورة والدكَ؟".

- والد الشعراء كلهم.

- نيما يوشيج؟

- نعم، مات السنة الماضية.

ثمّ نظرتُ مجدّداً إلى الصورة. كان كهلاً غشى أصابعه النحيفة في شَعْره، وصوّب ناظرَيْه إلى الأرض.

- أنتَ تشيخ هنا، امتقعَ وجهكَ. لماذا لا تفكّر في مخرج؟

- أيّ مخرج؟

- اذهبْ خارجاً، واستنشق هواء طرياً، وخذ حمّام شمس.

- إذا رآني أحد...

- أنتَ إنسان رعديد.

- أنا مضطرّ للحيطة والحذر.

- والآن، لمَ ترتعش؟ هل تشعر ببرد؟

- تعلمين أن السّيّد ميرزايان دعمني، ولا أريد أن أقع في حرج معه.

- تقع في حرج؟ وهل اقترفتَ ذنباً؟

- لأنكِ موجودة هنا.

بدأتُ أنفعل، فقلتُ له: هل تتحرّج من وجودي هنا؟

قال: "ماذا سيعتقد هو؟".

قلتُ: "سيكون مخطئاً. إذا...إذا كنتَ متضايقاً من وجودي، فلن آتيَ إلى هنا أبداً".

قال: "إذنْ، سوف أذهب حينئذ إلى المدينة، وأعرّف نفسي للشرطة".

قلتُ: "لماذا؟".

قال: "حتّى تستريحي منّي".

ضحكتُ وضحك هو أيضاً. قال: "أشكركِ على الجرائد والكُتُب التي تحضرينها لي".

قلتُ: "هل انتبهتَ؟ الجرائد لا تختلف عن بعض".

قال: "لابد أنكِ كنتِ تحسّين بالمَلَل حتّى فكّرتِ بالمجيء إلى هنا".

قلت: "كلا. لديّ عمل كثير".

قال: "إذنْ، لماذا هذا الوقت كله...".

تراجعتُ فجأة، وتأمّلت في عينَيْه. بدا لي متضايقاً مُنهَكاً بلا مبالاتي. قلتُ: "أنتَ لم تُوجِّه إليّ دعوة قطّ لزيارة ورشتكَ".

قال: "هي، في الحقيقة، ورشتكم"، ثمّ ضحك. لكن القلق كان يتموّج في عينَيْه.

قلتُ: "نحن لا نعيش مثل الآخرين. تربّينا على الحُرّيّة أكثر منكم. قضيتُ ثلاث عشرة سنة من عمري في إيروان. قُتلت أمّي خلال الحرب. بعدها جئنا إلى هنا عند عمّو گالوست، وبقينا". وأخبرتُه بزواجي السابق، وفَقْدي لزوجي بعد مضي ثلاثة أشهر، وانشغالي بأعمال البيت لسنوات.

- لا يليق بكِ أنكِ كابدتِ هذه المحن كلها.

- ولا يليق بكَ أيضاً مكابدة هذه المحن.

- ماذا بالإمكان العمل؟

- كل شيء. أنا جئتُ إلى هنا، غير أنكَ لا تعير أيّ اهتمام.

- هذا اليوم يوم كبير بالنسبة إلي، آنسة.

وأحسستُ باحمرار وجهه وتوهّجه.

نادى أحدهم: "آيدين".

رجع القهقرى. كان أورهان. وقف أمام خان تجّار المكسّرات يضحك عليه. قال: "إلى أين كنتَ ذاهباً؟".

قال: "لم أكن ذاهباً إلى أي مكان. كنتُ مع أمّي. أحسستُ بالتعب". لمّا كان الاثنان يهمّان بالدخول إلى الدكّان، أبصر إسمايول قادماً نحوه يضحك ويقول: "سيّد آيدين، لديكَ رسالة".

أمسك الرسالة، وناول إسمايول ورقة خمسة تومان، وجلس إلى الطاولة. كان على الظرف ختم الجمعية الأدبية بطهران. لم يكن راغباً بقراءتها، فوضعها في جيب سترته، ونظر إلى الدكّان المقابل الذي أُوقِدَت قناديلُه النفطية.

كان أورهان يترع الأكياس بالمكسّرات، ويضع الظروف بجانب الميزان مرتّبة حسب الحجم، ويجترّ شيئاً. قال:

- ما الخبر؟

- لا شيء.

نظر أورهان إليه شزراً، وقال: "لماذا؟ لابد أن لديكَ أخباراً".

سكت آيدين. كره ملاسنته.

- ألستَ على ما يرام؟

- ليس بي شيء.

- ألا تعاني من الأرق؟!

حمل الأكياس، ووضع الصيعان على بعضها بجانب الميزان، ثمّ ذهب ناحية القنديل. وشرع يُسمعه: "لقد وضعت كُتُبكَ جانباً"، ثمّ أردف: "في نهاية المطاف، تركتْكَ وذَهَبتْ".

قال آيدين: "لا تتدخّلْ في شأني".

قال أورهان: "إلى أين ذهبتْ؟".

أين ذهبتُ أنا؟ لماذا أحرقتْ آيدا نفسها؟ كم كان أورهان يثرثر! أخفى آيدين وجهه في كفَّيْه، ولم يعد يجيب. ومهما فعل، لم يجد سبيلاً إلى الانسجام مع أورهان. لم يكن يبغضه، لكنه كان منه نافراً. قال له مراراً: "لا تتنكّر للأخوّة بسبب المال والمتاع".

أجاب أورهان: "تبّاً لهذه الأخوّة، وسحقاً".

هل كان ممكناً الرّدّ عليه وزيادة فتيل هذه الشعلة؟ قال لي ذات مرّة: "سوف أسكت وأستمرّ حتّى يخضع".

بعد موت آيدا، كنتُ أذهب عنده على الساعة الرابعة عصراً، نتجوّل في المدينة، ونعود إلى البيت. كان عمّو گالوست قد وضع الطابق العلوي تحت تصرّفنا. والآن صار يذهب يومياً إلى أرمنستان على الساعة الرابعة عصراً. يتسكّع بالقرب من الكنيسة، ثمّ يقرع الباب، لكنْ، لم يعد أحد موجوداً حتّى يفتح له الباب. قضى شهوراً يقطع هذه الطريق ذهاباً وإياباً من دون فائدة. أين كنتُ أنا حتّى اضطرّ إلى الذهاب وحيداً إلى بيتهم، والزحف إلى القبو، وأحياناً قراءة كتاب، وقضاء باقي الوقت ممدّداً على الفراش، يرمش عينَيْه؟

ذات صباح من أوّل الربيع، بعد شتاء طويل ومع إشراقة أوّل شمس ربيعية على المدينة، ذهب آيدين إلى الدكّان. كان الباب مقفلاً. سأل الحمّالين عن أورهان، لا أحد كان يعرف مكانه. تمشّى في الدهليز عدّة مرّات، ثمّ رجع إلى البيت. الأمّ أيضاً لم تكن تعلم شيئاً سوى أن أورهان خرج من البيت مع طلوع الفجر.

قال آيدين: "لماذا لم يتركْ خبراً؟".

قالت الأمّ: "أليس معكَ مفتاح؟".

قال آيدين: "لا". وعاد ثانية إلى الدكّان، وقرّر المناداة على الحدّاد، ليكسر القفل. ومع الظهيرة، وبينما كان الحدّاد يكسر الأقفال وسط جمع الحمّالين، قدم أورهان. قال: "ماذا تفعلون؟".

"نُكسّر الأقفال". وأراه أحدها مكسوراً، والثاني في طريقه إلى الكسر.

- لماذا تُكسّرونها؟ المفاتيح معي.

- أخي، عندما تريد أن تذهب إلى مكان، فاترك المفاتيح.

- ليس لديّ حقّ أن أتركَ المفاتيح لأحد.

صاح آيدين: "أنتَ مخطئ" وصفعَهُ صفعة على خدّه.

استشاط أورهان غضباً، وصرخ: "أيّها الأبله المعتوه".

اشتبكا ببعض، وتدخّل الحمّالون لفَضّ الشّجار، لكنهم تأخّروا، لأن أورهان كان مرفوعاً، رجلاه تتحرّكان في الهواء وحزامه وياقته بيد آيدين. وتمكّن الحمّالون بالصخب والضوضاء من إنزاله.

لم يفتح الأخوان، يومها، الدّكّان. وفي الليل قالت الأمّ: "أبوكما في قبره يرتعد وأنتما تتخاصمان. لطالما أوصاكما وتحدّث معكما. لكنكما أغمضتُما العين، وتفكّران فقط في نفسَيْكما".

قال أورهان: "وضع قفلاً جديداً، واحتفظ بالمفتاح في جيبه".

قال آيدين: "دعني أحتفظ بالمفتاح لفترة".

قال أورهان: "إذنْ، قل لي أن أسلّمكَ الدّكّان، وأنصرف".

قال آيدين: "لا يلزم تسليمه، أنا موجود، وأنتَ أيضاً، لكنْ، كنْ رجلاً".

قال أورهان: "بأي حقّ تصفعني؟".

قال آيدين: "حتّى تعمى عينكَ، وتكفّ عن إهانتي. زنْ كلامكَ، والزمْ حدودكَ". ثمّ التفت ناحية الأمّ: "لا يتوقّف عن التباهي، وإصدار الأوامر، يلمزني ويُؤذيني. وأنا مشغول بالحساب والزبائن. لا أستطيع...".

قالت الأمّ: "أورهان، قسماً بالله لأمرّغ شرفكَ بالتراب. أنا سآتي بنفسي إلى هناك، وآمر ببناء جدار وسط الدكّان".

قال أورهان: "أنا تعبتُ وقاسيتُ أربعة عشر عاماً، ولن أسمح لأيّ كان...".

صرخت الأمّ: "كفى، الجمْ فَمَكَ. لا داعي للتبجّح بكَدّكَ وعنائكَ أمامي، وتذكرّ أن ممتلكاتنا كلها هي مناصفة بينكَ وبين آيدين".

قال أورهان: "إنه يُضيّع وقته في الدكّان".

قال آيدين: "لا دخل لأحد. أنا مَنْ أقرّر ماذا أفعل".

قالت الأمّ: "لا أعرف لماذا أصبحتْ حياتنا هكذا، مَنْ كان وراء هذا التشتّت والتشرذم؟ ماذا يقول الناس؟ لا يمكن أن تظلا في حرب مع بعضكما إلى الأبد".

قال آيدين: "مَنْ علّم أورهان أن ينعتَني اليوم بالمعتوه، وعديم الشرف، ويناديني ميرزا(*)؟ وهل ترك لي الوالد شرفاً؟ ألستُ الأخ الأكبر؟".

بكت الأمّ، وبعد ذلك تدهورت حالتها، فأحضر الأخوان الطبيب، ولم تستردّ عافيتها إلا آخر الليل، أرغماها على تناول الطعام بشقّ الأنفس، وفيما بعد طلبت من أورهان أن يُقبّل وجه آيدين. وتعانق الأخوان، وقبّل بعضهما البعض.

قال أورهان: "لن نذهب غداً إلى الدكّان، سنذهب إلى ويلادره، لقد نال منّي التعب".

---

*) ميرزا في الأصل تعني ابن الأمير، أي الأمير. تطوّر استعمالها، لتؤدّي معنى المتعلّم القائم بوظيفة إدارية (أفندي).

قالت الأمّ: "حسن، لتذهبا، اذهبا، واستنشقا هواء نقياً، وعودا بنَفَس جديد، كي تلتصقا بعملكما". لكن اليوم الموالي كان ماطراً أيضاً، فتأجّل الذهاب إلى ويلادره شهراً آخر.

رفع رأسه عن الطاولة، وأشعل لفافة دخان، وتذكّرني مرّة أخرى. تذكّر ذاك اليوم الذي ركبنا فيه عربة، تجرّها أربعة أحصنة، وذهبنا إلى نمين، وكان مقرّراً أن يحضر عمّو گالوست لتعميد أربعة مواليد جدد. عدنا عصر ذات اليوم. وقريباً من أردبيل طلب عمّو گالوست من سائق العربة أن يتوقّف. ترجّلنا، فاشترى عمّو أربعة مشاور من العسل، وجلْنا في الحدائق هناك. طوال الرحلة كانت عينا آيدين مصوّبة نحو الصحاري المترامية، وبين الفينة والأخرى يسترق نظرات إليّ. وحين كانت عيناي تحاصرانه، ينتابه الخجل. صار شَعْره أبيض بغبار وأتربة الطريق. وحين أراد عمّو شراء العسل، تمشّينا قليلاً. أعطاني آيدين وردة شقائق، تفتّحت بوصولي إلى البيت. قالت مدام يوگينه: "ماذا تحملين في يدكِ؟".

قلتُ: "وردة".

قالت: "مَنْ أعطاكِ إيّاها؟".

قلتُ: "شخص عزيز".

أخرجت الصليب، واستبدّ بها القلق. قالت: "هذه ليست أمارة جيّدة، ماما. احذري هذا الشخص".

قلتُ: "واي، لا، لماذا؟".

قالت: "لأنه سيُشرّدكِ"، وأوقفتْ يدها عن غزلها.

قلتُ لها: "لا تخشي شيئاً، ماما. دعي عنكِ هذه الخرافات".

وعادت إلى غزلها، ثمّ قالت: "رغم أن أباكِ وعمّو گالوست لا يتدخّلان في شؤونكِ، لكنْ، كيف ستعقدان على بعض؟".

قلتُ: "الأوّل اختاره أبي وعمّو گالوست، لكنْ، هذه المرّة، الجميع موافق على أن أتّخذ أنا قراري. أكثر من ذلك، فأبي يحبّ آيدين أكثر منّي".

كان أبي يكنّ له احتراماً خاصّاً. وأحياناً، كانَ يُحضر له الشكلاتة والقهوة، وكانا يجلسان معاً يلعبان الشطرنج، ويشتركان الشراب أحياناً. كان ينادينه دائماً "السّيّد آيدين"، وآيدين يناديه "مسيو سورن". ليس كما الأشخاص الآخرين "مسيو" أو "سورن". وحين كان يدخل أبي إلى الغرفة، يقوم آيدين احتراماً له.

قال أبي: "أنا أحبّ السّيّد آيدين هذا أكثر منكم جميعاً".

لكني لن أصدّق أبداً أن يحبّه أحد قَدْر حبّي أنا. ولم تصدّق جدّتي قطّ إمكانية عقد قراني على آيدين. كانت تقول: "لم أرَ علامة حسنة، أخشى أن يُشرِّدكِ".

لمّا كنتُ أحكي هذه الأشياء لآيدين، يضحك ملء نواجذه. قلتُ: "أنتَ شرَّدتَني".

قال: "أحبّ أن تضعي على رأسكِ دائماً قبّعة".

قلتُ: "على عيني، سيّدي".

كنتُ أعتمر، دائماً، قبّعة وردية أو خضراء أو زرقاء، تناسب لون ملابسي.

وكنتُ أرخي بقية شَعْري خارج القبّعة. ذلك اليوم أيضاً كنتُ أرتدي قميصاً أرجوانياً، ياقته ممتدّة إلى ما تحت بلعومي فاتحة زرّ الأكمام، وواضعة على رأسي قبّعة أرجوانية اللون أيضاً. قال أبي: "مثل السّيّدات". وقال لآيدين: "على أمل حُرّيّتكِ".

يوماً بعد ذلك، اشتريتُ لآيدين بذلة كحلية، وطلبتُ منه أن يلبسها ليلاً، ويصعد إليّ.

- لقد أخجلتِني.

- قد لا تروقكَ.

- وهل هذا ممكن؟ وماذا؟ الهدية التي اشترتْها لي زوجتي.

ضحكتُ، وقلتُ له: "أوه، هل يعني أنكَ زوجي؟".

رنا إلى دخان سيجارته، وتمكّنت منه غصّة الحلق. كان قد احترق شوقاً إليّ. كان يستحضر سنوات خلت في أثناء مراسم وداع والده في موسم الحجّ في المحطّة الزجاجية، حين صفعه أوّلاً صفعة صغيرة على خدّه، بعد ذلك قبّله. وقال للأمّ: "بهذه الطريقة، لن ينساني أبداً".

أولى ظهره، كان الزبائن قد تفرّقوا، وأورهان واقف على الجهة الأخرى، ليقول له: "صارت الساعة الرابعة".

رنّ جرس الساعة أربع مرّات.

قال أورهان: "لماذا صرتَ على هذه الحال، آيدين، غارقاً في التفكير، استجمعْ تركيزكَ وانتباهكَ".

قال آيدين: "لا أعلم، أنا ذاهب"، ثمّ انطلق.

قال أورهان: "إلى أين؟"، ومن دون أن ينتظر جواباً، أردف: "إذا صفا الجوّ، سنذهب غداً إلى ويلادره".

أين؟ أرمنستان. قال لي شِعْراً كنت أتغنّى به، دوماً، على إيقاع "طائر السّحر" في أثناء انشغالي بعمل. قال: "للأسف لم أعد كما كنتُ، وإلاّ كنتُ سأقول لكِ شِعْراً كل يوم".

شبّهني بسماء ذات أربعين شمساً، وشبّه نفسه بليلة لا قمر لها. وصفني بشجرة مورقة كثيرة الأغصان وارفة الظلال، ونفسه بشجرة ذابلة الجذور. ماثلني بقمة سبلان البيضاء ونفسه بمتاهات خالية من المارة، يسكنها الليل دائماً.

ظنّ أنني غضبتُ من كلامه هذا. قطبتُ جبيني، وقال: "لا يليق بكِ التجهّم".

ضحكتُ، وقلتُ له: "اضحكْ".

- هذا المطر يهطل من أجلي، لكني نفسي لا أعرف لمَ أنا حَيّ؟!

- هل من الضروري أن تردّد هذا الكلام في اليوم الوحيد الذي تأتي إلى هنا؟

- سورمه، فكِّري بمستقبلكِ، أنا لا أصلحُ لكِ.

أخذتُ أرتعش من الحنق، فاندفعتُ: "إذنْ، اذهبْ، اذهبْ".

- إلى أين؟

- اخرجْ من حياتي.

وطفقتُ أبكي.

- أنا لا أخشى الزواج. أخشى من أن تذلّي مثل آيدا. أنا كنتُ أبحث عن شيء افتقدتُه. إنني أتحوّل، شيئاً فشيئاً، إلى إنسان يفكّر في التفكير. بات التفكير لي عادة وهدفاً. طوال الوقت أميل إلى الجلوس والتفكير، وليس مهماً يَدَاي بأي شيء مشغولتان.

- كنْ مستقيماً. لقد دمّروا حياتكَ، لكنكَ، بعد موت آيدا، شنقتَ نفسكَ. ولا تزال إلى الآن كذلك.

- لم يعد الأمر مهماً الآن. أرخيتُ نفسي كي يأخذني التّيّار. لا علم لكِ أنتِ بما يجري في قلبي.

غير أني كنتُ أعلم. تحوّل إلى إنسان، أهمل حاضره ومستقبله، والتصق بماضيه. صار ميّت القلب، يحبّ الوحدة أكثر من أي شيء آخر. يختار دائماً الهروب بدل المواجهة. وكنتُ، في أوّل الأمر، أظنّه يهرب منّي أنا فقط. حين كان يغيب عنّي، كنتُ أتساءل هل أستحقّ ذلك؟ وهل أُعاقَب؟ لماذا لا يبالي؟ كنتُ على وشك فقدان الثقة بنفسي، وكنتُ أحسّ أنّ الدنيا تقذفني خارج دائرتها. قلتُ لنفسي: "ماتت سورملينا".

لكنْ، فيما بعد، أدركتُ أنّ ذاته ليست كذلك. وكنتُ أعلم أنه يحبّني؛ أرى ذلك في سلوكه، أو كنتُ أحاول استنباط شيء من حركاته، يؤكّد لي حبّه. جاء من طرف المدينة لأجلي، كان يجلس قبالتي لساعات طويلة، يُحدِّثني. يتكلّم عن الماضي، يحكي لي أشواقه؛ لإنسان نحيف سامق يُدعى جمشيد، غرق في شورابي، لعجوز سقطت على موقد جمر، فاحترق قلبها،

للأستاذ ناصر دلخون الذي استسلم، مجاناً، للموت. أو لأيّام الطفولة حين كانت آيدا تقول له: "تعالَ معي، لنتفرّج على معمل المراوح"، فلا يرافقها أبداً، ولم ترَ آيدا، قطّ، ذاك المعمل الملعون.

لمّا كان يشتدّ حنقه، أسمح له بالصراخ. ممّنْ كان مغتاظاً ذلك الغيظ كله؟ من ضابط يُسمّى إياز متزوّج بامرأتَيْن. حين كان يخرج، ليلاً، من بيت الأولى قاصداً بيت الثانية، يظنّه الناس ذاهباً إلى موقع حراسته، فينعتونه بالضابط الشريف والمثابر. أو من امرأة بولونية تُدعى مارتا، تفشت قذارتها، لدرجة أنها كانت تضاجع الرجال تحت الجسر. غير أنه كان دائم الشكوى من أورهان الذي كان يلمزه، ويقدحه. وكلّما تصرّف هو بأناة وهدوء، ازداد سمّ أورهان الزعاف. قال: "في نهاية المطاف، سوف أنتزع منه سمّه".

عصراً، كنتُ أزور دكّانهما. وصار هذا دأبي. كان عليّ الذهاب، وإحضاره. قلتُ: "حين يُخبرونكَ، ذات ليلة، بموت سورملينا، اسهرْ في عشقكَ حتّى الصباح".

ضحكَ، وقال: "مع مَنْ؟".

- مع مَنْ تريد؟! مع أيّ امرأة، مع ماريتا حتّى.

- أنتِ أيضاً تجرحين باللسان، سورمه؟

كنّا بالضبط قبالة متجر والدي. توقّفت للحظة. قلتُ: "هل تعرف شيئاً؟" دخلنا إلى دكّان أبي. احتسينا القهوة، وعدنا إلى البيت. قال والدي: "السّيّد آيدين، كشْ مات".

قال آيدين: "تعالي باكراً".

انطلقْنا. وضعتُ يدي تحت ذراعه، وقلتُ: "حسنٌ، إلى أن نصل، اقرأ شِعْر الأيّام واللحظات".

قال: "إلى أن أصل، سأقرأ شِعْر الأيّام واللحظات، إذا تذكّرْتُه". لمّا كان يطبق عينَيْه، كنتُ أهزّ رأسي، مبتسمة، وأتأمّله. لكنه لم يكن قادراً على إغلاق عينَيْه. كان بالممرّ اكتظاظ وزعق. العربات اليدوية، والأجساد، والأسوأ من ذلك كله الأطفال الراكضون بسرعة. كان يودّ لو يتمشّى في الصحراء، في مكان لا يوجد به أحد، حتّى يتمكّن من إغلاق عينَيْه والمشي. لم يكن يعلم لماذا يودّ قلبه، باستمرار، لو يلاطفه أحد. ولم يكن يعلم لماذا يحب أن أكون حاضرة في ذهنه دوماً. بيد أنه كان يعلم أنه حين يستيقظ من النوم، يتذكّرني، وأني أحبّه، وأني غير موجودة.

كان يخشى النوم ليلاً. لأنه يحلم بي، بعض المرّات، وحين يفيق أكون قد رفرفتُ، وغادرتُ. كان يخشى النوم، لأنه كان يعلم أنه يهبُّ فجأة وسط النوم، ويجلس وينظر إلى الأنحاء، ثمّ يضجّ بكاء مثل الأطفال اليتامى في تلك الحجرة الإسمنتية الباردة. يشهق بحسرة كبيرة، وغمّ عجيب، يمتقع لونه، وترتعش أطرافه. حينها تأتيه الأمّ بأعشاب ساخنة، وتُكلّمه، وتُلحّ عليه بتغيير الغرفة، لكنه كان يقول: "سأبقى هنا".

قال: "لماذا أفكّر في هذه الأشياء؟ إذا تذكّرتُ، سأقرأ شِعْر الأيّام واللحظات". كان شِعْراً باللغة التركية، له إيقاع جميل. حين عبر مفترق طُرُق النبع، استحضره، وقرأ:

"أَعْلَمُ جَيِّداً أَنَّ الحياةَ مَسْرَحُ لَعِب، بأكمَلِها،
أَعْلَمُ جَيِّداً،

لكن، اعْلَمْ أَنَّ الجَميعَ لمْ يُخلَقُوا
من أجل الأَلعَاب الحَقيرَة".
ومهما فكّر وعصر ذهنه، لم يتذكّر بقيّته. بضع أبيات أخرى:
"فَكِّرْ في أَيَّام كَئِيبَة
في أَيَّام..."

ثمّ لم يستطع الإكمال. لكنه لم ينسَ الجزء الأخير من الشِّعْر:

"لا تَنْسَ
أنَّ الأَيامَ واللَّحظَات لاَ تَعُودُ أَبَداً
فَكِّرْ في الدَّهْر، وفي لَيَالِيه الدَّامِيَة الظاَّلِمَة:
شتَاءٌ طَوِيلٌ وَعَصِيبٌ يَنْتَظِرُنا
شِتَاءٌ يَتَأَبىَّ النِّسْيَان
مَاذَا عَسَايَ القَوْلُ أَكثَر
غَيْرَ أَلاَّ تَنْسَ مَلاَبِسَ شَتَائِك"

صفّقتُ له. كنّا في زقاق أرمنستان، يقابلنا مبنى الكنيسة، ولا وجود لأحد. التفت إلى الخلف، كلا، لا أحد. وبينما أصفِّق له، قبّلتُه. قلتُ: "قبّلتُكَ قرب بيت الله"، وقلتُ: "أنتَ مسيحيَّ". وتكرّر صوتي في ذهنه عدّة مرّات. وقلتُ ثانية "أنتَ مسيحيَّ".

عندما وصل إلى باب البيت، التفت. ومهما فكّر كيف ومن أين طوى هذه الطريق كلها، لم يتذكّر. رأى نفسه واصلاً فقط. فتح الباب بلا صوت، ومن دون أن يريد الإعلان عن حضوره كباقي الرجال، قصد القبو. لم تكن الحجرة، المدهونة جدرانها بالإسمنت الغامق، تحتوي على زينة سوى

صورة عائلية. الأب جالس على كرسيّ، ومن خلفه الأمّ متلفّعة بشادور الصلاة الأبيض المزركش بورود صغيرة. نحيلة كما العادة. آيدين يجلس على اليمين وأورهان على اليسار، وخلف الجميع كان نصف وجه آيدا يتراءى، وقد تكوّرت في شادور أسود. كم كانت تخيط الستائر جميلة، وتُعلّقها بروعة! ثمّ تقول على لسان سهراب: "خالو آيدين، هل صارت جميلة؟".

أقفل باب الغرفة، وسحب الستارة، ثمّ أوقد لفافة دخان، وتمدّد فوق السرير. جَهِد في أن يفكّر فيّ أنا أوّلاً، ثمّ في آيدا. لكنه لم يستطع. كانتا تأتيان معاً، وتدوران معاً، فيزدحم ذهنه، وبعد ذلك، لا يبقى أحد هناك مثل صحراء قاحلة. في الخارج أو في أثناء قراءة كتاب، كان يستطيع بأريحية أن يتذكّر مَنْ يشاء. يتذكّرني أنا، وآيدا، والأمّ. وحتّى جمشيد الذي غرق في شورابي، وعذَّبت روحُه آيدين والأمّ وأورهان، سنوات وسنوات. كانت الأمّ تقول: "يُخيَّل إليّ على الدوام أنهم سيطرقون الباب. أخاف حين أفتح الباب أن أجدَ جمشيد واقفاً يقول: السلام عليكِ، أيّتها الأمّ. رجاءً، نادي على أورهان".

- أورهان غير موجود.

- إذنْ، قولي لآيدين أن يأتي.

كانت تقول: "أخشى أن يأتي في طلب أحدكما، ولن أقدر على رؤيتكما مجدّداً، لأن الأموات يأتون، أحياناً عند الأحياء، ويأخذون واحداً منهم".

فيقول أورهان: "إذا جاء في أيّ وقت، قولي له يُوسُف موجود. فليأخذه، ويُريحنا منه".

قالت الأمّ: "تو را سنه نه؟" [وما شأنكَ أنتَ؟]

قال آيدين: "سيجدها ذريعة حتّى يعود أكثر من مرّة. كنْ حذراً، أورهان".

بعد ذلك، أحسّ بشقيقته، وارتعشت يداه. تذكّر آيدا. لا يعرف لماذا يُخيَّل إليه أنه رأى مشهد احتراق أخته. كان يرى بوضوح النار وقد اتّقدت في بَدَن آيدا بالكامل. كان الوقت ليلاً والشارع خلو من المارّة، حتّى الكلاب انعدمت، صوتها وحده ما يصل من الأفق البعيد. سهراب جالس خلف الباب المقفل ينتحب ويصيح. وآيدا تشتعل ناراً وهي تركض، لكنْ، سرعان ما تعود صوب الولد، كي لا يسقط في جدول الماء، أو تمُزّقه الكلاب. ثمّ فُتح باب المنزل، وركض آباداني خارجاً. كان الوقت قد تأخّر، وصارت آيدا منكمشة.

ثمّ تذكّر آباداني، وقد لبس السواد ويذرف الدموع، بشعره الأشعث وحالته المضطربة، يتبع الجنازة إلى أردبيل. ولا يقوى من شدّة الخوف على إظهار نفسه. بعد ذلك أخذ ولده سهراب، وذهب إلى أمريكا. بعد مرور سنة، أرسل رسالة، يعتذر فيها للوالد والأمّ وآيدين وأورهان، وكتب أنه سيردّ دَيْن آيدا بالاعتناء بذِكْراها، سهراب. وسيصرف همومه وأحزانه كلها، من أجل سهراب، ولن يعود إلى إيران أبداً. لكنْ، لا أحد فهم، في نهاية المطاف، أي بلاء حلّ على آيدا حتّى اضطرّت لإحراق نفسها. حتّى الصحف لم تكتب شيئاً.

أشعل سيجارة أخرى. بعد لحظات، فُتح باب الغرفة، ودخلت الأمّ. قالت: "لماذا لا تصعد إلى أعلى؟"

- لستُ على ما يرام.

- ماذا حدث؟ هل تلاسنتَ مع أورهان مجدّداً؟

- كلا، أمّي. ليس لديّ مزاج رائق.

- إذنْ، ماذا وقع؟ قلْ لي.

- تذكّرتُ آيدا.

- آيدا. مسكينتي آيدا.

- لماذا حصل هذا؟

- ليتَني كنتُ أعلم. ليتَني كنتُ أدرك معاناتها. لكن كل ما حصل كان بسبب آباداني. لم يكونا، مؤخّراً، على وفاق.

لزم كلاهما الصمت للحظات. سمّر آيدين عينَيْه في السقف، وفَقَدَتَا تجانسهما. وجلست الأمّ بالقرب من السلالم. قالت: "هذه الغرفة كئيبة للغاية، يسقم فيها السليم، لماذا لا تريد الرجوع إلى الغرفة السابقة؟"

- أكره ذلك المكان.

- هل تحبّ أن أرتّب لكَ الغرفة الكبيرة؟

- لا، لا، أمّي. سأبقى هنا.

- لكنْ، لماذا صرتَ هكذا؟

كان آيدين يريد أن يبقى وحيداً، كي يتذكّرني. كان غاضباً من نفسه بسبب أنه لا يقدر أن يبقى في مكان خارج البيت لمدّة طويلة. قال: "كيف صرتُ أمّي؟" وتأوّه مع تنفّسه.

- غارقاً في التفكير من الصباح إلى الليل، مُنطوٍ منعزل. ألا يجب أن

أعرف بمَ تفكّر؟ هل تريد أن أكاتب خالكَ ناصر حتّى تنتظمَ حياتكَ؟ ...

- أستحلفكِ بالله، أمّي، لا تعيدي هذا الكلام.

- إنكَ تبيد نفسكَ.

- الآن ليس لديّ قرار.

وجذب نفساً محكماً من سيجارته، وحكّ عقبها في المنفضة المثبتة على صدره.

- بالتأكيد، تريد أن تبقى إلى آخر حياتكَ، تفكّر في سورمه، وتجلس تحت قَدَمَيْها.

خشي آيدين لو قال "نعم" أن تنبري أمّه لنُصحه: "لا تفكِّرْ في الأموات". لأجل ذلك، آثر السكوت، وهام في ذهنه المزدحم بحثاً عنّي. لمّا كانت أمّه تتحدّث كان يستطيع تَذكُّري، وتذكُّر طريقة مشيتي وتمرجحي، وتذكُّر تلك الليلة الشتوية، وتذكُّر عيد النيروز حين صرتُ خضراء تماماً. قال: "ألم تكونوا تحتفلون بالعيد؟" قلتُ له سنحتفل به من هذه السنة، ولا تنسَ العيدية. قال ماذا تريدين؟ قلتُ قبِّلني مجدّداً. فقبّلني. قلتُ: "البُرْقُوْق"، وضحكتُ.

انطلقت الأمّ، وكلّما خَطَتْ خطوَتَيْن، أو وصلت إلى ركن من أركان البيت، وجدت كُتُباً مُكوَّمة ومتراكمة، فترجع إلى الخلف، وتُلقي نظرة على آيدين، ثمّ تغدو وتروح. قالت له: "أتعلم أنكَ حين تُعذِّب نفسكَ بهذه الكيفية، فإنكَ تُعذِّب روحها أيضاً؟".

- سورمه ليست ميّتة، أمّي.

- أنا لا أقول انسَها، كلا، أحِبَّهَا وعِشْ على ذِكْراها، لكنْ، اهتمّ قليلاً بنفسكَ.

اقتربت من حافّة السرير، وأردفت: "أورهان إنسان لجوج وعبد للمال، مثل أبيكَ غفر الله له، يفكّر فقط في الربح والعمل، وفي بزره. ويدعو الله ألا تكون أنتَ كي يستحوذ على الحياة كلها. لكني أريد، من اليوم، أن تكون حياتكما صافية نقية، لا تُظلَم أنتَ، ولا أورهان. لكنكَ اتّخذتَ الحياة لعبة. لو أسلمتُ رأسي إلى الأرض وأنتَ بهذه الوضعية المزرية، لا أعلم أي بلاء سيصيبكَ. كابدتُ هذه السنين كلها، وتجرّعتُ النَّكَد مع أبيكَ من أجلكَ، لماذا يجب الآن أن أتحمّل آلام ذاك المشؤوم؟ لأنكَ لا تريد أن تدافع عن حقّكَ، ما إن تسمع كلمة صغيرة حتّى تعتزلَ وتنسحبَ، لماذا؟".

أشعل آيدين سيجارة أخرى، وظلّ، كما كان، مُحدِّقاً إلى السقف. وأنا ضعتُ وسط تلك الجموع كلها. والناس جميعهم ضاعوا. مهما فكّر وتدبّر لم يتذكّر ماذا قلتُ له باللغة الأرمينية. أزال دخان الغرفة، وأزاحت الأمّ الستار، فتح الباب، وقال: "حاولي ألا تفكّري في الماضي، من أجلي".

استوى واقفاً، ونظر إلى الخارج. كانت الغربان قابعة على أغصان الصنوبر المبتورة، من دون حراك، وكأن الزمان عاد إلى سنوات منصرمة، ومكان ما يصيبه القحط. كان آيدين يبلغ الرابعة عشر من عمره، حاملاً محفظة المدرسة البنّيّة، جالساً على درجات الممرّ السفلي، يأكل الخبز وشيئاً آخر. ثمّ ذهب إلى الدّكّان. لم يكن الوالد يسأله عن الدراسة والوقت. لكنه كان واثقاً من أنه يدرس جيّداً. كان فكره منصبّاً على ترغيبه بالدّكّان وحثّه على التجارة. قال: "اشغلْ نفسكَ دائماً بعمل، على الجسم أن يتعوّد".

كان آيدين يعمل في الدكّان في أوقات العطلة. يُنظّف الأرض، ويُغلق ثقوب الفئران بالجبس والإسمنت، ويُرتّب بطائق الأسعار، أو يرشد الزبائن بينما أورهان تحت طاولة الوالد، يصنع بالخشبة والمسمار صندوقاً وكرسياً صغيرَيْن. وكان الأب ينحني أحياناً، ويراه منشغلاً بتسمير خَشَبَتَيْن. قال: "ماذا تفعل، يا ولد؟".

قال أورهان: "أصنع عشّاً".

قال الأب: "لمَنْ؟".

قال أورهان: "للعصافير".

قال الأب: "لماذا لا تعمل، يا ولد؟".

ضرب أورهان ضربات بالمطرقة، وقال: "أوليس هذا عملاً؟".

ضحك الأب، وملأ قبضته بالفستق، وناولها له تحت الطاولة. قرّب أورهان صندوقه الصغير، كي يُفرغ الوالد فيه قبضته. وكان آيدين في الجانب الآخر من الدكّان يشاهد، والوالد يعلم أنه يرى. تلك الليلة قال للأمّ: "إنه يتمتّع بغرور عجيب. مع أنه يعمل جيّداً، ويدرس جيّداً، لكنّ غروره عجيب حتّى إن النفس لتهوى تكسير هذا الغرور".

قالت الأمّ: "كم صرتَ تُدخّن؟ لم تكن مدخّناً من قبل".

قال آيدين: "لا أعلم"، وأوقدَ عود ثقاب. حاول تذكّر ذلك اليوم الذي قلتُ له فيه: "العفو، مَنْ أكون أنا حتّى أعلّمكَ ماذا تفعل؟ أريد فقط أن أراكَ مرتّباً".

قال: "هذه الليلة أريد أن أستأذن أباكِ في الزواج بكِ".

- أنا لستُ قَدْرَ المقام.

- أنتِ حياتي كلها.

- سنتزوّج مرَّتَيْن: مرّة في الكنيسة، وأخرى أمام المحضر.

- أية وردة تحبّين؟

- ماذا تقصد؟

- أحبّ أن أهديكِ باقة ورد.

كنتُ أحبّ أنواع الورود جميعها. كنتُ أحبّ الورود المشكّلة.

سَحَبَ نَفَساً طويلاً من السيجارة، وقال في نفسه: "يا للخسارة!". ثمّ نظر إلى أمّه. أراد أن يُركّز انتباهه مع الأمّ، كي يقول أو يسمع شيئاً. لكنه عاد وتذكّر وجهي الممتقع، وحالة الهُواع التي كانت تلازمني. صار سواد عينَيّ أكبر فأكبر حتّى غطّى وجهي كله. وفي ذلك السواد، لم يخطر بباله شيء ماعدا آيدا، التي هي الأخرى ما إن تكاد تظهر حتّى تنكمش في ألسنة اللهب.

طأطأ رأسه، ورأى عينَيّ من جديد، ثمّ وجهي الذي كان بلون السفرجل، أو شحمة أذني التي كان باستمرار يُدغدغها بلسانه، فتلفّني ارتعاشة. أخذ قلماً، جوهره أسود، وقال: "دعيني أنسخ الخال الموجود فوق شَفَتَيْكِ". كان ثمّة خالة سوداء صغيرة في أعلى شَفَتي، ورسم آيدين واحدة أخرى في ناحية اليسار. تألمتُ، لكني لم أنبس بحرف. تركتُه يُلوِّنها جيّداً، ثمّ نظرتُ في المرآة، وضحكتُ.

قال: "ليست جيدة. امسحيها. تعال،ي أمسحها أنا".

- اتركها، فيما بعد.

- لا، أنا أخطأتُ. الأشياء الجميلة لا تُنسَخ.

- أرجوكَ، لا تمازحني.

- ألا تثقين بي؟

وفي اللحظة ذاتها، ارتسمت أمام عينَيْه صورة ناصعة لأمّه، وقد سقط شادور صلاتها على كتفها، وهي جالسة على آخر درج في غرفة القبو، من دون أن تتكلّم بكلمة.

سَحَبَ آخر نَفَس من السيجارة، وعصر دماغه، فلم يستحضرني إلا بقماش أبيض، التحفَ به ذاك الجسم الظريف، كما ينعتُهُ هو. والآن، صار جسداً منتفخاً مزرقّاً ممدّداً أمام ناظرَيْه على رخام المستشفى البارد. قال: "ليت كان بمقدور الإنسان مصارعة الموت".

- كيف؟

- بشكل لا يقبل الموت، بجهد جهيد.

- غير ممكن. الموت ليس دائماً على الصورة نفسها. كل مرّة يتّخذ شكلاً جديداً.

أراد في ذهنه أن أقول له إنكَ تحلم. وأنا قلتُ: "إنكَ تحلم". ألقى بعقب سيجارته، وبلّل أصابعه بلسانه، ولاحظ أن أمّه ترقبه.

قال: "الدنيا جوفاء، ولا قيمة لها".

قلت: "قلْ كلاماً جميلاً. الدنيا ليست بلا قيمة. الشيء الصعب فيها هو العيش بإنسانية، فقط".

قال: "نعم". وكان يريدني أن أقول: لا، الدنيا ليست بلا قيمة، وليست صعبة، وإنكَ في حلم. وكذلك قلتُ: "الدنيا ليست بلا قيمة، وليست صعبة، وإنكَ في حلم". قلتُها متهجّية، ثمّ ضحكتُ. كان يتمنّى لو أجلس على الأرجوحة، وأضحكُ. وكذلك فعلتُ، جلستُ على الأرجوحة، وضحكتُ، وتلاعبَ الريحُ بشَعْري. قلتُ: "ألا تتأرجح؟"

قال: "لا".

كان جالساً على حافّة الحوض يرتدي ملابس خضراء غامقة، وكان الجوّ ضبابياً، والمطر يريد أن يهطلَ. قلتُ له: "لا، والله؟".

قال: "لا، والله".

كانت الأمّ تقول ما تودّ قوله، ثمّ، كما العادة، تتفرّغ للطبخ والغسيل. وما إن يبدأ آيدين بالتفكير في الأب، كما لو كان عائداً بالأمس القريب من الدكّان إلى البيت، بذاك الجسم الصغير والقبّعة السوداء والمعطف الأخضر الفاتح، متثاقلة خطواته في السلالم، حتّى تختفي، فجأة، من ذاكرته تلك الأبّهة العجيبة والحضور الدائم، وتستحيل بضع عَظْمات مدفونة تحت التراب في المقبرة القديمة بالمدينة. كان يحسّ بالإحساس ذاته مع أيّ شخص يفكّر فيه. كانت الصورة تطير من ذهنه، في الحال، ويحتلّ مكانها شيء آخر. حتّى صورة وجهي الممتقع لم تكن تثبت للحظة، كي يستطيع النظر إليها جيّداً في ذهنه. في السابق، لمّا كان يتذكّر شيئاً، يظلّ ساعات يفكّر فيه، ويصنعه، ويُخرِّبه، ويُكلِّمه. لكنْ، خلال الشهر الأخير، وخاصّة في

الأيّام الأخيرة، تداعى إلى ذهنه كل شيء، كان يريده؛ فكّر، إذنْ، في الأب ثمّ في طفولته، حين كان يتشقلب من شرفة الطابق العلوي، ويغطس في البركة، وفي أبيه الذي يريد إخراجه من البيت. رأى في ذهنه أيضاً طفولة ذاك الأخ العليل وأوهامه، والطائرات الروسية والمظلّيّيْن الزّرق ينسلّون من عُلُوّ السماء رويداً رويداً، ربّما ليعدموا ذاك الطفل ذا العشر سنوات. كان الأب يذهب ويأتي بملابس أخرى بحثاً عنه. ليته استطاع قول هذه الأشياء كلها للأمّ. لم تكن الحياة، دوماً، أكلاً وشرباً. بل كانت هناك أشياء لطيفة وصغيرة، لم يكن يستطيع قولها للأمّ.

قال الأب: "لمَ لم تحصلْ على الرتبة الأولى؟".

- حسنٌ، جئتُ ثانياً.

- ألا تستطيع أن تكون الأوّل؟

- بلى، أستطيع.

- إذنْ، كنْ.

كان يُحضّر لآلام بطنه وآلام أرجل الأولاد مشروب أفلاطون(*) . يدقّ بالنارجيلة نوى الفستق والبندق والجوز واللوز، ويُحلّلها في الحليب، ويصبّها في الكؤوس المتوالية. كأن ذلك كان بالأمس القريب. قال: "تعالوا، لتشربوا". كأس لآيدين، وكأس لآيدا، وكأس آخر لأورهان الذي كان جالساً في حضن الوالد، وتبوّل هناك. قال الوالد: "لمَنْ يشبه هذا الولد؟" واستشاط غضباً. غسل رجلَيْه بالخارج، وبدّل سرواله، وأعاده إلى مكانه. كانت الأمّ

*) مشروب يُحضَّر من عصير الفواكه الجافّة المقوّية كالفستق والجوز والبندق وغيرها للتداوي من العقم والضعف الجنسي وأمراض أخرى.

منهمكة بخياطة سراويل للأولاد، وآيدا تُنجز واجباتها. قالت الأمّ: "أخلاقه تشبهكَ، لكن تبوّله، لا أعلم".

قال الوالد: "حسنٌ، قومي الآن، وبدِّليه. ابن حمار، عمره ستّ سنوات، ومازال....في سرواله".

كانت مدفأة حديدية تئزّ في الناحية الأخرى، ودخانها يصّعّد في السماء. قال الأب لآيدين: "إذا حصلتَ على الرتبة الأولى، سوف أشتري لكَ درّاجة".

درس تلك السنة ليل نهار، طُبِعَت صورته، ونُشرت في الجرائد من قِبَل دائرة الثقافة، وضع الأبُ الصورة تحت زجاجة طاولته، وكان يُريها لزبائنه: "آيدين أورخاني، أترى؟ بمعدّل عشرين".

لكن الأب لم يشترِ درّاجة لآيدين، لا تلك السنة، ولا في أيّ سنة أخرى.

رفع رأسه. كانت الأمّ قد انصرفت. عَلِقت في ثنايا شاربه رائحة دخان قوية وعطنة. لم يكن يعرف سبب رجوعه إلى البيت. قام ليذهب إلى الدكّان، فاندفعت الأمّ من نافذة المطبخ: "إلى أين؟".

- إلى الدكّان.

- لقد حلّ الليل، أورهان سيأتي الآن، وأريد أن أغرف العشاء.

رجع إلى القبو. كان صوت الأذان يُسمَع في سكون قلب الليل، وأيضاً صوت أزيز معمل المراوح غير المفهوم. كانت النوبة الليلية. وكان المعمل يبدو كَمَنْ يريد أن ينغرس في الأرض عميقاً بالشكل نفسه الذي انطلق به، لكنْ، انقضت سنوات وهو على الحال نفسها، لا يغوص أعمق من ذلك،

ولا يصعد إلى أعلى. وحدها شاحنات الشحن "جمس" التي كانت تصعد المرتفع وتهبطه ناقلة المراوح.

تمدّد على السرير، وطفق يرقب السقف. كان يحبّ پوتشكا أكثر منّي أنا. لكن رأيه تغيّر فيما بعد، حين بدأتُ أتردّد عليه. قال: "كم تبلغين من العمر؟".

- كم يليق بي؟

- اثنتان وعشرون.

- لستُ شابّة إلى هذه الدرجة.

- كم عمركِ؟

- أكبركَ بثلاث سنوات.

- كم عمري أنا؟

أخبرتُهُ بعمره، فابتهج، وقال منتشياً:

- من أين تعرفين؟

- الغراب.

وضحكتُ، وراق له، وضحكتُ مجدّداً، من أعماق القلب، وانتشى هو من أعماق القلب، ولم تنته هذه النشوة. كان يحبّ أن أظلّ ضاحكة هكذا. لكني قلتُ: "مسيح قوم التاتار".

والآن، أنا تائهة في سقف الغرفة. أغلقَ عينَيْه، وأرادني أن أضحك مثل ذلك اليوم، فضحكتُ. وبعد ذلك، وقفت آيدا في مكاني؛ بشادور أسود،

أخفى وجهها بالكامل. قالت: "أخي، أفديكَ بالغالي، ما الغصّة التي تعصر حلقكَ؟ أتريد أن تأتي وتبقى معنا في آبادان؟".

قال: "لا، آيدا، أنا ذاهب. يجب أن أذهب من هذه المدينة قبل أن أضيع".

قالت آيدا: "لماذا؟".

لكن هذه الأمنيّة ظلّت حبيسة في قلبه، ولم يرَ أبداً آيدا حتّى يقول لها: "أَحْرَقُوا كُتُبي ومذكّراتي وأشعاري، أتفهمين آيدا؟ أشعاري الغالية".

قال آيدا: "الموتُ لي!".

قال آيدين: " مع من جئت الآن؟".

- وحدي.

- وحدكِ؟ وأين سهراب وآباداني؟

كانت آيدا تركض، تحترق وتركض. أينما ولّت وجهها تحترق. تصرخ وهي تذوب في ألسنة النار. وطفلها يبكي قرب باب البيت. فيما بعد، حفروا قبرها تحت شجرة سرو، كان أكثر خلوة من سائر الأمكنة. وواروها الثرى.

وصلتُ أنا للتّوّ، وقلتُ له: "ماذا أفعل فيكَ؟".

قال: "قوليها، قوليها ثانية".

قلتُ بشكل متقطّع: "أنا، ماذا، أفعل؟"، تذكّر جيّداً حين كنتُ أفتح قبضة يدي مثل تويجية الوردة، وأقول: "ماذا أفعل أنا؟".

قال: "اجلسي هنا، كي أنظر إليكِ".

قلتُ: "أوه، إنكَ تقتل المرء".

قال: "لنذهب، الجميع بالانتظار".

وانطلقنا. كان بعض الجيران بانتظارنا أمام باب الكنيسة، وبوصولنا صفَّق الجميع، فدخلنا إلى الكنيسة، وتوقّفنا أمام المحراب، وعقد القسّيس زواجنا.

في اليوم الموالي، ذهبنا أيضاً إلى مكتب الأحوال المَدَنية. حضر أيضاً الأب وعمّو گالوست والجدّة. جلس رجل دِين يعتمر عمامة بيضاء إلى الطاولة، وبدأ يتفحّص هويَّتَيْنا.

قال: "عفواً، هل أنتِ مسيحية؟".

قلتُ: "نعم".

قال: "والعريس؟ هو مسلم، بإذن الله".

قال آيدين: "نعم، أنا مسلم".

قال الرجل: "لا يجوز. لا يجوز عقد زواجكما".

قلت: "إذنْ، ماذا نفعل؟".

قال الرجل: "أسلمي".

قلتُ: "أسلم".

قال: "قولي أشهد أن لا إله إلا الله"، وقلتُها. قال: "قولي أشهد أن محمّداً رسول الله"، وقلتُها. قال: "قولي أشهد أن علياً وَليُّ الله"، وقلتُها أيضاً. قال: "مبروك". ثمّ قرأ خطبة العقد.

طُرق باب البيت، وبعد لحظات، قالت الأمّ: "العشاء جاهز".

صعد إلى أعلى، وجلس بجانب السّفرة. قال أورهان: "هل تحسّنتَ؟".

- أفضل.

- يجب أن تستريح، إذا كان الجوّ غداً مشمساً، سنقصد معاً ويلادره. نُغيِّر الجوّ، لعلّ حالتكَ تتحسّن.

- لقد طفح الخراب، أخاه.

قالت الأمّ: "كُلْ".

تناول لقيمات، وعاد إلى القبو. وفي الطريق، سمع أورهان يقول: "في الصباح الباكر".

- حسنٌ.

زحف إلى غرفته، وانهال على السرير. رآني وقد سقطتُ ممدودة على فسيفساء باردة مغطّى جسدي بقماش أبيض. سعى ألا أحضر إلى ذهنه بهذا الشكل. لكني حضرتُ بالهيأة نفسها. هو كان نائماً، وأنا كنتُ قادمة.

أَرْكَبَونا عربةً بحصانَيْن، وجالوا بنا المدينة، أمسك أبي يَدَي كلَيْنا، وقبّلنا، ثمّ ذهبْنا إلى غرفتنا.

قال: "أبحث عن نفسي في الماضي. كنّا نملك أشياء، افتقدناها الآن".

لم يكن هناك أحد، كي يجيبه. فنادى: "سورملينا!" حتّى أردّ عليه: "روحي".

قالت مدام يوگينه: "حلمتُ بكِ ليلة أمس".

قلتُ: "ماذا كنتُ أفعل؟".

قالت: "خير. رأيتُ أن السّيّد آيدين يُعلّق في أذنيك أقراطاً جميلة من ذهب وفضّة".

أخبرتُ آيدين بأني حامل، فاشترى لي في اليوم نفسه زوج قراط بيضوي من ذهب وفضّة، وعلّقهما بنفسه في أذنيّ، وتنحّى جانباً، وشرع ينظر إليّ بشكل، دفعني إلى وضع رأسي على صدره.

بعد ذلك، سافرنا، ولم يبقَ أحد بالبيت. بقيت حاملاً لسبعة أشهر. قلتُ له: "هذا طفلكَ. أتريد ذَكَراً أم أنثى؟".

قال: "أنثى".

في اليوم التالي، تحرّكنا.

تقدّم الطبيب بوزرته البيضاء ونظّاراته ذات الإطار الأسود الصغير: "رجاءً".

ظلّ آيدين واقفاً. أزاح الثوب الأبيض من على وجهي. وحدّق في الوجه، وأمعن النظر. كانت زرقة تسجّي أسفل العينَيْن والجبين، والوجه أصفر ومنتفخ جوانبه مزرقّة، والشَّعْر مبلّل، وغير ممشوط.

قال الطبيب: "الجثّة الوحيدة التي تسلّمناها خلال هذه المدّة هي هذه".

كان قلبه يخفق بشدّة ويداه ترتعدان. قال: "ليست هي دكتور، صدِّقني، أنا واثق من أنها ليست هي".

بعد سبعة أشهر بالضبط، أُقفل متجر سورن للقهوة، ولم تدقّ أجراس الكنيسة. قال: "إذنْ، أين أنتِ، سورملينا؟". بحث في كل مكان؛ في

المستشفيات، ومركز الشرطة، والمقبرة. وصلت قَدَمَاه إلى كل مكان، اعتقد وجودي فيه.

فتحتُ قبضة يدي اليسرى، ووسطاي مزيّنة بخاتم جوهره أزرق فيروزي، دسستُها في ثنايا شَعْره، وقلتُ: "عزيزي، عزيزي".

قال: "أين أنتِ؟"، وبكى.

قلتُ: "عزيزي".

رفع يده فوق رأسه، وأدار مفتاح الكهرباء. رآني في الظلمة أغمس يدي في شَعْر رأسه، وأرادني أن أقول له: "عزيزي".

قلتُ: "عزيزي، عزيزي".

الحركة الرابعة

لو لم يكن إسمايول، مَنْ سيناديني "سوجي"؟ أورهان أيضاً يناديني سوجي. وينعتني بـ "ابن الغول". ماذا تفعل هنا، يا ابن الغول؟ أشتهي ارتشاف كأس شاي، أخي. فكّر في الحياة، في الأيّام الكئيبة. علّقتُ القنديل على ذروة منخري. قلتُ طق، فتكسّر. أخي، نذرتُ شمعة وقنديلَيْن، كي لا تُصاب بالزكام. واحد هنا، والآخر هناك. هل أنتَ موجود، أخي؟ قلْ. لديّ توقّع.

كنتُ في مدينة كبيرة. منازلها كبيرة ذات بوّابات واسعة ورحبة. مثل حديقة الأمراء. قالت سورملينا أتريد رؤية الأبَوَيْن؟ لا يمكن ألا أراهما. لا، يجب أن تراهما.

دخلنا إلى صالة فسيحة. كانت سورملينا أخرى هناك جالسة. ذهبنا راكبَيْن عربة. بستان أخوان كان متجمّداً، وبه صخور كبيرة. صار كجبل. قامة أمّ سورملينا كانت فارعة، لكنْ، لم تكن تقوى على السير. خرجت من الأرض كشجرة تدلّت عصارتها من أغصانها.

أثر هذه السلاسل بقي محفوراً في يدي. كان المكان يغصّ بآلاف الناس، بآلاف السلاسل، بآلاف الغربان القابعة على الأغصان والمُحدِّقة في ميرزا آيدين أورخاني. أُغيِّر صوتي، وأتكلّم كما الجنود الروس. أخاه! يجب حَزْم الأمتعة. لقد طفح الخراب، طفح، متى طفح؟ العيب في الزقاق. أترى؟

لا، إنكَ لا ترى. أترى؟ كلها منعطفات ومنعرجات. وذاك هو السّيّد اللورد، يسير على بساط الحجر، ثمّ ينحدر. قَدَمَاه في سماء البساط الحجري، ورأسه يختلج في باطن الأرض، كأن صورته طُبعت وسط الماء.

حين أنطلقُ صباحاً، سأجمع كل ما أجد من خشب ولوح، وأُشعله في برميل. لا تُثِر الدخان، إسمايول. أمركَ، سيّد أورهان. آه، قد ضقتُ ذرعاً.

قلتُ لكَ أُخْرُجْ من الماء. قال أحمق. لقد اختنقتُ بالدخان. قلتُ إذنْ، لا تدخّن. يصفعني على أذني. صفعة هنا، وأخرى هناك. يا ابن الغول، ما دخلي أنا؟ لمّا تتحرّر يداي من الأسر، سأقرأ جريدة، رسالة. كنتُ أصعد هذه السلالم. لم أكن أنا، إنه يُوسُف الذي كان يصعد ويرتمي وسط البركة. قال الوالد ألا تخجل، يا ابن الكلب؟! على الأقلّ، اذهبْ واحرقْ كُتُبَ الأطفال بالمجهر. مَنْ أطفأ لهيب الحرب؟ مشتري المحبّة. البركة مليئة بـ....

ليتني صرتُ هتلر ليوم واحد فقط، كنتُ سأقول كل مَنْ يملك شيئاً، فهو ليس له، هو لله، ونحن جئنا من طرف الله والجلال الإلهي يشمل حالنا، لدينا أيضاً الكتاب، إنه في الطريق. كنتُ أضع على رأسي القبّعة القديمة التي تعطينها لي، وأذهب إلى متجر البنّ المغلق. مسيو لا وا؟ لا وا. توغّل الألمان جيّداً. قال الأب لو كنتُ أنا سكرتير هتلر، لتغيّرت نتيجة الحرب. قلتُ أبي، لقد احترق مصباح الغرفة العلوية. ماذا قال الأب؟ غيِّروه. أين كان؟ الغرفة العلوية. ليس هذا، ذاك الذي وُلدت بداخله الهِرَرَة.

سيّدي، هل لديكَ مجلّة قديمة جديدة؟ مجلّة اليوم مع صورة لهتلر. لم تكن سورملينا تترك يدي. والدها كان هناك أيضاً. كان صوته متجمّداً. والد

سورمه كان والدها، لكنْ، لم يكن مسيو سورن. كان رجلاً ذميم الأخلاق، يرتدي بذلة بنّيّة مخطّطة بشكل حروف فرنسية صغيرة.

بحسب آخر الأنباء، تمّ اكتشاف بلد جنوبي، اسمه بوراني. لقد وقّعوا أيضاً اتّفاقية البترول. كل يوم، تنقل عدّة بواخر البترول، وتُحضر الكراسي. بصموا في أسفل الاتّفاقية. سفيره أيضاً يريد المجيء إلى هنا. قال سأذهب مباشرة إلى هناك، كي أرى هل بالإمكان أن أعالج نفسي في شورابي، إني مصاب بالروماتيزم. آيدا أيضاً كانت مصابة به، وماتت. ممّ كانت تعاني الأمّ؟ من الربو. ماتت. هذا الإنسان مصاب بالروماتيزم. يشرع الألم من خصره، ثمّ يتسلّل إلى رجليْه. ثمّ يلتفّ حول خصره مرّة أخرى، ويصل إلى الكتفيْن. بقي أربعة معلولين. قلتُ، أخي، أين تقع بوراني هذه؟ لم نعثرْ عليها مهما بحثنا في الخريطة. لا أتذكّر أني درستُها في جغرافيا المدرسة. قال أورهان أعتقد أنها توجد في الناحية الأخرى. قلتُ آ؟ ظننتُ أنها في هذه الناحية. ينفجر ضحكاً، ثمّ نعيد البحث في الخريطة، لكنْ، لا نجدها. وعوض تلك البلاد، نكتشف أرضاً جديدة؛ تحدّ شمالاً ببوراني هذه، ومن ناحية باليابسة، ومن جهة الجنوب بالبحر، ومن الناحية الشمالية بأرض مشجّرة، زُرعت بشجر المشمش، لكنْ، لا مالك لها. من المقرّر أن يأتوا، ويأخذوها. سيُعرف مصير هذا البستان في أثناء الحرب. يقول أخي أورهان إذا بصم الوَرَثَة، فالأمر مُنته تماماً. قلتُ أخاه، لماذا ليل نهار وأربع وعشرون ساعة؟

قلتُ، أخي، ألم يمت بعدُ كريستوف كولومبوسُنا هذا؟ قال كيف؟ قلتُ يذهب لاكتشاف الأرض، لكنْ، لمَ لا يأتي لاكتشاف هذا المكان؟! بعد ذلك، كنتُ أذهب وأصرخ سيّد كريستوف كولومبوس، لماذا لا تأتي وتكتشفنا؟ يتذكّر المرء الماموث، لكني لستُ آدمياً، لذا لا أتذكّر الماموث،

بل أتذكّر الديناصور. ثمّ أتذكّر خالي ناصر وهو من جيل مُكمَّمي الأفواه. أخي، ناصري مظلوم، علق في تلك المدينة الغريبة. أتريد أن أزوّجكَ ابنته. كلاّ، أمّي. قسماً بجدِّكَ لا أكذب، أخي. اخجلْ، يا ابن الغول. أنا أخجل، ما إن أراه حتّى تبدأ أطرافي بالارتعاش، وأنسى كلامي كله. لقد أقحم نفسه فينا. ما دخلي أنا؟

ما أرقَّنا وألطفنا من أناس! نشبه الدخان. قال الأب مثل ابن آدم. ما شكل ابن آدم؟ إذا كنتَ تريد أن تعرف مؤلّف الكتاب، فاقرأ هوامشه. السّيّد اللورد لا يعمل أيّام الأحد. توفيّ السّيّد اللورد، لنحترمه. أبي، رياح مراوح السّيّد اللورد هذه سوف تعبث بنا جميعاً يوماً ما.

كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. يا لخرخرته! لم أعرف كيف تنفّس أنفاسه الأولى؟! صارت المدينة مدينة لوط. إذا صرتُ أنا رئيس الوزراء، سأُعيِّن الوزراء كلهم من النساء. بعد ذلك سأطلب اللجوء إلى موسكو، لأن البلاد ضاعت. لا تضحكْ، هكذا، إياز خان. هل أنتَ عمّو صابر؟ خصلات شعركَ باتت شبيهة بالخيط، إذنْ، أين ذهب أملكَ؟ سأبقى في ذلك القبو، ويوماً ما...

قَبَّلتُكَ قرب بيت الله. قَبَّلتُكَ قرب بيت الله. الأموات ينامون كيفما يشاؤون. حين يصعد المرء إلى رأس أنبوب الماء، هل سيخرج من السطح، طويلاً ومظلماً، مثل جمشيد؟ لا. ما دخلي أنا، دعْه يكبِّل يدي ورجلي. إنه، بالتأكيد، جيّد لي.

كانت المدينة كبيرة، وبيت سورملينا مثل متحف. رُبط بضعة أناس ببعض. كان الجذام قد أذبل نصف أبدانهم كصخرة مفتّتة، كشجرة منشورة.

تلوّوا في ذواتهم كالحروف الفرنسية الصغيرة. لم يكن للحرف الثاني رأس، وعوضه نَتَأ جرح كبير على رقبته. وصار مثل منشار الشجرة.

قالت سورملينا هذا عمّي. وأشارت إلى رجل على هيأة حرف فرنسي صغير. لكنه كان ضخماً. جميعهم كانوا ضخاماً. تدلّت منهم العصارة مثل شجرة مقطوعة. كنتُ أودّ مصافحتهم، لكن وزني غدا ثقيلاً جدّاً. كنتُ أشتهي الخبز بالخضر.

كنتُ أودّ افتتاح قسم شرطة، وتوظيف بضعة رجال أمن. وأجعل إياز على رأس ضبّاط المخابرات. أُرسلهم في دورية. كل طواف بتومان واحد. أحسن عمل في أوج هذه الفوضى. لكن أورهان لم يسمح حتّى بالحديث عن ذلك. وإلا لكنّا نحن سرّيّة جنود. كم مسافة الطريق إلى أوشفيتز؟ على أكثر تقدير من الصباح إلى العصر. نقضي على هذا الوغد، ونجعل من مُدُنه أفران آجور، وسنعطي واحداً منها لأورهان، كي يفرن فيها البزر.

قال ابصُم، فَصَمَتٌّ. لم أستطعْ تكرار الكلام. قال ابصمْ، فَبَصَمْتُ. ابصمْ، أنا أبْصُمُ. بَصَمْتُ. بَصَمْتُ مائة صفحة. بَصَمْتُ أوّلاً بستان المشمش، ثمّ الدّكّان، ثمّ البيت. قلتُ أخي دعْ سند هذا القبو، ليكون باسمي. قال القبو لكَ، والصنوبرة لكَ، والغربان أيضاً لكَ. قلتُ أنا لا أريد الغربان، ولا أريد السنونوات، أريد الشاي. حسنٌ، اذهبْ، واشربْه. حسنٌ، أنا ذاهبٌ. ثمّ يظهر مجدّداً. يا ابن الغول! أخي، نحن أيضاً أناسٌ في بعض الأحيان.

قالت الأمّ لا أدري لمَ تغيّر طَعْم كل شيء، حتّى هذه الحلوى التي كنتُ أحبّها لم تعد بذاك الطَّعْم السابق. قال أورهان، أترين أمّي أنكَ صرتِ

تتوهّمين؟ متشائمة بكل شيء. لنفترض أننا سيّئون، لكنْ، ما ذنب هذه الحلوى؟ اغربْ، يا عديم الشرف! مَنْ كان عديم الشرف؟! ما دخلي أنا.

أعدم هتلر عشيقته. ربّما أنتحر، لو أرادت سورمه إيذائي. لقد غدوتَ، الآن، منكسراً ومنطوياً. قلتُ هل بسبب تلك الوردة الحمراء التي تريد توزيع القُبل على شَفَتَيْكَ؟ أنتَ، أمّي العزيزة لن أسمح، من الآن فصاعداً، أن تتجرّعي مرارة الأموات. إذنْ، لمَنْ سأغتمّ؟ أنتِ اعزفي، وأنا سأبكي. الحمّالون إلى الأمام، إلى العمود الأوّل. خطوة، انطلقْ. والآن يمشون تحت تلك الأكياس المكمّمة الأفواه. لكن الفستق فمه مفتوح. طاولة أورهان لها أرجل أيضاً. إنه يذهب، يسير بطريقة رائعة. هكذا. أنا لا أستطيع، هكذا. طق طق، طق طق، الطاولات كلها لها أرجل. لا يمكن الوقوف في وجهها. كل مَنْ يجلس إليها، تأخذه معها. كان الوالد ذا أبّهة. قال إن أوحال شورابي تستأصل الأمراض جميعها، وخاصّة الروماتيزم، مثل الترياق. مع فرق بسيط هو أن الترياق يعالج سبعين مرضاً، لكنه يتسبّب في مرض، لا علاج له.

دماغكَ لا يعمل. دماغُ مَنْ لا يعمل؟ دماغي أنا؟ دماغي يقبع، من الصباح إلى الليل، في فرن يطهو الآجور. وحين يعود، ليلاً، إلى الغرفة، يسقط على السرير جثّة هامدة. ينام على وجهه، ويغرق في الفكر. وفي الأخير، لا يعرف كم عمره. قال سيّدي، كم الساعة؟ قلتُ في الأسبوع الماضي، كانت الساعة تشير إلى الخامسة، أيّها السادة، أنْصِتُوا. تحتاج هذه البلاد إلى طابور الخبز. ليس عيباً التصدّق بالخبز على الباغيات. غفرَ اللهُ لوالدكَ أيضاً، ولكنْ، هل غيرتكَ تُبيح لكَ مضاجعتها ليلاً؟ آه، تف.

مدّة طويلة وأنا لا أتذكّركَ. كيف يمكن ذلك؟ أنا هو أنا. ألم تسمعْ بحاجب قافلة الحجّاج؟ كان ينقصه فقط التطبير، كاد الناس ينفجرون

بكاء. كل ما قُدِّر لنا دموع ومآتم. تعلّقت قلوبنا بالزفاف. ما كان اسم عشيقته؟ مات الألمان جميعهم، وبقي هتلر فقط. كان يحارب من الصباح إلى الليل، ويضاجع عشيقته من الليل إلى الصباح. وهذه المرأة هي مَنْ أودت بحياته. آخ، كم تمنّيتُ لو تتوقّف الدنيا مرّة واحدة! ويتجمّد الجميع! ويصيروا مسماراً عليه السلام. لا تقلْ عليه السلام. ماذا أقول أبي؟ قلْ مسمار. مسمار.

إذا ضغطتُ برأس الأصبع على بذرة العين، ستصير الشجرة اثنتَيْن، ورجلاي أربعة، ويضرب الزلزال أيضاً، ويسكر أورهان أيضاً. بأصبع واحد يمكن تحريك الدنيا بأسرها. لأذهبَ أمام المرآة، وأُمسِكَ بوجهي، وأصيحَ بصوت قبيح: ابن حرام، ابن حرام. بصوت منتهى الحلق، يا ابن الحرام، تعال، أحلّلكَ! حلالي إلى السماء. الحرب. أنتما في تلك الناحية، ونحن في هذه الناحية. دُرْ حتّى ندور. مَنْ كان جسر النصر؟ تذكّروا، أيّها السادة، أن نار الحرب أُطفئت ببرودة موسكو. والأهمّ أن الرومانسيّيْن مَنْ أمسكوا بزمام الأمور. لا تسألوني لماذا، اسألُوا أفئدتكم. أترى، أيّها الأخ؟ كان الأب يقول الابن الخبيث يُشبه إبهامي، إذا بُتر زال النكد، وإذا بقي فهو قبيح وخبيث، نقطة أوّل السطر. ونحن كتبنا ورجعنا إلى أوّل السطر. لم نعشْ زمان الشاه حتّى نأكل الخبز المدعّم، نُسلِّم بطاقة تموين حمراء، ونستلم خبزاً أسود. والآن كل الخبز البربري، إنه مليء بالفيتامينات. حسنٌ، ما تقصير رضا شاه؟ كانت أيّام حرب، قمْ بعملكَ، عزيزي. ومَنْ بنى الجامعةَ، إذنْ؟ والطُّرُق؟ والسّكّة الحديدية؟ والبنك الوطني؟ قمْ بعملكَ، رفيقي العزيز. أنتم معشر الأكابر، لا تأكلون الأرز إلا في ليلة الجمعة. لكننا، نحن المتسوّلين، نأكله كل ليلة عيد.

قلتُ أخي، مَنْ كان عديم الشرف؟ قال لا تُعِد هذا الكلام. اذهبْ، واغسلْ فمكَ. من كثرة ما نظّفتُ فمي صرتُ مضخّة. أخي، الناس أنهوا مشترياتهم في تلك السنة حين كان الوالد، يجب أن تُغيِّرَ عملكَ. بيعُ الملابس هو الآخر ليس جيّداً. الناس الذين رأيتهم لديهم ما يكفي من اللباس لوقت طويل. بدءاً من القبّعة وحتّى الحذاء. انظرْ، فانيلا واحدة، قميص أو اثنان، وجاكتة فوق ذلك. بذلة وصدرة، معطف، لا يحسّ حتّى وإن قصفته بمدفعية. الكل متين ومحترم. حتّى الساطور لا يقوى على دقّ رقباتهم فوق اللباس. فكِّرْ بشيء آخر. اذهبْ، واغربْ عن وجهي، لا تُثرثِرْ. سوف أذهب.

هل أنتَ سورملينا؟ إذنْ، أين تحيّتكَ؟ قطعوا شجرة الدُّلْب، بذلك الجمال كله، وغرسوا مكانها رأس حمار. ما أشدّ غباوتي من إنسان! لا أذهب إلى مقهى شورابي، كي أرتشف كأسَي شاي، وأقرأ للزوّار جريدة. واحد هنا وآخر هناك. ماذا تفعل هنا، يا ابن الغول؟! لا، أخي، لا أريد أن يسوء الوضع، وألا تعفو عنّي مرّة أخرى. الحبس أتفهم؟ ستّة شهور في القبو مع تنظيف النوافذ من الطين. حسنٌ، سأذهب إلى البحر المالح للسياحة والتجارة. لا يمكن أن يذهب المرء إلى الساحل، ويعود صِفْرَ اليَدَيْن. بيع وشراء. أخذ وعطاء. وأيّة بضاعة! كلها جديدة ومُدرَّة للربح.

تقول سورمه لنذهب، كان أخوها أيضاً برفقتنا؟ هل كان لها أخ؟ كان أبوها متجهّماً. ذهبنا. كانت مناخر أحصنة العربة تنفث دخاناً. قصدنا بيتاً صغيراً. كانت الشوارع منحدرة ومغطّاة بحجارة رصاصية. جدار البيت كان عالياً، وبه غرفة واحدة.. الغلاّية كانت في ركن الغرفة. تمدّدت سورمه على الفراش، وقالت لا تلمسني. فخفتُ أن ألمسها، لأني سآثم. نزعتْ

جواربها. كانت مفاصل أرجلها ملتصقة. قالت لقّحتُ البرتقال بالنارنج. قد ينبت، وقد لا ينبت. أبي لقّحه. أدركتُ أنها مصابة بالجذام. قالت المسني، فخفتُ. قالت ضاجِعْني، فخفتُ أكثر، وكدتُ أبكي. قالت تعالَ، والمسْني. قلتُ لا. قال أبوها أين تريدني أن ألقّحكَ، يا ولد؟ قلتُ أنتما مجذومان. أنتما مجذومان جدّاً. كانت مدينة رصاصية اللون والبخار يتعالى. كانت مفروشة بالحجارة، وكان الوقت غروباً. كل واحد كان لديه مجذوم. كانوا يلبسون الجوارب. كانت بذلة والد سورمه بنية مخطّطة. أنا رججتُ هذه السلاسل، خضخضتُها، وقلتُ هكذا؟ ماذا تريدون منّي أنا المُكبّل اليَدَيْن والرجلَيْن؟ لم يكنْ أحداً. غربان هذه الشجرة طارت وغادرت. هل بكيتُ أنا؟

كنّا نتحرّك صوب العمود الثامن وسط هطول الثلج. قال الوالد لو كنتُ أنا مستشار هتلر، لتغيّرت نتيجة الحرب. قلتُ أبي، مصباح الغرفة العلوية محترق. غَيِّروه. قلتُ أين؟ قال انطلقْ إلى موسكو. ربّ شوارب هتلرية، وكم كانت تُناسبه! علَّق على بطنه، أيضاً، صليباً منكسراً. قال إلى برودة موسكو. كانت النار قد أتت على كل مكان. وكان العَلَفُ يحترق، والدخان يتصاعد من رؤوس الأشجار. وكانت فتاة تُنزل تنّورتها بعصى من الأغصان المحترقة. قلتُ سورمه. قالت هذه أنا، آيدا. كانت سورمه وآيدا في الآن نفسه. كان القنديل معلّقاً على رأس منخري. قلتُ طق، فتكسّر. اشربوا القهوة التركية. لا تناموا. ادرسوا. اكتبوا آل البرامكة. كتبنا آل البرامكة. نهضتُ، وانطلقتُ، كي أرى علامتي في الإملاء. قلتُ، أخي، ماذا سيحصل، إذا لم تُكبّلني؟ وقلتُ في نفسي: ما دخلي أنا؟!

عمّو صابر، أين ذهب أَمَلُكَ؟ آيدين، كل أملي معقود عليكَ، أتفعل؟

قال أورهان أتحبّ أن أكبِّلَكَ؟ أخي، اليوم هو نفسه، لكن الزمان غير الزمان، هل تصدِّق أنتَ أن آيدا أحرقت نفسها؟ أين هي دنيا الأموات؟ في القبو. تقدّم إلى القبو. وهذه الجرائد. وأثر السلسلة الذي يبقى على جِلْد اليد، الأمّ تبكي بلا داعٍ ولا مُبرِّر. سيّدي، هل لديكَ مجلّة قديمة جديدة؟ اذهبْ، يا ابن الكلب. سيّارة اقتحمت رصيف الراجلين. تقدّم صناعة المراوح اللوردية. إذنْ، مَنْ بنى قصر العدالة؟ وسكّة الحديد؟ لو لم يكن الألمان ماذا كنّا سنصنع نحن؟ صحتُ، أخي، أخي. ما الأمر؟ ألم تنمْ بعد؟ قلتُ لا. احترق كهرباء هذا القبو. غَيِّرهُ. الإنسان يضيء. أضئ عمّو العزيز. لا تضربْني، أخي، بالله عليكَ، الله ضربني. يضع يَدَيْه خلف ظهره، ويتمشّى. يُحدِّق في النجوم. قلتُ إمّا أن يصير خمولاً أو منجّماً أو فَلَكِياً. اصمتْ.

كان الشخص المذكور من أصحاب الرتب السامية في منظّمة اس اس، هرب بعد هزيمة هتلر. وكان جيش التحرير البولوني يتعقّبه ليل نهار. عسى ألا يسقط في أيدي هؤلاء الملحدين، سيُمزّقونه قطعة قطعة. الحربُ حربٌ. تضربُ لكمة، وتتلقّى اثنتَيْن وثالثة. هذا هو قانون الطبيعة. أسفاً على مستر اللورد الذي ودّع. وإلاّ، كان سيجلب مراوحه إلى الساحل، ويُسلّمها للبرتغاليّيْن، ويتسلّم مكانها الطباشير وقلم الرصاص. قسماً بالله، لا يملك أطفالنا طبشوراً. كنّا نقسم قلم الرصاص نصفَيْن. سيّدي رئيس دائرة الثقافة، ليس لدينا طباشير، ولا ورق. حسنٌ، اشتروه، يا سادة، ماذا يعني ليس لدينا؟ هذه الأوراق كلها التي يلصقونها على الجدران، ليعطوها للأطفال. أُلصق إعلان على أحد أعمدة الكهرباء: نحتاج إلى شريك طيّب. العنوان: شارع الشاه إسماعيل، زنقة قره سو، قرب ورشة الآجور، معمل البالونات. ذهبتُ إلى هناك قبيل الظهيرة. قلتُ أنا هو. قال: مَنْ تكون أنتَ؟ قلتُ: الشريك الطّيّب. قال: رأس المال عليّ، وعليكَ العمل.

شرعتُ بالعمل من اليوم ذاته، وإلى الليل نفختُ مائة وخمس وأربعين بالوناً، ثمّ فرقعتُها. قال: لماذا فعلتَ هذا، يا ولد؟ قلتُ إنها تتفرقع مع آخر نفخة دائماً. لا تنسَ ربط رأس البالون قبل آخر نفخة. صَفَعَني على أذني.

حينما أُصاب بالتخمة، أمضغ حفنة من البخور اليابس، وأشرب كوب ماء، فأرى الناس مثلما أرى شبراً. يتململون في هذه الزقاق، ويصعدون أعلى. أحدهم كان صاعداً إلى بيت الجيران عبر المجاري، أردتُ أن أُمسكَه من معصمه، فقلتُ ما دَخْلي أنا. لكن هتلر يتذاكى. أمر الألمان بأكل البخور، فصار شبراً، وتسلّل هارباً. يقولون إنه يتسكّع في سيستان وبلوشستان، ربّى شوارب ملتوية إلى أعلى، ويرتدي طَقْم لباس بلوشي، وصار زابلياً. اللعنة على أب الديوث. سأسافر إلى سيستان وبلوشستان، وأعثر عليه. وأصفعه واحدة على هذه الجهة، وأخرى على تلك الجهة. ماذا تفعل هنا، يا ابن الغول؟

إلى صديقي العزيز السّيّد الشاه. أين كان هذا الدهليز الخرب؟ وماذا يجري فيه؟ شابّ عاشق ولهان، لم يرَ خيراً في شبابه قطّ، مثلي أنا. كلّ مَنْ هبّ ودبّ يصفعني على أذني. كان قائداً للجيش، وكان برفقة زوجته. ناديتُه "اوز ايشيدي"، فَصَفَعَني تحت شحمة أذني حتّى بكيتُ من أعماق قلبي.

أردبيل بالليل أشدّ برودة. المُكبّل بالسلسلة، شاء أم أبى، لابدّ وأن يُبلّل ما تحته. ثلاث مرّات، وكلها في سلامة الأخ. دعني أدعك مقلة عيني بأصبعي. سيأتي أورهان الساعة في إثري ثملاً. حرِّرْ قيدي، أخي. حرِّرْ قيدي، فأنا أهلك. قسماً بالله، لو قيّدتَ فيلاً بهذه السلاسل، لقُضي عليه.

- لا تثرثرْ، تعالَ، واحتسِ الشاي.

الحركة الأولى (٢)

-٢-

في جوف الليل، حلم أورهان بأمّه آتية إليه، نادبة نائحة. سَحَبَ نفسه إلى الخلف وهو يقول: "لا. لا"، والأمّ تصيح: "ابني، حرام عليكَ. سأبيع البيت، سأبيع بستان المشمش، سأبيع الدكّان، وأعطي المال لآيدا". كان أورهان واضعاً قَدَمَيْه فوق أوراق القُرّاص اليابسة يسحقّها: "عجباً لكلامكِ، أمّي! أنتِ ميتة، وآيدا ميتة". حينها، انصرفت الأمّ، وهبّت الريح ترجّ أوراق شجر الصنّار الماحلة. كان آيدين يرفع رأسه في القبو، ليتفقّد الأخبار، وسبّابته في ثنية الكتاب، ويده متوارية وراء الجدار: "ما الأمر؟" يضحك أورهان قائلاً: "هل أنتَ هنا؟ كنتُ أبحث عنكَ". كان يُوسُف يلتهم الخبز والتراب، ويظل مُحدِّقاً بعينَيْه الجاحظَتَيْن. أمسك أورهان بالشبابيك اللولبية الحديدية، وعدَّ واحداً وعشرين درجة صعوداً.

زُيّنت جنبات غرفة الضيافة كلها بستائر رقيقة وردية اللون، وكانت الريح ترفرفها. هناك، توسّط الغرفة طقم أرائك من سيراميك ثمين بنّيّ اللون، أحاط بسجّاد فسيفسائي، ونُقش على كل رجل من أرجل طاولة السيراميك المثبتة في الوسط صورة غزالة، غير أنّ المزهرية الخالية من الأزهار فوق الطاولة، كانت تبدو، وهي فاغرة فاها بسواد عريض، كما لو تريد التهام كل شيء. كانت ريح سوداء تدفع الستائر إلى وسط الغرفة، ويتشقّق جِلْد البَدَن لوجع برودتها. إلى جانب النافذة، وسط أقواس الستائر، وقفت امرأة

شبه عارية، ملابس جسدها هي تلك الستائر. التفتَتْ إلى أورهان، ونظرت إليه، وكانت تمضغ علكة، وقالت: "طفلان وسيمان"، وكانت تحاول سَتْر بَدَنها الرشيق بحواشي الستائر، لكن الريح كانت تأبى. كانت تبدو نحيفة بعض الشيء، وممتقعة اللون، وشَعْرها الأشقر مُتموّج بحلقات، مثل الأوقات التي كانت تخرج فيها من الحمّام، بتلك الحركة الثقيلة والهادئة.

قال أورهان: "هل أنت آذر؟".

قالت المرأة: "آذر، رفرفت" وضحكت.

قال أورهان: "تعالي". كان مَهووساً وغاضباً وحاقداً، تُؤجّجه رغبة مكبوتة. ثمّ أردف: "يجب أن أتحدّث معكِ".

بعد ذلك، دفع سواد الريح الستائر إلى الداخل. عدّل أورهان قبّعته على رأسه، وظلّ مُحدِّقاً بجسد المرأة العاري. قال الأب: "جميل جدّاً". نهض من على أريكة، وضرب على الطاولة برأس وسطاه، وقال: "ثمانية آلاف تومان".

قالت الأمّ: " ثمانية آلاف تومان؟"، ورفعت حاجبَيْها عالياً، رافضة.

قال الأب: "ماذا كنتِ تظنّين، يا امرأة؟".

ضحكت الأمّ، حتّى بدت أسنانها المُذهَّبة، وقالت: "أليست صناعة قُمْ؟".

قال الأب: "لا، إنها صناعة فنلندا".

دسّ أورهان يده في جيب الصُّدرة، وتوقّف أمام الأب: "دوِّن في حسابي، أريد هذه".

قالت الأمّ: "ها؟"، وجلست على أريكة أخرى، ونسيت ستر ركبَتَيْها النحيلَتَيْن البيضاوَيْن. أسندت رجلها اليمنى أو اليسرى على حافّة الطاولة، وعلّقت يَدَيْها بيَدَي الأريكة. إثر ذلك، أرجعت رأسها قليلاً إلى الخلف حتّى تضع الأرائك جميعها في مرمى عينَيْها. كانت مصابة بالربو، وتتنفّس بصعوبة، كأنها تشهق. قالت: "حسنٌ، إذنْ، اشتروا واحدة من هذه لآيدين أيضاً".

قال أورهان: "آيدين؟ إنه غير موجود".

قالت الأمّ: "في غرفة القبو".

قال أورهان: "لا، أمّي. إنه ليس هناك، رحل منذ سنة، أو سَنَتَيْن".

قالت الأمّ: "سيعود، أنا أحاول إرجاعه. وهو يريد طَقْماً من الأثاث نفسه".

اتّكأ أورهان على أحد الأسِرَّة، واندفع: "إذا وجدتِهِ، فخذي لي أنا أيضاً واحدة".

قال الأب: "لا تذكرْ سيرته أبداً".

كانت الريح تسقط تحت الستائر، وتُجلجل قناديل الصقيع. لم تكن آذر مَرئية، وذكرى جسدها كانت تُعذِّب أورهان وهو متأجّج ناراً. كان صوت عربة ذات حصانَيْن مسموعاً من الزقاق "تلق تلق". سنابك الحصانَيْن تغوص في الطين، والبرد ينخر الكيان. قال أورهان: "آذر، أغلقي تلك النوافذ". أقفل أحدهم النوافذ، غير أن البرد لم يكن آتياً من الخارج. قال: "دثِّري ظهري ببطّانية". التفت برأسه، لم يكن أحد بالغرفة، وكانت الرعشة تصكّ أسنانه.

تدحرج. كان جدار الاصطبل البارد يشجّ جِلْد وجهه. رفع رأسه، الظلام مُخيّم. والأمّ، الآن، راقدة تحت أثقال التراب والثلج. قال: "أين أنتَ؟".

لم يكن ثمّة أحد. أخذ العجوز البرادع والأمتعة. ما كان اسمه؟ كان من أهالي قرية رام اسبي أو أي مكان آخر. كم كان من السهل فضحه، والقضاء عليه. النذل، كان ممكناً تحطيمه بألفَي تومان. صرخ: "أيّها العجوز!". لا، لم يكن أحد موجوداً. وحده عواء بضعة ذئاب يصل الآذان، والسقف أيضاً يقطر ماء.

كان رأسه ينفجر ألماً. خرج من الاصطبل، وتقدّم في العتمة، إلى أن أوصل نفسه إلى عتبة الباب. كان الثلج قد اجتاح الغرفة إلى منتصفها، ثمّ أمسك عن السقوط. متى تساقط؟ ما أكثره من ثلج! بياض حادّ، ينفذ إلى الأعين.

نظر إلى السماء، فلم ير أيّة أمارة للضياء. لاحقه كل ما كان يتوجّس منه في صغره. كان يرى تابوتاً محمولاً على أكتاف أربعة يلبسون بياضاً، شاحبين حائرين، يتقدّمون من دون أذى، وكأنهم يجمدون في مكانهم. نظراتهم فاقدة الإحساس، مسمّرة عليه من أعماق الأحداق. تمسّك بالإطار، وتمالك نفسه. الصراخ فقط كان يُريحه، لكن الصوت لا يعلو. ليته استطاع الصراخ إلى قيام القيامة، مسترسلاً بلا توقّف.

جثم البرد على فضاء الاصطبل المظلم. لو تمشّى في الثلج، لأحسّ ببرد أقلّ بالتأكيد. كان يجتاز الثلج، ويحفر الأرض، ويغوص في التراب الدافئ المضمَر تحت الثلج؛ هناك حيث الأرض تتنفّس، تبتلع لحظة دافئة، وتقلّب لحظة أخرى تحت الثلوج. كان بَدَنه أكثر عراء وأشدّ ثقلاً من أن يركض رفقة خياله. تراجع القهقرى، خطوة واحدة، وخبط بقَدَمه في تلك العتمة، وخبط. أدار يَدَيْه في الهواء، ووضع القبّعة في جانب، فتح أزرار معطفه، وشرع يسعى. كان عليه أن يصدّ الرجفة بأيّة وسيلة. جدّ في حياته كلها ألا يحسّ بالبرد أو الحَرّ، ألا يشعر بالجوع، وحاول طوال عمره

أن يُلملم ماء الوجه والجاه، وألا يموت أبداً، وأن يقصد الدكّان كل صباح بالمعطف والقبّعة نفسَيْهما، ويرجع ظهراً، ليتناول غداءه، ويتمدّد ساعة أو ساعتَيْن في الغرفة العلوية، ثمّ يعود عصراً إلى الدكّان. كان يحبّ، في أثناء عودته ليلاً، أن تكون طريقة مشيته مختلفة عن الآخرين، بحيث إذا سلّموا عليه، يردّ عليهم "وعليكم" من دون أن ينظر إليهم. لكنْ، الآن، وهو على موعد مع الموت، لا يريد ذلك. يجب أن يموت وسط أفراد العائلة جميعهم وهم ينتحبون، بحيث تعنّ له فرصة تقسيم التركة. عمّو العزيز وأنتم الإخوة تصالحوا واعتنوا ببستان المشمش، لا يبقى جدباً، ولا تتركوا حيطانه تتهاوى. الأوغاد، سرقوا آجُرّه قبل بضعة شهور. ولا تغفلوا عن شجرة التوت الكبيرة التي يتوسّط ساقها ثقب، فإني أحبّها. الخالات والخال العزيز، تقاسموا البيت، ولتأخذ العمّة الأثاث، هي عجوز، لكنْ، لا بأس، ستُعطيه لأبنائها. أما الدكّان، كيف أقول؟ وماذا باستطاعتي أن أقول؟ أضعتُ عمراً بكامله على عتبة الدكّان، من الصباح إلى الليل. أفنيتُ شبابي. كان بالإمكان أن يكون لديّ زوجة، والآن ليس لديّ. تعلمون، أليس كذلك؟ اصبروا حتّى أفكّر بأمر الدكّان.

كان يستطيع توزيع باقي الممتلكات قطعة قطعة، وإعطاءها لهذا وذاك. يأتي هذا الطبيب ويذهب آخر. أطبّاء طهران وأطبّاء ألمانيا وإسرائيل. يقال إن أيديهم شافية. كان آيدين يقول: "يقولون إذا وضعوا أيديهم على شيء، صار رماداً. لهذا خرّبوا الدنيا". لو يأتي هؤلاء، ويقيسون نبضه، وينصتون إلى ضربات قلبه. أيّ مرض يتسبّب بموته؟ السّكّري أو السرطان. السرطان، لا، إن آلامه سيئة، وموته أيضاً سيِّئ. سمع أن البُدن يموتون بسبب ضغط الدم، أو السكتة القلبية. كان باستطاعته لو أراد، أن يكون بهيكل آيدين، حينها كان سيكون رجلاً نحيلاً أسمر اللون تاتارياً،

يموت بقرحة المعدة. لا، لا. كان الدكاترة الأجانب سيُعالجونه بحقنة واحدة. ويعود مجدّداً إلى الدّكّان، ليأمر الخَدَم، ويشتري الدّكّان الكائن في ركن الدهليز، ويزيل الجدار الأوسط. ويأمر مارتا المتسوّلة الجالسة على درج ركن الدهليز بتغيير المكان. ويُغيِّر لوحة الحانوت، ويكتب بخطّ النستعليق، وببنط عريض، محلّ مكسّرات أورهان الكبير. بمصابيح كبيرة، وعشرة إلى اثنَي عشر عاملاً، وعربة يدوية، وزحمة. حسنٌ، هذا كله جيّد، وأبّهته جميلة. لكنْ، حين تعود لتطوي الطريق وأنتَ أعرج، فلن تتلقّى التحية من عابر، بل يتبعكَ ويُكرّر على مسامعكَ: "هل جرّبتَ الدكتور آفاتانداليان؟ سيّد أورهان"، "كنتُ أنوي زيارتكَ أمس..."، "قلْ، عزيزي، قلْ"، "الدكتور شوشانيك، لا بأس به، إنه يُحيي الموتى"، "عزيزي، كان أبوكَ من ندمائي، رحمه الله. أنتَ لمَ هرمتَ بهذه السرعة؟"، "بسبب غمّ الأخ"، "حسنٌ، الدكتور ناي دانف الروسي..."، "مات". ليذهبوا جميعهم إلى الجحيم، ليموتوا. كم تُعاقِبُ الحياة؟

قلتُ: "آيدين، أصبحتَ أربعينياً، لا يجب أن تذهب إلى هذه المقاهي". كان يأتي إلى هذا المكان. كانت روحه وهذه المقهى. لكنْ، لم يعودوا يعيرونه اهتماماً. لم يعودوا يستمعون لقراءاته الصحفية. كانوا يملّون، ويبخلون بكأس شاي. يشتكون. لكنْ، مع ذلك، كان يأتي. قلتُ: "متى أردتَ شاياً، اشربْه هناك على حسابي في الخان".

قال: " المرء يشرب الشاي الذي يليق بتبوّله".

مضت سَنَتَان على آخر مرّة قصد فيها هذا المكان. كان الفصل آنذاك خريفاً، وقطرات المطر تنزل شتيتاً. جئتُ في إثره مستقلاً سيّارة مؤجّرة. كان جالساً خارج المقهى، ورجلاه محمرّتان من وطأة البرد. قال: "تجمّدتُ برداً".

- لماذا لم تدخلْ إلى الداخل؟

- مُشْد عبّاس غادر.

وأخرج يَدَيْه من ثنية سترته، وقال: "القافلة لها مقدّمة، ولها مؤخّرة".

كان مُشْد عبّاس يُدخله، ويسكب له الشاي، ويُنصت لحديثه، وفي أثناء الغذاء، يُقدِّم له طبق لحم. وكان من وقت لآخر يتردّد على الدّكّان، فأتّقي حَرَجَه ببعض البزر والفستق. لكنه غدا عجوزاً قعيداً منذ سَنَتَيْن، واستأجر المقهى رجل تركي من تبريز. انظر كيف حوّل هذا المكان، تبّاً له. كان سمجاً، يمنعه من الدخول. قلتُ له: "يا أخ، لماذا لا تسمح لسوجي هذا بالدخول؟".

قال: "لدينا عمل نقوم به، لا مزاج لنا".

- إنه مسالم، ولا يؤذي.

- قلتُ لكَ رأسي يؤلمني، ومزاجي ليس على ما يرام.

وعدنا أعقابنا. قال: "أخي، لنتمشَّ".

قلتُ: "أفي هذا المطر؟".

أوصلتُه إلى الدّكّان بالسّيّارة. كانت حالته قد تدهورت؛ صار شاحباً حائراً، ويداه ورجلاه ترتعشان، وفمه يزبد. قعد على درج سلّم الدّكّان. ناولتُهُ شاياً. وظلّ إلى العصر يشتكي ويسبّ ويلعن: "الدّيّوث يظنّ أنني أمير أرسلان. يا أبناء الحرام، عودوا بسرعة إلى منازلكم. الوزير الأوّل فل. فَكِّرْ في أيّام الكآبة التي ستلعن فيها الاستسلام، فكِّرْ في الأيّام العصيبة، وفي الأيّام

التي لن تُرجَع آلاف اللعنات لحظةً واحدة منها. أي إسمايول؛*، ناولني صحيفة أخرى باطلة حتّى أقول لكَ. لكن الأمان من حالتي المضطربة".

كنتُ أخجل من تلك الأعين المسمّرة صوبي كلها. وفي أثناء العودة ليلاً، قلتُ له: "من الآن فصاعداً، ليس لكَ الحقّ في الذهاب إلى مقهى شورابي". كان يتبعني وهو سادر في صمته، وحالته سيّئة. قلتُ: "إذا عاودتَ الذهاب، سأغضب، وأتّخذ قراراً آخر في حقّكَ". ظلّ ساكتاً. كان ينظر إلى الناس الذين غطّوا رؤوسهم بأكياس بلاستيكية، وهم يركضون. كانت زخّات المطر تنزل مائلة، وأنا أُمسك بيدي مظلّة، لم يستطع آيدين أخذ مكانه تحتها، فابتلّ. قلتُ له: "لأجل ماذا تطوي هذه الطريق طَيّاً إلى شورابي؟ ألأجل كأس شاي؟ قلتُ لكَ، مراراً، لا تذهبْ. إذنْ، لا تذهبْ". كنتُ أصرخ وأرفع صوتي، كي يفهمَ جيّداً. لكنه كان يتابع طريقه صامتاً مُوحِشاً مَكروباً، ولا يجيب. كانت مصابيح الدكاكين مُطفَأة، ولا يُرى سوى وميض مصابيح السّيّارات تحت زخّات المطر القوية، آتياً من بعيد، كي يختفي. وصلنا إلى باب البيت، فقلتُ له: "ادخلْ". طأطأ رأسه، ودخل وأنا من خلفه. أقفلتُ الباب، وقلتُ: "هل تريد تناوُلَ العشاء؟".

أومأ بحركة من رأسه رافضاً، ثمّ تدحرج إلى القبو. كانت حجرته باردة مظلمة. قلتُ: "أتريد أن أُشغِّل المدفأة؟"، وهزّ رأسه ثانية بالرفض. زحف تحت ملاءته، وحدّق في الحائط المقابل له. قلتُ: "قسماً بالله، لو ذهبتَ هذه المرّة، سأحبسكَ في هذه الغرفة". التفت برأسه، ورمق النافذة الصغيرة. كان يعي ما أريد قوله. قلتُ: "سأطمس النافذة، أو أُقيّدكَ بالسلسلة إلى شبّاك الشرفة العلوية". ظلّ ساكتاً. وكنتُ أراه يذرف الدمع. قلتُ: "ألا تخجل بهيكلكَ الضخم هذا؟". ثمّ صرختُ: "إذا تكرّر الأمر هذه المرّة، فلن أسامحكَ".

حين رأيتُ هذه الهيأة البادنة تُذعن لأمري، وكان في السابق غَروراً، أحسستُ بنشوة. كان طوال عمره يريد، أكثر منّي، أن يُثبت أفضليّته عليّ، ويتبجّح بها أمامي، كان يريد أن يلج الجامعة، ويُكمل دراساته العليا، ويحصل على منصب، لكنْ، مهما كان، فإني كبرتُ في البازار وسط الذئاب. ولمّا لم يستطع تدبير مصاريف الجامعة، قلتُ دعني أكسر غروره. كان لا ينظر إليّ حين يُكلّمني، بل يسمّر ناظريه إلى نقطة أخرى، لا يبدي اهتماماً ولا يفشي سراً. وأنا كنت أخاه وشقيقه، إلى أن مرّغَتْ تلك الهزيمة أشداقَه بالتراب، فلم يعد بعدها يبرز أمامي ببذلته البنّيّة أو الكحلية، فصار مثل سابق عهده يرمون أمامه أعمدة الخشب مثل العَلَف، ويغرق هو في سَكْب العَرَق وجَرّ المنشار. بات يرتدي الملابس السابقة ذاتها، سروال كتّاني، وجاكتة حاكتها يد الوالدة، ومعطف مهترئ باهت اللون، صار سوجي المخبول.

بعد تلك الليلة، لم يعد أبداً يذهب إلى مقهى شورابي. تعلّق لمدّة بالسّبخة. كان يذهب إلى هناك، ويجلس فوق صخرة، أحضرها بنفسه، ونصبها مثل كرسي، يتفرّج على الأمواج الطينية، وهي تتحوّل إلى ملح، والرياح تُقلّب شعره الأسود الناعم كما تُقلّب أوراق الكتاب.

قلتُ: "انهضْ، أيّها الحيوان، عمَّ تبحث في هذه الصحراء؟".

- أخي، رغم كل شيء، أنا أكبركَ بسَنَتَيْن.

- نعم، ما تقول صحيح. حسنٌ، انهضِ الآن، وتحرَّكْ.

- دعْ طيورَ البحر هذه تصل إلى الساحل.

آخ، كان يُجنِّنني. قلتُ له: "طيور البحر؟!".

قال: "تعالَ، واجلسْ". وأفسح المجال، وجلستُ بجانبه. أشار بأصبعه إلى السماء: "أترى كيف تُرفرفُ؟ ذاك الذي يُحلِّق خارج السرب هو طائر السلام. أحبّه كثيراً".

كانت تقاسيم وجهه مُتهلّلة بالجدّيّة والهدوء. قال: "عجباً عجباً! ما أجمل صوتها! يا للمتعة!".

قلتُ: "أنا تركتُ الدّكّان خالياً، ولديّ عمل أقوم به".

قال: "ألا ننتظر حتّى ترسو هذه السفينة في برّ النجاة؟ أريد أن أرى ماذا بإمكاننا أن نُصدِّر ونستورد. إننا نعيش في هذه البلاد".

أمسكتُ بيده، وأرجعتُه. قلتُ في نفسي إن الشتاء قريب، هذه المرّة السلسلة وشبّاك الشرفة.

كاد البرد يُجهز عليه. ليس ذاك الذي يصكّ الأسنان، ولا ذاك الذي تئنّ منه الأصابع، بل البرد الذي يَسْوَدّ الجلد، ويَزْرَقّ منه، ويُخثّر الدم حول الأظافر، وتنخلع له العظام، ويتوجّع من ألمه القلب. خرج من الاصطبل، عواء الذئاب لم يكن يُمهله، كي يستكين. ليلاً، ومن دون أن يقوم بأدنى حركة، كان قد تجمّد. كما العادة، دسّ يده في جيب الصُّدرة، كي يُخرِجَ ساعته، لكنه لم يجدْها. فتّش في الجيوب كلها، جيب السروال الأمامي والخلفي، وجيب السترة وجيب الصُّدرة، لم تكن موجودة. تذكّر أنه لمسها عند نومه في الاصطبل. لكنها الآن انفصلت عن السلسلة. مَنْ كان ذاك العجوز الذي كان يقول قاتل أخيه؟ عجوزٌ خَرِفٌ هُتَرٌ. أدار رأسه إلى الخلف، وعاد ونظر إلى الأمام، كلاًّ. لا يوجد أيّ أثر، ولا حتّى وقع الأثر. لقد أخذ الساعة، كائناً مَنْ كان. سأل نفسه: "أيّ وقت من الليل قد يكون؟" تمتم: "منتصف الليل".

تحرّك صوب المدينة. لم يكن يعرف أي متجّه يتّجه، ولا من أي وجهة جاء. حاول، لكنه لم يهتدِ. انطلق وكلّ جوارحه تقشعرّ.

برد وثلوج، أينما وضع رجله كانت تسيخ إلى ركبَتَيْه. مَنْ وضع هذه الأحمال أرضاً؟ هل السماء غاصت نوماً؟

بعد أن دفنّا الأمّ، أحسستُ وكأن السماء انهارت على كتفي. بقيتُ أنا واثنان عليلان. ميراث الوالد؛ قطعة لحم متعفّنة، حشروها في زاوية الغرفة السفلية، وأسموها يُوسُف، لا يؤدّي أيّة وظيفة في هذه الدنيا غير الأكل والتغوّط. كانت نيمتاج تأتي إلى البيت، وتغسل الملابس والأواني، وتطهو الطعام، وتكنس. طلبتُ منها أن تعتني بيُوسُف. كنتُ أغدق عليها مالاً جيّداً. لكنها امتنعت عن المجيء. بحثتُ عنها في زقاق "حوض آباد"، وعثرتُ عليها ظهراً. كانت منشغلة بغسل مؤخّرة طفلها في حافّة الحوض وهو يصرخ. قلتُ: "نيمتاج، لمَ لا تأتي؟".

قالت: "سيّدي، أنتَ؟ هنا؟".

قلتُ: "سأعطيكَ أكثر. لقد تعفّن البيت، تعالي".

قالت: "سيّدي، أنا لا أستطيع أن أعتني بذلك الحيوان. لم أعد آكل، ولم أعد أستسيغ اللقمة، سيّدي".

ومن جديد، بُعث الوالد قبالتي: "هل ما يزال هذا الحيوان حيّاً؟".

قالت الأمّ: "نعم، إنه حَيّ".

قال الأب: "متى سيموت؟" ثمّ صعد إلى أعلى. يومئذ أُصيب بإسهال حادّ، أفقده قوّته ورغبته.

قالت الأمّ: "متى ما شاء الله".

قال الأب: "موته نعمة. نعمة".

رجعتُ. لم يبقَ أمامي أيّ خيار. استقلتُ سيّارة أجرة، وعند مخايل الغروب، أخذتُه خارج المدينة. وبالقرب من "نمين"، في برّيّة مليئة بالجبال والوديان، لا طير فيها يطير، قلتُ للسائق: "توقّفْ جانباً". توقّف، وقال: "في هذا المكان؟". قلتُ: "نعم". وسحبتُ يُوسُف إلى الأسفل. كان وزنه ثقيلاً، ورجلاه ملتصقتان من الطّرَفين بنصف بَدَنه، وتبدوان مثل جناحَي طائر. وضعتُهُ على ظهري، وشَقَقْتُ طريقي في قلب البرّيّة. ذهبتُ وذهبتُ حتّى انقطعت أنفاسي، فطرحتُه أرضاً. كان يجترُّ، لم يُكمِلْ خبزَه بعد. جلستُ، وانتظرتُ إلى أن أُكملَ آخر خبز في حياته.

بعد ذلك، ألقيتُهُ في حفرة، وأردتُ أن أحثوَ التراب عليه، لكن قلبي لم يُطاوعني. نزعتُ حزام سروالي، ولَفَفْتُهُ حول عنقه. شنقتُ وشنقتُ. لم يكن يُسمَع لصوته أزيز، ولا تصدر منه أيّة حركة. كان يجترُّ وهو مُحدِّق إليّ بعينَيْه الجاحظتَيْن. وغير عابئ، شَدَدْتُ الحزام حتّى انقطع نفسي، ويُوسُف لا يختنق. لم يكن يريد أن يموت. غدت روحه كروح الكلاب. أخرجتُ سكّيني الصغير من الجيب، وقطعتُ عروق يَدَيْه، وجلستُ بجانبه، أنتظر أن ينزف دمه بالكامل. غير أن دمه لم ينزفْ. انزلقتْ قطرات دم غليظة ولزجة على يَدَيْه، وتيبّستْ بعد لحظات. حوّلتُ رأسه إلى الناحية الأخرى، وقطعتُ وريده. ومرّة أخرى، سالت قطرات من سائل أسود، وجفّتْ. كان الليل يرخي بظلاله، ودمه لم ينزفْ بعد، أو نزف بطيئاً. فكّرتُ في أن أمزِّقَهُ إرْباً إرْباً، لكن سكّين جيبي الصغير لم يكن ليقطعَ لحم بَدَنه. طعنتُهُ في قلبه طعنات، لكنْ، من دون جدوى. ظلّ يُوسُف كما كان؛ يجترّ، ويُحدِّق، ولا يُحرِّك ساكناً.

كاد الليل ينزل، وأُصبتُ بالفزع. تركتُهُ على ذلك الوضع في تلك الحفرة الصغيرة، ودفنتُهُ بالتراب بيدي. جمعتُ الأتربة كلها في الأنحاء، وحثوتُها على جسده ووجهه ورجلَيْه، ثمّ مَهَكْتُ التراب برجلي. كنتُ أعلم أنه يتعذّب، وللحظة، توقّفتُ عن عملي. قلبي لم يتحمّل، أزحتُ التراب من على وجهه، فوجدتُهُ يأكل التراب. ومن دون أن يطرف له جفن، كان ينظر وهو يلتهم. أردتُ أن أُزيل التراب، وأُرجعه. لكنه كان ثقيلاً، ويتعذّر الإمساك برجلَيْه. لم تكن يداي تُحكمان قبضَ أيّ موضع فيه. ومهما انحنيتُ، لم أنجح. ثِقلُ ذلك الجسم العفن كان يقطع الأنفاس. قلتُ: "إلهي، أنجدْني. لماذا يستعصي عملي، ولا يتقدّم؟". وظهر الأب أمام عينَيّ من جديد، بعَظَمَته وجبروته. قلتُ: "أبي، انظرْ بأيّ حال صرت. أترى، إنه إرثكَ؟".

قال الأب: "موتُ هذا نعمة".

أيّ واحد تقصد، أبي؟

قالت الأمّ: "لا يمكن منازعة الله، متى شاءت مشيئته سوف يأخذه".

قال الأب: "متى، إذنْ؟ أنا مريض، قلبي يؤلمني".

قالت الأمّ: "ما شأنكَ أنتَ؟" إنه ينام في ركن، يأكل، ويتغوّط.

قال الأب: "متى وقعتْ عيني عليه، أَمَلُّ من الحياة، لا أعلم لمَ لا يمرض ويموت، على الأقلّ، سوف يريح نفسه".

مددتُ يُوسُف على الأرض بالركلات، وقلتُ: "ذنبُهُ برقبتكَ، أبي". كان غارقاً في التراب إلى رقبته. قلتُ ليكن ما يكون. نظرتُ حول أطرافي، وأخذتُ صخرة كبيرة جدّاً، وقفتُ عند رأسه، رفعتُ الصخرة بكلتا يَدَيّ،

وهشّمتُ بها رأسه حتّى أحسستُ، وكأن شيئاً انغمس تحت يدي. خرج دماغه من جهة الشمال، وبقيت عيناه، كما كانتا، جاحظتَينْ مُحملقَتَينْ. جمعتُ التراب بيدَيّ، وأخفيتُ جسده بالكامل، مقدار متر. ثمّ ركضتُ إلى المدينة، أنظر خلف ظهري، وأركض.

برد وثلج. مع كل خطوة يخطوها يغوص حتّى الرُّكب. إذنْ، أين هي هذه المدينة؟ إلى أين تذهب؟ اصبرْ. فجأة تعالى صوت من الخلف: "يا قاتل أخيه".

عاد، ولم يجدْ أحداً.

قلتُ لكَ مائة مرّة ألا تذهب إلى أي مكان من دون علْمي. لا إلى المقهى، ولا إلى السَّبْخَة، ولا إلى المقبرة. المقبرة، كلّ ما نملك هناك، الأب والأمّ وآيدا والمسكين عمّو صابر. وآيدين إذا لم يهرب إلى الجبل والبرّيّة يمكنه أن يرقد هو الآخر بجانب آيدا. وُلدا معاً، ومعاً يرحلان إلى الآخرة. لكنه كان يهيم في كل مكان بلا خبر. كان يجلس، هناك، قرب قبر الأمّ، يقرفص مثل البؤساء، ويتأمّل في القبر، كما لو يريد تحميل روحها العذاب، ومؤكّداً أن سكوته يُحيِّر الأمّ. قلتُ له: "ماذا تفعل هنا، يا ابن الغول؟".

قال: "قرّرتُ أن أصنعَ لها سياجاً خشبياً جميلاً".

قلتُ: "لماذا لم تُخبرني؟" وصفعتُهُ صفعة تحت شحمة أذنه. قلتُ: "في الصباح، ستذهب معي إلى الخان، وتعود ليلاً إلى البيت".

لزم الصمت، وتدحرج إلى قبوه. في آخر الليل، خرج من هناك، وقال: "أخي، ائذنْ لي أن أذهب إلى الدهليز المجاور".

قلتُ: "الدهليز المجاور! لماذا؟".

- هناك موسيقى جميلة. أتتذكّر ليلة زفاف آيدا؟

- اذهبْ للنوم، أيّها المعتوه، لا تثرثرْ.

- أنتَ لا تعرف الموسيقى التي يعزفون. منذ سنوات، قرّرتُ أن أذهبَ، لأُنصتَ، لكنْ، هل الوقت يسمح لي؟

- اذهبْ، لتنامَ، أنا لا أستطيع حتّى منتصف الليل...

كان يُصرّ، يجلس، ثمّ ينهض، ويعقف رقبته، ولا يتنازل. صرختُ عليه: "اذهبْ، لتنامَ، أيّها المجنون الأرعن. إنه منتصف الليل، ألا ترتدع؟".

طردتُه من الغرفة، وأقفلتُ الباب بركلة.

لكنه، بين الفينة والأخرى، كان يذهب إلى ذلك الدهليز الضّيّق والمظلم. ذات ليلة نام هناك واقفاً. الصوت منقطع، كان الوقت منتصف الليل، وكنتُ قد فتّشتُ أماكن عديدة، ومن فرط التعب، فقدتُ الرغبة في الكلام. قلتُ له: "انهضْ، لنذهبَ".

قال: "أترى أخي؟ أيّ لحن يعزف؟ على فكرة، لحنُه غير مضبوط".

قلتُ: "ألا تخجل، يا ابن الغول. إنه منتصف الليل، ولا تريد أن تقلع؟".

قال: "دعني أعشْ أجواء آيدا، لا تجعلْني أنساها".

أمسكتُه من يده، وأخرجتُه من الدهليز ورائحة الرطوبة والبرودة تنبعث منه. كان دهليزاً ضيّقاً ومظلماً، وجدرانه متضعضعة، ولا يعيش فيه أحد. يقال إن أحد تجّار السجّاد اشتراه، ويريد أن يبني مكانه بيتاً كبيراً. استغرقتْ تسوية أرضه

عدّة أشهر، ثمّ بُني بيت أبيض من أربعة طوابق بنوافذ مُشجّرة وأبواب مُوصَدة.

صباحاً، وفي طريقي إلى الدكّان رأيتُه حائراً على وجهه في الزقاق. يسير في ذا الاتّجاه وذاك. قلتُ: "عمّ تبحث، يا ولد؟".

قال: "كان هنا دهليز، ألم يكنْ؟".

قلتُ: "لم يعد الآن، هيّا بنا، لنذهب إلى الدكّان". ثمّ انطلقتُ.

تبعني، وقال: "لا تدري أيّ لحن كان يعزف، كم كان صوته حزيناً وهو يغنّي أمان أمان".

ثلوج منتصف الليل الثقيلة كانت قد أخفتِ القديمة، وباتتْ، مثل محيط، تفرض تابوت وَحْلها على الأرض. متى ينقضي هذا الشتاء، إذنْ؟ لماذا فصل الشتاء هنا على الدوام؟ دائماً تحت الصفر، بلا شمس. آخ، أمّاه! انظرْ إلامَ فَعَلَ بنا عزيزكَ الغالي؟

التفت وتفحّص النواحي جميعها، سماء وثلج فقط. الجبال متّشحة بالبياض، والأرض غدت حقيرة صاغرة، كل غيم يأتي من ناحية، يُثقلها، في اليوم الواحد، مقدار شتاء كامل من الثلج، ثمّ ينصرف. ومع ذلك، لم يَرْعَوِ. وضع قَدَمَهُ على الأرض، فإذا هي صلبة مثلّجة. ليت مكاناً انفتح، وابتلعه، وقال مرّة واحدة: "آخ".

أحضر الأب بناء، هدمُوا جدارَ القبو الأسود الرطب، وبنوه من جديد بالإسمنت. صنعوا باباً ونافذة جميلَيْن، وصبغوهما بطلاء أزرق. فتحوا كوّة هناك. رُتّبت الغرفة، ونُظّمت. لكنْ، فضلاً عن رائحة الخلّ، كانت تفوح منها رائحة الاحتراق أيضاً. كانت الأمّ تذهب في العصاري للتّبضّع.

أحضروا خزانة كُتُب خشبية بنّيّة اللون، ووضعوها في ركن الغرفة. وفي الناحية الأخرى، وضعوا سريراً بملاية وردية. لمّا فرشنا السّجّاد، قالت الأمّ: "والآن، اذهبا، وأحضرا له الكُتُب التي أحرقتُماها".

قال الوالد: "أنا لا أعرف أيّة كُتُب كانت. أورهان هل تعرف أنتَ؟".

قلتُ: "لا، لم أنظرْ إلى عناوينها. لكن عنوان أحدها كان الأب غوريو، والآخر البؤساء، وأيضاً الأوديسة. ولا أتذكّر البقية".

قال الوالد: "حسنٌ، ليقرأ كُتُبنا".

قالت الأمّ: "آيدين يريد كُتُبه الخاصّة".

قال الأب: "حسنٌ، سأعطيه المال، ليشتريها بنفسه".

الأشياء كلها كانت تسير وفق المراد. قالت الأمّ: "والآن، اذهبا، وأحضراه".

عصر ذلك اليوم، ذهبنا مع الأب إلى رام اسبي. على مفترق الطريق، رأينا شورابي بحقول قَصَبها. كانت أوراق الأشجار اليابسة تُسحَقُ تحت الأقدام. والسَّبْخَة، بهيئتها المعتادة، ماثلة على شمالنا. قال الأب: "كان هذا المكان، ذات زمان، مثل شورابي، بعد ذلك بدأ ماؤه يجفّ، وبقي ملحه". كان يريد أن يقول شيئاً، كي يخفي إخضاعه من طرف آيدين. كان يقول كلاماً بانفعال، ثمّ يُغيِّره. يُلقي الكلام على عواهنه، يطير من هذا الغصن إلى ذاك، وفجأة يركن إلى السكون. لمّا وصلنا إلى رام اسبي، ألقى نظرة إلى البيوت المنبوذة والروث المعرّض لأشعّة الشمس بجانب الجدران، وهزّ رأسه. اضطُررنا لرفع حافّة سراويلنا لعبور النهر إلى الضّفّة الأخرى. قال الأب: "هل هذا مكان يعيش فيه إنسان؟!".

صعدنا مسالك وعرة ومصخّرة، وتوقّفنا قبالة معمل الخشب. كانت الشمس باهتة والريح تهبّ باردة، وذباب أواخر الفصل، الهامد، يلتصق كالقُرَاد. اجتاز طابور حمير مُحمّلة بالقمح من أمامنا بينما صوت جرجرة الخشب كان يصل بلا انقطاع. جلس الوالد في الظّلّ، وقال بعد أن أعدَّ غليونه: "لنذهب إلى هذا المعتوه، كي نسمعَ كلامه الأخير". ثمّ انطلق.

قلتُ: "لا أظنّه يرجع".

قال: "سيعود".

كان المعمل يتموقع في وادٍ بين جبلَيْن، يجري تحته نهر. في الناحية الأخرى بجانب الصخور، كان عاملان منشغلَيْن بنقل أعمدة الأخشاب، وبضعة آخرون أمام صالون المعمل ينشرون. كان آيدين أوّلهم. وقف الوالد أمامه، وأخذ ينظر إليه متجهّماً. لكن آيدين لم يكن منتبهاً إلينا. فجأة، رفع رأسه، وقال: "السلام عليكم".

كأنه عجز. رنا للحظة مبهوتاً، ثمّ أحنى رأسه.

قال الوالد: "انسَ الماضي، و...".

قال آيدين: "والدي، انسَني". ودلف إلى المعمل، يعتري وجهَهُ غَمٌّ غريبٌ.

تجمّد الوالد في مكانه، وظلّت يداه في الهواء. عاد أدراجه بنحو لا تقع عيناه على عينَيّ. اقتنع بضرورة العودة. لم يعرف في حياته قطّ طَعْماً للهزيمة. يومها، أدركتُ معنى المرارة.

قال أورهان: "آخ".

نسي أن يلتقط قبّعته. جرياً على العادة، كان يعود، ليلتقط شيئاً، لأنه دائماً ما كان ينسى شيئاً. لكنْ، ليس القبّعة. هذه المرّة، نسي القبّعة. عاد. كان صوت عواء الذئاب مسموعاً. أسرع الخطى، ووصل إلى الاصطبل. كان صوت عواء الذئاب صاخباً، ينبعث من كل وجهة مثل ألسنة اللهب، فيقذف الرعشة في أطرافه. ماذا يفعل؟ توقّف أمام الباب، فتح أزرار سرواله، وتبوّل واقفاً. مازحاً، رفع رجلاً، ثمّ ضحك متألماً. بعد ذلك، رجّ نفسه بقوّة، وأرخى جسده الثقيل على الباب. وقف قبالته كجدار حجري، ودفعه عدّة مرّات، جَرَسَت مفصَّلات الباب، وأرجعتْه مُصدِرَة صوتاً حادّاً. عواء الذئاب بات أكثر قُرباً. التقط القبّعة، ووضعها على رأسه، ثمّ توجّه نحو المعلف. جلس هناك، ورأى أن العجوز قد ترك دخانه وأعواد ثقابه. قال بصوت مرتفع: "الدخان مقابل الساعة". كانت الأمّ تقول: "كونا سنداً لبعضكما البعض مثل رفيقَيْن، حينها ستريان أن وضعكما يتحسّن يوماً بعد يوم، لا تتركا الوالد يتعذّب".

قلتُ: "أمّي، على الإنسان أن يكون ذئباً حتّى يستمرّ في هذا السوق. هذا الأخ يُشفق على الناس أكثر ممّا يُشفق على نفسه".

كان الأب مريضاً، يحصي أنفاسه الأخيرة. بعد موت آيدا، لم يعد كما كان. غدا إنساناً متجهّماً، يوماً بعد آخر يزداد المعطف توسّعاً على جسده. يغدو، صباحاً، إلى الدكّان، ويروح ليلاً. لاقى أذى كثيراً من التوأمَيْن، على الخصوص خلال الأربع سنوات التي فرّ فيها آيدين. وبمرور الوقت، فَقَدَ صفاته الإنسانية، وبعد موت آيدا، أحسسْنا كلّنا أنه تحطّم. ظلّ في تلك الآونة يتردّد على الدكّان، إلى أن انهار بالكامل. طرحنا فراشه تحت النافذة في الغرفة العلوية، وكنا نستدعي له الطبيب يومياً. التجارة من ناحية،

وحسابات الناس من ناحية ثانية، وانضاف مرض الوالد الذي كاد يُخرّب عيشنا. لم يكن يذعن للموت ولا للحياة. ومع هذا الوضع وهذه المحنة قلتُ: "لنذهب مع آيدين، ونقصد قرية گاوميش گلي".

قالت الأمّ: "انطلقا، ولو أنكما مُتعَبان، لكنْ، لا بأس".

قال آيدين: "وحال الوالد هكذا؟".

قلتُ: "وهل بمقدورنا فعل شيء؟".

انطلقنا. كان شورابي في طريقنا. لمّا وصلنا إلى "سرعين" كان الناس عائدين. وظلّوا كذلك إلى التاسعة ليلاً، يجمعون حقير متاعهم حتّى منتصف الليل، وشيئاً فشيئاً، خلا المكان. في ليالي الصيف، حين كان الجميع يختنق من شدّة الحَرّ، كان المكان هناك بارداً. تتراءى الفوانيس متّقدة، ومُعلّقة على الأبواب والجدران، يُنهك المرءَ نورُها. مجموعة تقصد الماء الساخن فاترة، فيما العَجَزَةُ مُصطفّون في طابور أمام الماء المعدني "جنرال". كان المكان هناك يضجّ بالزحام أكثر من سائر الأماكن. يقال خلال أيّام الحرب أغطس جنرال بريطاني رجلَيْه المعطوبتَيْن في ذلك الماء الساخن، واليوم هو في الجيش البريطاني صاحب الأمر والنَّهْي مثل الأسد. البعض الآخر كان قافلاً، وعلى كتفَيْه فوط واضعاً قبّعة على الرأس ومتمنطقاً بشال، أو مُلقياً معطفاً على الكتف.

كانت المقاهي عامرة، ومحلات المثلّجات كذلك. وأيضاً محلات بيع أحشاء الدوابّ. وعلى جنبات ذلك الشارع الضّيّق المتعرّج المُترَب، اصطفّ الباعة المتجوّلون. من نصف ريال إلى خمسة آلاف. كل مَنْ يريد جني مال، يأخذ معه نجاسة، ويقصد سرعين. حلاّق متهدّم، يحلق بتومان

واحد. في المدينة، يحلقون الرأس والذقن بخمسة آلاف، لكنه يحلق الذقن بتومان واحد. كان يضع على مصطبته مزهرية ورد، كُتب عليها للبيع. سألتُه: "بكم؟" ورأيتُ أنها تحوي ثلاث وردات، حمراء وزرقاء وصفراء.

قال: "مائة تومان".

قلتُ: "هذا إجرام".

كان آيدين طيلة الوقت صامتاً. لا ينبس بكلمة، ولا يضحك، ولا يبدي رغبة. لم نحضر معنا الملابس والفوط. لكنْ، حين نزلنا من المركبة قصدنا مباشرة الماء الساخن لـ گاوميش گلي. كان الطقس هناك مختلفاً عن الأماكن الأخرى. أبخرة الماء الحارّ تتصاعد، وكل مَنْ هبّ ودبّ انحشر وسط حفرة الماء الحارّ. اشتريتُ قنينَتَي عصير الكرز وسيجارَتَيْن. أشعلتُهما، وقلتُ: "دَخِّنْ".

قال: "لستُ مُدخِّناً".

قلتُ: "وأنا أيضاً، لكنها مُنعِشَة". لم يكن يُبدي أيّة رغبة، ولا يمتثل. كان يرنو إلى أولئك الذين يتعذّبون وسط ذاك الماء الآسن مُصرِّين على المكوث فيه. قلتُ: "ماذا تريد أن تفعل فيما بعد؟".

قال: "لا يهمّ".

قلتُ: "أقصد ما العمل الذي ستُزاولُه؟ الوالد يُودِّع، بم تفكِّر أنتَ؟".

قال: "هل جئنا إلى هنا، لنتحدّث بهذا الكلام؟".

قلتُ: "كان يجب أن نتحدّث، يوماً، في الموضوع".

قال: "الآن أنا في الدّكّان".

قلتُ: "أنتَ لا تحبّ عملنا. أنتَ لا تنوي أن تصير كاسباً، إذنْ...".

قال: "ليس باليد حيلة. يجب أن أبقى لأجل الوالد، ولأجل الوالدة أيضاً".

لم يكن يتمتّع بروح التاجر. حين كانت أكياس الفستق والبزر تصل إلى المخزن، وكنّا نكنس أرضيّته في اليوم الموالي، كان ينظر إليّ مشدوهاً، وكنتُ مضطرّاً إلى أمْرِه بإغلاق ثقوب ومنافذ الفئران. فيفعل ذلك. لم أكن أريد إيذاءه أكثر. كانت تنطلي عليه حِيَل كل ماكر. اشترى، يوماً، ثلاثة أكياس من لبّ الجوز، ولمّا فتحناها، وجدناها مدوّدة. قلتُ: "أبي، بكم سعر هذا الدود؟".

نظر الوالد إلى آيدين، هزّ رأسه، وقال: "خذه وكُلْه".

قلتُ: "اصنعْ به فسنجانا(*)، وكُلْه".

كان الوالد منزعجاً، وتغيّر لون شَفَتَيْه إلى بنفسجي جافّ. ليلتها، أخذنا الجوز إلى البيت. وفي اليوم الموالي، نثرتْه الأمّ في فضاء مفتوح، وغطّت أرضية الباحة بالكامل. فاشرأبّت الديدان متموّجة تحت دفء أشعّة الشمس المنعشة. بعدها قال له الوالد أن يصير وزيراً للاقتصاد. وقلتُ أنا له: "آيدين، هل بقي من هذا الجوز شيء؟".

- لأجل ماذا؟

- اشترِه، واجلبْهُ حتّى نفرشه على السطح.

---

*) أكلة تقليدية قديمة من المطبخ الإيراني، تُحضَّر من لُبّ الجوز واللحم ومعجون الرّمّان، تُعدّ، في الغالب، مع نهاية فصل الشتاء وبداية فصل الربيع.

في أثناء العودة، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. بالقرب من محطّة سرعين كان المسافرون يهرعون إلى المركبة، وإلى جانبهم، انزوت سيّدة أجنبية في ركن. قلتُ له: "إنها منحرفة". لكنه لم يبالِ. قلتُ: "أتأتي، لنقتادها إلى ركن، وننهي أمرها؟".

- كلاّ.

- إنها منحرفة.

- كيف عرفتَ؟

كنتُ أعلم. كانت تتلفّتُ، وتفتح شادورها، ثمّ تقفله، وعيناها تضحكان. صحتُ: "ها"، فالتفتت، وغمزتُها. قطّبت جبينها. وقلتُ لها: "انظري"، ثمّ التفتتْ من جديد، وابتسمتْ هذه المرّة. ثمّ استقلّت المركبة رفقة عجوز كانت بمعيّتها. ونحن أيضاً هجمنا، وركبنا. لم نجد مكاناً للجلوس، فوقفنا. كنتُ إلى جانبها، وكرهتُ نظراتها المتواصلة لآيدين. مع انطلاق المركبة، أُطفئت المصابيح، ولم أعد أرى شعرها الذهبي ووجهها المزيّن بالماكياج. لا أعرف سرّ استسلامي لها مرّة واحدة. لم أكن قد أُعجبت بأحد إلى هذه الدرجة من قبل. لأوّل مرّة في تلك الليلة، تبتسم لي فتاة، وتفتح مكاناً في قلبي. قلتُ لآيدين يجب معرفة بيتها هذه الليلة. وسألني لأيّ غرض؟ قلتُ لا أعرف. لكني كنتُ أعرف، نعم، كنتُ أعرف. ليتنا لم نذهب، يومها، إلى سرعين، وليتَني لم أسقط أسيراً في شراك عشق هذه الإنسانة.

أشعلَ سيجارة أخرى. حرّك رجلَيْه ويَدَيْه، وضرب برجلَيْه على الأرض. كان صوت عواء الذئاب يتناهى إلى مسامعه، من وراء الجدران. لم يعرف كيف يتصرّف. سمع من أحدهم أن الذئاب تخاف النار، فأوقد عود ثقاب،

وبحث عن شيء، يُضرم فيه النار. بجانب الاصطبل، كان ثمّة قبضة تبن مُبتلّة، يستحيل إشعالها. لا، إلهي، هذا ليس عدلاً. ما العمل، إذنْ؟ جَمَعَ من قَعْر الاصطبل قِطَعاً جافّة من روث البهائم، وأشعلَ النار فيها، كما يفعل البدو في رام اسبي. كانت تنثر رائحة حادّة، وبصعوبة كانت النار تنتشر في قِطَع الروث، وتُحدث صوتاً. كأن عواء الذئاب ينطلق من داخل الكوخ. نظر أورهان إلى ما حوله، لا أثر لأحد. كان يستطيع الصياح والنفخ في النار بارتياح. التهبت الشعلة للحظة، ثمّ خَبَتْ. نفخ في النار بكل ما أُوتي من قوّة، فَعَلَتْ قليلاً. وضع أورهان يَدَيْه فوق النار، وجلس على الأرض، نزع حذاءه، وأزلف رجلَيْه. ازداد لهيب النار، وبات دخانها يؤلم العين. بيد أن رائحة لبن القرية كانت تصل.

قلتُ: "لماذا تخرجين من البيت، بلا إذنْ منّي؟" ألم تكن أمّنا امرأة؟

كانت تمضغ العلك، وهي تتأمّل في يَدَيْها. ما أدفأ جسدَها! قالت: "ما دخلي أنا بأمّكَ؟ يجب أن أزور عائلتي".

قلتُ: "ماذا ينقصكِ في هذا البيت؟". كنتُ أهيّئ كل شيء، أكثر ممّا تطلب هي. ومهما فعلتُ، لم أنجح في إغرائها بالبيت. كانت لها رغبة في الهروب. قالت: "كيف لي أن أطمئنّ إلى أشيائكَ؟ في النهار غائب من الصباح إلى الليل، وليلكَ تقضيه في التفكير في الدكّان والبزر".

فيما بعد، أدركتُ أن النساء كلهنّ يتشابهنَ. لا أقلّ ولا أكثر. كان الوالد يقول: "لا يجب اجتراء المرأة" وكان يقصد الأمّ وآيدا. كان يشير إلى المطبخ، ويقول لهما: "إذا استطعتُما القيام بواجبات هذا المكان كما ينبغي، فستصيران امرأتَيْن جيّدَتَيْن".

أصابه الجوع. كانت عيناه توشكان على الجحوظ، نسي أن يملأ جيب سترته بحفنة من الفستق أو البزر، كما كان يفعل دائماً، ويجترّها بين الفينة والأخرى. كانت رائحة الروث المحروق تزكم الأنوف. سرى الدفء في نفسه، فبثّ فيها روحاً جديدة. والآن بات يريد العودة. حتماً سوف ينطلق بعد تدفئة يَدَيْه وقَدَمَيْه. كانت أشعّة الشمس تدلف إلى الغرفة العلوية أوّلاً، ثمّ تنمحي تحت المسند. كان يظلّ نائماً إلى الظهر، وحتّى إلى الليل. لم يكن يذهب إلى الدّكّان. لكنْ، بعد هذه المعاناة كلها، ومن دون أدنى تردّد، كان يذيق آيدين أشدّ العذاب، ويقصد الأمّ ليحكي لها. وهل يستغرق قَتْل إنسان أخرق وقتاً يُذكَر. لن يستغرق تدميره أكثر من نصف ساعة.

انتظرتُ إطلالة إياز الضابط. جاء ذات صباح، ولم يكن لطيف المزاج. قلتُ له: "أريد تطليقها".

- أبهذه السرعة؟

- إنها عقيم.

- عميتْ عيناها، كانت لا تريد أن تكون عقيماً.

كم كان عليّ أن أنتظر؟ كنتُ أريد فتاة عفيفة. وكان إياز الضابط يوصيني بعدم تطليق آذر، ما لم أجد الفتاة الطاهرة. كان يقول: "لا تبعْ بيتكَ، ما لم تشترِ آخر".

قلتُ: "إنها شاردة الذهن".

قال: "ليست من عائلتكَ، لا داعي للتحسّر، إذنْ".

قلتُ: "عثرتُ عليها في محطّة سرعين، لم أكن أعرف عنها شيئاً".

قال: "ما يأتي به الريح، يذهب أدراجه".

في طريق عودتي إلى البيت، كان سلاحي مَحشوّاً. كنتُ أذكر ملابسها، وطبيخها، بينما مذاق طبخ الأمّ عالق في فمي. كنتُ أذكر حجابها، قميصاً بلا أكمام. كانت لا تحتجب في حضور آيدين، تبرز أمامه كما تكون أمامي. قلتُ لها: "على الأقلّ، ضعي شادوراً على رأسكِ أمام ابن الغول هذا".

قالت: "هل أنتَ أخرق؟ هذا التعس أكثر طفولة من الطفل".

قلتُ: "لقد سئمتُ هذه العيشة".

- عمّ تبحث؟

- طفل.

طبخت لي كفتة تبريزية، وطفقتْ تُحملق في طريقة أكْلي على السفرة. قلتُ لها: "أنتِ ورثتِ خالتكِ الصغرى، هي عقيم أيضاً مثل عمّي صابر".

قالت: "إنه ليس ذنبي، هذا أمر الله".

- كائناً مَنْ كان ذنبه، أنا أريد وارثاً.

- يوجد أطفال في الملاجئ، سأذهب يوماً، وأختار أجملهم. هناك أطفال صغار وُسَمَاء. يوجد أيضاً أطفال من فترة الحرب، وقد كبروا الآن، كما يوجد فتيات للزواج.

- يجب أن يكون من صلبي.

احتدمتْ غيظاً، فقالت: "هناك المرأة التي تغسل ملابسنا، إذا أردتَ، يمكنكَ أن..."

- كلا، وهل أريد أن أُنجب خادماً؟

- حين تلدُ، نحضر الطفلَ عندنا، ليكبر بيننا، ولا تنسَ أنه سيكون من صلبكَ.

لم يكن لنقاشنا نهاية. تلك الأيّام، افتتح طبيب عيادة في مدينتنا، في ساحة الشاه، وكانت تقول إنه يصنع المعجزة، وسمعت أنه يجعل المرأة تلد في كل سنة واحداً. فيما بعد، أدركتُ أن تلك المرأة الساقطة المقابلة لبيتنا، والتي لا تعرف عملاً آخر غير التجميل، هي مَنْ لقّنتْها.

أخذتُها، وليتَني لم أفعل، وليت حلم إنجاب طفل لم يراودْني. لم أكن أتحجّج، أو أعترض، غير أن ذاك الفناء المفتوح كان خالياً. لا درّاجة، ولا كرة، ولا صراخ طفل، يملأ على المرء فراغه، أو يرتمي من تلك الشرفة العلوية في الحوض، فيضطرّني إلى سَلْخه بالسوط، كلاّ، لمّا توصّلنا بنتائج التحاليل، لاحقاً، أدركنا أن العيب فيّ أنا. لكن حبّ طفل، ظلّ يدغدغ أعماقي. طفل يصرخ ويصيح، وينتف شَعْري، ويتسلّق رأسي وظهري. يُكسِّر زجاج نافذة الجيران، وكل يوم يُثير شَغَباً جديداً.

أحسّ أنه يتكلّم بصوت مرتفع. أشعلَ لفافة أخرى، تناول حذاءَه من على الرماد الساخن، وانتعلَه. هبّ واقفاً، ونفض غبار سرواله، وسَحَقَ النار الخامدة برجلَيْه، ثمّ توقّف عند الباب. كان الأفق مثلّجاً بسمائه الدكناء. كره هذه المدينة، واشمأزّ منها، مدينة تحت الصفر دوماً، تحت الثلوج ووجع الصقيع، حيث دمعُ الإنسان يتجمّد.

كان هنا. قلتُ له: "ماذا تفعل هنا، يا ابن الغول؟".

ارتشف كأس شاي تركي إلى النصف، وانهمك في قراءة جريدة قديمة،

وقَلَبَهَا رأساً على عقب، فيما أصختُ إليه، كي أعرف ما يقرأ. كان يتحدّث عن الحرب، وبمُجرّد ما وقعت عيناه عليّ، قال: "أخاه، لقد انطفأت نار الحرب في صقيع موسكو". كان المكان في الخارج أخضرَ، والشمس قد أرسلت أشعّتها إلى جانب واحد. وعلى مقربة من الشجرة تَيسان يتناطحان، يتراجعان إلى الخلف بضعة أقدام، ثمّ ينطّان، ويصطدمان برأسَيْهما. كان أحياناً يرفع رأسه، ويُشجّعهما: "أحسنتُما". وبعد أن ارتفع الكثير من غبار معركة التيسَيْن، خرج من المقهى، وضرب بيَدَيْه دون أدنى اكتراث. ثمّ انطلق بخطوات كبيرة إلى ذاك الاتّجاه، وهذا المتّجه وهو مفترّ ضحكاً. بعد ذلك، اتّجه صوب جماعة، في جرف بجانب المقهى، وكانوا منشغلين بتدخين الغليون، وهم يهزؤون به. توقّف قبالتهم، وقال: "إذا أردتَ أن تعرف صاحب الكتاب الأصلي، فاقرأ هوامشه".

قَهْقَهُوا، وقال: "ليتَني أُصبح، ليوم واحد فقط، قائدَ هؤلاء الناس، مثل هتلر. أتجهّم وأقول: كل مَنْ يملك شيئاً، فهو ليس له، إنه لله. وأنا جئتُ من قِبَل الله، والجلال الإلهي يشمل حالي. لديّ الكتاب. إنه في الطريق".

أما الشبّان، فرموه بطين يابس، وضحكوا. قلتُ: "ألستُ أخاطبكَ؟ ماذا تفعل هنا؟". تيبّست الضحكة على مُحيّاه، وكأنه رآني للتّوّ، غير أنه حاول الضحك مجدّداً وسط ذاك الحشد من الناس. ثمّ قال: "سيّدي، أنا لديّ قلب مثل الآخرين".

صفعتُهُ على خَدَّيْه ثلاثاً، وقلتُ: "ارتكبتُ حماقة".

قال: "ألا يجدر بي أن أشتهي كأس شاي؟".

- اشربْه هناك، ولا تحبسْني معكَ.

غسل القهوجي مُشْد عبّاس فنجاناً، وطبقه مُحدِثاً جلبة، وسكب لي كأس شاي فاتح اللون. وقال: "وأخيراً طاوعتَ نفسكَ، وجئتَ، تفضّلْ".

قلتُ: "شكراً". وألقيتُ نظرة إلى آيدين الذي انزوى في جانب من الجدار، وقد شدّ رأسه بيَدَيْه. قلتُ له: "لا تقرأ هذه الجرائد كلها".

كان صوته دافئاً وهو يدندن بكلام. كان مُشْد عبّاس يقول: "إذا لم أُخطِئ، فقد مرّ شهر على فصل الربيع، لأنه كلّما رأى السنونوات يرفع عقيرته بالغناء".

كان قلبي ينبض بشدّة، وكنتُ خائفاً من أن يفتح فاه، دفعة واحدة، ويشرع في سرد كل شيء وهو غير مبال. لكنْ، مع مرور كل يوم، كان يزداد غوصاً في الأعماق، وكأنه علقَ في مستنقع.

قال مُشْد عبّاس: "ائذنْ لي أن أحضرَ لكَ كرسياً".

قلتُ: "لا أريد". لكني كنتُ أريد. صرتُ الآن ثقيلاً. قضيتُ ستّاً وثلاثين سنة في حلاوة النعيم. نعم، إنها تلك السنوات. أحياناً، كانت قدماي تُنمِّلان من وطأة جسدي. قعدتُ على كرسي حديدي أزرق وأنا أرقب، من بعيد، بياض السَّبْخَة. أحضرَ مُشْد عبّاس طاولة، ووضعها أمامي. قال: "لعلّ سوجي واسطة خير، وإلا أنتَ أين؟ وهذا المكان أين؟".

جلس آيدين في ركن من الجدار، في سكون مُحدّقاً في نقطة بعيدة من الأفق. وقفتُ، وأمسكتُ يده، وقلتُ: "إذا كنتَ لا ترغب بالشاي، فهيّا، انطلقْ بنا".

لم تعد هناك حاجة إلى جرجرته، كان يرافقني كتفاً بكتف. قلتُ له:

"ما كان ينبغي أن تأتي. ثلاثة أيّام وأنتَ بهذا المكان. ألا تفكِّر في وحدتي في ذاك البيت القفر؟".

قال: "هكذا الإنسان".

حين وصلنا إلى المدينة، كان الوقت عصراً، والشوارع قد نُظّفت بالماء، وضبّاط الأمن يجولون مثنى مثنى، والحمّالون جالسون على عرباتهم، يأكلون البطّيخ. والحلاّقون يحلقون الرؤوس مقابل تومان واحد. لمّا رأى الأطفال آيدين، أخذوا يصرخون: "سوجي، سوجي، المجنون!". وحيناً، كان ينطلق صوت من خلف الجدار: " دينصور!". وكنتُ أعلم أن تلاميذ ثانوية "صفوي" هم وراء هذه الحركات.

كانت الذئاب تمرّغ خطومها بالأرض، وتتحلّق حول بعضها. ثمّ تُطوِّق الاصطبل، وتدكّ بحوافرها الأرض، كي يخرج أورهان. قال: "هذا هو الإنسان. سوجي، سوجي، المجنون". صرخ: "سوجي". غير أنّ الذئاب ما إن كانت تسمع صوته حتّى تخبط الأرض أكثر فأكثر. انزوى في ركن من الاصطبل، وسحب أذيال معطفه على رجلَيْه.

وكأن الأمّ بالأمس القريب كانت تصرخ من أعماقها، وتجهش بكاء، ويتهدّج نَفَسُها، ويمتقع لونها، وتتوسّل بالجدار، ثمّ تهوي على ركبَتَيْها ساجدة. مرّ الزمان العصيب بسرعة، وذهبت أربع عشرة سنة أدراج الرياح دفعة واحدة، بلا طائل ولا فائدة، كأنكَ بدّدتَ العمر. بوجود الأمّ، كان المرء مطمئنّاً إلى دفء الكرسي في الغرفة العلوية، وتموُّج بخار المدفأة بين أغصان الصنوبرة المثلّجة، وغليان المرجل. بالرغم من أنه ليس أورهان أمّه، بل آيدين، هو آيدين أمّه.

قالت: "لا تأتِني ما لم تعثرْ عليه". كانت حفنة العظام تلك تُصدر الأوامر بتحكُّم يُذوِّب المرءَ خجلاً.

قلتُ: "أمّي، لا يمكنني أن أظلّ أسيرَهُ ليل نهار. ماذا أفعل بالدّكّان؟ قسماً بالله، إني تعبتُ".

- اغربْ عن وجهي.

وأيّ مكان لي آوي إليه؟ قلتُ: "كيف لي أن أعرفَ مكانه؟" "لقد كان خطئي إذ أخذتُه للدكتور مائة مرّة، واعتنيتُ به، ورعيتُه؛ كنتُ أعطيه الجريدة ونقود الشاي، وآخذه إلى الحلاق والحمّام. أنا أيضاً إنسان، ولديّ ماء وجه". لكنه لم يسلكْ طريقاً قويماً. جلستُ معه حتّى يقول ما يحلو له، ويصرخ، وينتف شَعْر رأسي، أو يصفعني، كي يتركني وشأني.

قالت: "لقد فعلتَ ما فعلتَ، لكنْ، لا تنسَ أنكَ قمتَ بذلك لأجلكَ أنتَ".

- لا تتهمّني، أمّي! أيّ ذنب اقترفتُ أنا؟

غطّيتُ قَدَمَيْها بالبطّانية، وسكبتُ لها كوب ماء، فأمسكَتْه، ورمَتْه بعيداً، فتناثر الزجاج المكسور في أرجاء الغرفة. واندفعتْ: "أين ولدي آيدين؟".

كان يعزف القيثارة مع الأطفال المشرّدين خلف مدرسة أنو شيروان. أمسكتُ بيده، كي أُحضره، فامتنع. كان يُمرّغ نفسه على التراب كالأطفال. كان، بشَعْره الأبيض الأسود وبالتجاعيد التي عَلَتْ جبهته، يشبه الكهول الملاججين الذين لا يعرفون غير العناد، ويَبدون كأطفال في سنّ الخامسة. قلتُ له: "آيدين، أنتَ بجثّتكَ الضخمة، هاته!".

أزلف وجهه إلى وجهي، وصاح: "وما الذي حصل؟".

صفعتُهُ تحت شحمة أذنه: "يا ابن الغول، سأجعلكَ آدمياً".

قال: "أخاه، لا تقلْ، فإن رأسي ينفجر".

قلتُ: "أنا لم أقلْ شيئاً، الوالدة هي التي أمرتْكَ بالرجوع".

قال: "الوالدة؟" وظلّ حائراً للحظة، ثمّ استسلم للقَدَر، ورافقني بخطوات كبيرة، ونسي أطفال القيثارة، ولم يلتفت إلى صخبهم.

قلتُ: "يجب أن ترافقَني إلى الدكّان في الخان، وتظلّ تحت مراقبتي، كي نتجوّل معاً، أتفهم؟".

قال: "في رأسي سوق الصّفّارين". وضع يده على صدره، وأردف: "توقّفت هذه الكأس. شيء ما ينقص هنا، ويعكّر مزاجي باستمرار".

صفعتْني أمّي على وجهي حتّى طار البرقُ من عيني، فاندفعتُ: "لمَ تضربين، أمّي؟"

- ماذا أطعمتَهُ؟ يا عديمَ الشرف؟

- هو لا يعقلُ، لكنْ، أنتِ، لمَ تقولين هذا الكلام؟

صاحت صيحة جنونية، وكأني بجِلْد بَدَني قد انتُزع. قالت: "منذ تلك الليلة، منذ تلك الليلة...لن ترى خيراً".

كان عليّ أن أُقاوم، وألاّ أسمح لها بأن تشمّ خبراً. لم تكن تُصدِّق كلامي، فقرّرتُ، مضطرّاً، أن أتمارض لفترة حتّى ألفتَ انتباهها. فكانت

تعتني بي، وتطبخ الطعام، وتُذكّرني بموعد تناوُل دوائي. لكن آيدين كان يقول فجأة: "آخ، أمّي".

كانت الأمّ تتماسك، ثمّ تضطرب، وتنوح بصوت رخيم، وتتكلّم بصوت غليظ، وتُكلِّم نفسها. وذاك الذي وقف قبالتنا كتمثال، وكأنه صُنع قطعة واحدة من حجر أو رصاص، لم يكن مثلي، كان حقّاً مريضاً. ورغم ما بذل من جهد، كان يزداد غَرَقاً، بوجهه التاتاري الذي غرتْه التجاعيد، وشَعْره الأبيض، ورأسه الثقيل كجبل. لم يكن يقدر على إبقاء رأسه معتدلاً، وكان يهذي. كان قلبي يخفق بشدّة، وكانت الأمّ، للحظة، تلسعني بنظرات مشمئزّة، ثمّ تقول: "لقد فعلتَ ما فعلتَ، لكنْ، على الأقلّ، أخبرْني ماذا أطعمتَهُ، كي أجدَ الترياق المناسب".

ماذا كان بوسعي أن أُجيبها؟ كنتُ، كالمعتاد، ألزمُ الصمت. حينئذ كانت تقول: "إذا قضى الله حكمه، سيعطيكَ ما تستحقّ".

قلتُ: "لا تدعي عليّ، أمّي، وارحمي شبابي. أنا الآن أبلغ تسعاً وعشرين سنة، ولديّ ألف أمنيّة وأمل، أمّي". ولم أكن أعلم أنني أبكي. والآن أيضاً لا أعلم أنني أبكي. من الألم، والتعب، والبرد والجوع. كنتُ أجزع دائماً من سخط الوالدة. لكن سخطها لم يلحقْني أبداً. بل هي مَنْ كانت عليلة على الدوام. ومنذ ذلك الحين، انقطع نَفَسُها كُلّيّة، وتدهورت حالتها. مع كل يوم، كانت تزداد ذبولاً وانكساراً. ولم يعد بوسعها، بجثّتها العَظْميّة النحيلة، إلا الخرخرة على الفراش الأبيض. فكانت، بما بقي لديها من قليل طاقة، تقول: "آيدين...أين ولدي آيدين؟".

في المقبرة، رقدت تحت شجرة الدُّلْب تلك إلى جانب قبر آيدا. فكنتُ

ألمّ ألمي، وأذهب في إثرها، وألفيها أمّاً. لم أكن، أبداً، أورهان ولدها. خيالاتي كلها تلبّست بلبوس الحقيقة. كنتُ أُدرك، من سنوات خَلَتْ، أن المحبّة أحلى من الثروات كلها. كنتُ أقرأ هذا في نظرات الحمّالين. والآن ما يزال الحمّالون والآخرون يحبّون سوجي أكثر من أورهان. حتّى الوالد، رغم تنفّره منه وإهاناته له في ظهر غيبه، لم يكن قادراً أن يكون عادياً أمامه. كنتُ أرى، بوضوح، ارتباكه وانهزامه أمامه. ينظر إليه نظرة احترام، يكشف له ضعفه، فيضطرّ لمخاطبته: "ماذا تفعل، يا ولد؟" عوض أن ينعتَه بـ: "عديم الشرف، غبي!".

- لقد أخفقتُ في الشِّعْر، والآن أصنع قارباً بالخشب.

- اصنعْ، اصنعْ حتّى أرى أيّ مكان ستفتحه.

وبعد موت آيدا حوّل هذا الإنسان، الذي كان غارقاً في الشِّعْر والأدب، وكانت الجرائد والصحف تنشر أراجيفه باستمرار، وجهتَه كُلّيّاً صوب النجارة، فكان ينشغل بالخشب، ويبحث في أعماق ثقوبه وحفره عن شيء، لم يكن أيٌّ منّا يجد له أثراً.

لكن الأمّ كان سلوكها مختلفاً عن الأب. لم تكن تَقدِر على كتم شيء في نفسها. فتكشف عن مكنونها، وتنادي وسط أنفاسها: "آيدين...آيدين...".

بالقرب من شورابي، في هذا المكان، كان يُكدِّس جرائده القديمة، في جيبه، وفي ثنايا جواربه وإزاره، وفي ثنية السروال. ويمسك بعدد آخر منها في يده. قلتُ: "جئتَ إلى هنا من جديد، يا ابن الغول؟!".

- أخاه! نحن، أحياناً، آدميون أيضاً.

- قاتلكَ الله، هيّا، إلى السّيّارة.

فلا يعود للضحك، ترمش عيناه، وينظر إلى ما حوله، ثمّ يشرع بالتوسّل: "أخاه، تعال بنا نتسكّع راجلَيْن".

- لقد أحضرتُ السّيّارة، ودفعتُ أجرتها.

- أنتَ تعلم أنني أرغي وأصاب بدوار في السّيّارة.

أمسكتُهُ من الكتف، وقذفتُهُ على كرسي السّيّارة الخلفي: "إلى جهنّم، مَنْ يزرع الشوك، لا يجني به العنب، أنا لديّ عملي وحياتي، ولا يمكنني أن أبقى أسيراً لكَ".

لمّا أشرفنا على الخان، ناديت الحمّالين للمساعدة. لم يَقدر على قول شيء لفرط ما عربد وصاح في الطريق وأرغى، وانقلب بياض عينَيْه. مددناه في الدهليز، ورغم إلحاح إسمايول الشديد على إدخاله إلى الدّكّان، رفضتُ. وقلتُ: "ليفعل الناس ما يحلو لهم، لكنْ، إذا تبوّل في الدّكّان، سيُنجِّس كل شيء".

رسم إسمايول بسفود خطّاً حول جسده ومحيط بَدَنه، كي يبقى ألمه في الأرض، ولا يخرج منها. بعد ذلك، غسل وجهه بماء بارد، وحمله إلى أقصى الخان، ثمّ سكب له الشاي. تحلّق الحمّالون من حوله، لكنه ظلّ فاقداً للوعي حتّى الليل. حين عدنا إلى البيت، ورأى الأمّ، أخذ يذرف الدموع. كنتُ أعلم أنه يريد تعذيب أمّي. ولكي تُعذِّبني هي، أمسكَتْ رقبتَه، وقبّلتْها، ومسّدتْ شَعْره، وغيّرت قميصه، وقلّمتْ أظافره، بينما ظللتُ أنا على عتبة الغرفة، أكتوي بنار العذاب، ولا أعرفِ ماذا أفعل، هل أذهب أم أبقى؟ أحسّت الأمّ، للحظة، بوجودي، فعادت، وألقت نظرةَ قلق على يَدَيّ ورِجْلَيّ فقط.

كان العواء يقترب أكثر فأكثر، والمكان كله يغصّ بالذئاب التي كانت تعوي دفعة واحدة، ولا تترك فرصة للأمان. أما البرد، فقد كان يبيد المرء، وقد حصل أن جمّد الخيول والأبقار كثيراً. وفي وقت سابق، عُثر على راع مُتجمّد؛ وكان جالساً فوق صخرة مُصوّباً ناظرَيْه إلى مكان. نهض أورهان من ركن الاصطبل وهو يرتعد، ليس من البرد أو الخوف، بل من شيء لا يعرفه، وكأنه أُوصِل بتيّار كهربائي. ضرب على الأرض بقَدَمَيْه، كلا، غير ممكن. في السنة الماضية، عُثر على ثلاثة أشخاص متجمّدين في سيّارة، امرأة ورجل شابّ مع طفلتهما في عامها الثالث. قيل إنهما لفَّا الطفلة بكل الثياب التي كانا يلبسانها. ورغم ذلك، لم يستطيعا مقاومة الصقيع. تجمّد أنف الطفلة وفمها، وتدلّت من أعين جميعهم قناديل بلورية. حرّك أورهان يَدَيْه، وأقفل أزراره، ورجّ نفسه من جديد. ثمّ جمد في مكانه، ولم يتحرّك. لطالما خبط طرقاً خبطَ عشواء. كان صوت العواء مع مرور كل لحظة يقترب أكثر. نفخ في يَدَيْه. أين أنتَ، يا سوجي؟ سوجي!

صرخ وصاح. ولم يدر أنه عربد وبكى. ومهما أمعن التفكير، لم يفهم لمَ انطلق في ذلك الوقت من النهار بالتحديد. غير أنه كان يدرك أنه عانى الأمَرَّيْن من آلام الوحدة، وقضى ليالي أسوأ من هذه. وكان يريد، إذا ظفر به، أن يُكبِّل يَدَيْه ورجلَيْه، ويُطوِّق رقبته بحبل، ويتركه في مكانه، ويستودعه أمان الله. لكنه الآن واقع في أسر الثلج، ثلج لا يعرف شيخوخة ولا نهاية. اكفهرّت السماء حتّى أرادت أن تدفن الدنيا تحت الثلوج. مثل الطفل الذي يريد وأد نملة بحفنة تراب، وحين تُخرج رأسها، يحثو عليها التراب من جديد. والتراب لا ينتهي، ولدَفْن نملة هناك ما يكفي منه، ومقاومتها عَبَث.

هذا الكلام كله في جانب. أين آيدين؟ أينما ولّى وجهه يراه، ليس من

أجل الأمّ، بل من أجل قلبه هو الذي افتقد رفيقه. الآن لم تعد الأمّ موجودة كي تنادي: "أين ولدي آيدين؟".

على مقربة من البيت، هناك في الدهليز الخرب المقابل لمعمل اللورد للمراوح، كان عازف يائس يترنّم بمقطوعة "أمان أمان" ببهاء وروعة، وكان آيدين يذرف الدموع، ويذرف حتّى يدرك المرء أنه تذكّر آيدا. يومها كان الثلج أيضاً ينزل، والسيول اجتاحت الطُّرُقات، وعمّال معمل المراوح يسدّون منافذ السيل بأكياس الرمل.

قلتُ: "ماذا تفعل هنا، يا ابن الغول؟".

قال: "تعالَ، واجلسْ، وانثرْ على موتاكَ قطرات من دعواتكَ".

قلتُ: "لففتُ الأماكن كلها: مقهى مُشْد عبّاس، والمقبرة، ومدرسة أنو شيروان، وبستان أخوان، والسَّبْخَة. والآن أرى أنكَ هنا. ألا تظنّ أنه عليكَ إخباري بالمكان الذي تريد أن تنحشر فيه؟".

قال: "منذ زمن طويل وأنا آتي إلى هذا المكان".

خرجنا من الدهليز المهجور، وتركناه طعمة لرياح عاتية، تُغيِّر من المتاهات خلفه. قلتُ: "بهذه الطريقة، لن تتمّ صفقتنا. أنا لا يمكنني أن أظلّ أسيراً عندكَ، ألفُّ الدنيا، لأعثر عليكَ".

قال: "إذنْ، كَبِّلني من جديد، أخاه".

كان الأمر غير ممكناً في حياة الأمّ. لكنْ، بعد موتها، كنتُ أُوثقُهُ بسلسلة إلى الشبابيك العلوية، وأُلقي أمامه الجرائد القديمة، كما أُلقي العَلَفَ للبهيمة. فكان يلهو بالأوراق، ويظلّ على تلك الحال حتّى يسند

رأسه على الشّبّاك، ويستغرق في النوم. كان يُخيَّل إليّ أنه مات. قلتُ: "هل أنتَ راضٍ؟".

قال: "أخي. اليوم هو اليوم، لكن الزمان غير الزمان. هل تُصدِّق أنتَ أن آيدا، أختَنا، أحْرَقَتْ نفسها؟".

كان إصراره عجيباً، يُعذِّبه ليل نهار. ولم يعد الآن لإصرار الأمّ وجود، لأنها رقدت تحت أكوام الحجر والثلج منذ سنوات خَلَتْ، ولم تعد قادرة على التحديق في يَدَي أورهان، والحكم عليه: "آيدين".

رفع رأسه من على الجدار، وصوّب ناظره نحو مصدر العواء في الخارج. ازدادت حدّة التساقطات، ولا يبدو أنها سوف تتوقّف، وكأن السماء مُصمِّمة على إنهاء الموضوع؛ تُثلج وتُثلج، وكأني بالناس، بعد مدّة، سينعتون تلك السنة بالسنة المثلجة. ثلوج سميكة كتلك التي صنعنا في المدينة تحت سمكها نقباً وأنفاقاً، نسلك عبرها إلى الشارع. ثلوج في زقاق صغيرة، من الطَّرَفَيْن حتّى إذا كُنِسَت أكوام السطوح، استحال فتح الأبواب. لم تكن الأمّ قادرة على تدفئة الغرف، فيتحوّل مجلسنا إلى مأتم، ويتساءل الأب: "ماذا يفعل آيدين في هذا البرد؟".

قلتُ: "أبي، أنا لا أذهب إلى القبو".

- لكنكَ تعرف، أيّها الوغد، ماذا يفعل ليلاً.

- يطالع الكُتُب.

فليطالع. ليت الوالد لم يمنعْه. أين أنتَ، آيدين؟ سوجي. كلاّ. إنه صياح منبعث من جوف حيوان ضالّ، وكأنه يتأوّه من الألم أو يعوي. كانت الذئاب

تقترب أكثر فأكثر. أسلم رأسه للجدار، واستجمع قواه كلها، كي يبقى على قيد الحياة. كان الصوت آتياً من خلف الجدران، ومن دون أن يشعر أو يرغب بذلك، أخرج لفافة دخان من جيب معطفه، وهمّ بإشعالها، لكنه لم يجد عود ثقاب. رمى العلبة، وسَحَقَ اللفافة بين أصبعَيْه. نَفَخَ في يَدَيْه، فتجمّدت قطرات نَفَسِهِ على جِلْد يَدَيْه. سوجي! عواء الذئاب الآن يُسمَع خلف الجدران، كانت خمسة أو ربّما ستّة. تهبّ كلها على رجلَيْن، وتتحرّك ضاربة الأرض. كان الجوع يستحيل صياحاً، ويخمد مع الألم. قال: "رأسي" حينئذ ركض آيدين إلى داخل الدّكّان، وقال لي مسروراً: "أخاه! أخاه!".

- ما الأمر؟

أشار بيده إلى امرأة، يرافقها طفلان أشقران وسيمان. قال: "أخاه! إنها زوجة أخي".

أمعنتُ النظر، فإذا هي زوجتي، آذر، وكانت تشتري المكسّرات من الدّكّان المقابل. كان معها طفل وطفلة. ضفرت شَعْر ابنتها الطويل، وبين الفينة والأخرى، كانت تتفحّص دكّاننا شَزَرَاً. لم أرَها منذ سنوات. كنتُ أعتقد، إلى ذلك اليوم، أنني صرتُ عقيماً، ولم يعد لديّ أي ميل إلى النساء، لكنْ، حين وقعت عيناي عليها، أحسستُ برغبة جامحة إليها في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، والآن أيضاً.

عند المغادرة، أبطأتْ قليلاً في الدهليز، لتنادي على ولدها. حينذاك أمسكتْ بيد كلَيْهما، وانصرفتْ وشفتاها مفترّتان بابتسامة العاشق في غرّة الصباح.

قال آيدين: "زوجة أخي". ثمّ ابتسم ابتسامة أقرب إلى البكاء.

قلتُ: "وإن يكن!".

قال: "لاشيء، كانت زوجة أخي".

قلتُ: "اغربْ عن وجهي". ثمّ قذفتُه.

قال: "حسنٌ، سوف أذهب". التقط حفنة بزر، وقصد، مجدّداً، أسفلَ الخان. جلس على برميله إلى جانب إسمايول، وغطّى رجلَيْه بالبطّانية. بعد ذلك اليوم، رأيتُ آذر مرّة أخرى بالقرب من السينما، وكانت منشغلة بترتيب ياقة وزرة زوجها، ولم أستطعْ رؤية وجه الرجل، لكنه كان أطول منّي. حين كنتُ أصفعها، مرّتَيْن أو ثلاث مرّات في الأسبوع، كان عليّ أن أقف على أصابع قَدَمَيّ. لكنْ، كأني بها كانت تستمتع بذلك، إذ كانت تظلّ مُحدِّقة وأعصابها هادئة، تطرف وتُحدِّق، تبتسم وتُحدِّق، وأنا يستهويني الصفع من جديد.

وفي مكتب الأحوال المَدَنية، قلتُ لها: "جئنا إلى هذا المكان، كي أُطلّقكِ".

قالت: "فليكن".

قلتُ، وقِّعي، فوقَّعتُ. وفي اليوم الموالي، جاءتْ، وجمعتْ أثاث البيت، ورحلتْ. ولم أرد ذِكْرها، تماماً كما الوالد الذي كان يجلس على أريكته الجِلْدِية تحت الصنوبرة، ويقطع البطّيخة، ويناولني قطعة منها، ويقول: "لا تتحدّث عن هذه الجثّة".

فُتح باب الاصطبل من شدّة الوطء، فاندفعت عاصفة ثلجية إلى الداخل، أغرقت المكان بالثلج، فانعكس بياضه الناصع ضياءً على الجدار

المقابل. بات عواء الذئاب، الآن، ينبعث من الداخل. لقد كسّرت الباب، ووثبتْ، وهي اللحظة، تقف خلف رأسه بالضبط؛ ستّ ذئاب، تدكّ الأرض بحوافرها، وتملأ الفضاء عواء. كم هي جائعة! ليته كان يتوفّر على كسرة خبز يابسة، فيرميها لها. أين أنتَ الآن، يا سوجي؟ سوجي!

قال: "إن طعمه طيّب، لكنْ، يُخيَّل للمرء وكأنه يأكل الرصاص".

قلتُ: "أنتَ لا تعرف كبيرَنا هذا، إنه ماهر. كُلْ، فلن تجد مثل هذا الطعام حتّى في مائدة السماء".

قال: "ما اسم الأكْلة؟"، وتناول ملعقَتَيْن مترادفَتَيْن، ونظر، كارهاً، إلى ما تبقّى في قَعْر صحنه.

قلتُ: "لا أعلم، إنها أكْلة طائر نادر، يتناولها السّيّد اللورد كل يوم".

قال: "إنها باهظة بالتأكيد". ثمّ ابتلع ملعقة أخرى.

قلتُ: "كُلْ قَدْر ما تستطيع، ولا تفكّر بثمنها". وكان قلبي ينبض.

- لمَ لا تأكل أنتَ؟

- أنا أكلتُ في السابق.

- لقمة واحدة، على الأقلّ.

استمرّ في الأكل، ورأيتُه ونبضات قلبي متسارعة، يشهق شهقات عالية، وعيناه تدوران في مكانهما، فأشار إلى صدره، وقال: "لقد علِقَتْ هنا، إنها ثقيلة...كالرصاص". ثمّ شدّ رأسه بكلتا يَدَيْه، وشرع ينوح ويصرخ إلى أن هدأ: "آخ، يا إلهي!".

أحاطت به الذئاب من كل جانب، وباتت على أُهْبَة الهجوم، كانت تتحلّق وهي تُحدِّق في بعضها، وتتربّص، بثبات، وبما أُوتيت من قوّة جوعها، لعلّه يغفل، للحظة واحدة، فتُمزِّقه إِرْبَاً إِرْبَاً، وتُخلِّف وراءها عظاماً مُلقاة على الثلج، فتتسارع أنفاسها، وتستحيل هَرَمَاً، يصطدم بمؤخّر رأسه. حركة صغيرة فقط كانت كافية. لذلك لم يجرؤ على رَفْع رأسه عن الجدار. أطبق عينَيْه، واستسلم منتظراً الافتراس، وصرخ: آيدين! آيدين!

وفجأة سكت. رجع القهقرى، لا أثر لذئب، ولا لعواء.

أسفر الصبح عن غيوم بيضاء هائلة، سترت السماء، لئلا تترك لأورهان منفذاً، يرى منه زرقتها. غدت الدنيا بيضاء ناصعة. نظر إلى ما حوله؛ تساقطٌ للثلوج، وضياء هزيل للنهار، وبياضٌ خالص. لا تُرى غير شجرة يابسة على مقربة من خربة بمحاذاة المقهى. في الماضي جلس تحت ظلّها، وأشار من هناك بيده اليمنى إلى المدينة. توقّف في المكان نفسه، بالضبط قبالة الباب المنكسر للمقهى التي كانت، في السابق، يتيمة دَهْرها. وحين كنّا ننحدر من الروابي، كنّا نرى شورابي المخضرّة والزرقاء. لكنْ، اليوم لا شيء يوحي بالحياة. رفض الثلج التورّع عن النزول، وما يزال يضع أوزاره على الأرض.

حدّد أورهان مُتّجَهَه من تحت الشجرة، ثمّ انطلق يغوص إلى ركبَتَيْه. صوت المدينة كان يبدو أنه يتعالى من مكان ما. أصاخ السَّمْع. كلاّ، لم يستطع تحديد مصدره. وواصل السير. رأى سوجي قادماً من بعيد بذات البلوزة الصوفية الخضراء التي أخاطتْها له آيدا، وبمعطفه القديم ملقىً على الكتف، وقبّعة الوالد الذابلة.

قال: "ها، أخاه، أيّ طريق سنسلك؟".

مزّق سوجي الجريدة، ونثرها في الهواء، وسقط الثلج: "الكلّ إلى الوجهة نفسها، إلى العمود ثمانية. الكل صوب صقيع موسكو".

- ها، أخاه، إلى أين ذهبتَ؟

- لا تتبعني، أخاه!

- لماذا؟

- اتركْني وشأني، لقد شِبْنا.

انهارت معظم أسنانه، ولم يبقَ منها سوى أجذاعها البنّيّة مغروسة في لثّتَيْه، كي يستطيع القَضْم. وغزا شَعْرَ رأسه الشيبُ. قلتُ: "أتحبّ أن أبني لكَ حجرة في الخان حتّى تبقى دائماً برفقة إسمايول؟".

ضرب بِرجْلِه اليسرى الجدار، وراقب الشارع. كأنه الأمس. لكنْ، مرّ أحد عشر يوماً. واليوم هو الاثنَيْن. وذاك اليوم كانت تُثلج، وكان آيدين حزيناً. قلتُ: "انقضى من عمركَ اثنان وأربعون سنة، ألا تخجل الآن؟".

وبينما هو مستمرّ في مراقبة الشارع، ارتعدت فجأة فرائصه، وانتابتْه قشعريرة، فأمسك رأسه بيَدَيْه، وقال: "أشعر بالقيء"، أخرجَ الجرائد والأوراق من جيب معطفه، ومن ثنية سرواله، ومن تحت جواربه، ثمّ كوّمها، وألقاها داخل البرميل الذي يشتعل أمام المتسوّلة مارتا، فأخذت الأوراق تتقاذف وتنمحي، وتذكّرتُ كُتُبه التي أحرقناها في ساحة البيت، وتذكّرتُ أيضاً القبو الذي كانت تتأجّج من نوافذه ألسنة اللهب الخانقة. وفجأة، سمعتُ صوت ضحكات الوالد المستعرة: "ها. هذه روح الشيطان تحترق".

قال: "هذه هي الأشياء التي سبّبت تعاستي". وانطلق.

ناديتُ: "آيدين!" ، فلم يلتفتْ، وتبعتُه. أمسكتُ يده، وثبّتُها على ساق الشجرة، قلتُ له وثلج أغصان الشجرة يتساقط على رأسَيْنا: "إلى أين أنتَ ذاهب؟".

- إلى مكان آخر.

- أين؟

- وهل أسألكَ أنا أين تذهبُ أنتَ؟

صفعتُهُ صفعَتَيْن على الجهتَيْن. ثمّ بدا لي واضحاً ارتعاش يَدَيْه، فقلتُ له بلهجة مُتسلِّطة تسلُّط الوالد: "ارجعْ إلى الخان".

ربّما ظلّ لدقيقَتَيْن يتفحّصني مندهشاً. لمّا خفضتُ رأسي، لمحتُهُ يغادر. لم أكن أرتدي المعطف، فأحسستُ بالبرد. ومع ذلك تبعتُه، وأمسكتُهُ من جديد، وقلتُ له: "ما الأمر، سوجي؟".

قال: "سوجي؟". زمّ شَفَتَيْه، ونظر إلى الأشجار، ثمّ تطلّع إلى أعلى رأسي، كما الأطفال الصغار. خُيّل إليّ أنه يوشك على البكاء. لكنه عضّ على شَفَتَيْه، وسعل حتّى يبدو رابط الجأش.

قلتُ: "آيدين!" وضحكتُ. وظننتُ أن حالته تحسّنت، وبات يفهم كل شيء مثل الآخرين. ثمّ عاودتُ الضحك برقّة.

قال: "لمَ تضحك؟ هل ماتت هي أيضاً؟".

قلتُ: "نعم. منذ سنوات، سنة واحدة بعد موت الوالد".

قال: "إذنْ، يجب الرحيل".

قلتُ: "إلى أين؟".

قال: "يجب أن أنظر كيف ينام الموتى. إنه سرّ من الأسرار".

قلتُ: "ارجعْ، اليوم أريد أن أتحدّث معكَ".

أجال ناظرَيْه في قامتي، وضيّق عينه، ثمّ حدَّق في عينيّ: "لأيّ شيء تُخطّط من جديد؟".

وأخبرتُهُ بكل صدق أني لا أملك أي مخطّط حياله. وانتابني إحساس سيِّئ، لأني لم أعدّه آدمياً طيلة الأربع عشرة سنة المنقضية، ولأني لم أستطع أن أدرك، في أيّ وقت، أن شيئاً ينقصني حين يكون هو غائباً. ما إن كان يضع قَدَمَيْه في الدّكّان حتّى أقطّب في وجهه، وأصرخ عليه: "عدتَ من جديد؟".

كان يأخذ حفنة بزر، ويدسّها في جيب معطفه أو في مطاوي فمه، ثمّ يُطلق ساقَيْه للريح صوب أسفل الخان بنظرات مسترقة مازحة مثل الأطفال. فكان إسمايول يسكب له الشاي باستمرار، ويُطعمه الشوربة، ويعتني ببرميله، ويُبقيه دافئاً. كنتُ أعلم أنه موجود، لكنْ، لم أعرف لماذا خطر ببالي أن أُكلِّمه. اشتقتُ للحديث مع قريب. قلتُ: "لنذهب"، وسُحُبْتُه من يده.

سَحَبَ يده بقوّة، واستمرّ في السير. كنتُ أشعر ببرد شديد، لدرجة لم أقدر معاودة اقتفاء أثره. فصرختُ من مكاني: "هل هذا آخر كلامكَ؟".

قال: "أخاه! الدمار وصل مداه، يجب شدُّ الرحال". ثمّ انطلق.

ابتعد وابتعد. لو حدّد وجهةً، وسار لساعات، كان سيصل حتماً إلى المدينة، ويحافظ على حياته. وانطلق. حينئذ التفتَ خلفه، كي يرى المسافة التي قطعها. كانت خرابات المقهى تبدو من بعيد أكثر وحشة.

قال: "أخاه! الدمار وصل مداه، يجب شَدُّ الرِّحال".

كان يرتعد غضباً. قلتُ: "سوف أُصلحكَ. سأجعل منكَ إنساناً، تُشفق عليه طيور السماء". ثمّ عدتُ إلى الدّكّان. اختفى عشرة أيّام، وصرتُ أنا أسيراً لديه، لاجئاً في البراري. اليوم هو الاثنَيْن. قال: "يجب الرحيل".

قلتُ: "خيراً، إن شاء الله، إلى أين؟".

قال: "إلى أين؟ إلى تقبيل قَدَم سيّدي".

قلتُ: "كفاكَ هَرْفَاً!".

قال: "طلبني سيّدي مجدّداً، إن مرجلَه يغلي".

وكنتُ أعلم أنه سيقصد مقهى شورابي. لكنْ، قبل هذا الوقت، بعد وفاة الوالد، حين كان آيدين يشتغل في الدّكّان تنفيذاً لوصيّة الوالد، ولمّا كان يقول: "يجب شدُّ الرِّحال"، كنتُ أجيبه: "بالنسبة إليّ هنا أفضل، اذهبْ أنتَ، إذا شئتَ".

قال: "إنكَ تتوهّم". انمحق من شدّة التعب خلف المصطبة. لم يكن خصري يتحمّل تلك الأثقال كلها. فضلاً عن ذلك، فأنا أفنيتُ اثنتَي عشرة سنة من عمري في تلك الخربة، أقوم بأعمال الكَنْس والحَمْل. ولطالما صعدتُ السلالم ونزلتُ حاملاً أكياس البزر والفستق، وأردتُ أن ينهمك هو بالعمل، لسنوات، كي يعرف قَدْر الحياة. أخبرتُه بهذه الأشياء كلها

حتّى لا ينساها أبداً، ولا يحلم بالرئاسة، ويأتي رأساً للجلوس إلى الطاولة.

ثلاثة وعشرون كيس بزر نوّار الشمس كانت مُكدّسة أمام الدكّان تحجب عنّا رؤية ما خلف النوافذ. قلتُ جميعها يجب أن يهبط إلى أسفل. حملها كلها على ظهره، ونقلها إلى المخزن داخل القبو. أربعون درجة. حين أنهى عمله، سَكَبَ لنفسه كأساً من الشاي، وجلس على الأرض، ومدّ رجلَيْه، وابتلع الشاي ساخناً، وقطرات العَرَق الغليظة تغطّي جبينه وأسفل عينَيْه. مرتدياً سرواله الكحلي والقميص الأزرق الملتصق ببَدَنه ذكّرني بنفسي، لمّا كنتُ أسكب من العَرَق أضعاف ما يسكبُ هو بسبب سمنتي.

والدي، أنا قلتُ لكَ إني هبطتُ بهذه الأكياس، وصعدتُ أربعين درجاً. ليس عدلاً. لكن الأمر كان قد تجاوز مسألة العدل، وبات، وهو الواصل للتّوّ، يزاحمني، ويحاول الاستحواذ على ممتلكاتي. ووالدي الجائر لم يكن لديه ما يخسره، لأنها صرّح على فراش الموت: "كل ما أملك، مناصفة". ليلتها سهرتُ حتّى الصباح أتلفّح بنار الحنق، وأنا أهرف وأهذي. أقطر عَرَقاً، ولا أحد يناولني كأس شاي. وهو، ذاك اليوم، نسي رجّ ملابسه. كان يبدو نحيلاً نوعاً ما. كنتُ أدرك أنه مُرهَق وعاجز، ويريد أن يُفصح، من أعماق قلبه، عن عدم قدرته البقاء هناك. لم يكن، حسب تعبير الأب، يتمتّع بروح التاجر، غير أنه كان مُجبَراً على البقاء عملاً بوصيّته. قال: "أخاه! الدمار تعدّى الحدود". احتسى شايَهُ، وقعد على حافّة عتبة الدكّان الأمامية. لم أفهم بمَنْ كان يُفكِّر. بعد نصف ساعة، ومع جرس الساعة الرابعة، وبرسم العادة، قَدمتْ إليه تلك الفتاة الأرمينية الجميلة. قالت: "ما هذه الحالة؟". نفض آيدين ملابسه التي كانت ممتلئة بخيوط الأكياس، وأخذ وزرته المعلّقة على المسمار، ولبسها.

قال: "ألا تريد شيئاً؟". أخذت تلك الفتاة حفنة من ورق الخوخ، ووضعتها في محفظتها، وحفنة فستق، وحفنة بزر مملّح.

كان لون الفتاة بنفسجياً بشكل عجيب، أو ربمّا تخيّلتُها أنا كذلك. كانت عيناها تلمعان بحدّة، تُخجل المرءَ، ومع استدارتها، كان شَعْرها الصافي والأشقر يرفرف في الهواء، ولم أعد أرى الاثنَيْن بعد. وكأن ذاك الشَّعْر كان بمثابة ريش طيرانهما. وظلّت تلك الفتاة في مخيّلتي تدور باستمرار تاركة ذكرى مظلّة شَعْرها ولونها البنفسجي وضحكتها الفاتنة.

لم تكن لديّ الجرأة كي أسألهما إلى أين يذهبان؟ وحتّى حين كنتُ أحكي لأمّي، تتجهّم في وجهي، وتخاطبني: "ما دخلكَ أنتَ؟".

وكل يوم مساء، أظلّ وحيداً مع المصباح، وتُراودني، كل يوم، فكرة جديدة، لكنه لم يكن يعرْ أفكاري الجديدة أدنى اهتمام. لا يوافق على إعطائه حصّته، ليُكمل بها تعليمه، ولا يقبل بالمكوث معي في الدّكّان الوقت كله. حتّى إني اقترحتُ عليه ألا يأتي إلى الدّكّان، ويأخذ راتبه، لكنه قال: "ضميري لن يرتاح".

قلتُ: "لا تتحدّث عمّا ليس لديكَ".

قال: "كنْ مهذّباً".

قلتُ: "لكنْ، فيما بعد، لا تَشتكِ".

قال: "لا تحاول إفساد أخوّتنا".

قلتُ: "اللعنة على هذه الأخوّة". ومع أني كنتُ على علْم بعشقه المستهام للفتاة الأرمينية، لكني كنتُ أريد أن يُفصح هو بذلك، ويُظهر

عَجزه، ويترجّاني، كي أسمح له بالانصراف في العصاري. لم يستطع الوالد إذلاله، وأردتُ أنا أن أفعل. كنتُ أودّ معاملته بطريقة، تُجبره على التمسّح بعتبة باب الدّكّان، فيُقبّلها كل صباح، ويدخل، ويصير مثل العجين في يَدَيّ، وليلاً يعود برفقتي إلى البيت. لكنْ، مهما فعلتُ، لم أنجحْ.

كنتُ أقول له: "إلى متى ستظلّ تلهو بالخشب؟".

- إلى حين أن أستأصل قاع الخشب.

- إلى متى ستظلّ تقرأ الكُتُب؟

- إلى أن ينفخ إسرافيل في الصور.

جلس في أقصى الدّكّان أمام المرآة المكسورة. رفع شَعْره بيَدَيْه، ومشّط حافّة شاربه. رنّ جرس الساعة الرابعة أربع مرّات، ونظرتُ، مُجبَراً، إلى باب الدّكّان حتّى أرى تلك الفتاة الأرمينية كيف تصعد الدرج. وفي تلك اللحظة بالضبط، جاءت، وأخذت حفنَتَيْن من بعض الأشياء، وانصرفا معاً. ذاك اليوم ناديتُها أمام الباب، وقلتُ لها: "أينما ذهبتِ، لا تَنسيني".

تأجّج غضباً، ونظر إلى الفتاة، ثمّ إليّ، وقال: "ما أخبثكَ، يا أورهان".

قلتُ: "آنستي، أنتِ قولي لهذا الأمير أن يخرجَ من حياتي".

قالت: "أين هي حياتكَ، سيّدي؟".

خجلتُ من تلك الفتاة، لكني لم أكترثْ، وأخبرتُ آيدين أني مستعدّ لشراء نصيبه. قال: " أورهان، حينما تفكّر في المال، تفقد إنسانيّتكَ".

قلتُ: "أنا الآن لا أفكّر في المال". وبعد أن ذهب، قلتُ له: "أنتَ دائماً خبيث حتّى في النوم".

وقف قبالة الجدار، وأطبق عينَيْه. لكن كوابيس ذهنه كانت تتراءى له في أشكال مضحكة لجميع الموتى الذين كان يعرفهم؛ الوالد يغادر، والأمّ ينقطع نَفَسُها، وجمشيد ديلاق يضع رِجْلَه على الجدار، في انتظار قدوم أورهان، ولمّا كان يراه يقول: "عشق". فَتَحَ عينَيْه، وحين نظر إلى الجدار، وجد مجدّداً الصحراء والثلج، وبرد وبياض ليس له حدّ. رأى السّيّد اللورد برِجْلِه المشدودة بجبيرة من الجبس، وبتلك الأعضاء الحديدية تحت إبطه شاقّاً طريقه صوب المقهى. وصوت ضرب عصاه على الأرض "كرومب" كأن قماشاً ملفوف برأسها. ومع كل خطوة، كان يُلقي نظرة إلى المقهى، وينفث تعبه مع بخار فمه، يجرّ وراءه ذيول فستانه الأسود الرسمي مرتدياً قميصاً أبيض، وبابيون حمراء داكنة. وفي أثناء الجدِّ، كان يزمّ شَفَتَيْه وكأنه يمصّ حلوى. والآن هو يمصّ تلك الحلوى اللعينة: "جئت من مدينة الموتى".

- بعد تلك السنوات كلها، خرجتَ من بطن الأرض، ماذا تريد أن تقول؟

- هل مازلتَ حيّاً، سيّد أورهان؟

- أنتَ ترى أني مازلتُ حيّاً. أنظر..لكنْ، لو نجوتُ من هذه المهلكة، أعرف كيف أعيش بقية عمري، السّيّد اللورد.

قال الوالد: "نبض السوق بيَدِنا، السّيّد اللورد".

قال السّيّد اللورد: "نبضُكُم أنتم بيَدِنا، السّيّد أورخاني".

ضحكتُ. قال السّيّد اللورد: "ولدُكُم هذا ذكيّ. يفهم الاقتصاد. لكن الآخر الذي سقط في شراك الشِّعْر أحمق من العيار الثقيل".

قال الوالد: "أحسنتَ قولاً، أحسنتَ". فيما بعد، قال لي إنكما الاثنَان عنيدان لاجَّان. وقال لآيدين إنه أحمق من الدرجة الأولى، لا يصل فَهْمه حتّى إلى درجة الحمار.

حين كان يصافح الوالد، قال السّيّد اللورد: "لا تفكّروا في هذا القرن، في صالحكم أن تكونوا تحت إشرافنا". ثمّ استرسل في الضحك. والآن متأبّطاً عصاه، جاء بِرِجْلِهِ المكسورة يبحث عن أورهان. قلتُ: "أبي، لماذا لا يترك الموتى الناسَ وشأنهم؟"

كلا. إنها ضربة حديدية من تلك العصا انهالت على الأرض، وصوت تلك الرِّجْل المُجبَّسة "كرومب" يُزلزل باطن الأرض.

أظنّه صوتَ ضربة عصا ملفوف رأسها بقطعة قماش.

أغلق عينَيْه، فرأى السّيّد اللورد وهو يركض. يركض بسرعة. تق كرومب. والثلج يتهاطل. "تق كرومب". صرخ: "السّيّد اللورد، هذا يكفي".

أمسك رأسه، وضغطه بيَدَيْه. ما أنعشه من دفء! كلاّ. إلهي، لا، هذا ليس عدلاً. آيدين. أين أنتَ، يا آيدين حتّى ترى وحدتي؟ وكل ليلة تتجمّد الدنيا، كأن الناس ماتوا جميعهم، وأنا وحدي أؤدّي كفّارة هَلَعِهِم.

شعر بألم فظيع عقب محاجر عينَيْه، بالضبط في عَظْمة الجبين، وفمه مُرّ ومُنتن. أحسّ كأنه غاص في أثقال الثلج مثل مبنى المقهى الخرب. دسّ يَدَيْه في جيب المعطف مواصلاً السير. لقد قضَّ الجوعُ مأمَنَه، لا يذكر أنه تخلّف عن موعد وجبة غذائية قطّ، والآن لم يأكل شيئاً منذ ظهيرة يوم أمس.

اليوم جمعة. مؤسف أن الإنسان لا يستطيع ادخّار الأكل، ليجترّه في الوقت المناسب وغير المناسب، كما يفعل الخروف. كان الوالد يقول لا تنسَ الادِّخار للآخرة. ونحن نسينا. قلتُ: "ألم تعدني أنكَ لن تأتي إلى المقهى مرّة أخرى؟".

قال: "الحياة عادة قديمة، أخاه".

قلتُ: "انطلقْ، ولا تَهْرِفْ".

قال: "للنساء طبقتان صوتيّتان، واحدة عليا، والأخرى دنيا. يتكلّمنَ بالعليا، ويصرخنَ بالدنيا".

قلتُ: "أيّ امرأة؟".

قال: "في نهاية المطاف، ستأخذنا رياح مراوح السّيّد اللورد جميعنا، ذات يوم".

وكان يتخيّل أن حَجَرَ دكّاننا الذي وزنه مائة غرام هو أقلّ من ذلك بقليل. قال: "لون قهوة مسيو سورن بنّيّ زيادة".

قلتُ لجمشيد ديلاق: "هل ستسلكُ مسلكَ الدائنين الذين لا يؤدّون ما بذمّتهم؟". لم يكن راضياً أني رأيتُه. وفي وقت لاحق، قال إنه يريد أن يتطفّل علينا ذات يوم. لكنه لم يأت.

كلّما حثّ السيرَ، ظلّ في مكانه. توقّفَ. ما هذه المدينة، إذنْ؟ كان محيط شَفَتَيْه يؤلمه، فيَحُكّه. رفع رأس أصبعه للحظة إلى شَفَتَيْه، وأحسّ بنَفَسه الساخن، فأدرك أن بثرة، عَلَتْهُما.

قالت الأمّ: "قبل أن تتقيّح البثرة، ضعْ قصعة نحاسية عليها، فإنها تندثر".

لم يعد يقوى على الوقوف، عظامه تتداعى ألماً، وأطراف رجلَيْه تستغيث. لم يعد به نَفَس، كي يمشي، ولو خطوة واحدة. كان يتمنّى لو يهوي في مكان، ويستغرق في النوم. ومع ذلك، غيَّر مسارَه، وواصلَ مَسيره.

قال آيدين: "أخاه! لدينا سبعة آلاف سنة من الوقت، كي ننام. انظرْ إلى المصباح، واخلدْ إلى النوم، ولا تنتظرْ منّي أن أنامَ مقدار ما تنام أنتَ".

قلتُ: "كم ساعة يجب على شابّ مثلي ومثلكَ أن ينام؟".

قال: "كم ساعة يجب على إنسان مثلي ومثلكَ أن ينام؟".

قلتُ: "لا، بهذه الطريقة، لا يمكن. يجب أن نقطع حجرتنا من الوسط نصفَيْن، لكنْ، ليس من هذه النقطة، لنقطع من وسط الغرفة بالضبط حتّى تكون دفّة نافذة من نصيبكَ، وأخرى من نصيبي، لأني أريد أن أضع مزهرية بجانب مزهريّتكَ، وأسقيها بما فضل من ماء لديّ".

قال: "ما لم يقرأ المرء الحكاية، فلن يدرك معنى الحياة".

قلتُ: "عمّ تبحث؟".

قال: "عن نفسي".

كان يبحث عن مدينة، مدينة غير مدينتهم، يعثر فيها على لقمة خبز، وينجو فيها من التجمّد. لكنْ، لا أثر لإنسان، ولا حتّى لحيوان، يفتق بطنه، وينفذ إلى باطنه بيَدَيْه. كان يعتقد أنه يتوجّه صوب المدينة، لكنه احتار في أمره. لا صوتَ يُسمَع، وكأن هَرَجَ المدينة ومَرَجَهَا دُفنا تحت الثلوج. جلس هناك، وتقوقع على نفسه، وأمسك رأسه بيَدَيْه. عينا الراعي، الذي تجمّد فوق الصخرة، كانتا قلقَتَيْن وفمه مفتوحاً. قطعاً قد حاول

وَجَدَّ قبل أن يستسلم للموت جالساً على الصخرة. عندما يحين الموت، يسترجع الإنسان وقارَه. مات الوالد بوقار خاصّ، بأبّهته المعتادة. مددناه تجاه القبلة على أرضية الغرفة الكبيرة في الطابق العلوي. ظلّ يحتضر من الساعة الحادية عشرة ليلاً إلى ظهر اليوم الموالي. جلست الأمّ عند رأسه تقرأ القرآن بصوت حزين وغير مفهوم. كانت ترفع رأسها، من حين لآخر، وتُلقي نظرة إلى وجه الأب الباهت. تضغط على شَفَتَيْها، ثمّ يهتزّ جسدها بالكامل. تغطس رأسها للحظة في شادورها، وتواصل التلاوة. جلستُ أنا على يمين الوالد، وآيدين على شماله.

قال آيدين: "ألا يمكن فعل شيء؟".

كان يمسح على يد الوالد بكلتا يَدَيْه، ويجفّف، حيناً، عَرَق جبينه بمنديل، وحيناً آخر يسكب قطرات من ماء التربة في جوفه. كان لون وجه الوالد يزداد شحوباً. الشحوب الذي لا يطيقه إنسان. وحين كان يتقيّأ، كنتُ أذهب لأجلب شيئاً، أو أشم هواءً طرياً، فأقول لآيدين: "أنا إنسان ضعيف، لا أقدر على التحمّل". وعندما أرجع، أجد أمّي قد نظّفت المكان كله بفوط مبلّلة، وآيدين لا يزال ممسكاً بيد الوالد. حينئذ أومأ برأسه، وكأنه يسألني بحركة رأسه. أجبتُه: "لا فائدة، الأمر مُنته".

أدار الوالد رأسه ببطء ناحيتي، وألقى نظرة على ياقتي. ظننتُ أنه سيأمرني بإقفال أزرار القميص المفتوحة. غير أن الجوّ كان حارّاً، وكنتُ أشعر بالغثيان. قال آيدين: "اجلسْ". جلستُ، وحين أمسكتُ بيد الوالد كان قد ودَّع. كان صوت أذان الظهر يُدوّي في كل الأمكنة، والأمّ ساجدة تبكي وتنوح.

استشعر في ذاته قوّة جديدة، مثل تلك الطاقة التي تبقى في المرء

أحياناً حين تخرّ قواه. انتصب واقفاً، رجّ الثلجَ العالقَ بملابسه، واستدار إلى ما حوله، وتفحّص المكان بدقّة، علّه يظفرْ بسواد. لم تكن تُرى سوى جدران المقهى الخرب في الناحية اليمنى. وكأن لوحة حمراء كانت هناك أيضاً. دسّ يَدَيْه في جيب سرواله، وانطلق قاصداً المقهى. قال لنفسه: "أورهان، لا تفكِّرْ في يَدَيْكَ". ولم يفكّر.

ذهبنا. وضع الأب وردة على تابوت السّيّد اللورد. وفي العصر، استغرنْنا من المراوح التي كانت تُشحَن في السّيّارة. أُلصِق على جميعها ملصق، كُتب عليه: "توفي السّيّد اللورد، لنؤدّي له الاحترام".

قلتُ: "كيف؟".

قال أحد العمّال: "لقد كان إنساناً عظيماً، لنعترف بهذا فقط".

رغم بطئه ركض. لم يكن يقدر على السير، ولا على التوقّف، ثمّ رأى أنه لا يستطيع الركض. كان وجهه على الثلج، ويداه غاصّتان فيه. نهض واقفاً، ونفض الثلج من ملابسه، وواصل السير.

قال آيدين: "أنا أكنّ الاحترام للأستاذ دلخون أكثر". وكان يُعلّل بأنه لا يعرف لماذا يصنع السّيّد اللورد المراوحَ، ولا يصنع المُدفئات. ولماذا لم يفتتح مصنع مراوحه في مدينة آبادان. ربّما لأجل هذا كان آيدين يقول: "أنا لا يمكنني احترامه". لم يرَ آيدا مدّة أربع سنوات، وحين عاد إلى البيت، كانت قد غادرت إلى القبر. وهذا ما جرّه إلى الدّكّان. وهو ما دفع الوالد، كي يخدعه، فيضع رأسه على كتفه، ويقول له وهو يجهش بكاء: "لقد فقدْنا آيدا، لا تتركْنا أنتَ وحيدين".

- حسنٌ، أبي.

- أين كنتَ، يا ولدي العزيز حتّى شبتَ هكذا؟

لمّا وصل أمام المقهى، حرَّك أطرافه، ودكّ الأرض بقَدَمَيْه، ثمّ قصد داخل الاصطبل. كان عليه أن يفكّر ويذهب هذه المرّة من تلك الناحية. عندما كان الثلج يتوقّف، كان ينطلق ويسير حتّى يصل إلى مدينة. لكني لم أقصد الإهانة، لو قلتُ: "سوجي، الناس جميعهم في المدينة يعرفون أنكَ مجنون. أتعلم أنتَ؟". كنتُ أريد أن أعرف حالته. أخرَجَ جريدة من ثنية سرواله، وقرأ: "الجميع ثوى في سكون موت. المدينة خالية من السكّان، والأشجار احترقت، والنساء فسقت، ولا يجدنَ خبزاً حافياً حتّى، ولا يعرفنَ كيف يُدفئنَ أنفسهنّ. المكان الوحيد الذي ينعمنَ فيه بحياة هادئة نسبياً هو أطراف المدينة، في حديقة هتلر الغنّاء وعشيقته. هذه يد هتلر يشير بها إلى فتح بلغراد...".

ويختفي، فجأة، ثمّ يأتي إلى هذه المقهى. هذا هو عيبه الوحيد. قلتُ: "سأكبّلُكَ مرّة أخرى إلى شبابيك الشرفة؟". أحضرتُ السلسلة والقفل، وأوثقتُهُ إلى الشبابيك. حين عدتُ ليلاً، كان نائماً، وكانت باحة البيت مليئة بالغربان والهِرَرَة. فرّتْ جميعها لمّا رأتْني. آنذاك خيّم على البيت سكوتٌ قاتل، فقلتُ: "آيدين، انهضْ، لقد أحضرتُ لكَ شوربة".

فَتَحَ عينَيْه، ومن فرط الفرحة، أراد النهوض من مكانه ناسياً السلسلة التي تُكبِّله، ثمّ تقهقر جالساً، وقال: "أخي".

كان قد بلّل ما تحته. قلتُ: "دعني، أفتح قيد السلسلة". وفتحتُها. قلتُ له: "تناولِ الشوربةَ".

قال: "وماذا عن زوجة أخي، أين هي؟".

لم يكنْ، إلى ذلك اليوم، قد سألَني هذا السؤال. قلتُ: "طلّقتُها، قبل ستّة أشهر".

قال: "لا تحاول خداعي، لأنكَ لو حاولتَ إثبات ذلك، يجب أن تعاني لستّة شهور".

قلتُ: "إثبات ماذا؟". نثرتُ الماء في الشرفة، وتذكّرتُ حينها يُوسُف الذي لم نكنْ أبداً نقدر على رشّ الماء تحته، ثمّ قصدتُ السرير للنوم. لم يتذوّق آيدين الشوربة، وكان الجوّ حارّاً، فقلتُ: "كُلْ".

قال: "القانون في هذه البلاد أربع وعشرون ساعة، وعلى أكثر تقدير، ثمان وأربعون ساعة."

قلتُ: "إذنْ، انهضْ للنوم".

قصد القبو، وفي طريقه إلى الدرج، قال: "ماذا حدث بعد ذلك؟".

قلتُ: "بعد ماذا؟".

قال: "صورة بلغراد هذه تبيّن أنها على وشك الدمار الكامل".

انتزعتُ منه الجريدة، وقلتُ: "هذا يكفي، لا تقرأ".

كان في قرارة صوته يغنّي أمان أمان. خرج مُشْد عبّاس من المقهى قائلاً: "إذا لم أخطئ، فقد انقضى من فصل الربيع شهر واحد. كل سنة في مثل هذا الوقت يشرع بالغناء".

لكني كنتُ أعتقد أنه كلّما رأى سنونواً، يبدأ بالغناء. كان يدخل سبّابته في أذنه مثل مقرئ نحيل، ويأخذ بتحريك رأسه.

قلتُ: "هذا يكفي، لا تُغنّ".

لمّا كان يوم ختم آيدا، جاء آيدين، بعد أربع سنوات من الغياب، وطفق ينظر إلينا أمام مدخل المسجد باندهاش، وما إن وقعت عيناه عليّ حتّى ضجّ بكاء. وأحسستُ بأنه قضى أياماً عصيبة، ونُخر كيانه. كان رقيق البنية، وباهت اللون، يداه ترتعشان، وأحاطت التجاعيد بعينَيْه، وغَزَتْ أعلى جبينه، بدا أكثر شيخوخة من الوالد. قال: "أهي آيدا؟".

قلتُ: "نعم، آيدا. أبي هناك"، واقتدتُهُ إليه.

تكمّش قرب باب الاصطبل، ينتظر توقّف سقوط الثلج. بات الآن يتمنّى لو كان حيواناً يغطّي كاملَ جسده صوفٌ دافئ، وكلّما أحسّ بالجوع، هرع إلى الناس. ثمّة طفل هناك، على مقربة من صنبور الماء كان يتمطّط على الممرّ بجانب سياج البستان، والناس يعبرون بسرعة.

قلتُ: "آيدين، ألا تريد الذهاب إلى البيت؟".

قال: "انتظرْ حتّى ينصرف هؤلاء الناس".

كنتُ واقفاً على درجة الدّكّان غير عابئ بضحكات الحمّالين. قال آيدين: "أخي، هؤلاء الناس كلهم من أين يُحضرون الملاعق؟".

قلتُ: "بعضهم يأكل بيده".

ثمّ سكت، وكأنه سَكَنَ. والناس يمرّون. ورائحة الخبز البربري تفوح من الزقاق الموالي ورائحة القهوة التركية أيضاً. لكن محلّ بيع القهوة كان جدّ بعيد، ومسيو سورن كانت له بنت ترغب بالزواج من آيدين. فيما بعد

انصبّ تفكيري على العثور على هذه الفتاة الأرمينية. ومهما بحثتُ، لم أجد أثراً لها، كأنها ذابت، وتسرّبت إلى باطن الأرض.

إلى أن جاء، ذات صباح، خلال الأيّام القليلة الماضية، قِسٌّ إلى دكّاننا، يبدو من تقاسيم وجهه أنه غريب. قال: "عذراً، أيّها الأخ، أليس السّيّد الطويل القامة ذو الشَّعْر الأسود والأبيض والأعين التاتارية أخاكَ؟".

هو أيضاً كان ممتقع اللون ونحيل البنية وفارع القامة وشَعْر رأسه مرقّط بالسواد والبياض، وأسفل عينَيْه أزرق. قلتُ: "لماذا؟ ما الأمر؟".

قال: "قذف حجراً على إشارة المرور في تقاطع الشيخ صفي، فكسرها، وقُبض عليه".

شعرتُ ببهجة، وقلتُ لقد ظهر أخيراً بعد عدّة أيّام من الغياب. لكنْ، إلى ذلك اليوم، لم يسبقْ أن آذى أحداً، ولو طفلاً صغيراً. لم يكن يهتمّ بالآخرين، وكان مستبعَداً أن يكسر زجاجاً. قلتُ للقسّ: "أهو سوجي؟".

قال: "ربمّا، أنا لم أسمع بهذا الاسم".

ذهبنا معاً إلى تقاطع الشيخ صفي. يومها كانت تُثلج أيضاً، ونسيت القبّعة. سألتُ الضابط في التقاطع، وكان يعرفني، ويعرف سوجي أيضاً. لكنه قال إن مجنوناً مُكبَّلاً كسر ضوء إشارة المرور. قلتُ: "هل هو سوجي؟".

قال: "كلاّ، سيّدي، كان مجنوناً مُكبَّلاً، وقد قُبض عليه".

رجعنا. في الطريق، سألني القسُّ أين سوجي؟ فقلتُ له لا أدري، وقال إنه منذ مدّة وهو يبحث عن شخص بهذه المواصفات، كان نجّاراً في السابق، والآن لم يعدْ له أثر.

قلتُ: "إنه أخي".

قال: "أين يمكن العثور عليه؟".

قلتُ: "أنا أيضاً افتقدتُ أخباره منذ أيّام، لقد اختفى".

- لماذا؟

- لا أعرف، أحياناً يهيم على وجهه.

- عجباً! ما العمل، إذنْ؟

- مَنْ أنتَ؟ ولماذا تريده؟

- أنا الأب الذي عمَّدتُ ابنته.

كانت أوّل مرّة أسمع فيها هذا الكلام. قلتُ: "ابنته؟".

قال: "نعم، ألا تعرف أنتَ؟".

قلتُ: "لا أعرف ماذا؟". كان ثمّة شخص يركض مسرعاً بينما أنا مستلق على الثلج، أمسكَ القسّ بيدي، وساعدني على الوقوف. قلتُ: "لا أعرف ما ترمي إليه".

قال: "هل يمكننا التحدّث في دكّانكَ؟".

ذهبنا إلى الدكّان، وجلستُ إلى الطاولة، وقرّب كرسيّه إلى المدفأة. كان يبدو عليه التعب والقلق، لكنه كان مُنظّماً ودقيقاً، ويتحدّث بتروٍّ. قال: "اسم أخيكَ آيدين أورخاني، أليس كذلك؟".

- بلى.

- لديه بنتٌ، عمرها خمس عشرة سنة، اسمها إلميرا أورخاني. واسم أمّها سورملينا. وبطاقة هوية السّيّد آيدين أورخاني توجد عندنا.

امتدّت سلالة الوالد، ووصلت إلى مكان، لم يخطر لي على بال. قلتُ له: "يجب أن تعطيني بطاقة هويّته".

قال: "لماذا لا تبقى عند ابنته؟".

قلتُ: "أيّة ابنة؟ هو نفسه عبء".

استبدّ بي الغضب، وفي اللحظة ذاتها، صافحني القسّ بلُطفه المعهود، وانصرف. قلتُ له: "يجب أن تُعطيني بطاقة هويّته".

قال: "سأعود لاحقاً"، ثمّ ذهب.

أخرج حبلاً من جيب المعطف، وألقى نظرة على أعمدة السقف. فكّر لهُنَيْهَة أن الأمر لن يستغرق أكثر من خمس دقائق، وينتهي أمر هذا المرتعد، لكنه كان يعلم أن الدنيا لا تتوقّف عن الحركة أبداً. سوف يظهر آيدين، ويرتدي بذلته البنّيّة وقميصه الأبيض وربطة عنقه البنفسجية، ويذهب، صباحاً، إلى خان تجّار المكسّرات في أردبيل، ويصبح، حينها المالك المطلق لتلك الثروة وذاك الجاه. ولأفترض أنه سيُحيي ذكرى السابع والأربعين لأورهان. لكن دورة الزمان هي ذاتها، وهَرَج المدينة هو نفسه. ثمّ سوف ينسى الجميع أن أورهان كان موجوداً أيضاً. لا، إلهي. كلاّ، إنه ليس عدلاً. سوجي هذا، هو نقاب من دون شكّ. ربّما يكون الحقّ معه. الإنسان يعيش نصف عمره فقط. أنا كنتُ صاحب النصف الأوّل، وهو صاحب النصف الثاني. لكني سأُوقفه عند حدّه. الممتلكات كلها باسمي، رَسْمياً. هو لا يملك بيتاً، ولا دكّاناً، ولا بستان مشمش، لا شيء، لا شيء.

فقط طَقْم لباس أخضر، وقبّعة رطبة، وغرفة مُقترضة، توجد أسفل الباحة بسبع درجات أشبه ما تكون بسرداب منها بغرفة. كانت جدرانها بليلة، فأحضر الوالد بناء، أزال جبسها المحترق والمنتفخ، وأصلحها بالإسمنت. ليس مكاناً سيّئاً. نمتُ هناك ذات ليلة. باردة صيفاً ودافئة شتاء، دافئة ومطبوعة. لكن المرء ينام فيها مُكفهرّاً، كل شيء أسود قاتم. طَعْم النوم فيها كطَعْم النوم في القبر. الوالد راقد في قبره متجهّماً التجهّم ذاته الذي كان يقابل به آيدين، دائماً. لكنْ، الآن، أغصان أشجار المقبرة التفّت حوله، وطوّقتْه، لدرجة لا يمكنه التزحزح، وغاصت في أطراف جسده، وعصرتْهُ. ولهذا السبب، ترى بعض الأشجار دائماً كالحة حتّى ليدورَ بخَلَد الإنسان أنه مَدين لها. كم أُبغِضُ الناس الذين أتخيّل أني مَدين لهم! قلتُ: "آيدين، أنتَ لم تُخلَق للتجارة، والآن لم يعد الأب بيننا حتّى يعارضكَ. اذهبْ إلى الجامعة، إذا أردتَ، وتابعِ اهتماماتكَ الأدبية، وأنا سأعطيكَ مصروفكَ".

قال: "لا، أبداً".

- لماذا؟ لماذا تُصرّ؟

- لقد فات الأوان، ولا أريد أن أضرب بوصيّة الوالد عرض الحائط.

ومنذ ذلك الوقت، بدأتُ أفكِّر في إنهاء أمره. بأيّة وسيلة، استطعتُ. لأنه قال: "الوقت يمضي أيضاً بهذه الطريقة، ولم أعد أحتمل".

لم يكن يذعن، وكان يكدح كحمّال بكَدّ ومشقّة. وكان ينصرف كل يوم على الساعة الرابعة بعد الزوال. لم يكن يتذمّر، ولا يسمح بتصفية حسابنا. أنا أتممتُ الحجّة عليه بينما كان هو يقول إنه لا يجب تعذيب موتانا في قبورهم. الأمّ أيضاً كانت عليلة على الدوام، ولم تكن تسمح بتسجيل

ممتلكاتنا في دائرة الأملاك والأراضي. حينذاك اتّخذت قراري، وسافرت إلى آستارا. كنتُ قد سمعتُ أن هناك في غابات آستارا امرأتَيْن طاعنتَيْن، ترشدان الإنسان إلى طريق الحياة القويم، وتُعالجان العَقَائِم. قالت امرأة إنها ظلّت عقيماً لسنوات، إلى أن زارت هاتَيْن الجدَّتَيْن، فحبلت إحدى عشرة مرّة. كان إياز الضابط يقول: "إنهما تتلوان وِرْدَاً حتّى إذا كان للرجل زوجتان، فإنه يستطيع أن يعاشرَهُما على الفراش نفسه، من دون أن تعلم إحداهما بوجود الأخرى، أو تراها". وقال رجل آخر إنه وُلد أعمى، والآن يرى أفضل من أيّ شخص آخر. فقلتُ في نفسي لمَ لا أعالجُ ألمي؟

لمّا وصلتُ، قيل لي إن إحداهما سافرتْ إلى روسيا، وكانت الأخرى تجترّ أنفاسها الأخيرة، وتبدو واهنة ومنفّرة، وقد غرست أربعين ضفيرة من شَعْرها الطويل الأبيض في الأرض. كانت تشبه هيكلاً عَظْمياً، سُلخ جِلْد وجهه. صففتُ قِطَعاً نقدية قبالتها، فلمحتُ عينَيْها تبرقان مثل الياقوت. قلتُ لها: "تكلّمي".

قرأتْ فأل الحمص وفأل العظام، ورمت الإسطرلاب، ولم يظهر شيء. وضعتُ أمامها المزيد من القِطَع النقدية. قرأتْ فأل الدخان؛ وضعتْ ورقة جافّة شبيهة بقبضة الإنسان فوق النار، فارتفع، فجأة، دخان سميك إلى السماء، ورأيتُ بأمّ عيني أنه يتحوّل إلى أجنحة، ترفرف، ولا تهتدي إلى غصن، تقف عليه. نضَّدتُ القِطَع النقدية أمامها، وقلتُ لها: "أفصِحي أكثر".

قالت: "هناك شخص يسدّ الطريق في وجهكَ".

قرأتْ فألَ الماء. وفي وعاء طينيّ، جعلتْ أفراد عائلتي جميعهم يمرّون من أمام عينَيّ. بثّتْ الروح في حياتي كلها، فأخرجت الأب من الوعاء،

ثمّ الأمّ، وجعلتْ آيدين قطعة نقدية. لكنْ، مهما فعلتْ، لم تستطعْ إحياء آيدا. قلتُ: "ما رأيكِ بعصا غليظة خارج المدينة؟".

قالت: "لا، إنه خطأ". وزمجرتْ مثل الريح في مطاوي مزرعة القصب.

قلتُ: "هل أقذفُهُ من أعلى صخرة؟".

قالت: "لا". كانت تعجُّ بصوت جافّ ومتهدّج، ثمّ تصيح: "لا"، وتمدّد آخر صوتها.

لزمَت الصمت، للحظات، وهي تمُعنُ فيّ النظر. قلتُ: "تكلّمي".

قرأتْ فألَ التسبيح، ولم يظهرْ أيّ شيء. قلتُ: "هل أُسمِّم طعامه؟".

قالت: "لا، لا، خطأ"، بعد ذلك، قهقهتْ قهقهة، لم أُصدِّقها. قالت: "هل أكلتَ دماغ السنونو؟".

ركضتُ، فقطعتُ الطريق المُتربةَ جرياً، وعانيتُ في الإسفلت. خلَّفتُ ورائي عقبة مُحيِّرة، مُتربة ومُلتوية، وجريتُ حتّى البيت. كان وقتئذ أواخر فصل الصيف، ومكثتُ إلى فصل الربيع، أنتظر وصول السنونوات. وضعتُ روزنامة على طاولة الدكّان، وكنتُ كل يوم أطوي ورقة. كان الثلج ينزل، فتتجلّد الأرض، وتنعق الغربان من فوق الصنوبرة: "ثلج، ثلج"، والربيع لا يصل. كأني ركضتُ الشتاء كله، لأني أحسستُ بالربيع أكثر من أيّ شخص آخر. في الصباح الباكر، قصدتُ الجبال في أنحاء ويلادرة، وقبل بزوغ الشمس، حملتُ كيس سُكّر أبيض، وصعدتُ إلى الجبل، وجلستُ أنتظر في الكمين. لمّا طلعت الشمس، عرفتُ مكان نومها. كانت السنونوات تمرّ خلف رأسي سِرْباً سِرْباً مُرفرفة حتّى إنه كان بإمكاني مَدّ اليد إلى أعلى، والإمساك ببعضها في الهواء.

لم يكن يحسّ بالحاجة إلى محبّة الأمّ، أو عطف الأب. صرخ، لئلا يتسرّب إليه الخوف. وعاد عواء الذئاب ووَقْع حوافرها يُسمَع، وهي آتيةٌ من بعيد. بعينَيْن جائعتَين وفكَّيْن فاغرَيْن، ألقى نظرة إلى يَدَيْه اللَّتَيْن تسرّب الدم من أظافرهما، وعظامه التي تداعت ألماً. كم كان محيط عينَيْه يُؤلمه!

دسستُ يدي في العشّ، ودفعةً واحدة، أمسكتُ بخمسة، ووضعتُها في الكيس. كانت تصيح وتصرخ. وأدخلتُ يدي إلى العشّ، ثانية، فقبضتُ هذه المرّة على اثنَتَيْن. بعد ذلك لمحتُ سِرْبَاً كبيراً من السنونوات، يخرج من الغار كدخان أسود. حملتُ الكيسَ على كتفي، وانطلقتُ قاصداً مقهى آغا بيوك. هناك، لم ألفَ أيَّ كائن ما خلا بضعة بوم مسمّرة أعينها من بوّابة ونوافذ مبنى المقهى الشبيه بالقلعة. طرقتُ الباب، وناديتُ على اسمه. لم يكن أحد بالداخل. طرقتُ الباب مرّة أخرى، فإذا بي أسمع صوت رجل خلف ظهري، كان يحمل في يَدَيْه أرنَبَيْن مذبوحَيْن وشواربه مفتولة إلى أعلى، ينتعل بوطاً أسود متيناً. قلتُ: "أريد آغا بيوك"، ولاحظتُ أنه يعرج بإحدى الرّجلَيْن.

قال: "ماذا تريد منه؟".

قلتُ: "لديّ عمل معه".

قال: "تكلَّمْ، أنا بيوك".

كان الوقت أواسط فصل الربيع، وحتّى السنونوات كانت تصيح داخل الكيس. قلتُ: "أنا..." ونسيتُ كل شيء. حين مرّ من أمامي، فأحسستُ أن هيكله يضاعف بنيتي، وشَعْره منسدل وذو لونَيْن، أبيض وفضّيّ. قلتُ له: "ألديكَ شاي؟".

قال: "هل قطعتَ هذه الطريق كلها، لتسأل عن الشاي؟!". ثمّ فتح باب مقهاه.

خَلَعَ الخِرَقَ الباليةَ من إطارات الباب، ودخلنا. كان الجوّ شبه بارد، وبخار الغلاّية يلامس السقف. جلستُ على أريكة، ورحتُ أمعن في اللوحات المعلّقة على الجدران، وكانت لرستم وأكوان.

قال: "هل اصطدتَ زرزوراً؟".

قلتُ: "كلاّ، بل سنونواً".

سَكَبَ لي كأس شاي ساخن، وقال: "سنونو؟ لأيّ غرض؟".

قلتُ: "الأجانب يصطادونها، ويُيَبّسونها، ويضعونها في كوّات النوافذ".

قال: "يا للعجب!".

قلتُ: "تعلّمتُ ذلك من أحد الأجانب، وكان له مصنع خلف منزلنا. أريد أن أُيَبّس هذه السنونوات، لكني أودّ أن أذبحَ اثنَتَيْن، وآكلهما".

وضع فنجان الشاي أمامي، وأهرق ماء الصحن على الأرض، ثمّ ثبّت الفنجان قبالة أشعّة الشمس، ليتأكّد من لمعانه. قال: "قبل سنوات، كنتُ أعدّ أكْلة سنونو لأحدهم، كان يلعق رؤوس أصابعه بعدها".

- هل تجيد ذلك؟

- أنا ماهر في هذا العمل.

وضع الأرنَبَيْن على الطاولة، وفتح كلَيْهما بسكّين كبير. وقال وهو يسلخهما بنعومة: "في السنة الماضية، جاء الرجل في طلب الأكْلة مرَّتَيْن".

قلتُ: "لديّ ضيف".

كان بخار ناعم يتصاعد من بين أطراف أصابعه الدامية، ومن بطن الأرنب، شبيه بجِلْد الأرنب الأبيض. قال: "مَنْ يكون؟".

قلتُ: "أنتَ لا تعرفه".

سكبتُ الشاي في الصحن، واحتسيتُه.

قال: "أنا ماهر في هذا العمل".

قلتُ: "هل أكلتَ الأكْلة بنفسكَ؟".

قال: "تذوّقتُها، لكنْ، أكْلها..."، وأشعل لفافة دخان بيده الدامية تلك: "لا".

قلتُ: "أحتاج أكْلة شهية منها".

قال: "في الحقيقة، تحضير هذا الطائر ليس هيّناً، فيه مشاكل كثيرة، لكن الرجل أثنى كثيراً على الطعام الذي طهوتُهُ له، ولذّتُهُ لم تُفارق فمه".

بينما كنتُ أُكمل ما بقي من شاي، رأيتُ الأرنَبَيْن المسلوخَيْن وقطعة لحم حمراء عالقة بمريلته. قلتُ: "أودّ أيضاً أن تطهوَ لي دماغَه".

قال: "دماغ؟" ونظر إليّ مُحدِّقاً: "احترسْ، لا تأكلْه بنفسكَ!".

قلتُ: "أعلم أن مشاكله ومصارفه كثيرة، لكن ضيفي عزيز على قلبي". وفي اللحظة ذاتها، شعرتُ أن ظهري ارتجف، وأخذتْ عظامي كلها تُؤلمني دفعة واحدة، وعلى غير العادة، شرعت يداي ترتعشان.

قال: "ناوِلْني الكيسَ".

أخذه من يدي، وقال: "لا تأكلْه بنفسكَ، أبداً!".

وبينما أناولُه الكيسَ، أحسستُ بثِقَل لساني، وكأني به التصق بأعلى فكيّ.

خرج من الاصطبل، ونظر إلى ما حوله، ورأسه ينفجر من شدّة الحمّى. كان قلبه يخفق بقوّة، وقواه كلها تجمّعت في عينَيْه، لعلّها تلمح بقعة سوداء وسط بياض تلك البرّيّة.

أين تنتهي هذه الصحراء المترامية؟ وكم الوقت الآن؟ لا. إلهي! هذا ليس عدلاً. لم أكن ألبس المعطف. كنتُ أريد أن أُرجعَهُ، وأوثقَهُ بالسلسلة من جديد. والآن، أريد أن ألفّ الحبل على رقبته، آن أوانه، لقد عاش عمره، ولا أظنّه يريد شيئاً أكثر من هذا. هنا في باب الاصطبل هذا أربطه، وبعد بضع ساعات، يغدو في عداد الموتى بأناة وبلا صخب، وحينذاك أقول له: "آيدين، هل كنتَ تعلم أن لديكَ بنتاً جميلة؟".

هجين شقراء، أينما كانت سوف تظهر خلال هذه الأيّام، وتقول: "سيّدي، هل هذا دكّان أبي؟".

فأُجيبها: "مَنْ يكون أبوكِ؟".

"رجلٌ مجنونٌ"، يا للمسخرة! حقّاً، إنها لمسخرة! لقد كان الوالد رجلاً عجيباً. بعد بضعة شهور من موته، أردتُ زيارة قبره، كان خريفاً مُرعباً، غطّت أوراق الدُّلْب شوارع المدينة كلها، وامتلأت أشجار المقبرة العارية بالغربان. غربان سود اصطفّت على أغصان الأشجار، وكأن المقبرة استحالت مسرحاً، يصنع الفرجة. درتُ حول جدارها الطويل السئيم، ثمّ دلفت من بابها الأخضر ذي الدّفّتَيْن. دائماً ما يترصّد المرء عشرة إلى اثنَي عشر متسوّلاً. كاد أحدهم يمُزّق سترتي، فقلتُ له: "أَنزِلْ يَدَكَ، أيّها الحمار"، فانهال

الجميع على سترتي. كان قبر الوالد متواجداً على يمين المقبرة، بالقرب من شجرة دُلْب فَتِيّة، وأوراق الأشجار متناثرة عليه. أَمَطْتُ الأوراق بقَدَمي، وقرأتُ ما كُتب على شاهد القبر، ثمّ انبريتُ للتفرّج على منازل الموتى. بين الحين والآخر، يأتي أحدهم، ويغادر آخر، بينما يموج آخرون على قبور.

قلتُ: "والدي، أترى زماننا؟ لا تعتقد أن هذه وحدها مدينة أموات، بالخارج أيضاً مدينة أموات. فليأخذ الموت المدينة بأكملها، فليأخذنا الموت، وليأخذ أخانا". جلستُ على القبر، وقلتُ: "أبي، سنوات طويلة وأنا أصعد، وأنزل بأكياس الفستق هذه أربعين درجاً، وكنتُ أنتَ وربّكَ شاهدَيْن. لا أستسيغ أن يصير هذا الأحمق الواصل لتوّه، الآمر الناهي. لماذا لم تمنحْني أنتَ حقّي؟ لماذا أعطيتَ حقّي للآخرين؟".

التقطتُ حجراً، وضربتُ ضربات على القبر. رسمتُ خطّاً، وتلوتُ الفاتحة. قلتُ: "أبي، أنا لا أحترمُه". ثمّ عقفتُ على القبر حتّى لا يسمع صوتي الأطفال المتسوّلون والمارّة، وقلتُ: "لا يساوي عندي ملّيماً واحداً". في نهاية المطاف، ستظلّ تعتصرني حسرة دكّان بمدخلَيْن، كبير ومضيء، في ركن الخان، تعلوه لوحة كبيرة، تحمل اسمي.

انتابتْ روحه حمّى وقشعريرة، كادتا تخرّبان دماغه. بدأت أسنانه تصطكّ، وقفص صدره يرتجّ. دفعة واحدة، أحسّ بأنه محموم. رفع يده إلى جبينه، كان يحترق حرارة، برك قبالة المقهى، وجلس على الثلج. جدَّ في إيصال نفسه إلى داخل المقهى غير أن خموداً مضحكاً كان يمنعه. بعد ذلك، رأى أن السماء قد ضاقت، فرنا إليها، ورأى نفسه طليقاً في السماوات. غَمَسَ يَدَيْه في الثلج، وأخذ حفنة منه، ووَضَعَهَا على جبينه. حسنٌ. حسنٌ. اليوم جمعة. كان شورابي يتموّج بنعومة وجِلْد بَدَن الوالد

يرتعش وسطه. قال: "أحسنتَ، أورهان، ادهنْ"، فدهنتُ. أخذتُ علبة بزر قَرْع، ثمّ قصدتُ القبو. كان آيدين مستلقياً هناك على سريره، وعلى صدره كتاب، وربّما كان نائماً. شرعتُ أُقشِّر البزر، وأرمي عليه القشور. كان هذا ديدني من الظهيرة إلى الليل. دفنتُه تحت قشور البزر. قالت الوالدة من على الدرج، وكانت تحمل في يدها سينية شاي: "لماذا؟"، قلتُ: "لأجل الضحك".

طار آيدين من النوم، وخرج من تحت قشور البزر. قال: "مَنْ أكل هذا؟".

قلتُ: "أردتُ أن أعرف ماذا سيحصل؟".

قالت الأمّ: "اخجلْ".

قطّب آيدين جبينه. منذ سنوات، لم أره ينظر إليّ. حسنٌ، سوف أدهن بَدَن والدي، وأجعله برّاقاً. لكنه صعد إلى أعلى، صعد مثل البالون. لماذا تسحب سروالي، أيّها الملعون؟ هل يموت الناس بهذه الطريقة؟ لن يموتوا لو مدّ أحدٌ لهم يَدَ المساعدة. ستصغرُ الأرض، وتصعد إلى أعلى، آنذاك سوف ينتفخ الإنسان، وينتفخ، ويغدو بحجم الدنيا حتّى ينفجرَ. كلاّ، إلهي! هذا ليس عدلاً.

قال: "آذر، دثِّري ظهري ببطّانية". أضاف وأسنانه تصطكّ: "آذر، ارمي على ظهري لحافاً كبيراً". تتابعتْ نظراته. كان محموماً، ولم يكن يرَ حبّات الثلج التي كانت تسقط من السماء على وجهه، تتمدّد، ثمّ تذوب. قال: "ارمِ على وجهي". بعد ذلك، وبطاقة عجيبة، قام وجلس وحدَّق إلى الأرض. كان يبحث عن عشّه بينما ريشه قد تجمّد، وتدلّت منه أعمدة من جليد. مَسَحَ يَدَهُ على الأرض، وغمر رأسه تحت الثلج، غطس، وغطّى نفسه بطبقة

من الثلج. حينذاك خرج، جلس، ألقى نظرة إلى الأنحاء، وبصعوبة بالغة استوى واقفاً. بات الآن قادراً على المشي. كان مبتلاً بالكامل كرصاصة ثلج، بيد أنه كان يستطيع المشي.

كان يرى شورابي هناك، أزاح بفمه الثلوج من سطح شورابي، فرآها بأمواجها الناعمة الزرقاء. أوْصَلَ نفسه، وهو يعرج، إلى مزرعة القَصَب. الميرزا آيدين المجنون. لا. آيدين أين أنتَ؟ قالت الأمّ: "أحضرْهُ، أيّها الأحمق". كان يُحدِّث نفسه بصوت خشن، وآيدين جالس قبالته مثل تمثال من حجر. قالت الأمّ: "ماذا فعلتَ به، يا عديم الشرف؟!".

وصل إلى حقل قَصَب جافّ ومُلتفّ. أحسّ بألم حادّ ومُنعش يداعب وجهه. كانت أوّل مرّة يشعر فيها بلذّة البرد. كانت شورابي لا تجرؤ على الترنّح تحت وطأة الثلوج، ولم يعد حقل القَصَب كمنظّمة الأمم، بات مهلهلاً ومضطرباً، وكأنه غاص في منحدر ذي حاشية مائلة. هنالك جلس، وقال بصوت عال: "هذه هي منظّمة الأمم، لكنْ، لا وجود لمحاكمة". أراد أن يرفع عَلَماً، لكن يده لم تُسعفه. أراد أن يأكل العَلَمَ. قلتُ: "كُلِ الخبزَ عوض الشاي".

نفدت طاقته، ولم يعد بمقدوره حتّى تحريك يده. خمد مثل الأعلام. نظر إلى ما حوله، كل شيء كان غارقاً في تلافيف الموت بينما الثلج يواصل تحدّيه. رأى نفسه سادراً في سكون الموت بينما يواصل الثلج تحدّيه، ورأى الأعلام منغمسة في صمت الموت بينما يتابع الثلج تحدّيها. بعد ذلك، رأى الأمّ وقد انسابت من السماء، تجرّ بيَدَيْها أورهان من سبّابَتَيْه.

قال: "كلاّ، أمّي، كلاّ".

لم تكن الأمّ تنبس بكلمة، بل تضحك فحسب، تضحك بحنان.

قال: "كلاّ، أمّي. أهذا هو العَدْلُ؟ أمّي!".

كانت الأمّ تجرّ سبّابَتَيْه بشدّة. قد يسقط أرضاً. لا أرى أمام رجلي.

قال: "كم أصبحتِ الحياة عسيرة!".

كانت السنونوات تتحرّك سِرْبَاً سِرْبَاً على شاكلة قوس، ثمّ تنتشر، تتفاعل معاً، ثمّ تصير نقطة سوداء، ثمّ تذهب وتذهب وتطير عالياً وعالياً. كم كانت السماء صفراء! وكم كانت المداخن تنفث الدخان! مكان الغربان كان على أغصان الصنوبر. وصباحاً لمّا كانت تنعق "ثلج ثلج" كان يستيقظ من النوم. كان غرابان يقعدان على خشبة هوائيّ الراديو. هناك في المقابل بالضبط، فوق بيت فروزان وبيت ذلك الجار، كان أحدهما يأتي أسرع من الآخر، ويشرع في نَقْر أسفل الهوائيّ بمنقاره. وحين يَقدم الغراب الآخر، يَعتلي الهوائيّ الصليبي الطويل، ويأخذ بالتموّج. في الأخير سقط. والغراب الآخر كان يذهب صوب الصنوبرة.

لم تكن الأمّ تكفّ، تجرّ بإحكام، وأورهان يظنّ أنه يصرخ. كان يغمر رجلَيْه في حافّة شورابي التي استحالت طيناً، يبحث عن مكان، يحشر فيه نفسه. فكان ينغمس أكثر فأكثر. انسابت الأمّ في السماء، والريح تلاعب فستانها الأرجواني.

والدي، هل سبق أن ركضتَ من الشتاء إلى الربيع؟ أنتُم متُّم. أنتُم. لكنْ، أنا ركضتُ من الشتاء إلى الربيع. وعيناي كانتا على الدوام مُسَمَّرَتَيْن في السماء والشمس.

صارت عيناه، الآن، كعين إنسان، شرب ماء بعد سنة ماحلة وجائعة.

كأنه ينظر إلى شورابي من قَعْر عشّ السنونوات في ساق الشجرة، من دون أن يعي بأنه كان حيّاً. كلاّ، كان ميتاً، ولم يكن يعلم ذلك. دسّ، مضطرّاً، يده في جيب معطفه، وأخرج الحبل. صاح: "آيدين، الميرزا آيدين!" لم يصدرْ منه أيّ صوت. قال: "لا تقتلْني".

قال: "لا تقتلْني".

قلتُ: "لا تخفْ، لن أقتلَكَ".

قال: "إذنْ، اسحبْني، لكنْ، لا تفعلْ بي هكذا. لديّ أمنيّات كثيرة".

قلتُ: "سوف تُحقِّق أمانيَّكَ".

قال: "أنتَ إنسان خبيث".

فجأة، تذكّر أنه دائن لتجّار المكسّرات في المدينة، ولديه الكثير من الديون عليهم، ولديه شيكات، وعليه أن يعود، ويستلم ديونه. يأكلون ويذهبون.

قلتُ: "أخاه، إنكَ تُدمّر حياتي، ماذا أصنع بكَ؟" ونمتُ مكروباً عشر ليال بتمامها، كنتُ أطلّ على القبو، فلا ألفيه هناك، لم يكن هناك قطّ.

لا شيء أشدّ كآبة من هذا. قُضي عليّ قبل أن أعثرَ على آيدين. هذا هو مصيري. لكني لم أكن وحدي مَنْ تجرّع هذا السّمّ، آيدا أيضاً قتلتْ نفسها، ربمّا بسبب الحزن على بُعْد آيدين، ماذا بالإمكان فعله مع أوهام النساء؟

كان آيدين يقول: "حين تصل درجة حرارة البَدَن إلى اثنتَيْن وأربعين، فالإنسان ميت لا محالة. إذنْ، عليكَ أن تقتنع بأن درجة حرارة الموتى اثنتان وأربعون".

قال: "لا، آيدين، لن أقتلَكَ، وأنتَ أيضاً، لا تقتلْني".

ثمّ انزلق في الماء برفق. كان ساخناً، ومع تموُّج الأمواج ينتشر في السماء بخار لطيف. كان الثلج ينزل بهدوء، ومن دون أن يحدث أدنى صوت. وكم كانت السماء جميلة!

قال: "دعني أَمُتْ بنفسي، أخي".

كان يرغب بالنوم، فنام، نام نوماً هادئاً. وبقي الحبل يطفو قرب رأسه، على سطح الماء، رطباً ومنتصباً، كلُّ مَنْ رآه يقول: "شَنَقَ رجلٌ نفسَهُ في الماء".

النهاية

طهران، ١٩٨٤-١٩٨٨م

فهرس الرواية

الحركة الأولى... ٧

الحركة الثانية.................................... ٨٥

الحركة الثالثة ٢٣٩

الحركة الرابعة ٢٩٣

الحركة الأولى (٢)............................... ٣٠٧

من الرواية:

كانت الأمّ قلقة، وبعد أن فاحت رائحة طعام محترق في المنزل، ضربت على ركبتَيْها: «يا لتعاستي!». هرولتْ إلى المطبخ، وتبعها الأب حاملاً بيده القنديل. وقف على عتبة الباب وقال: «هذه نتيجة أفعالنا. ماذا فعلنا نحن؟» لمحتُ يَدَيْه ترتعِشان والدمع قد غطّى كامل وجهه. استلمتْ منه القنديل. واندفع قائلاً: «نحن الآن نعيش في مكان وتحت أقدامنا بالضبط مخزن من الكُتُب الضّالّة المُضِلّة. لم يترك ولدنا كتابَ كُفْر إلا وخزّنه في هذا القبو. صار شاعراً أيضاً. لم يبقَ إلاّ أن يعزف على آلة، ويغدو عاشقاً مطرباً. لكني لن أسكت على هذا». شمّر عن ساعدَيْه، وقال وهو بتلك الحالة: «يجب أن نُصلّي صلاة الكسوف».

عدنا إلى الغرفة، وأدّينا صلاة الكسوف.

المتوسط

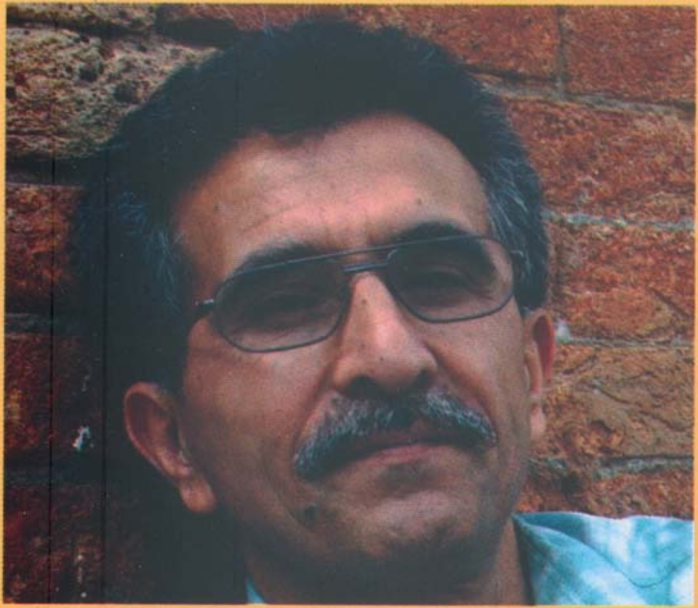

عباس معروفي: ولد سنة ١٩٥٧م. درس وتخرج من كلية الفنون الجميلة بطهران وتخصص في الفنون الدرامية. درّس الأدب في المدارس الثانوية بطهران لمدة ١١ سنة. وشرع في أنشطته الأدبية تحت إشراف الشاعر المعاصر هوشنج جلشيري. ويعمل في الوقت الراهن كاتباً وناشراً ويقيم في ألمانيا.

أول أثر نشره عباس معروفي مجموعته القصصية «مقابل الشمس» وكان ذلك سنة ١٩٨٠م. وبصدور رائعته «سيمفونية الموتى» سيخلّد اسمه ضمن الرواد. في العام ٢٠٠١ فاز بجائزة «مؤسسة المنشورات الفلسفية الأدبية سور كامب»، وفي العام ٢٠٠٢ حصل على جائزة «المؤسسة الأدبية آرنولد تسوايك».

منشورات المتوسط

يعتبر النقاد، هذه الرواية، واحدة من أفضل عشر روايات في تاريخ الرواية الإيرانية، بل صنفت على أنها النسخة الإيرانية لرواية «الصخب والعنف» لفوكنر. فسيمفونية الموتى هي التوثيق العميق لمعاناة المثقف الإيراني في مرحلة حساسة من تاريخ البلاد، تمتد من قبل الحرب العالمية الثانية الى الأعوام التي تلتها.

في الوقت الذي كان «آيدين» (شاعر شاب يصطدم بهيمنة الأب التقليدي الذي يحاول أن يفرض عليه نمط حياة متقاطع تماماً مع تطلعات الشاعر) يخطط فيه لاستثمار المال، الذي ادخره على مدار العامين الأخيرين، في السفر لطهران لاستكمال تحصيله الدراسي، يصدم بما قرأه في الصحيفة: خبر موت شقيقته «آيدا» متأثرة بالجروح البليغة التي أصابتها إثر انتحارها حرقا. بعد عام من الحادثة يموت الأب إثر نوبة قلبية، لكنه يوصي أن توزع جميع ثروته مناصفة بين آيدين وشقيقه أورهان، وهو ما سيجعل الصراع بين الشقيقين يبلغ ذروته، فمن أجل أن يستولي أورهان على الثروة يدس السم في طعام آيدين ويصيبه جراء ذلك بالجنون. ولكن هل حقاً أن لآيدين بنت اسمها إلميرا تبلغ من العمر خمس عشرة سنة؟. وهل بذلك يكون نسل أورخاني قد امتدّ إلى فتاة بعيدة وغريبة وشقراء تدعى إلميرا، في حين أن أورهان نفسه عقيم، لا يريد ولا يقبل بأن ينتقل ميراث الأب إلى فتاة لا يُعرف من أين جاءت.

ISBN 978-88-99687-77-9
9 788899 687779

المتوسط